

أخطاء ارتكبت

كارول تافريس

والیوت أرونسون

♦ المؤلف: كارول تافريس واليوت أرونسون

♦ العنوان: أخطاء ارتكبت (ولكن ليس بواسطتي)

♦ ترجمة: محمد منير مجاهد

♦ الطبعة: الأولى 2024

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢٤ / ٨٩٨١

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977-765 - 409 - 8

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

17 Mahmoud Basiony St, 6th floor, from Tallat Harb Sq, Cairo – Egypt

Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com

١٧ شارع محمود بسيوني - الدور السادس - متفرع من ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٩٨٠٣ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

f afaqcairo afaqcairo afaqcairoplsh

كارول تافريس وإليوت أرونسون

أخطاء ارتكبت

(لكن ليس بواسطتي)

لماذا نبرر المعتقدات الحمقاء
والقرارات السيئة والأفعال المؤذية؟

ترجمة

محمد منير مجاهد

آفاق للنشر والتوزيع

هذه ترجمة كتاب:

MISTAKES WERE MADE (But Not by Me):
Why We Justify Foolish Beliefs, Bad Decisions, and Hurtful Acts
By: Carol Tavris and Eliot Aronson

Copyright © 2022 by Bo Seo
Published by arrangement with The Ross Yoon Agency, through AFAQ For PUBLISHING
All Rights Reserved

جميع الحقوق محفوظة

© آفاق للنشر والتوزيع

All rights reserved

© Afaq Publishing House 2023

إلى ليون فيستنجر مؤسس نظرية التناظر المعرفي الذي
ألهمتنا إبداعاته هذا الكتاب.

المحتويات

٩	تمهيد للطبعات المنقحة
	مقدمة: الأشرار والحمقى والأوغاد والمنافقون:
١٥	كيف يعيشون مع أنفسهم؟
٢٩	١. التنافر المعرفي: محرك تبرير الذات
٧٧	٢. الغرور والإجحاف... وغيرهما من البقع العمياء
١٢٣	٣. الذاكرة، مؤرخ تبرير الذات
	٤. النيات الحسنة والعلم السيئ: الدائرة المغلقة
١٦٥	للحكم السريري
٢١٥	٥. القانون والفوضى
٢٦٧	٦. قاتل الحب: تبرير الذات في الزواج
٣٠٥	٧. الجروح والصدوع والحروب
٣٤٧	٨. إطلاق العنان والاعتراف بارتكاب أخطاء
٣٩٥	٩. التنافر والديمقراطية والديماغوجي
٤٥٩	شكر وتقدير
٤٦٣	الملاحظات

تمهيد للطبعات المنقحة

عندما نُشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في عام ٢٠٠٧، كانت البلاد قد أصبحت بالفعل مستقطبة بسبب الحرب في العراق، فعلى الرغم من أن الديمقراطيين والجمهوريين كانوا على الأرجح يدعمون في البداية قرار جورج دبليو بوش بالغزو، معتقدين أن صدام حسين كان يطور أسلحة دمار شامل، فسرعان ما أصبح من الواضح أنه لم يكن كذلك، فلم يُعثر على أي أسلحة دمار شامل، لقد اختفت أسلحة الدمار الشامل ولكن ليس الاستقطاب السياسي الذي رأيناه بأنفسنا في مراجعي كتابنا على أمازون.

كان عديد من المحافظين -ولا يزال بعضهم- منزعين بشدة من تصورهم أننا كنا نهاجم بوش بشكل غير عادل، فقد كان أحدهم متقلباً في مراجعته لكتابنا أخطاء ارتُكبت إذ وصفه بأنه «عظيم تقريباً»، ولكنه أعطاه ثلاث نجوم فقط وأضاف أن الكتاب كان سيكون رائعاً حقاً إذا لم نقصّ كثيراً من الوقت في محاولة فرض وجهات نظرنا السياسية على القارئ، وتجاهل الأخطاء والقرارات السيئة التي اتخذها الديموقراطيون، ونصح بأنه في أي طبعة مستقبلية يجب أن تُحذف جميع أمثلة «كذب بوش» حتى لا يبدو أنها تتكرر مرة كل أربع صفحات.

ثم وجدنا تعقيباً يرد بالبينة بعنوان «رائع حقاً!»، ويعطي الكتاب خمس نجوم، وأوضحته هذه المعقبة أن هذا الكتاب ليس عن السياسة وحدها، ولكنه عن جميع جوانب السلوك البشري، وأنها وجدته متوازناً للغاية، وأشارت إلى أنه ناقش أخطاء أعضاء الحزبين والتبريرات الذاتية وأوهامهم، فعلى سبيل المثال قُورنت عدم قدرة ليندون جونسون على الخروج من فيتنام مع تصميم بوش على أن «يواصل حتى النهاية» في العراق.

لأسباب ستوضح في أثناء قراءة هذا الكتاب، فقد استمتعنا بثنائية هاتين المراجعتين على موقع أمازون أكثر بكثير من الأولى، يا لها من قارئة ذكية وفطنة! لقد اعتقدنا أنه من الواضح أنها على دراية جيدة. في حين أن المراجع الأول كان مشوشاً تماماً، هل نحن متحيزون؟ لا تكن سخيلاً! لقد بذلنا جهداً جباراً كي نكون منصفين! وحينما يقول المراجع إنه يوجد مثال لكذب بوش في كل أربع صفحات من دون أن تكون لدينا كلمة سيئة عن الديمقراطيين، فإن هذا القارئ نعامي عن نقدنا لليندون جونسون الذي أطلقنا عليه «سيد التبرير الذاتي»، وكيف لم يلاحظ الجمهوريين الذين امتدحناهم؟ وكيف أساء فهم وجهة نظرنا الرئيسية، وهي أن جورج بوش لم يكن يكذب عمداً على الجمهور الأمريكي بشأن أسلحة الدمار الشامل المزعومة لصدام حسين، ولكنه فعل شيئاً يفعله كل القادة وبقيتنا وهو: الكذب على نفسه لتبرير قرار اتخذه بالفعل؟ وقلنا إلى جانب ذلك دفاعاً عن أنفسنا إن بوش كان رئيساً عندما بدأنا في كتابة هذا الكتاب، وكانت الحرب المكلفة تقسم

الأمة، وإن عواقبها ما زالت معنا اليوم في استمرار الحرب والفوضى في الشرق الأوسط، فما هو المثال الآخر الذي كان يمكن أن يكون بمثل هذه القوة أو الأهمية لقصة افتتاحية؟

الآن بعد الاستمتاع بتشنجنا في تبرير الذات ردًا على المراجع الأول، كان علينا أن نواجه السؤال المخيف: «انتظر لحظة، هل نحن على حق أم أننا فقط نبرر لأنفسنا؟ ماذا لو كان لديه وجهة نظر؟». كلانا كبشر لسنا محصنين ضد مزلق التفكير التي نصفها في كتابنا، ولا يمكن لأي إنسان أن يعيش من دون تحيزات ونحن لدينا تحيزاتنا، ولكننا كتبنا هذا الكتاب بهدف فهمها وإلقاء الضوء على عملياتها في جميع جوانب حياة الناس، بما في ذلك حياتنا.

في السنوات التي تلت الظهور الأول لهذا الكتاب، أرسل لنا القراء والمراجعون والجيران والأصدقاء تعليقات ودراسات وقصصًا شخصية، كما حثنا المتخصصون في مجالات مختلفة، مثل طب الأسنان والهندسة والتعليم والتغذية، على إضافة فصول عن تجاربهم مع الزملاء المتمردين الذين رفضوا الالتفات إلى البيانات، وصك الأصدقاء في إنجلترا وأستراليا مصطلح ارتكبت أخطاء غير نظامية لإعلامنا بمن كان يستخدم هذه العبارة الشهيرة في بلدانهم.

لقد أدركنا أن حجم المراجعة يمكن بسهولة أن يكون ضعف حجم النسخة الأصلية من دون أن تحتوي على ضعف المعلومات، وقد حدّثنا في الإصدار الثاني (٢٠١٥) البحث، وعرضنا أمثلة على محاولات المنظمات لتصحيح الأخطاء وإنهاء الممارسات الضارة (على سبيل

المثال: في الملاحظات الجنائية، وأساليب الاستجواب، وسياسات المستشفيات، وتضارب المصالح في العلوم)، ولكن بشكل مأساوي -وإن كان ليس مفاجئاً لأي شخص يقرأ هذا الكتاب- لم يكن هناك ما يكفي تقريباً من تلك التصحيحات المنهجية، وفي بعض المجالات أصبحت المعتقدات العميقة -ولكن غير الصحيحة مثل تلك التي يتبناها الأشخاص الذين يعارضون تطعيم أطفالهم- أكثر ترسخاً، وقد أجرينا تغييراً كبيراً في الفصل الثامن من خلال معالجة قضية تجنبناها عمداً في المرة الأولى، وهي: المشكلات التي تظهر للأشخاص الذين لا يستطيعون تبرير أخطائهم أو أفعالهم الضارة أو قراراتهم السيئة والذين -نتيجة لذلك- يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة والشعور بالذنب والندم وليالٍ بلا نوم لفترة طويلة جداً، وهناك قدّمنا أبحاثاً ورؤى قد تساعد الناس على إيجاد طريق بين تبرير الذات الطائش وجلد الذات بلا رحمة، وهو طريق يستحق الكفاح من أجل اكتشافه.

بعد فترة وجيزة من ظهور الطبعة الثانية، انتُخب دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة، مما أدى على الفور إلى تفاقم التوترات السياسية والعرقية والعنصرية والديموقراطية التي كانت تتزايد منذ عقود، وبالطبع كان الاستقطاب السياسي بين اليسار واليمين، والتقدمي والتقليدي، والحضري والريفي موجوداً عبر التاريخ ولا يزال موجوداً في جميع أنحاء الكوكب، حيث يرى كل جانب العالم من خلال عدسته المفضلة، إلا أن ظاهرة ترامب فريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي، لأن ترامب انتهك عمداً قواعد الحكومة وأعرافها وبروتوكولاتها

وإجراءاتها، وهي أفعال أشاد بها أنصاره وأدانها خصومه، وأيدها عديد من خصومه السابقين، وسواء كان ترامب في منصبه في أثناء قراءة هذا أم لا، فإن الأمريكيين سيواجهون لفترة طويلة البقايا الأخلاقية والعاطفية والسياسية لرئاسته.

يبدو وكأنه دهور منذ أن وصف المرشح الجمهوري، بوب دول، بيل كلينتون بأنه «خصمي وليس عدوي»، ولكنه في الواقع أدلى بهذه الملاحظة المتحضرة في عام ١٩٩٦، وكم يبدو الأمر غريباً الآن مقارنة بدونالد ترامب الذي يعتبر خصومه (أو الأشخاص الذين يختلفون معه ببساطة) جرداً غير مخلصين وأعداء خائنين! ولذلك فإننا ندرس عن كذب - في فصلنا الختامي الجديد - العملية التي عزز بها ترامب وإدارته وأنصاره هذا الرأي، مع عواقبها الوخيمة على ديمقراطيتنا، وقد كتبنا هذا الفصل على أمل أنه بمجرد أن نفهم التحول البطيء والخبيث في التفكير من الخصم إلى العدو، يمكننا أن نبدأ في العثور على طريق العودة.

كارول تافريس وإليوت أرونسون، ٢٠٢٠

مقدمة

الأشرار والحمقى والأوغاد والمناققون؛

كيف يعيشون مع أنفسهم؟

«من المحتمل جدًا أن بعض الأخطاء قد ارتكبت من

قبل الإدارات التي خدمت فيها».

- هنري كيسنجر، ردًا على اتهامات بارتكاب جرائم حرب في أثناء أدائه لدوره في تصرفات الولايات المتحدة في فيتنام وكمبوديا وأمريكا الجنوبية في سبعينيات القرن الماضي.

«إذا اكتشفنا -بعد فوات الأوان- أن أخطاء ربما تكون

قد ارتكبت... فأنا آسف بشدة».

- الكاردينال إدوارد إيجان من نيويورك (في إشارة إلى الأساقفة الذين فشلوا في التعامل مع المتحرشين بالأطفال بين رجال الدين الكاثوليك).

«نحن نعلم أن أخطاء قد ارتكبت».

- جامي ديمون، الرئيس التنفيذي لشركة جي بي مورجان تشيس (في إشارة إلى المكافآت الهائلة المدفوعة للمديرين التنفيذيين للشركة بعد أن أبعدتهم خطة الإنقاذ الحكومية عن الإفلاس).

«ارتكبت أخطاء في التواصل مع الجمهور والعملاء
حول المكونات الموجودة في البطاطس المقلية
والبطاطس المهروسة المقلية».

- مكدونالدز (اعتذارًا للنباتيين لعدم إخبارهم أن «النكهة الطبيعية» في البطاطس
تحتوي على منتجات لحوم بقر فرعية).

بصفتنا بشرًا غير معصومين من الخطأ فإننا نتشارك جميعًا في
التزُّوع لتبرير أنفسنا وتجنُّب تحمُّل المسؤولية عن الأفعال التي يتبين
أنها ضارة أو غير أخلاقية أو غبية، ولن يكون معظمنا أبدًا في وضع
يسمح له باتخاذ قرارات تؤثر على حياة وموت ملايين الأشخاص،
ولكن سواء كانت عواقب أخطائنا تافهة أو مأساوية، على نطاق صغير
أو على امتداد الوطن، فإن معظمنا يجد صعوبة، إن لم يكن استحالة،
في أن يقول: «كنت مخطئًا، ولقد ارتكبت خطأ فادحًا»، وكلما زادت
المخاطر - العاطفية أو المالية أو الأخلاقية - زادت الصعوبة.

الأمر يذهب أبعد من ذلك، فعندما يواجه معظم الناس دليلًا على
أنهم مخطئون بشكل مباشر، فإنهم لا يغيرون وجهة نظرهم أو خطة
عملهم، بل يبررونها بشكل أكثر إصرارًا، ويقدم السياسيون بالطبع أكثر
الأمثلة وضوحًا وأكثرها مأساوية لهذه الممارسة. لقد بدأنا كتابة الطبعة
الأولى من هذا الكتاب في أثناء رئاسة جورج دبليو بوش، وهو رجل
لا يمكن اختراق درعه العقلي للتبرير الذاتي حتى بأكثر الأدلة التي لا
يمكن دحضها، لقد كان بوش مخطئًا في ادعائه أن صدام حسين كان

يملك أسلحة دمار شامل، وكان مخطئاً في التصريح بأن صدام كان مرتبطاً بالقاعدة، وكان مخطئاً في تنبؤاته بأن العراقيين سيقصون فرحاً في الشوارع عند وصول الجنود الأمريكيين، وكان مخطئاً في تأكيد أن الصراع سينتهي بسرعة؛ لقد كان مخطئاً في استخفافه الجسيم بالتكاليف البشرية والمالية للحرب؛ وكان أشهر أخطائه في خطابه بعد ستة أسابيع من بدء الغزو عندما أعلن (تحت لافتة كتبت عليها المهمة أنجزت) أن «العمليات القتالية الرئيسية في العراق قد انتهت».

بدأ المعلقون من اليمين واليسار في دعوة بوش للاعتراف بأنه كان مخطئاً، ولكن بوش وجد فقط تبريرات جديدة للحرب، وهي: أنه كان يتخلص من «رجل سيئ جداً»، ويقاوم الإرهابيين، ويروج للسلام في الشرق الأوسط، ويجلب الديمقراطية في العراق مما يعظم الأمن الأمريكي، وينهي «المهمة التي ضحى جنودنا بأرواحهم من أجلها»، وفي انتخابات التجديد النصفي لعام ٢٠٠٦ التي اعتبرها معظم المراقبين السياسيين بمثابة استفتاء على الحرب خسر الحزب الجمهوري مجلسي النواب والشيوخ، وأعلن تقرير صدر بعد ذلك بوقت قصير عن ست عشرة وكالة مخابرات أمريكية أن احتلال العراق زاد في الواقع من التطرف الإسلامي وخطر الإرهاب، ومع ذلك فقد قال بوش لوفد من كتّاب الأعمدة المحافظين: «لم أكن مقتنعاً أكثر من أي وقت مضى بأن القرارات التي اتخذتها هي القرارات الصحيحة»^١.

لم يكن جورج بوش أول -ولن يكون آخر- سياسي يبرر قرارات تستند إلى أسس غير صحيحة، أو لها عواقب وخيمة، فلم يستجب

ليندون جونسون للمستشارين الذين أخبروه مرارًا وتكرارًا أن الحرب في فيتنام لا يمكن الفوز بها، وضحى برئاسته بسبب يقينه المبرر بأن كل آسيا «ستصبح شيوعية» إذا انسحبت أمريكا، وعندما تكون ظهور السياسيين إلى الحائط في وضع حرج ليس فيه خيارات، فإنهم قد يعترفون على مضض بالخطأ ولكنهم لا يعترفون بمسؤوليتهم عنه. إن عبارة «لقد ارتكبت أخطاء» هي محاولة صارخة لإعفاء المرء من الذنب إلى درجة أنها أصبحت نكتة وطنية، وهو ما وصفه الصحفي السياسي بيل شنايدر بصيغة «الماضي التبريئي»: «حسنًا، لقد ارتكبت أخطاء ولكن ليس من قبلي بل من قبل شخص آخر، سيبقى مجهول الاسم»^٢، وعندما قال هنري كيسنجر إن الإدارة التي خدم فيها ربما تكون قد ارتكبت أخطاء، كان يتجاهل الحقيقة أنه بصفته مستشارًا للأمن القومي ووزيرًا للخارجية (في وقت واحد)، كان هو -في الأساس- الإدارة، وتبرير الذات هذا سمح له بقبول جائزة نوبل للسلام بوجه يتسم بالجدية وضمير مرتاح.

نحن نراقب سلوك السياسيين بمتعة أو بذعر أو برعب، ولكن ما يفعلونه لا يختلف في النوع -وإن كان يختلف بالتأكيد في العواقب- عما فعله معظمنا في أوقات مختلفة من حياتنا الخاصة، فقد نستمر في علاقة غير سعيدة أو علاقة لا تذهب إلى أي مكان لأننا في نهاية الأمر استثمرنا كثيرًا من الوقت في إنجاحها، ونستمر في وظيفة مميتة لفترة طويلة لأننا نبحث عن جميع الأسباب لتبرير البقاء وغير قادرين على تقييم فوائد تركها بوضوح. نشترى سيارة معطلة لأنها تبدو رائعة

وننفق آلاًفاً من الدولارات للحفاظ على تشغيلها، ثم ننفق مزيداً لتبرير هذا الاستثمار، ونحن نخلق خلافاً مع صديق أو قريب بسبب بعض الإهانات الحقيقية أو المتخيلة، ولكننا نرى أنفسنا كساعين للسلام، فقط إذا كان الطرف الآخر يعتذر ويسترضي.

إن تبرير الذات ليس هو الكذب أو اختلاق الأعذار، فمن الواضح أن الناس سوف يكذبون أو يخترعون قصصاً خيالية لتفادي غضب الحبيب أو الوالد أو صاحب العمل؛ أو لتجنب المقاضاة أو السجن؛ أو لتجنب فقدان ماء الوجه، ولتجنب فقدان الوظيفة وللبقاء في السلطة، ولكن هناك فارقاً كبيراً بين رجل مذنّب يخبر الجمهور بشيء يعرف أنه غير صحيح («لم أمارس الجنس مع تلك المرأة»؛ «أنا لست محتالاً»)، وبين رجل يقنع نفسه بأنه فعل شيئاً جيداً، ففي الحالة الأولى كان يكذب ويعرف أنه يكذب لإنقاذ جلده، أما في الحالة الثانية فهو يكذب على نفسه، وهذا هو السبب في أن تبرير الذات أقوى وأخطر من الكذب الصريح، لأنه يسمح للناس بإقناع أنفسهم بأن ما فعلوه كان أفضل شيء يمكنهم فعله، وفي الواقع خَطَرٌ على بالي الآن أن هذا كان هو الشيء الصحيح، «لم يكن هناك شيء آخر كان بإمكانني فعله»، «في الواقع كان حلاً رائعاً للمشكلة»، «كنت أبذل قصارى جهدي من أجل الأمة»، «هؤلاء الأوغاد يستحقون ما حصلوا عليه»، «أنا مُستأهل».

التبرير الذاتي يقلل من شأن أخطائنا وقراراتنا السيئة؛ كما أنه يفسر لماذا يمكن للجميع - عدا المنافق - التعرف على المنافق في أثناء عمله، وهو يسمح لنا بالتمييز بين هفواتنا الأخلاقية وهفوات

شخص آخر، وطمس التناقض بين أفعالنا ومعتقداتنا الأخلاقية، وكما تقول شخصية في رواية «نقطة ضد نقطة» لألدوس هكسليز: «لا أعتقد أن هناك شيئاً اسمه منافق واعٍ»، إذ يبدو من غير المحتمل أن يكون رئيس مجلس النواب السابق والخبير الاستراتيجي الجمهوري نيوت جينجريتش قد قال لنفسه: «يا لي من منافق، فها أنا غاضب جداً بشأن علاقة بيل كلينتون الجنسية، بينما كنت أقيم علاقة خارج نطاق زواجي هنا في المدينة»، وبالمثل، بدا الإنجيلي البارز تيد هاجارد غافلاً عن نفاق الاستهجان العلني ضد المثلية الجنسية بينما كان يستمتع بعلاقته الجنسية مع مومس ذكر.

بنفس الطريقة يرسم كل منا خطوطه الأخلاقية الخاصة به ويبررها، وعلى سبيل المثال: هل سبق لك أن قمت ببعض التحايل على نفقات ضرائب الدخل؟ من المحتمل أن يعوض ذلك عن النفقات المشروعة التي نسيته، وإلى جانب ذلك فقد تكون أحق إذا لم تفعل، بالأخذ في الاعتبار أن كل شخص آخر يفعل ذلك، وهل فشلت في الإبلاغ عن بعض الدخل النقدي الإضافي؟ يحق لك، بالنظر إلى كل الأموال التي تهدرها الحكومة على مشاريع وبرامج إنفاق المحسوبة والاسترضاء التي تكرهها، هل كنت تكتب رسائل نصية وتكتب رسائل بريد إلكتروني شخصية وتتسوق عبر الإنترنت في مكتبك عندما كان من المفترض أن تكون مُنكبّاً على العمل؟ هذه امتيازات للوظيفة، بالإضافة إلى أنها أسلوبك الخاص في الاحتجاج على قواعد الشركة الغبية، بالإضافة إلى أن رئيسك في العمل لا يقدر كل العمل الإضافي الذي تقوم به.

كان جوردون مارينو -أستاذ الفلسفة والأخلاق- يقيم في فندق عندما انزلق قلمه من سترته وترك بقعة حبر على غطاء السرير الحريري، فقرر أنه سيخبر المدير ولكنه كان متعباً ولم يرغب في دفع ثمن التلفيات، وفي ذلك المساء خرج مع بعض الأصدقاء وطلب نصيحتهم. قال مارينو: «أخبرني أحدهم أن أتوقف عن التعصب الأخلاقي»، وقال: «تتوقع الإدارة مثل هذه الحوادث وتضمن تكلفتها في سعر الغرف». «لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناعي بأنه لم تكن هناك حاجة إلى إزعاج المدير، وقد استنتجت أنني إذا كنت سكبت هذا الحبر في فندق مبيت وإفطار مملوك لعائلة، فإنني كنت سأبلغ عن الحادث على الفور، ولكن هذا كان سلسلة فنادق، وهكذا مضت عملية الخداع، ولكنني تركت ملاحظة في مكتب الاستقبال عن بقعة الحبر عندما سجّلت المغادرة»^٣.

لكنك تقول إن كل هذه التبريرات صحيحة! إذ تشمل رسوم غرف الفندق تكاليف الإصلاحات التي يتسبب فيها النزلاء الخُرْق، وإن الحكومة تهدر المال! وربما لن تمنع شركتي إذا أمضيت بعض الوقت في إرسال الرسائل النصية وإنجاز عملي (في النهاية)! ولكن سواء كانت هذه الادعاءات صحيحة أو خاطئة فلا علاقة لها بالموضوع، لأننا عندما نتجاوز هذه الخطوط فإننا نبرر السلوك الذي نعلم أنه خاطئ تماماً، حتى نتمكن من الاستمرار في رؤية أنفسنا كأشخاص صادقين وليس مجرمين أو لصوفاً.

سواء كان السلوك الذي نحن بصدده شيئاً صغيراً مثل سكب الحبر على غطاء سرير الفندق أو شيئاً كبيراً مثل الاختلاس، فإن آلية تبرير

الذات هي نفسها، وبين الكذبة الواعية لخداع الآخرين والتبرير الذاتي اللاواعي لخداع أنفسنا توجد منطقة رمادية رائعة يحرسها مؤرخ غير موثوق به يخدم الذات وهو الذاكرة، وغالبًا ما يتم تقليص الذكريات وتشكيلها بتحيز يعزز الأنا ويطمس حواف الأحداث الماضية، ويخفف من الإحساس بالذنب، ويشوه ما حدث بالفعل، وعندما يسأل الباحثون الزوجات عن نسبة الأعمال المنزلية التي يقمن بها، فإنهن يقلن: «هل تمزح؟ أنا أفعل كل شيء تقريبًا، على الأقل ٩٠٪»، وعندما يسألون الأزواج نفس السؤال يقول الرجال: «أفعل كثيرًا، في الواقع نحو ٤٠٪»، وعلى الرغم من اختلاف الأرقام المحددة من زوجين إلى زوجين آخرين، فإن الإجمالي دائمًا ما يتجاوز ١٠٠٪ بهامش كبير، ومن المغري استنتاج أن أحد الزوجين يكذب إلا أنه من المرجح أن يتذكر كل منهما الأمر بطريقة تعزز مساهمته أو مساهمتها.

بمرور الوقت، يظهر مفعول تشوهات الذاكرة لخدمة الذات وننسى الأحداث الماضية أو نخطئ في تذكرها، وقد نصدق أكاذيبنا شيئًا فشيئًا، فنحن نعلم أننا ارتكبنا خطأ ما، ولكننا نبدأ بالتدريج في الاعتقاد بأنه لم يكن كله خطأنا، لأنه بعد كل شيء كان الوضع معقدًا، ونبدأ في الاستهانة بمسؤوليتنا الخاصة والتخلص منها حتى تصبح مجرد ظل لنفسها الضخمة السابقة، فقبل فترة طويلة أقتنعنا أنفسنا بأن نصدق بشكل خاص ما قلناه علنًا، وقد أوضح جون دين، مستشار البيت الأبيض لريتشارد نيكسون، وهو الرجل الذي كشف مؤامرة التستر على الأنشطة غير القانونية لفضيحة ووترجيت، وكيف تتم هذه العملية:

المحاور: هل تقصد أن أولئك الذين اختلقوا القصص كانوا يصدقون أكاذيبهم؟

دين: هذا صحيح، إذا كررتها بالقدر الكافي فسوف تصبح حقيقية، فعندما علمت الصحافة عن التنصت على الصحفيين وموظفي البيت الأبيض -على سبيل المثال- وفشل النفي القاطع، زُعم أن هذه مسألة تتعلق بالأمن القومي، وأنا متأكد من أن كثيرًا من الناس اعتقدوا أن التنصت كان للأمن القومي، إلا أنه لم يكن كذلك، فقد تم اختلاق ذلك كمبرر بعد الحقيقة، ولكن عندما قالوا ذلك فقد صدقوه حقًا^٥.

كان ليندون جونسون -مثل نيكسون- أستاذًا في تبرير الذات، ووفقًا لكاتب سيرته الذاتية روبرت كارو، عندما كان جونسون يؤمن بشيء ما فإنه كان يؤمن به «تمامًا وبقناعة مطلقة، بصرف النظر عن المعتقدات السابقة، أو الحقائق في هذا الأمر»، وقال جورج ريدي أحد مساعدي جونسون، إن ليندون جونسون «لديه قدرة رائعة على إقناع نفسه بأنه يحتفظ بالمبادئ التي يجب أن يتبناها في أي وقت، وكان هناك شيء ساحر في جو البراءة الجريئة الذي كان يعامل به أي شخص يقدم أدلة على أنه كان لديه آراء أخرى في الماضي. لم يكن تمثيلًا... ولكن كان لديه قدرة رائعة على إقناع نفسه بأن «الحقيقة» الملائمة للحاضر هي الحقيقة، وأن أي شيء يتعارض معها هو مراوغة الأعداء. لقد أراد حرفيًا أن يصبح ما كان في ذهنه هو الحقيقة»^٦، وعلى الرغم من أن أنصار جونسون وجدوا أن هذا جانب ساحر إلى حد ما في شخصيته، فقد يكون أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت جونسون لا يستطيع

إخراج البلاد من مستنقع فيتنام، فالرئيس الذي يبرر أفعاله للجمهور قد يتم حثه على تغييرها، أما الرئيس الذي يبرر أفعاله لنفسه مؤمناً أن لديه الحق، فهو محصّن ضد التصحيح الذاتي.

لدى قبائل الدينكا والنوير في السودان تقليد غريب، إذ يخلعون الأسنان الأمامية الدائمة لأطفالهم - ما يصل إلى ست أسنان سفلية واثنتين من الأسنان العلوية - وهو ما ينتج عنه ذقن غائر وشفة سفلية منهارة وعوائق في الكلام، ويبدو أن هذه الممارسة بدأت خلال فترة انتشر فيها التيتانوس (الكُزاز) الذي يتسبب في تماسك الفكين معاً، وبدأ القرويون بخلع أسنانهم وأسنان أطفالهم الأمامية للسماح بشرب السوائل من خلال الفجوة، ورغم انقضاء وقت طويل على وباء الكُزاز فلا تزال الدينكا والنوير يخلعون أسنان أطفالهم الأمامية^٧، فما سبب ذلك؟

في أربعينيات القرن التاسع عشر، كان أحد المستشفيات في فيينا يواجه مشكلة غامضة ومخيفة، فقد تسبب وباء حمى النفاس في وفاة قرابة ١٥٪ من النساء اللواتي ولدن أطفالاً في أحد عنابر الولادة بالمستشفى، ففي ذروة انتشار الوباء توفيت ثلث النساء اللواتي ولدن هناك؛ أي ثلاثة أضعاف معدل الوفيات في جناح الأمومة الآخر الذي كان يرباه القابلات، ثم خطرت فكرة لطبيبٍ مجريٍّ يُدعى إجناز سيميلويس لشرح سبب وفاة كثير من النساء في المستشفى بسبب حمى النفاس في هذا الجناح، وهي أن الأطباء وطلاب الطب الذين أجروا

عمليات الولادة هناك كانوا ينتقلون مباشرة من غرف التشريح إلى غرف الولادة، وعلى الرغم من عدم معرفة أحد بالجرائم في ذلك الوقت، فقد اعتقد سيميلويس أنهم ربما يحملون «سماً مرضياً» على أيديهم، ومن ثم فقد أصدر تعليماته لطلاب الطب بغسل أيديهم بمحلول الكلور المطهر قبل الذهاب إلى جناح الولادة، مما أدى لتوقف النساء عن الموت، وكانت هذه نتائج مذهلة ومنقذة للحياة، ومع ذلك رفض زملاؤه قبول الدليل: انخفاض معدل الوفيات بين مرضى سيميلويس^٨. فلماذا لم يتبنوا اكتشاف سيميلويس على الفور ولم يشكروه شكراً جزيلاً لتعرفه على سبب عديد من الوفيات غير الضرورية؟

بعد الحرب العالمية الثانية، نشر كل من فرديناند لوندبيرج ومارينا فارنهام الكتاب الأكثر مبيعاً «المرأة العصرية: الجنس المفقود»، حيث زعما أن المرأة التي حققت نجاحاً في «مجالات العمل الذكورية» قد تبدو ناجحة في «الدوري الوطني»، لكنها دفعت ثمناً باهظاً وهو «التضحية بمساعيها الغريزية الأساسية، وهي ليست -في الحقيقة الواقعية- مناسبة مزاجياً لهذا النوع من المنافسة القاسية والمتعشرة، مما يضر بها ولا سيما بمشاعرها الخاصة»، بل إنها تجعلها باردة العاطفة: «لأن عديداً من النساء بعد أن تحدين الرجال في كل مجال، ورفضن بعد الآن لعب دور خاضع نسبياً، فقد وجدن أن قدرتهن على الإشباع الجنسي تتضاءل»^٩، وفي العقد التالي حققت الدكتورة فارنهام، التي حصلت على دكتوراه في الطب من جامعة مينيسوتا وعملت بعد التخرج في كلية الطب بجامعة هارفارد، مهنة من إخبار النساء بعدم

الحصول على وظائف، ألم تكن قلقة من أن تصبح متجمدة وتضر بمساعيها الغريزية الأساسية؟

أُلقت الشرطة في مقاطعة كيرن بكاليفورنيا القبض على باتريك دن، وهو مدير مدرسة ثانوية متقاعد، للاشتباه في قتله لزوجته، واستجوب الضباط شخصين قداما معلومات متضاربة، وكان أحدهما امرأة ليس لديها سجل جنائي وليس لديها حافز شخصي للكذب بشأن المشتبه به، ولديها جداول زمنية، بالإضافة إلى رئيسها لدعم روايتها للأحداث؛ وقد دعمت قصتها براءة دن، وكان الشخص الآخر مجرمًا محترفًا يواجه السجن لمدة ست سنوات، ووافق على الشهادة ضد دن كجزء من صفقة مع المدعي الذي لم يقدم شيئًا يتجاوز كلمته لدعم إفادته؛ وقد أُوحت قصته بأن دن مذنب، وكان لدى المحققين خياران: الإيمان بالمرأة (وبالتالي براءة دن)، أو المجرم (وبالتالي إثم دن)، وقد اختاروا شهادة المجرم^{١٠}، فلماذا؟

من خلال فهم طرائق العمل الداخلية لتبرير الذات يمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة وفهم عشرات من الأشياء الأخرى التي يفعلها الناس والتي تبدو بخلاف ذلك غير مفهومة أو مجنونة، ويمكننا الإجابة عن السؤال الذي يطرحه كثير من الناس عندما ينظرون إلى الحكام المستبدين الذين لا يرحمون، أو الرؤساء التنفيذيين الجشعين للشركات، أو المتعصبين الدينيين الذين يقتلون باسم الله، أو الكهنة الذين يتحرشون بالأطفال، أو أفراد الأسرة الذين يغشون أقاربهم في الميراث: كيف يا ترى يمكنهم العيش مع أنفسهم؟ الجواب: بالضبط كما يفعل بقيتنا.

للتبرير الذاتي تكاليف وفوائد، وهو في حد ذاته ليس بالضرورة أمراً سيئاً، إذ يتيح لنا النوم في الليل، ومن دونه نطيل أمد آلام الإحراج الفظيعة، ونعذب أنفسنا بالأسف على الطريق الذي لم نسلكه أو لمدى سوء إبحارنا في الطريق الذي سلكناه، وسوف نتألم في أعقاب كل قرار تقريباً: هل فعلنا الشيء الصحيح؟ وتزوجنا الشخص المناسب؟ واشترينا المنزل المناسب؟ واخترنا أفضل سيارة؟ ودخلنا المهنة المناسبة؟ إلا أن تبرير الذات الطائش -مثل الرمال المتحركة- يمكن أن يجرنا إلى مزيد من الكوارث، فهو يمنع قدرتنا حتى على رؤية أخطائنا، ناهيك عن تصحيحها، كما أنه يشوه الواقع ويمنعنا من الحصول على جميع المعلومات التي نحتاج إليها ومن تقييم القضايا بوضوح، وهو يطيل ويوسع الخلافات بين العشاق والأصدقاء والأمم، ويمنعنا من التخلي عن العادات غير الصحية، ويسمح للمذنبين بتجنب تحمل المسؤولية عن أفعالهم، كما أنه يمنع عديداً من المهنيين من تغيير المواقف والإجراءات القديمة التي يمكن أن تضر الجمهور.

لا أحد منا يستطيع تجنب ارتكاب الأخطاء الفادحة، ولكن لدينا القدرة على أن نقول: «هذا لا يتكلل بالنجاح هنا، وهذا غير منطقي». إن البشر يخطئون ولكن عندها يكون للبشر الاختيار بين التستر والاعتراف، ويعد الاختيار الذي نتخذه أمراً حاسماً لما سنفعله بعد ذلك، ويُقال لنا دائماً إنه يجب أن نتعلم من أخطائنا، ولكن كيف يمكننا أن نتعلم ما لم نعرف أولاً أننا ارتكبنا هذه الأخطاء؟ للقيام بذلك، علينا أن نعرف على تنبيهات الإنذار بتبرير الذات، وفي الفصل التالي سنناقش التنافر

المعرفي، وهو الآلية النفسية الصلبة التي تخلق تبرير الذات وتحمي يقيننا واحترامنا لذاتنا وانتماءاتنا القبلية، وفي الفصول التالية سنشرح بالتفصيل أكثر العواقب ضرراً لتبرير الذات: وكيف يفاقم التحيز والفساد، ويشوه الذاكرة، ويحوّل الثقة المهنية إلى غطرسة، ويخلق الظلم ويُدِمْمه، ويشوّه الحب، ويولّد الخصومات والانقسامات.

الخبر السار هو أنه من خلال فهم كيفية عمل هذه الآلية، يمكننا التغلب على السلوك الفطري، ووفقاً لذلك سنعود في الفصل الثامن إلى الوراء ونرى الحلول التي تظهر للأفراد والعلاقات، وفي الفصل التاسع سنوسّع منظورنا للنظر في القضية السياسية الكبرى في عصرنا: التنافر الذي ينشأ عندما يعني الولاء للحزب دعم زعيم حزب خطير، والطريقة التي يحل بها المواطنون هذا التنافر - باختيار حزب فوق الأمة أو عن طريق اتخاذ قرار صعب ولكنه شجاع وأخلاقي لمقاومة هذا الطريق السهل - الذي له عواقب وخيمة على حياتهم وبلددهم، والفهم هو الخطوة الأولى نحو إيجاد الحلول التي من شأنها أن تؤدي إلى التغيير والخلاص، ولهذا كتبنا هذا الكتاب.

١. التنافر المعرفي: محرك تبرير الذات

تاريخ البيان الصحفي: ١ نوفمبر ١٩٩٣

لم نرتكب خطأ عندما كتبنا في طبعاتنا السابقة أن نيويورك ستُدمَّر في ٤ سبتمبر و١٤ أكتوبر ١٩٩٣. لم نرتكب خطأ ولا حتى خطأ صغيراً!

تاريخ البيان الصحفي: ٤ أبريل ١٩٩٤

جميع التواريخ التي قدمناها في إصداراتنا السابقة هي تواريخ صحيحة قدمها الله كما هو وارد في الكتاب المقدس. لم يكن أي من هذه التواريخ خاطئاً... أعطى حزقيال ما مجموعه ٤٣٠ يوماً لحصار المدينة... [الذي] يقودنا بالضبط إلى ٢ مايو ١٩٩٤، والآن تم تحذير جميع الناس سابقاً. لقد قمنا بعملنا...

نحن الوحيدون في العالم كله الذين نوجه الناس إلى سلامتهم وأمنهم وخلصهم!

لدينا سجل حافل بنسبة ١٠٠٪!

إنه لأمر أخاذ وفي بعض الأحيان مضحك أن تقرأ تنبؤات يوم القيامة، ولكن الأكثر سحرًا أن تشاهد ما يحدث للاستدلال العقلي للمؤمنين الحقيقيين عندما يفشل التنبؤ ويظل العالم مستمرًا. لاحظ أنك تكاد لا تجد أحدًا يقول: «لقد أفسدت الأمر! لا أستطيع أن أصدق كم كنت غيبًا لتصديق هذا الهراء»، بل على العكس، في معظم الأحيان يصبح المتشائمون أكثر اقتناعًا بقدراتهم على التنبؤ، فالأشخاص الذين يؤمنون بأن سفر الرؤيا في الكتاب المقدس أو كتابات نوستراداموس الذي نصَّب نفسه نبيًا في القرن السادس عشر قد تنبأوا بكل كارثة، من الطاعون الدبلي إلى اعتداءات ١١ سبتمبر، يتشبثون بقناعاتهم، ولا تزعجهم تلك المشكلة الصغيرة المتمثلة في أن هذه الأمور غامضة وضبابية، وأن التنبؤات أصبحت واضحة فقط بعد وقوع الأحداث.

منذ أكثر من نصف قرن، اخترق عالم نفس اجتماعي شاب يدعى ليون فيستنجر واثنان من زملائه مجموعة من الأشخاص الذين اعتقدوا أن العالم سينتهي في ٢١ ديسمبر ١٩٥٤، إلا أن النبوءة فشلت، وكانت قائدة المجموعة التي أطلق عليها الباحثون اسم ماريان كيتش، قد وعدت بأن يتم اصطحاب المؤمنين بواسطة صحن طائر ونقلهم إلى مكان آمن عند منتصف ليل ٢٠ ديسمبر، فترك عديد من أتباعها وظائفهم، وتخلوا عن منازلهم، وصرفوا مدخراتهم تحسبًا للنهاية، فمن يحتاج إلى المال في الفضاء الخارجي؟ وانتظر آخرون في خوف أو استسلام في منازلهم. (زوج السيدة ماريان كيتش - غير المؤمن - ذهب إلى الفراش مبكرًا ونام بهدوء طوال الليل بينما كانت زوجته وأتباعها يُصلُّون في غرفة المعيشة)،

وقد توقع فيستنجر أن المؤمنين الذين لم يلتزموا بشدة بالنبوءة -والذين كانوا ينتظرون نهاية العالم في منازلهم على أمل ألا يموتوا في منتصف الليل- سيفقدون بهدوء إيمانهم بالسيدة ماريان كيتش، وتوقع كذلك أن أولئك الذين تخلوا عن ممتلكاتهم وانتظروا مع مؤمنين آخرين سفينة الفضاء سيزداد إيمانهم بقدراتها الصوفية، وأنهم في الواقع سيفعلون الآن كل ما في وسعهم لإقناع الآخرين بالانضمام إليهم.

في منتصف الليل، ومع عدم وجود أي علامة على وجود مركبة فضائية في الفضاء، شعرت المجموعة ببعض التوتر، وبحلول الساعة ٢:٠٠ صباحًا أصبحوا قلقين للغاية، وفي الساعة ٤:٤٥ صباحًا أصبح لدى السيدة ماريان كيتش رؤية جديدة، وكما قالت، لقد نجا العالم بسبب الإيمان الرائع لفرقتها الصغيرة، وقالت لأتباعها: «إن الجبار هو كلام الله، وبكلامه خُلصتم لأنكم من فم الموت قد أنقذتم، فلم تكن هناك في أي وقت من الأوقات مثل هذه القوة المطلقة على الأرض، فمنذ بداية الزمن على هذه الأرض لم تكن هناك قوة من الخير والضوء مثل هذه القوة التي تغمر هذه الغرفة الآن».

تحول مزاج المجموعة من اليأس إلى النشوة، وبدأ عديد من أعضاء المجموعة الذين لم يشعروا بالحاجة إلى التبشير قبل ٢١ ديسمبر في استدعاء الصحافة للإبلاغ عن المعجزة، وسرعان ما خرجوا إلى الشوارع وهم يمسكون بتلابيب المارة ويدعونهم لتغيير دينهم، لقد فشلت نبوءات السيدة ماريان كيتش ولكن لم تفشل توقعات ليون فيستنجر.

إن المحرك الذي يقود التبرير الذاتي، والطاقة التي تُنتج الحاجة إلى تبرير أفعالنا وقراراتنا -خاصة تلك الخاطئة- هما الشعور غير السار الذي أطلق عليه فيستنجر «التنافر المعرفي»، وهو حالة توتر تحدث عندما يكون لدى الشخص نوعان من الإدراك (الأفكار والمواقف والمعتقدات والآراء) اللذان يتعارض أحدهما نفسيًا مع الآخر، مثل «التدخين شيء غبي لأنه قد يقتلني» و«أنا أدخن علبتين في اليوم»، ويُنتج التنافر انزعاجًا عقليًا يتراوح بين الآلام الطفيفة والكرب العميق، ولا يرتاح الناس بسهولة حتى يجدوا طريقة لتقليله، وفي هذا المثال، الطريقة الأكثر مباشرة بالنسبة إلى المدخن لتقليل التنافر هي الإقلاع عن التدخين، ولكن إذا هي حاولت الإقلاع وفشلت، فعليها الآن تقليل التنافر بإقناع نفسها بأن التدخين ليس ضارًا حقًا، وأن التدخين يستحق المخاطرة لأنه يساعدها على الاسترخاء أو يمنعها من اكتساب الوزن (ففي النهاية السمنة تمثل خطرًا على الصحة أيضًا)، وما إلى ذلك، وينجح معظم المدخنين في تقليل التنافر بعدد من هذه الطرائق البارة، وإن كانت خداعًا للذات^٣.

التنافر المعرفي أمر مقلق لأن التمسك بفكرتين تتناقض إحداهما مع الأخرى هو مغازلة للسخافة، وكما لاحظ ألبير كامو، فنحن مخلوقات نقضي حياتنا في محاولة إقناع أنفسنا بأن وجودنا ليس عبثيًا. تدور نظرية فيستنجر في جوهرها حول كيفية سعي الناس إلى فهم الأفكار المتناقضة وعيش حياة متسقة وذات مغزى، على الأقل في أذهانهم، وقد ألهمت النظرية أكثر من ثلاثة آلاف تجربة ومن خلال جمعها معًا

أمكن لعلماء النفس فهم كيفية عمل العقل البشري، لدرجة أن التنافر المعرفي هرب من الأوساط الأكاديمية ودخل إلى الثقافة الشعبية، وأصبح المصطلح في كل مكان، ولقد واجهناه نحن الاثنان في أعمدة سياسية، وقصص إخبارية صحية، ومقالات في المجلات، وكرتون غير متسلسل من تأليف وايلي ميلر («المواجهة عند جسر التنافر المعرفي»)، والملصقات، ومسلسل تلفزيوني اجتماعي، وبرنامج مسابقات، وعمود فكاهي في نيويورك (التنافر المعرفي الذي أرتاح له)، وعلى الرغم من أن التعبير قد تم طرحه كثيرًا، فإن قلة من الناس يفهمون تمامًا معناه أو يقدرون قوته التحفيزية الهائلة.

في عام ١٩٣٦ التحق أحدنا (إليوت) بجامعة ستانفورد كطالب دراسات عليا في علم النفس، وبدأ فيستنجر هناك في نفس العام كأستاذ جامعي، وعلى الفور بدأ في العمل معًا، وفي تصميم تجارب لاختبار وتوسيع نظرية التنافر المعرفي^٤، وقد تحدى تفكيرهما عديدًا من المفاهيم التي كانت مقدسة في علم النفس وبين عامة الناس، مثل وجهة نظر السلوكيين بأن الناس يفعلون الأشياء في المقام الأول من أجل المكافآت التي يحصلون عليها، ووجهة نظر الاقتصاديين بأنه -كقاعدة عامة- يتخذ البشر قرارات عقلانية، ووجهة نظر المحللين النفسيين بأن التصرف بقوة يتخلص من الدوافع العدوانية.

تأمل كيف تحدث نظرية التنافر المعرفي النظرية السلوكية، ففي ذلك الوقت كان معظم علماء النفس مقتنعين بأن أفعال الناس يحكمها الثواب والعقاب، فمن المؤكد أنه إذا أطعمت فأرًا في نهاية متاهة،

فإنه سوف يتعلم المتاهة أسرع مما لو لم تطعمه، وإذا أعطيت كلبك بسكويتاً عندما تعطيك مخلبها، فسوف تتعلم هذه الحيلة أسرع مما لو جلست على أمل أن تفعل ذلك بمفردها، وعلى العكس من ذلك، إذا عاقبت جروتك عندما تضبطها وهي تتبول على السجادة، فسوف تتوقف عن فعل ذلك بسرعة، وجادل علماء السلوك كذلك بأن أي شيء مرتبط بالمكافأة سيصبح أكثر جاذبية -ستحبك جروتك لأنك تمنحها البسكويت- وأي شيء مرتبط بالألم سيصبح ضاراً وغير مرغوب فيه.

تنطبق القوانين السلوكية على البشر أيضاً بالطبع، فلن يبقى أحد في وظيفة مملة من دون أجر، وإذا أعطيت طفلك الصغير كعكة صغيرة مُحلاة لمنعه من التعرض لنوبة غضب، فقد علمته أن يمر بنوبة غضب أخرى عندما يريد كعكة، ولكن، بصرف النظر عن النتيجة، فإن المنح البشري أكثر تعقيداً من منح الفأر أو الجرو، وقد يبدو الكلب نادماً لأنه ضُبط وهو يتبول على السجادة، ولكنه لن يحاول التفكير في مبررات لسوء سلوكه، أما البشر فيفكرون، ولأننا نفكر فإن نظرية التنافر توضح أن سلوكنا يتجاوز آثار المكافآت والعقوبات وغالباً ما يتعارض معها.

لاختبار هذه الملاحظة، توقع إليوت أنه إذا عانى الناس قدرًا كبيراً من الألم أو عدم الراحة أو الجهد أو الإحراج للحصول على شيء ما، فسوف يكونون أكثر سعادة بهذا «الشيء» مما لو جاء إليهم بسهولة، وكان هذا بالنسبة إلى السلوكيين تنبؤاً غير معقول، فلماذا يحب الناس أي شيء مرتبط بالألم؟ ولكن بالنسبة إلى إليوت كانت الإجابة واضحة: التبرير الذاتي، إن إدراك «أنني شخص عاقل وكفاء» يتعارض مع إدراك

«أنني قد مررت بإجراء مؤلم لتحقيق شيء ما» - مثل الانضمام إلى مجموعة - «اتضح أنه ممل وعديم القيمة»، ولذلك قد يشوه الشخص تصوراتها عن المجموعة في اتجاه إيجابي، محاولاً العثور على أشياء جيدة عنها وتجاهل الجانب السلبي.

قد يبدو أن أسهل طريقة لاختبار هذه الفرضية هي تقييم عدد من الأخويات (الجمعيات) في الكلية على أساس مدى شدة شعائر التكريس، ثم مقابلة الأعضاء وسؤالهم عن مدى إعجابهم بإخوانهم في الجمعية. إذا كان أعضاء أخويات شعائر التكريس الشديد يعجبون بإخوانهم أكثر من أعضاء أخويات شعائر التكريس المعتدلة، فهل يثبت هذا أن الشدة تنتج الإعجاب؟ لم يحدث ذلك، بل قد يكون العكس تمامًا، فإذا كان أعضاء الأخوية يعتبرون أنفسهم مجموعة مرغوبة للغاية ونخبة، فقد يحتاجون إلى شعائر تكريس صارمة لمنع انضمام سفلة الناس، لأنه فقط أولئك الذين ينجذبون بشدة إلى مجموعة شعائر التكريس الشديدة سيكونون على استعداد للمضي قدمًا في الشعائر للانضمام إليها، أما أولئك الذين ليسوا متحمسين لأخوية معينة ويريدون فقط أن يكونوا في واحدة - أي واحدة - فسيختارون الأخويات التي تتطلب شعائر تكريس لطيفة.

هذا هو السبب في أنه من الضروري إجراء تجربة محكمة، وجمال التجربة هو التخصيص العشوائي للناس للظروف المختلفة، وبصرف النظر عن درجة اهتمام الشخص بالانضمام إلى المجموعة فسيتم تعيين كل مشارك بشكل عشوائي، إما إلى شروط شعائر تكريس شديدة أو إلى

شعائر تكريس لطيفة، وإذا كان الأشخاص الذين مروا بوقت عصيب للانضمام إلى مجموعة، قد وجدوا لاحقاً أن هذه المجموعة أكثر جاذبية مما وجدته أولئك الذين انضموا إلى مجموعة من دون أي جهد، فسنعرف أن الجهد هو الذي تسبب في الإعجاب، وليس الاختلافات في المستويات الأولية للاهتمام.

وهكذا أجرى إليوت وزميله جودسون ميلز مثل هذه التجربة^٥، حيث دُعِيَ طلاب جامعة ستانفورد للانضمام إلى مجموعة تناقش سيكولوجية الجنس، ولكن للتأهل للقبول كان عليهم أولاً استيفاء شرط القبول، وتم تكليف بعض الطلاب عشوائياً بإجراء شعائر تكريس محرّجة للغاية، إذ كان عليهم أن يقرأوا بصوت عالٍ للمُختبر مقاطع جنسية صريحة من رواية «عشيق الليدي تشاترلي» (وهي رواية من تأليف الكاتب البريطاني ديفيد هربرت لورانس، ونُشرت لأول مرة في عام ١٩٢٨)، عن العلاقة الجسدية والعاطفية بين رجل من الطبقة العاملة وامرأة من الطبقة العليا، ووصفه الصريح للجنس، واستخدامه لكلمات لم يُسمح بطاعتها وقتها)، وروايات أخرى فاضحة، وبالنسبة إلى طلاب الخمسينيات التقليديين كان هذا أمراً محرّجاً بشكل مؤلم، تم تعيين الآخرين عشوائياً لإجراء شعائر تكريس محرّجة إلى حد ما، من خلال قراءة الكلمات الجنسية بصوت عالٍ من القاموس.

بعد شعائر التكريس استمع كل طالب إلى شريط تسجيل متطابق لمناقشة يُزعم أنها أُجريت بواسطة مجموعة الأشخاص الذين انضموا للتو، ولكن في الواقع، كان الشريط الصوتي قد أُعد سابقاً بحيث كانت

المناقشة مملة وعديمة القيمة بقدر ما يمكن أن تكون، حيث تحدث المشاركون بتردد -مع توقعات طويلة- عن الخصائص الجنسية الثانوية للطيور، مثل التغيرات في الريش في أثناء المغازلة، وهذا النوع من الأشياء. كان المتحدثون المسجلون يُهمِّمون بردود غير واضحة ويقاطع بعضهم بعضاً بشكل متكرر، ويتركون الجمل غير مكتملة.

في النهاية صَنَّف الطلاب المناقشة طبقاً لعدد من الأبعاد، فهؤلاء الذين خضعوا فقط لشعائر تكريس معتدلة رأوا المناقشة على ما كانت عليه؛ أي عديمة القيمة ومملة، وصنَّفوا أعضاء المجموعة بشكل صحيح على أنهم غير جذابين ومملين، وقد اعترف أحد الرجال على الشريط -وهو يتلثم ويتمتم- بأنه لم يقم بالقراءة المطلوبة عن ممارسات التودد لبعض الطيور النادرة، وقد انزعج منه المستمعون الذين خضعوا لشعائر تكريس معتدلة، وقالوا عنه: يا له من أحمق غير مسؤول! لم يقم حتى بالقراءة الأساسية! لقد خذل المجموعة! من يريد أن يكون في مجموعة معه؟ لكن أولئك الذين خضعوا لشعائر تكريس شديدة صَنَّفوا المناقشة على أنها مثيرة للاهتمام وللإعجاب، وأن أعضاء المجموعة جذابون وأذكاء، وغفروا للأحمق غير المسؤول، وقالوا إن صراحته كانت منعشة! من منا لا يريد أن يكون في مجموعة مع مثل هذا الرجل الصادق؟ كان من الصعب تصديق أنهم كانوا يستمعون إلى نفس التسجيل، وهكذا هي قوة التنافر.

كرر هذه التجربة عدة مرات علماء آخرون باستخدام مجموعة متنوعة من تقنيات شعائر التكريس، من الصدمة الكهربائية إلى المجهود

البدني المفرط^٦، وكانت النتائج هي نفسها دائماً: شعائر التكريس الشديدة تزيد من إعجاب العضو بالمجموعة. وجاء مثال مذهل على تبرير الجهد في الحياة الواقعية من دراسة قائمة على الملاحظة، أُجريت في دولة موريشيوس متعددة الثقافات^٧. يتضمن مهرجان تايوسام الهندوسي السنوي طقسين: طقساً منخفض المحنة يشمل الغناء والصلاة الجماعية، وطقساً شديد المحنة يُسمى كافادي؛ أي العبء، وهو نوع من تبسيط الأمور، لأن المشاركين يُثَقَّبون بالإبر والأسياخ، ويحملون حزمًا ثقيلة، ويشدون عربات جر متصلة بجلدتهم بخطافات لأكثر من أربع ساعات، ثم يتسلقون جبلاً وهم حفاة الأقدام للوصول إلى معبد موروجان، وبعد ذلك أعطى الباحثون للمشاركين في الطقس منخفض المحنة والمشاركين في الطقس شديد المحنة الفرصة للتبرع بالمال للمعبد من دون الكشف عن هويتهم، وقد أنتجت الطقوس شديدة المحنة تبرعات أعلى بكثير من الطقوس منخفضة المحنة؛ أي كلما زاد ألم الرجال زاد التزامهم بالمعبد.

هذه النتائج لا تعني أن الناس يستمتعون بالتجارب المؤلمة أو أنهم يستمتعون بالأشياء لأنها مرتبطة بالألم، ولكن ما تعنيه هو أنه إذا مر الشخص طوعاً بتجربة صعبة أو مؤلمة من أجل تحقيق هدف أو شيء ما، فإن هذا الهدف أو الشيء يصبح أكثر جاذبية، فإذا كنت في طريقك للانضمام إلى مجموعة مناقشة وسقط وعاء زهور من النافذة المفتوحة لمبنى سكني وضربك على رأسك، فلن يزداد إعجابك بمجموعة المناقشة هذه، ولكن إذا تطوعت لتلقي ضربة على رأسك بوعاء زهور

لتصبح عضوًا في المجموعة، فإنك بالتأكيد سترغب في المجموعة أكثر.

الاعتقاد هو الرؤية

سوف أنظر في أي دليل إضافي لتأكيد الرأي الذي توصلت إليه بالفعل.

لورد مولسون، سياسي بريطاني من القرن العشرين

فجّرت نظرية التنافر فكرة الإطراء الذاتي بأننا نحن البشر -كونا الإنسان العاقل - نعالج المعلومات بشكل منطقي، وعلى العكس تمامًا؛ إذا كانت المعلومات الجديدة متوافقة مع معتقداتنا فإننا نعتقد أنها مبنية على أساس صحيح ومفيدة، هذا «فقط ما قلته دائمًا!»، ولكن إذا كانت المعلومات الجديدة متنافرة، فإننا نعتبرها متحيزة أو حمقاء -«يا لها من حجة غبية!». إن الحاجة إلى الاتساق قوية جدًا لدرجة أنه عندما يضطر الناس إلى النظر إلى أدلة غير مؤكدة، فإنهم سيجدون طريقة لانتقادها أو تشويهها أو رفضها حتى يتمكنوا من الحفاظ على معتقداتهم الحالي أو حتى تقويته، ويسمى هذا الالتواء العقلي «التحيز التأكيدي»^٨.

بمجرد أن تدرك هذا التحيز ستراه في كل مكان بما في ذلك نفسك، تخيل أنك عازف كمان من الطراز العالمي، وأن أكثر ما تفتخر بامتلاكه هو آلة كمان ستراديفاريوس، البالغة من العمر ثلاثمائة عام والتي تبلغ تكلفتها ملايين الدولارات، يا لها من شيء من الجمال! الدفء العتيق

لأنغامها! ورنينها! وسهولة العزف عليها! والآن يحاول بعض الباحثين الحمقى إقناعك بأن آلات الكمان الحديثة التي يكلف بعضها ما لا يزيد على مائة ألف دولار أو نحو ذلك، هي في نواح كثيرة أفضل من كمان ستراديفاريوس المحبوب، إنه ادعاء غير معقول يجعلك تضحك بصوت عالٍ، إلا أن الباحث يقول: «انتظر، لقد أقمنا اختبارات معماة في غرف الفنادق مع ٢١ عازف كمان محترفاً وجعلناهم يرتدون نظارات واقية منعتهم من معرفة ما إذا كانوا يعزفون على آلة حديثة أو آلة ستراديفاريوس، واختار ١٣ منهم الكمان الجديد كمفضل لديهم، وكانت آلة ستراديفاريوس الأقل تفضيلاً من بين الآلات الست التي تم اختبارها»، فتقول أنت: «مستحيل! لقد كانت ظروف الاختبار غير واقعية - من يمكنه الحكم على صوت الكمان في غرفة الفندق؟». لذا ضبط الباحث وزملاؤه الدراسة (إذا جاز التعبير)، ففي هذه المرة يستخدمون ست آلات كمان إيطالية عمرها ثلاثمائة عام وست آلات معاصرة، ولديهم عشرة عازفين منفردين محترفين يقومون باختبار الآلات اختبار معمي لمدة خمس وسبعين دقيقة في غرفة البروفة، ثم لمدة خمس وسبعين دقيقة أخرى في قاعة الحفلات الموسيقية، وصنّف العازفون المنفردون آلات الكمان الحديثة بدرجة أعلى من حيث إمكانية العزف والترابط المنتظم والبرُّوز، ولم تكن تخميناتهم حول ما إذا كانوا يعزفون على آلة قديمة أو جديدة أكثر من صدفة^٩.

وجدت دراسة لاحقة أن المستمعين -أيضاً- يفضلون صوت الكمان الجديد على الصوتيات الأفضل المزعومة لآلة ستراديفاريوس^{١٠}،

وصُنِّفَت آلة ستراديفاريوس على أنها تبدو أفضل من الآلات الحديثة فقط عندما كان المستمعون يعرفون ما يسمعون، وقد قال الباحث الرئيسي: «إذا كنت تعلم أنها من آلة طراز ستراديفاريوس، فسوف تسمعها بشكل مختلف، ولا يمكنك إيقاف هذا التأثير».

هل ستقنع هذه الدراسات معظم عازفي الكمان المحترفين بأن آلات ستراديفاريوس قد تكون أقل شأنًا في بعض النواحي من بعض آلات الكمان الحديثة؟ من المحتمل أن يراجع عازفو الكمان المحترفون البحث؛ بحثًا عن العيوب، فقد قال مدير الحفلة الموسيقية في فرقة ميلووكي السيمفونية، والتي تبلغ قيمة آلة ستراديفاريوس الخاصة بها خمسة ملايين دولار: «إنها ليست الآلة فقط، ولكنها العازف أيضًا، فإذا كنت تشعر بالراحة مع آلة موسيقية، فهي تلقائيًا ميزة إضافية، والآلات الجديدة تستجيب بسهولة، وأنا لا أعرف أي عازف منفرد رائع لديه آلة ستراديفاريوس أو آلة من صنع جوارنيري يمكن أن يتاجر بها مقابل آلة جديدة»، ولا حتى لتحقيق ربح قدره ٩, ٤ مليون دولار!

التحيز التأكيدي صارخ بشكل خاص في مسائل المتابعة السياسية، إذ نرى فقط السمات الإيجابية من جانبنا والسمات السلبية لجانهم، وقد وصف لينى بروس -الفكاهي والمعلق الاجتماعي الأمريكي الأسطوري- هذه الآلية بوضوح وهو يشاهد مواجهة ١٩٦٠ الشهيرة بين ريتشارد نيكسون وجون كينيدي في أول مناظرة رئاسية متلفزة في البلاد:

سأكون مع مجموعة من مؤيدي كينيدي يشاهدون المناظرة

وسيكون تعليقهم «إنه يذبح نيكسون حقًا»، ثم نذهب جميعًا إلى شقة أخرى وسيقول مؤيدو نيكسون: «ما رأيك في الضرب المبرح الذي كاله كينيدي؟». وبعد ذلك أدركت أن كل مجموعة ستظل تحب مرشحها، إلا لو نظر إلى الكاميرا وصرخ قائلاً: «أنا لص ومحتال، هل تسمعي؟ أنا أسوأ اختيار يمكن أن تختاره للرئاسة!». وحتى ذلك الحين كان أتباعه يقولون: «الآن هناك رجل أمين يتقدم من أجلك، ويتطلب الأمر رجلًا كبيرًا للاعتراف بذلك، وهذا هو نوع الرجل الذي نحتاج إليه لمنصب الرئيس»^{١١}.

في عام ٢٠٠٣، بعد أن أصبح من الواضح تمامًا أنه لا توجد أسلحة دمار شامل في العراق، وقع التنافر بين الديمقراطيين والجمهوريين الذين فضّلوا خوض الحرب (قبل أن تبدأ): لقد صدّقنا الرئيس عندما أخبرنا بأن صدام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل، ونحن (وهو) كنا مخطئين. كيف تحل هذا الأمر؟ حل غالبية الجمهوريين الأمر برفضهم قبول الدليل، وقالوا لاستطلاع شبكات المعرفة إنهم يعتقدون أنه قد عُثر على الأسلحة، وقال مدير الاستطلاع الحائر: «بالنسبة إلى بعض الأمريكيين فإن رغبتهم في دعم الحرب قد تدفعهم إلى حجب المعلومات التي تفيد بعدم العثور على أسلحة دمار شامل، ونظرًا للتغطية الإخبارية المكثفة والمستويات العالية من الاهتمام العام بالموضوع، فإن هذا المستوى من المعلومات المضللة يشير إلى أن بعض الأمريكيين قد يتجنبون تجربة التنافر المعرفي»^{١٢}، وهذا مؤكد، ففي الواقع -حتى يومنا هذا- نتلقى أحيانًا استفسارًا من قارئ يحاول إقناعنا بأنه عُثر على أسلحة الدمار الشامل، ونرد عليه بأن كبار

المسؤولين في إدارة بوش -بمن فيهم دونالد رامسفيلد، وكوندوليزا رايس، وكولين باول- قد أقرّوا جميعاً بأنه لا توجد أسلحة دمار شامل سوى مخبأ للأسلحة الكيماوية المتحللة في الغالب، ولم يوجد ما يبرر الذهاب إلى الحرب، وقد كتب بوش نفسه في مذكراته لعام ٢٠١٠: «لم يشعر أحد بالصدمة والغضب أكثر مما كنت عليه عندما لم نجد الأسلحة، وكنت أشعر شعوراً مقزراً في كل مرة أفكر فيها، وما زلت أشعر بهذا»، وهذا «الشعور المقزز» هو تنافر معرفي.

كان الديمقراطيون الذين دَعَموا الرئيس بوش يقللون من التنافر المعرفي أيضاً، ولكن بطريقة مختلفة: وذلك من خلال نسيان أنهم كانوا في الأصل يؤيدون الحرب، فقبل الغزو أيد نحو ٤٦٪ من الديمقراطيّين الغزو، وبحلول عام ٢٠٠٦ تذكر ٢١٪ فقط أنهم فعلوا ذلك، وقبل الحرب بقليل قال ٧٢٪ من الديمقراطيّين إنهم يعتقدون أن العراق لديه أسلحة دمار شامل، ولكن فيما بعد، تذكر ٢٦٪ فقط أنهم صدّقوا ذلك، وللحفاظ على الاتساق كانوا يقولون: «في الواقع، كنت أعرف طوال الوقت أن بوش كان يكذب علينا»^{١٣}.

أوضح علماء الأعصاب أن هذه التحيزات في التفكير مدمجة في الطريقة التي يعالج بها المخ المعلومات، كل الأمخاخ بصرف النظر عن الانتماءات السياسية لأصحابها، وفي إحدى الدراسات تمت مراقبة الأشخاص عن طريق التصوير بالرنين المغناطيسي، في أثناء محاولتهم معالجة معلومات متنافرة أو غير منسجمة حول جورج بوش أو جون كيري، ووجد درو ويستن وزملاؤه من العلماء أن مناطق التفكير في

المخ تغلق فعلياً عندما يواجه المشاركون معلومات متنافرة، ويتم تنشيط دوائر العاطفة في المخ عند استعادة التوافق^{١٤}، وتوفر هذه الآليات أساساً عصبياً لملاحظة أنه بمجرد استقرارنا على رأي فقد يصبح تغييرها جهداً كبيراً.

في الواقع، فإنه حتى قراءة المعلومات التي تتعارض مع وجهة نظرك يمكن أن تجعلك أكثر اقتناعاً بأنك على صواب، ففي إحدى التجارب اختار الباحثون الأشخاص الذين يؤيدون عقوبة الإعدام أو يعارضونها، وطلبوا منهم قراءة مقالتين علميتين موثقتين جيداً حول القضية المشحونة عاطفياً حول ما إذا كانت عقوبة الإعدام تردع الجرائم العنيفة، وخلصت إحدى المقالات إلى أنها فعلت ذلك، بينما خلصت الأخرى إلى أنها لم تفعل ذلك، وإذا كان القراء يعالجون المعلومات بعقلانية فإنهم سيدركون أن القضية أكثر تعقيداً مما كانوا يعتقدون سابقاً، وبالتالي سوف يقترب بعضهم قليلاً من بعض في معتقداتهم حول عقوبة الإعدام كرادع، ولكن نظرية التنافر المعرفي تنبأ بأن القراء سيجدون طريقة لتشويه المقالتين، سيجدون أسباباً لاحتضان المقالة المؤكدة لرؤيتهم والترحيب بها كقطعة عمل عالية الكفاءة، وسيكونون بالغي الشدة في نقدهم للمقالة غير المؤكدة لرؤيتهم، من خلال إيجاد العيوب البسيطة وتضخيمها إلى أسباب رئيسية تبرر عدم تأثرهم بها، وهذا بالضبط ما حدث، فلم يقتصر الأمر على محاولة كل جانب تشويه حجج الطرف الآخر؛ وأصبح كل جانب أكثر التزاماً بوجهة نظره^{١٥}.

تشرح هذه النتيجة التي تتكرر استعادتها سبب صعوبة إقناع العلماء وخبراء الصحة الملتزمين أيديولوجيًا أو سياسيًا بمعتقد -مثل أن «تغير المناخ خدعة»- بتغيير رأيهم حتى عندما تملي عليهم أدلة دامغة ذلك، فالأشخاص الذين يتلقون معلومات غير مؤكدة أو غير مرحب بها في كثير من الأحيان لا يقاومونها ببساطة، بل إنها قد تدعم رأيهم الأصلي (الخاطئ) بقوة أكبر وهو تأثير عكسي، فبمجرد أن نستثمر في معتقد ما ونبرر حكمته، فإن تغيير أذهاننا يصبح حرفيًا عملاً شاقًا، لأن من الأسهل بكثير إدخال هذا الدليل الجديد في إطار عمل قائم والقيام بالتبرير الذهني للاحتفاظ به هناك بدلًا من تغيير إطار العمل كله^{١٦}.

بل إن التحيز التأكيدي يرى أن عدم وجود دليل هو دليل على ما نعتقد، فعندما فشل مكتب التحقيقات الفيدرالي والمحققون الآخرون في العثور على أي دليل على الإطلاق على أن الأمة قد اخترقتها طوائف شيطانية كانت تقتل الأطفال بشكل طقوسي، لم يكن المؤمنون بوجود هذه الطوائف منزعجين، بل قالوا إن عدم وجود أدلة كان تأكيدًا على مدى ذكاء وشر قادة الطائفة، لأنهم يأكلون هؤلاء الأطفال بالعظام وكل شيء^{١٧}.

لا يقع فريسة لهذا المنطق فقط أعضاء الطوائف الهامشيون وأنصار علم نفس الشعبي، فعندما اتخذ فرانكلين دي روزفلت القرار الرهيب باقتلاع آلاف الأمريكيين اليابانيين ووضعهم في معسكرات اعتقال طوال فترة الحرب العالمية الثانية، فقد فعل ذلك كله على أساس شائعات، بأن الأمريكيين اليابانيين كانوا يخططون لتخريب المجهود الحربي،

ولم يكن هناك دليل في ذلك الوقت أو لاحقاً يدعم هذه الشائعة، وفي الحقيقة اعترف قائد الساحل الغربي للجيش الأمريكي -الجنرال جون ديويت- بأن الجيش ليس لديه أي دليل على التخريب أو الخيانة ضد مواطن أمريكي ياباني واحد، إلا أنه أضاف: «إن حقيقة عدم حدوث أي تخريب هي مؤشر مزعج ومؤكّد على أن مثل هذا الإجراء سيتم اتخاذه»^{١٧}.

اختيار إنجريد، ومرسيدس نيك، وإليوت كانوي

جاءت نظرية التنافر لتشرح أكثر بكثير من الفكرة المعقولة بأن الناس غير منطقيين في معالجة المعلومات، كما أظهرت أيضاً سبب استمرار انحيازهم بعد اتخاذ قرارات مهمة^{١٨}. يطلب منا عالم النفس الاجتماعي دان جيلبرت، في كتابه المضيء «التعثر في السعادة»، التفكير فيما كان سيحدث في نهاية فيلم «الدار البيضاء» لو لم تنضم إنجريد بيرجمان إلى زوجها الذي يقاتل النازية، وبقيت بدلاً من ذلك مع همفري بوجارت في المغرب، هل كانت ستندم كما أخبرها بوجارت في خطاب مفجع «ربما ليس اليوم وربما ليس غداً ولكن سريعاً ولبقية حياتك»، أم أنها ندمت إلى الأبد على ترك بوجارت؟ جمعت جيلبرت ثروة من البيانات التي تظهر أن الإجابة عن كلا السؤالين هي: لا، وأن أيّاً من القرارين كان سيجعلها سعيدة على المدى الطويل، فقد كان بوجارت بليغاً ولكنه مخطئ، وتوضح لنا نظرية التنافر المعرفي السبب: لقد وجدت إنجريد أسباباً لتبرير أي من الخيارين، بالإضافة إلى أسباب تجعلها سعيدة لأنها لم تتخذ القرار الآخر.

بمجرد أن نتخذ قرارًا يكون لدينا جميع الأدوات تحت تصرفنا لدعمه، فعندما باع صديقنا المقتصد نيك سيارته الهوندا سيفيك، البالغة من العمر ثماني سنوات، بدافع مفاجئ واشترى سيارة مرسيدس جديدة مزودة بكل الكماليات، بدأ يتصرف بشكل غريب (بالنسبة إلى نيك)، إذ بدأ ينتقد سيارات أصدقائه قائلًا أشياء، مثل: «ألم يحن الوقت كي تباع هذا الحطام؟ ألا تعتقد أنك تستحق متعة قيادة سيارة جيدة التصميم؟»، و«كما تعلم، من غير الآمن حقًا قيادة السيارات الصغيرة، لأنك إذا تعرضت لحادث فقد تموت، ألا تساوي حياتك بضعة آلاف من الدولارات الإضافية؟ ليس لديك أي فكرة عن مدى راحة البال التي تجعلني أعرف أن عائلتي آمنة لأنني أقود سيارة صلبة».

من المحتمل أن نيك تعرض لمشكلة حَلَل في الأمان وقرر -ببرود وعقلانية- أنه سيكون من الرائع أن يقود جميع أصدقائه سيارة رائعة مثل مرسيدس، ولكننا لا نعتقد ذلك، فقد كان سلوكه غير معهود إلى حد أننا كنا نشك في أنه كان يقلل من التنافر المعرفي الذي شعر به بشأن إنفاقه المتهور لجزء كبير من مدخراته على ما كان سيشير إليه ذات مرة على أنه «مجرد سيارة»، بالإضافة إلى ذلك، فقد فعل هذا فقط عندما كان أطفاله على وشك الذهاب إلى الكلية، وهو حدث من شأنه أن يضع ضغطًا على حسابه المصرفي، ومن ثم بدأ نيك في حشد الحجاج لتبرير قراره: «المرسيدس سيارة رائعة، ولقد عملت بجد طوال حياتي وأنا أستحق ذلك؛ كما أنها آمنة جدًا». وإذا استطاع إقناع أصدقائه المُستَرخَص بشراء سيارة أيضًا، فسيشعر بأنه تبرير مضاعف، ومثل معتنقي آراء السيدة كيش بدأ في التبشير.

زادت حاجة نيك إلى تقليل التنافر المعرفي بسبب قراره غير القابل للإلغاء، فهو لا يستطيع إلغاء هذا القرار من دون أن يخسر كثيرًا من المال، وتأتي بعض الأدلة العلمية على قوة عدم القابلية للإلغاء من دراسة ذكية للمناورات العقلية للمقامرين في مضمار السباق، وهو مكان مثالي لدراسة عدم القابلية للإلغاء، لأنه بمجرد أن تضع رهانك لا يمكنك العودة وإخبار الرجل اللطيف خلف النافذة بأنك غيرت رأيك، وفي هذه الدراسة استوقف الباحثون ببساطة الأشخاص الذين كانوا يقفون في طابور لوضع رهانات بقيمة دولارين، وغيرهم ممن غادروا النافذة للتو، وسألهم الباحثون عن مدى تأكدهم من فوز خيولهم، وكان المراهنون الذين وضعوا رهاناتهم أكثر يقينًا بشأن اختيارهم من الأشخاص المنتظرين في الطابور^{١٩}، ومع ذلك لم يتغير شيء باستثناء نهائية وضع الرهان، إذ يصبح الناس أكثر ثقة بأنهم على حق بشأن شيء فعلوه للتو إذا لم يكن بإمكانهم التراجع عنه.

يمكنك أن ترى فائدة فورية واحدة لفهم كيفية عمل التنافر المعرفي: لا تستمع إلى نيك، فكلما كان القرار مكلفًا من حيث الوقت أو المال أو الجهد أو الإزعاج، وكلما كانت عواقبه غير قابلة للإلغاء، زاد التنافر المعرفي وزادت الحاجة إلى تقليله من خلال المبالغة في تأكيد الأشياء الجيدة بشأن الاختيار الذي تم اتخاذه. لذلك، عندما تكون على وشك إجراء عملية شراء كبيرة أو اتخاذ قرار مهم مثل أي سيارة أو كمبيوتر تريد شراؤه، أو الخضوع لجراحة تجميلية، أو ما إذا كنت ستشارك في برنامج مساعدة ذاتية مكلف، فلا تسأل شخصًا فعل ذلك للتو، إذ سيكون

هذا الشخص متحمسًا للغاية لإقناعك بأنه الشيء الصحيح الذي يجب القيام به، ولا تسأل الأشخاص الذين أمضوا اثني عشر عامًا وأنفقوا خمسين ألف دولار على علاج معين إذا كان ذلك مفيدًا، وسيقول معظمهم: «الدكتور ويلتشمرز رائع! ولولاه لم أكن لأحصل على [الحب الحقيقي] [على وظيفة جديدة] [دروس رقص النقر]»، لأنه بعد استثمار كل هذا الوقت والمال، فمن غير المرجح أن يقولوا: «نعم، لقد رأيت الدكتور ويلتشمرز لمدة اثني عشر عامًا وقد كان مضيعة للوقت». وأظهر الاقتصاديون السلوكيون مدى تردد الناس في قبول هذه التكاليف الهائلة كاستثمارات الوقت أو المال التي أغرقوها في تجربة أو علاقة، لأنه بدلًا من تخفيض خسائرهم، سيرمي معظم الناس أموالًا جيدة تلو الأخرى على أمل تعويض تلك الخسائر وتبرير قرارهم الأصلي، ومن ثم إذا كنت تريد نصيحة بشأن المنتج الذي تريد شراءه فاسأل شخصًا لا يزال يجمع المعلومات ولا يزال منفتح الذهن. وإذا كنت تريد معرفة ما إذا كان البرنامج سيساعدك، فلا تعتمد على الشهادات، ولكن احصل على البيانات من التجارب المتحكم فيها.

يكون تبرير الذات معقدًا بدرجة كافية عندما يتبع اختياراتنا الواعية ونعلم أننا يمكن أن نتوقعه، ولكنه يحدث أيضًا في أعقاب الأشياء التي نقوم بها لأسباب غير واعية، عندما لا يكون لدينا أدنى فكرة عن سبب اعتقادنا أو تشبثنا ببعض العادات، ولكننا فخورون جدًا بالاعتراف بها، وقد وصفنا في المقدمة تقليد قبائل الدينكا والنوير في السودان، الذين يخلعون عديدًا من الأسنان الأمامية الدائمة لأطفالهم، وهو إجراء مؤلم،

يتم إجراؤه باستخدام خطاف، ويلمح علماء الأنثروبولوجيا إلى أن هذا التقليد نشأ خلال وباء التيتانوس (الكُزاز)، لأن فقدان الأسنان الأمامية سيمنّك المرضى من الحصول على بعض التغذية، ولكن إذا كان هذا هو السبب، فلماذا يستمر القرويون بهذه العادة بعد زوال الخطر؟

إن الممارسة التي لا معنى لها على الإطلاق بالنسبة إلى الغرباء تكون منطقية تمامًا عند رؤيتها من خلال عدسة نظرية التنافر، ففي أثناء الوباء ربما يكون القرويون قد بدأوا في خلع الأسنان الأمامية لجميع أطفالهم، حتى إذا أصيب أي منهم لاحقًا بالتيتانوس سيتمكن البالغون من إطعامهم. لكن هذا أمر مؤلم للأطفال، وعلى أي حال، فقد يصاب بعضهم فقط، ولمزيد من تبرير أفعالهم لأنفسهم ولأطفالهم كان على القرويين تعزيز القرار من خلال إضافة فوائد إلى الإجراء بعد الفعل، وبالتالي فقد يقنعون أنفسهم بأن للأسنان المفقودة قيمة جمالية - «مثل أن مظهر الذقن الغارق جذاب حقًا» - وقد يحولون محنة الجراحة إلى طقوس للعبور إلى مرحلة البلوغ، وهذا ما حدث بالفعل، فالقرويون يقولون: «الوجه الخالي من الأسنان جميل»، أو «الناس المحفظون بكل أسنانهم قبيح، فهم يبدوون مثل أكلة لحوم البشر، ووجود مجموعة كاملة من الأسنان تجعل الإنسان يبدو كالحمار»، كما أن الوجه الخالي من الأسنان له مزايا جمالية أخرى: «نحن نحب صوت الهسهسة الذي يصدر عندما نتحدث»، والكبار يواسون الأطفال الخائفين بقولهم: «هذه الطقوس علامة على النضج»^{٢٠}، لقد ولّى التبرير الطبي الأصلي لهذه الممارسة منذ فترة طويلة، ولكن بقي تبرير الذات النفسي.

يود الناس تصديق أنهم، لكونهم أفرادًا أذكاء وعقلانيين، يعرفون سبب اتخاذهم للخيارات التي يقومون بها، ومن ثم فإنهم لا يكونون سعداء دائمًا عندما تخبرهم بالسبب الحقيقي لأفعالهم، وقد تعلم إليوت هذا مباشرة بعد تلك التجربة لشعائر التكريس، ويتذكر قائلاً: «بعد انتهاء كل مشارك شرحت الدراسة بالتفصيل وراجعت النظرية بعناية، وعلى الرغم من أن كلَّ مَنْ مرَّ بشعائر تكريس شديدة قال إنه وجد الفرضية مثيرة للاهتمام، وأنه يستطيع رؤية كيف سيتأثر معظم الناس بالطريقة التي توقعها، فقد بذلوا جميعاً جهداً ليؤكدوا لي أن تفضيلهم للمجموعة لا علاقة له بشدة شعائر التكريس، وادعى كل منهم أنه أحب المجموعة لأن هذه هي الطريقة التي شعروا بها حقاً، ومع ذلك، فقد أحبوا كلهم تقريباً المجموعة أكثر مما أحبها أي شخص مر بشعائر التكريس المعتدلة».

لا أحد محصن ضد الحاجة إلى تقليل التنافر، حتى أولئك الذين يعرفون النظرية حق المعرفة، ويروي إليوت هذه القصة: «عندما كنت أستاذاً شاباً في جامعة مينيسوتا سئمت أنا وزوجتي من استئجار الشقق. لذلك شرعنا في ديسمبر في شراء منزلنا الأول، وأمكنا أن نجد منزلين معقولين فقط في النطاق السعري لدينا، وكان أحدهما أقدم ولكنه ساحر وعلى مسافة قريبة من الحرم الجامعي، لذا فقد أحببته كثيراً لأنه يعني في المقام الأول أنه كان بإمكانني أن أستضيف طلابي به لحضور اجتماعات بحثية وتقديم البيرة، ولعب دور أستاذ عالي التأثير في طلابه، إلا هذا المنزل؛ كان في منطقة صناعية من دون مساحة كبيرة كي يلعب

فيها أطفالنا، وكان الخيار الآخر منزلاً في تجمع سكني يضم عديداً من المنازل المتشابهة، وهو أحدث ولكن من دون تمييز تماشياً، وكان في الضواحي على بُعد ثلاثين دقيقة بالسيارة من الحرم الجامعي ولكن على بُعد ميل واحد فقط من البحيرة، وبعد تفكير طويل لبضعة أسابيع اتخذنا قراراً بشأن المنزل في الضواحي.

بعد فترة وجيزة من انتقالي لاحظت إعلاناً في الصحيفة عن زورق مستعمل واشتريته على الفور كمفاجأة لزوجتي وأولادي، وعندما قُدت سيارتي إلى المنزل مع الزورق المربوط بسقفها في يوم متجمد قاتم من شهر يناير، ألقت زوجتي نظرة واحدة وانفجرت ضاحكة، فسألتها: «ما المضحك؟»، قالت: «اسأل ليون فيستنجر!». بالطبع! لقد شعرت بكثير من التنافر بشأن شراء المنزل في الضواحي لدرجة أنني كنت بحاجة إلى القيام بشيء ما على الفور لتبرير هذا الشراء، وقد تمكنت بطريقة ما من أن أنسى أنه كان منتصف الشتاء في مينيابوليس، وأنه سوف تمر شهور قبل أن تذوب البحيرة المتجمدة بما يكفي ليكون الزورق قابلاً للاستخدام، ولكن، إلى حد ما ومن دون أن أدرك ذلك تماماً، استخدمت هذا الزورق على أي حال طوال فصل الشتاء حتى في أثناء وجوده في المرأب، فمجرد وجوده أشعرني بتحسّن بشأن قرارنا».

دوامات العنف والفضيلة

هل تشعر بالتوتر؟ يعلمك أحد مصادر الإنترنت كيفية صنع دميتك الصغيرة لصب اللعنات، والتي «يمكن رميها وطعنها ودوسها وحتى خنقها حتى يذهب عنك كل الإحباط»، وتصاحبها قصيدة صغيرة:

عندما لا تسير الأمور على ما يرام،

وتريد أن تضرب الحائط وتصرخ،

ها هي دمية صغيرة لصب اللعنات لا يمكنك الاستغناء عنها.

فقط أمسكها بقوة من ساقها وابحث عن مكان لتضربه.

وعندما تضرب الحشو اصرخ: «اللعنة، اللعنة، اللعنة».

تعكس دمية صب اللعنات واحدة من أكثر القناعات الراسخة في ثقافتنا، والتي يعززها إيمان التحليل النفسي بفوائد التنفيس: التعبير عن الغضب أو التصرف بعدوانية يخلّصك من الغضب، ارمِ هذه الدمية، أو اضرب كيس الملاكمة، واصرخ على زوجتك وستشعر بتحسّن بعد ذلك، ولكن في الواقع وجدّت عقود من البحث التجريبي العكس تمامًا: فعندما ينفس الناس عن مشاعرهم بقوة، غالبًا ما يشعرون بسوء ويرفعون ضغط الدم لديهم ويزيدون غضبهم^{٢١}.

من المرجح أن يأتي التنفيس بنتائج عكسية بخاصة عندما يرتكب شخص ما فعلًا عدوانيًّا ضد شخص آخر مباشرة، وهذا بالضبط ما

توقعه نظرية التنافر المعرفي، فعندما تفعل أي شيء يضر بالآخرين - كأن تتسبب لهم في المشكلات، أو تسيء إليهم لفظيًا، أو تضربهم - هناك عامل جديد قوي يلعب دوره، وهو الحاجة إلى تبرير ما فعلته، خذ مثلاً صبيًا يتماشى مع مجموعة في الصف السابع من زملائه الذين يسخرون ويتنمرون على طفل أضعف لم يؤذهم، ويحب الصبي أن يكون جزءًا من العصابة، لكن قلبه حقًا ليس في البلطجة، ولاحقًا شعر ببعض التنافر بشأن ما فعله، وتساءل: «كيف يمكن لطفل محترم مثلي أن يفعل مثل هذا الشيء القاسي لطفل صغير لطيف وبريء مثله؟». ولتقليل التنافر سيحاول إقناع نفسه بأن الضحية ليس لطيفًا ولا بريئًا: «إنه طفل غريب الأطوار وبكّاء. وعلاوة على ذلك، كان سيفعل نفس الشيء معي إذا سنحت له الفرصة»، وبمجرد أن يبدأ الصبي في السير قدمًا على طريق إلقاء اللوم على الضحية، سيصبح أكثر عرضة لضرب الضحية بشراسة أكبر في الفرصة التالية التي يحصل عليها. إن تبرير أول فعل مؤذٍ له يمهد الطريق لمزيد من العدوانية، وهذا هو السبب في أن فرضية التنفيس خاطئة.

جاءت نتائج التجربة الأولى التي أظهرت هذا في الواقع بمثابة مفاجأة كاملة للباحث، فقد صمم «مايكل كان»، وهو طالب دراسات عليا في علم النفس الإكلينيكي في جامعة هارفارد، تجربة بارعة كان متأكدًا من أنها ستثبت فوائد التنفيس، وبتظاهره بأنه فني طبي أخذ «كان» قياسات جهاز كشف الكذب وضغط الدم من طلاب الجامعات واحدة تلو الأخرى، كجزء من تجربة طبية حسبما زُعم، وبينما كان

يأخذ هذه القياسات تظاهر بالانزعاج وقدّم بعض الملاحظات المُهينة للطلاب (تتعلق بأمهاتهم)، فغضب الطلاب وارتفع ضغط الدم لديهم، وفي الحالة التجريبية سُمح للطلاب بالتنفيس عن غضبهم من خلال إبلاغ مشرف «كان» بإهاناته؛ وبالتالي اعتقدوا أنهم كانوا يوقعونه في ورطة كبيرة، في حالات التحكم (للمقارنة) لم يحصل الطلاب على فرصة للتعبير عن غضبهم.

«كان» -وهو فرويدي جيد- اندهش جدًّا من النتائج: كان التنفيس فاشلاً تمامًا في جعل الناس يشعرون بتحسن، فالأشخاص الذين سُمح لهم بالتعبير عن غضبهم من «كان» شعروا بقدر أكبر بكثير من العداة تجاهه من أولئك الذين لم يتم منحهم هذه الفرصة، بالإضافة إلى ذلك، فإن رغم ارتفاع ضغط الدم لدى الجميع في أثناء التجربة، فقد أظهر الأشخاص الذين عبّروا عن غضبهم ارتفاعات أكبر، وسرعان ما عاد ضغط الدم لمن لم يُسمح لهم بالتعبير عن غضبهم إلى طبيعته^{٢٢}، وبحثًا عن تفسير لهذا النمط غير المتوقع، اكتشف «كان» نظرية التنافر، التي كانت تحظى بالاهتمام في ذلك الوقت، وأدرك أنها يمكن أن تفسر نتائجه بشكل جميل، فنظرًا لأن الطلاب اعتقدوا أنهم تسببوا في مشكلة خطيرة للفني فقد اضطروا إلى تبرير أفعالهم من خلال إقناع أنفسهم بأنه يستحق ذلك، وبالتالي زيادة غضبهم منه وزيادة ضغط الدم لديهم.

يتعلم الأطفال تبرير أفعالهم العدوانية في وقت مبكر، فنجد طفلًا يضرب أخته الأصغر التي تبدأ في البكاء، وعلى الفور يدّعي الصبي: «لكنها هي التي بدأت! كانت تستحق ذلك!»، ويجد معظم الآباء أن هذه

التبريرات الذاتية الطفولية ليست لها عواقب كبيرة، وعادة ما تكون كذلك، ولكن يستحسن أن نستفيق وندرك أن نفس هذه الآلية تكمن وراء سلوك العصابات التي تنمر على الأطفال الأضعف، وأرباب العمل الذين يسيئون معاملة العمال، والعشاق الذين يسيء بعضهم معاملة بعض، وضباط الشرطة الذين يواصلون ضرب المشتبه به بعد استسلامه، والطغاة الذين يسجنون ويقمعون الأقليات العرقية، والجنود الذين يتركبون الفظائع ضد المدنيين، ففي كل هذه الحالات تنشأ حلقة مفرغة: العدوان يولّد تبرير الذات الذي يولّد مزيداً من العدوان. فهم فيودور دوستوفسكي تماماً كيف تعمل هذه الآلية، ففي رواية «الإخوة كارامازوف»، يتذكر فيودور بافلوفيتش الأخ الوغد من الأب كيف سُئل مرة في الماضي: «لماذا تكره فلاناً؟»، «وقد أجابهم بصفاقة وقحة، سأخبركم، هو لم يؤذني، لكنني خدعته مرة خدعة قدرة، ومنذ ذلك الحين صرت أكرهه».

توضح لنا أيضاً نظرية التنافر -لحسن الحظ- كيف يمكن لأفعال الشخص الكريمة أن تخلق دوامة من الإحسان والرحمة أو «دائرة فاضلة»، فعندما يقوم الناس بعمل صالح -خاصة عندما يكون ذلك مجرد نزوة أو بالصدفة- ستصبح رؤيتهم للمستفيد من كرمهم أكثر دفئاً، لأن إدراكهم أنهم بذلوا قصارى جهدهم لتقديم خدمة لهذا الشخص يتعارض مع أي مشاعر سلبية قد تكون موجودة لديهم عنه، وفي الواقع -بعد تقديم الخدمة- يسألون أنفسهم: «لماذا أفعل شيئاً لطيفاً من أجل أحق؟ ومن ثم فهو ليس غيباً كبيراً كما كنت أعتقد، وفي الحقيقة هو رجل مهذب جداً ويستحق الراحة».

دعّمت عديد من التجارب هذا التوقع، وفي إحداها شارك طلاب الجامعات في مسابقة ربحوا فيها مبالغ كبيرة من المال، وبعد ذلك اقترب المجرب من ثلثهم وأوضح أنه كان يستخدم أمواله الخاصة للتجربة وأنها بدأت تنفذ، مما يعني أنه قد يضطر إلى وقف العمل في التجربة قبل الأوان، وسأل: «كخدمة خاصة لي هل تمانع في إعادة تحويل الأموال التي فزت بها؟» (وهو ما وافقوا عليه جميعاً)، وسُئلت أيضاً مجموعة ثانية لإعادة الأموال ولكن هذه المرة كان سكرتير القسم هو الذي طلب، موضحاً أن صندوق أبحاث قسم علم النفس كاد ينفذ (وهو ما وافقوا عليه جميعاً أيضاً)، ولم يُطلب من المشاركين الباقين إعادة مكاسبهم على الإطلاق، وأخيراً ملأ الجميع استبياناً تضمن فرصة لتقييم المجرب، وكان المشاركون الذين تم إقناعهم بتقديم خدمة خاصة له يحبونه أكثر، فقد أقنعوا أنفسهم بأنه كان رقيقاً مستحقاً بشكل خاص، أما الآخرون فقد اعتقدوا أنه كان لطيفاً جداً ولكن ليس بدرجة الروعة التي يعتقدونها الأشخاص الذين قدموا له معروفاً شخصياً^{٢٣}.

تبدأ آلية الدائرة الفاضلة في وقت مبكر، ففي دراسة أُجريت على أطفال في الرابعة من العمر تم إعطاء الأطفال ملصقاً واحداً لكل منهم، ثم تم تقديمهم إلى دمية الجرو دوجي الذي كان «حزيناً اليوم»، وقيل لبعض الأطفال إنه يتعين عليهم إعطاء الملصق للجرو بينما كان للآخرين خيار التخلي عن الملصق أو الاحتفاظ به، وفي وقت لاحق أُعطي الأطفال ثلاثة ملصقات لكل منهم، وتم تقديمهم إلى دمية جرو حزيناً أخرى تُدعى إيلي وقيل لهم إن بإمكانهم مشاركة

ما يصل إلى ثلاثة ملصقات معها، وكانت النتيجة أن الأطفال الذين سُمح لهم باختيار أن يكونوا كرماء مع دوجي الجرو الحزين شاركوا مع إيلي أكثر من الأطفال الذين تم توجيههم للمشاركة، وبعبارة أخرى، بمجرد أن رأى الأطفال أنفسهم أطفالاً كرماء، استمروا في التصرف ككرماء^{٢٤}.

على الرغم من أن البحث العلمي حول الدائرة الفاضلة جديد نسبياً، فإن الفكرة العامة ربما تكون قد اكتُشفت في القرن الثامن عشر من قبل بنجامين فرانكلين، وهو طالب جاد في الطبيعة البشرية بالإضافة إلى العلوم والسياسة، وفي أثناء خدمته في المجلس التشريعي لولاية بنسلفانيا انزعج من معارضة وعداء زميله في البرلمان. لذلك شرع في كسبه، وكتب أنه لم يفعل ذلك من خلال «تقديم أي احترام ذليل له»؛ أي من خلال إساءة معروف للرجل الآخر، ولكنه طلب من الرجل إعارته كتاباً نادراً من مكتبته، وقال بنجامين فرانكلين: «إن الرجل أرسل الكتاب على الفور وأعدته في غضون أسبوع تقريباً مع ملاحظة أخرى معبرة بقوة عن اعترافي بالجميل، وعندما التقينا بعد ذلك في المجلس التشريعي، تحدث إليّ (وهو ما لم يفعله من قبل) بحفاوة كبيرة؛ وقد أبدى بعد ذلك استعداده لخدمتي في جميع المناسبات، حتى أصبحنا صديقين حميمين واستمرت صداقتنا حتى وفاته»، وهذا مثال آخر على حقيقة قول ماثور قديم كنت قد تعلمته، والذي يقول: «من فعل شيئاً لطيفاً معك مرة واحدة فسيكون أكثر استعداداً لفعل شيء لطيف آخر معك أكثر من شخص أجبرته على ذلك»^{٢٥}.

إن التنافر المعرفي أمر مزعج تحت أي ظرف، ولكنه يكون أكثر إيلاّمًا للناس عندما يتعرض عنصر مهم من مفهوميهم الذاتي للتهديد، عادةً عندما يفعلون شيئًا لا يتفق مع نظرتهم لأنفسهم^{٢٦}، فإذا اتهم أحد المشاهير الذين تُعجب بهم بأنه فعل شيئًا غير أخلاقي، فإنك ستشعر بآلام التنافر، وكلما أحببت هذا الشخص وأعجبت به زاد التنافر الذي ستشعر به (لاحقًا في هذا الكتاب سنناقش التنافر الهائل الذي شعر به عديد من المعجبين بمايكل جاكسون عند سماع أدلة دامغة على علاقاته الجنسية مع الأولاد الصغار)، لكن هذا لا شيء مقارنة بما ستشعر به إذا فعلت شيئًا غير أخلاقي، فإذا كنت تعتبر نفسك شخصًا ذا نزاهة عالية وفعلت شيئًا يضر بشخص آخر، فستشعر باندفاع مدمر من التنافر أكثر بكثير مما تشعر به عند سماعك عن تجاوزات نجم سينمائي مفضل، ففي نهاية الأمر يمكنك دائمًا التخلي عن ولائك لأحد المشاهير أو العثور على بطل آخر، ولكن إذا انتهكت قيمك الخاصة فسوف تشعر بقدر أكبر من التنافر لأنه في النهاية عليك أن تستمر في العيش مع نفسك.

في عرض لطيف لكيفية تفوق الحاجة إلى احترام الذات على فضيلة التواضع الواقعي، يعتقد الغالبية العظمى من الناس أنهم «أفضل من المتوسط» - قد نطلق على هذا تأثير بحيرة ووبيجون (تعبير يُطلق على ميل بشري طبيعي للمبالغة في تقدير قدرات المرء)، حيث يقولون إنهم أفضل من المتوسط في كل الصفات، فهم الأكثر ذكاءً، ولطفًا، وأخلاقية، والأكثر تسلية، والأكثر كفاءة، والأكثر تواضعًا، وحتى هم

السائقون الأفضل^{٢٧}، ولذلك فإن جهودهم للحد من التنافر مصممة للحفاظ على هذه الصور الذاتية الإيجابية^{٢٨}. تخيل التنافر المرير الذي شعر به أتباع السيدة كيتش الملتزمين عندما فشلت تنبؤات يوم القيامة، «أنا شخص ذكي» تتصادم مع «لقد فعلت شيئاً غيباً للغاية، لقد تخلّيت عن منزلي وممتلكاتي وتركت وظيفتي لأنني آمنت بامرأة مجنونة»، ولتقليل هذا التنافر يمكن لأتباعها إما تعديل رأيهم في ذكائهم أو تبرير الشيء الغبي الذي فعلوه للتو، وهذه ليست منافسة متكافئة، ولذلك يفوز التبرير بثلاثة أطوال، فقد أنقذ المؤمنون الحقيقيون بالسيدة كيتش احترامهم لذاتهم من خلال تقرير أنهم لم يفعلوا أي شيء غبي؛ في الواقع، والحقيقة أنهم كانوا أذكىاء حقاً بالانضمام إلى هذه المجموعة لأن إيمانهم أنقذ العالم من الدمار، وإذا كان الآخرون أذكىاء فإنهم سينضمون أيضاً.

لا أحد منا يفلت من هذه الورطة، فقد نشعر بالبهجة تجاه هؤلاء الأشخاص الحمقى الذين يؤمنون بشدة بتنبؤات يوم القيامة، ولكن كما يوضح عالم السياسة فيليب تيتلوك في كتابه «الحكم السياسي الخبير»، أن حتى المحترفين الذين يعملون في مجال التنبؤ الاقتصادي والسياسي عادة لا يكونون أكثر دقة منا، نحن الأشخاص غير المدربين، أو من السيدة كيتش فيما يخص هذا الأمر^{٢٩}.

وماذا يفعل هؤلاء الخبراء عندما يثبت بطلان تنبؤاتهم؟ في عام ٢٠١٠ وقّع ائتلاف من ٢٣ اقتصادياً بارزاً ومديري صناديق وأكاديميين وصحفيين خطاباً يعارض ممارسات الاحتياطي الفيدرالي لشراء

الديون طويلة الأجل كوسيلة لخفض أسعار الفائدة طويلة الأجل، وقد صرّح الخبراء أن هذه الممارسة تخاطر بـ«انخفاض العملة وزيادة التضخم»، وتفشل في خلق فرص عمل، وبالتالي يجب «إعادة النظر فيها وإيقافها»، وبعد أربع سنوات كان التضخم لا يزال منخفضاً (في الواقع أقل من هدف الاحتياطي الفيدرالي البالغ ٢٪)، وانخفضت البطالة بحدة، وتحسن نمو الوظائف، وارتفع سوق الأسهم، ومن ثم عاد الصحفيون إلى الموقعين على الخطاب وسألوا: هل غيرت رأيك؟ ومن بين الموقعين الثلاثة والعشرين لم يرد أربعة عشر، وقال التسعة الآخرون إن وجهات نظرهم لم تتغير، فهم قلقون بشأن التضخم الآن كما كانوا قلقين في أي وقت مضى، ومثل أنبياء يوم القيامة الفاشلين كانت لديهم تبريرات ذاتية ذكية لعدم الاعتراف بأنهم كانوا مخطئين ومخطئين للغاية، وقد قال أحدهم إن الأمة قد عانت من التضخم، إلا أنه لم يظهر بعد في أسعار المستهلكين، وادعى آخر -مستخدم ما اعترف لاحقاً بأنها إحصاءات مزيفة- أن البلاد كانت في خضم تضخم من رقمين، وقال ثالث إن «الأرقام الرسمية خاطئة»، وإن التضخم كان بالفعل أعلى بكثير مما ادعى مكتب إحصاءات العمل، وعديد منهم -تماشياً مع أصداء يوم القيامة- قالوا إن تنبؤاتهم كانت صحيحة ولكن التاريخ كان خاطئاً: «التضخم المرتفع سيأتي يوماً ما ونحن لم نقل متى»^{٣٠}.

يمكن للخبراء أن يبدوا مثيرين للإعجاب خاصةً عندما يدعمون ادعاءاتهم من خلال الاستشهاد بسنوات التدريب والخبرة في مجال ما،

ومع ذلك فقد أظهرت مئات الدراسات أنه مقارنةً بالتنبؤات المستندة إلى البيانات الأكتوارية، فإن التنبؤات المستندة إلى سنوات تدريب الخبير والخبرة الشخصية نادرًا ما تكون أفضل إلا مصادفة، ولكن عندما يكون الخبير مخطئًا فإن الجزء المركزي من هويته المهنية يتعرض للتهديد، ولذلك تتنبأ نظرية التنافر بأنه كلما زادت ثقة الخبراء بالنفس والشهرة قلَّ احتمال اعترافهم بالأخطاء، وهذا بالضبط ما وجده فيليب تيتلوك، إذ قلل الخبراء التنافر الناجم عن توقعاتهم الفاشلة من خلال تقديم تفسيرات عن سبب كونهم على حق «لو فقط» لم تتدخل تلك الكارثة غير المحتملة، أو لو كان توقيت الأحداث فقط مختلفًا، إلخ إلخ.

يعمل تقليل التنافر مثل الشعلة على الموقد، مما يحافظ على ثقتنا بأنفسنا في حالة جيشان، وهذا هو السبب في أننا عادة ما نكون غافلين عن التبريرات الذاتية والأكاذيب الصغيرة على أنفسنا التي تمنعنا حتى من الاعتراف بأننا ارتكبنا أخطاء أو قرارات حمقاء، ولكن نظرية التنافر تنطبق أيضًا على الأشخاص الذين يعانون من تدني احترام الذات؛ أي على الأشخاص الذين يعتبرون أنفسهم مخادعين أو محتالين أو غير أكفاء، وهم لا يتفاجأون عندما يؤكد سلوكهم صورتهم الذاتية السلبية، فعندما يقدمون تنبؤات خاطئة أو يمرون بشعائر تكريس قاسية للوصول إلى ما اتضح أنه مجموعات مملة، فإنهم فقط يقولون: «نعم، لقد أخفقت مرة أخرى؛ هذه هي حالي تمامًا»، فتاجر السيارات المستعملة الذي يعرف أنه غير أمين لا يشعر بالتنافر عندما يخفي سجل الإصلاح السيئ

للسيارة التي يحاول التخلص منها؛ والمرأة التي تعتقد أنها غير محبوبة لا تشعر بالتنافر عندما يرفضها الرجل؛ ولا يعاني الرجل المحتال من التنافر عندما يحتال على جدته ليسلبها مدخرات حياتها.

تحملنا قناعاتنا حول أنفسنا طوال اليوم، ونفسّر باستمرار الأشياء التي تحدث لنا من خلال مصفاة هذه المعتقدات الأساسية، وعندما يتم انتهاك هذه المعتقدات -حتى من خلال تجربة جيدة- فإنها تتسبب لنا في عدم الراحة، ويساعدنا تقدير قوة تبرير الذات على فهم سبب عدم شعور الأشخاص الذين يعانون من تدني احترام الذات، أو الذين يعتقدون ببساطة أنهم غير أكفاء في بعض المجالات، بسعادة غامرة عندما يفعلون شيئاً جيداً، بل على العكس من ذلك، فإنهم غالباً ما يشعرون بأنهم محتالون، وإذا قابلت المرأة التي تعتقد أنها غير محبوبة رجلاً رائعاً يبدأ في ملاحقتها بجدية، فسوف تشعر بالسرور للحظات، ولكن على الأرجح سوف تتكدر هذه المتعة بسبب دفقة من التنافر: «ما الذي يراه في؟». ومن غير المرجح أن يكون قرارها: «هذا رائع، لا بد أنني أكثر جاذبية مما كنت أعتقد»، وعلى الأرجح سيكون قرارها: «بمجرد أن يكتشف حقيقتي سيتخلص مني»، وسوف تدفع ثمنًا نفسيًا باهظًا لاستعادة هذا التوافق.

في الواقع، وجدت عديد من التجارب أن معظم الأشخاص الذين يعانون من تدني احترام الذات، أو التقدير المنخفض لقدراتهم، يشعرون بعدم الارتياح تجاه النجاحات المتناقضة ويصفونها بأنها عوارض أو شوارد في فرحهم^{٣١}، «انظر، إنك قد فزت للتو بجائزة بوليتزر في

الأدب! ألا يعني هذا أنك جيد؟»، «نعم، هذا لطيف ولكنه مجرد صدفة، ولن أتمكن أبدًا من كتابة كلمة أخرى، وسترى»، ومن ثم فإن تبرير الذات سيحمي التقدير العالي للذات لتجنب التنافر، لكنه سيحمي أيضًا تدني احترام الذات، إذا كان هذا هو التصور الافتراضي للذات.

هرم الاختيار

تخيل شابين متطابقين من حيث المواقف والقدرات والصحة النفسية، وهما صادقان بشكل معقول ولديهما نفس الموقف المعتدل تجاه الغش -على سبيل المثال- ويعتقدان أنه ليس بالأمر الجيد، ولكن هناك جرائم أسوأ منه في العالم، والآن كلاهما في خضم إجراء امتحان سيحدد ما إذا كانا سيدخلان المدرسة العليا أم لا، ويعجز كل منهما عن تذكر إجابة سؤال مقالي مهم، ويلوح الفشل ولكن عند هذه النقطة يحصل كل منهما على فرصة سهلة للغش عن طريق قراءة إجابات طالب آخر، يكافح الشابان الإغراء، وبعد فترة طويلة من الألم يخضع أحدهما ويقاوم الآخر، لقد كانت قراراتهما متباعدة قيد شعرة، وكان من الممكن أن يسير أيهما في الاتجاه الآخر بسهولة، ويكتسب كل منهما شيئاً مهماً ولكن بتكلفة، حيث يتخلى أحدهما عن النزاهة من أجل الحصول على درجة جيدة، ويتخلى الآخر عن درجة جيدة ليحتفظ بنزاهته.

السؤال المطروح الآن هو: كيف سيشعر هؤلاء حيال الغش بعد أسبوع؟ لقد كان لدى كل طالب متسع من الوقت لتبرير المسار الذي اتخذته، فالشخص الذي استسلم للإغراء سيقدر أن الغش ليس جريمة كبيرة، وسيقول لنفسه: «مهلاً، الجميع يغشون، إنه ليس بالأمر الجلل، ولقد كنت بحاجة حقاً إلى القيام بذلك من أجل مستقبلتي المهني»،

ولكن الشخص الذي قاوم الإغراء سيقدر أن الغش عمل غير أخلاقي أكثر بكثير مما كان يعتقد في السابق، وسيقول لنفسه: «في الحقيقة الأشخاص الذين يغشون أشخاص شائنون، ويجب طرد الغشاشين من المدرسة دائماً، وعلينا أن نجعل منهم عبرة».

بحلول الوقت الذي سينتهي فيه الطالبان من مستوياتهما المتزايدة من تبرير الذات يحدث شيئا، أولاً: إن أحدهما الآن على مسافة بعيدة جداً عن الآخر، وثانياً: إنهما قد استوعبا معتقداتهما وهما مقتنعان بأنهما كانا دائماً يشعران بهذه الطريقة ٣٢، ولكن بحلول الوقت الذي ينتهيان فيه من تبرير أفعالهما الفردية يكونان قد انزلقا إلى الأسفل، وأصبحا يقفان الآن في زوايا متقابلة في الأساس، فالشخص الذي لم يغش يعتبر الآخر غير أخلاقي تماماً، والشخص الذي غش يعتقد أن الآخر متشدد بشكل ميؤوس منه، وتوضّح هذه العملية كيف أن الأشخاص الذين تعرضوا لإغراء مؤلم -وحاربوا الإغراء- وكادوا يستسلمون له ولكنهم قاوموه في لحظات، يكرهون، بل ويحتقرون، أولئك الذين لم ينجحوا في نفس المسعى، فالأشخاص الذين كادوا يقررون العيش في بيوت زجاجة هم أول من يرشقون بالحجارة.

عندما وقعت فضيحة الغش في مدرسة ستايفسانت الثانوية عالية الأداء المليئة بالضغطات في مدينة نيويورك، قُبض على واحد وسبعين طالباً وهم يتبادلون إجابات الامتحان، وقد أعطى هؤلاء الطلاب لمراسل نيويورك تايمز مجموعة من التبريرات الذاتية التي سمحت لهم بأن يظلوا يرون أنفسهم طلاباً أذكياء ويتحلون بالنزاهة. قال أحدهم:

«وكأنني سأحافظ على نزاهتي وأفضل في هذا الاختبار، لا أحد يريد أن يفشل في الاختبار، ويمكنك الدراسة لمدة ساعتين والحصول على ٨٠، أو يمكنك المخاطرة والحصول على ٩٠»، لقد أعاد تعريف الغش بأنه «مخاطرة»، وبالنسبة إلى الآخرين كان الغش «شرًا لا بد منه»، وبالنسبة إلى كثيرين كان «مساعدة زملاء الدراسة المحتاجين»، وعندما أدركت إحدى الفتيات أخيرًا أن زملاءها في الفصل كانوا يعتمدون عليها في كتابة أوراقهم، قالت: «أنا أحترمهم، وأعتقد أنهم يتمتعون بالنزاهة... [لكن] في بعض الأحيان، قد تكون الطريقة الوحيدة للإنجاز هي أن تفسد أخلاقياتك نوعًا ما من أجل بضعة أشياء»، تفسد أخلاقياتك نوعًا ما؟ إن التقليل من الانتهاكات الأخلاقية هو شكل شائع من أشكال التبرير الذاتي، وقد أطلقت هناء بشارة موقعًا إلكترونيًا يعرض الأفلام والبرامج التلفزيونية المقرصنة للتحميل المجاني الفوري - في انتهاك واضح لقوانين حقوق النشر - وقُبض عليها وأُرسلت إلى السجن لمدة ستة عشر شهرًا بتهمة التآمر وانتهاك حقوق الطبع والنشر الجنائي. لكن هل ارتكبت غلطة أم ارتكبت ذنبًا؟ لقد قالت لأحد المراسلين: لا، «لم أتخيل قط، لم أتخيل قط أن يعد عملاً إجراميًا، ولم يبدُ وكأنه شيء يمكن أن تشغل به بالك، حتى لو كان خطأ»^{٣٣}.

ينطبق مجاز الهرم على أهم القرارات التي تنطوي على اختيارات أخلاقية أو خيارات حياتية، فيمكنك أن تستبدل بقرار الغش في الامتحان قرار بدء علاقة غرامية عابرة (أو لا)، أو تناول المنشطات لتحسين قدرتك الرياضية (أو لا)، أو الاستمرار في زواج مضطرب (أو لا)، أو

الكذب لحماية صاحب العمل والوظيفة (أو لا)، أو إنجاب أطفال (أو لا)، أو ممارسة مهنة تتطلب كثيرًا (أو البقاء في المنزل مع الأطفال)، أو أن تقرر أن الادعاء المثير ضد أحد المشاهير الذين تعجب بهم خاطئ (أو صحيح). وحينما يكون الشخص الموجود في أعلى الهرم غير واثق وعندما تكون هناك فوائد وتكاليف لكلا الخيارين، فسيشعر -أو تشعر- بالحاح خاص لتبرير الاختيار الذي اتُّخذ، ولكن بحلول الوقت الذي يصبح فيه الشخص في أسفل الهرم، فسوف يتحول التناقض إلى يقين، وسيكون هو أو هي على بُعد أميال من أي شخص يسلك مسارًا مختلفًا.

هذه العملية تطمس الخط الذي يحب الناس أن يرسموه بين «نحن الأخيار» و«هؤلاء الأشرار»، وعندما نقف على قمة الهرم فإننا لا نواجه في كثير من الأحيان قرارًا باللونين الأسود أو الأبيض، أو الذهاب أو عدم الذهاب، ولكننا نواجه خيارات رمادية تكتنفها العواقب، والخطوات الأولى على طول المسار غامضة أخلاقيًا، والقرار الصحيح لا يكون واضحًا دائمًا، فنحن نتخذ قرارًا مبكرًا يبدو غير مهم، ثم نبرره لتقليل غموض الاختيار، ويبدأ هذا عملية الوقوع في شرك الفعل، والتبرير، ومزيد من الأفعال التي تزيد من شدتنا والتزامنا، وقد تنتهي بإبعادنا عن نياتنا أو مبادئنا الأصلية.

لقد نجح الأمر بالتأكيد بهذه الطريقة مع جيب ستيفارت ماجرودر -المساعد الخاص لريتشارد نيكسون- الذي كان لاعبًا رئيسيًا في مؤامرة السطو على مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية في مجمع ووترجيت، وأخفى تورط البيت الأبيض وكذب تحت القسم لحماية

نفسه والمسؤولين الآخرين، وعندما عُيِّن ماجرودر لأول مرة لم يذكر بوب هالدمان، مستشار نيكسون، أن الحنث باليمين والغش وخرق القانون كانوا جزءًا من الوصف الوظيفي، ولو فعل ذلك لكان من شبه المؤكد أن ماجرودر كان سيرفض، فكيف إذن انتهى به الأمر كلاعب مركزي في فضيحة ووترجيت؟ يكمن السر في الإدراك المتأخر، فمن السهل القول إنه كان ينبغي أن يعرف أو كان ينبغي أن يرسم الحدود في المرة الأولى التي طلبوا فيها القيام بشيء غير قانوني.

يصف ماجرودر في سيرته الذاتية لقاءه الأول مع بوب هالدمان في سان كليمتي، وكيف أن هالدمان أطرى عليه وسحره، فقد قال له هالدمان: «إنك هنا تعمل من أجل شيء أكثر من مجرد جني الأموال لشركتك، إنك تعمل على حل مشكلات البلد والعالم، أنا جلست يا جيب مع الرئيس في الليلة التي صعد فيها رواد الفضاء الأوائل إلى القمر... أنا جزء من التاريخ الجاري تشكيله»، وفي نهاية يوم من الاجتماعات غادر هالدمان وماجرودر المجمع متوجهين إلى منزل الرئيس، وكان هالدمان غاضبًا لأن عربة الجولف الخاصة به لم تكن هناك في انتظاره، فاحتد على مساعده بشدة، مهددًا بطرده إذا لم يتمكن من أداء وظيفته، ولم يستطع ماجرودر تصديق ما كان يسمعه، خاصة أنهما قضيا أمسية جميلة في منطقة تبعد مسافة قصيرة سيرًا على الأقدام من وجهتهما، وفي البداية اعتقد ماجرودر أن شتائم هالدمان كانت وقحة ومفرطة، ولكن سرعان، وبقدر ما أراد ماجرودر الوظيفة كان يبرر سلوك هالدمان: «في غضون ساعات قليلة في سان كليمتي، أدهشني

الكمال المطلق للحياة هناك... بعد أن تكون مدلاً هكذا لفترة من الوقت، يمكن أن يبدو شيء بسيط مثل عدم وجود عربة الجولف إهانة كبيرة»^{٣٤}.

وهكذا، قبل العشاء وحتى قبل أن تُعرض عليه الوظيفة، كان ماجرودر قد وقع في الفخ، لقد كانت خطوة أولى صغيرة ولكنها كانت على طريق ووترجيت، وبمجرد وصوله إلى البيت الأبيض وافق على جميع التنازلات الأخلاقية الصغيرة التي يبررها جميع السياسيين تقريباً بهدف خدمة حزبهم، وبعد ذلك عندما كان ماجرودر وآخرون يعملون على إعادة انتخاب نيكسون، دخل جي جوردون ليدي في الصورة، حيث وظّفه المدعي العام جون ميتشل ليكون المستشار العام لماجرودر. كان ليدي ورقة رابحة، يتمثل بعجيمس بوند، وكانت خطته الأولى لضمان إعادة انتخاب نيكسون هي إنفاق مليون دولار لتوظيف «فرق» للتعامل بعنف مع المتظاهرين، وخطف النشطاء الذين قد يعطلّون المؤتمر الجمهوري، وتخريب المؤتمر الديمقراطي، وتوظيف مومسات «من الدرجة العالية» لإغراء ثم ابتزاز الديمقراطيين، واقتحام مكاتب الديمقراطيين وتركيب أجهزة مراقبة إلكترونية وتنصت.

لم يوافق ميتشل على الجوانب الأكثر تطرفاً في هذه الخطة؛ وعلاوة على ذلك فقد قال إنها كانت باهظة التكلفة، لذا عاد ليدي بمقترح يقتصر على اقتحام مكاتب اللجنة الوطنية الديمقراطية في مجمع ووترجيت وتركيب أجهزة التنصت، وهذه المرة وافق ميتشل وسائره الآخرون، فكيف برروا خرق القانون؟ كتب ماجرودر: «إذا

كان [ليدي] قد أتى إلينا في البداية وقال: لديّ خطة للسطو على مكتب لاري أوبراينز والتنصت عليه، فربما كنا رفضنا الفكرة تمامًا، ولكنه بدلاً من ذلك، أتى إلينا بمخططة المفصل بشأن المومسات والاختطاف والسرقة والتخريب والتنصت، وبدأنا في تخفيفه مع شعورنا دائماً بأنه يجب علينا ترك جزء صغير من خطة ليدي، لأننا شعرنا أننا بحاجة إليه، وكنا مترددين في إبعاده خاوي الوفاض»، وأضاف ماجرودر أخيراً تمت الموافقة على خطة ليدي بسبب مناخ جنون العظمة في البيت الأبيض: «القرارات التي تبدو مجنونة الآن كانت تبدو عقلانية في ذلك الوقت... لقد تجاوزنا نقطة منتصف الطريق أو التكتيكات المهذبة»^{٣٥}.

عندما دخل ماجرودر البيت الأبيض لأول مرة كان رجلاً محترماً، ولكن باتخاذ خطوة صغيرة واحدة في كل مرة كان يتماشى مع الأفعال غير الصادقة مبرراً كل خطوة كما فعل، لقد وقع في الشَّرْك بنفس الطريقة التي وقع بها ثلاثة آلاف شخص شاركوا في التجربة الشهيرة التي ابتكرها عالم النفس الاجتماعي ستانلي ميلجرام^{٣٦}، وفي النسخة الأصلية لتجربة ميلجرام، أعطى ثلثا المشاركين ما اعتقدوا أنه مستويات تهدد الحياة من الصدمات الكهربائية لشخص آخر لمجرد أن المجرب ظل يقول: «تتطلب التجربة أن تستمر»، وتوصف هذه التجربة دائماً بأنها دراسة لطاعة السلطة، وهي حقاً كذلك، إلا أن الأمر أكثر من ذلك لأنها أيضاً دليل على النتائج طويلة المدى للتبرير الذاتي^{٣٧}.

تخيل أن رجلاً مهيباً ذا مظهر محترم يرتدي معطف المختبر الأبيض يسير إليك ويعرض عليك عشرين دولاراً للمشاركة في تجربة علمية،

ويقول: «أريدك أن تكبّد شخصًا آخر صدمة مؤلمة بشكل لا يُصدّق قدرها خمسمائة فولت لمساعدتنا على فهم دور العقوبة في التعلم»، من المحتمل أن ترفض، فالمال لا يستحق كل هذا العناء لإيذاء شخص آخر حتى بالنسبة إلى العلم، وقلة من الناس سيفعلون ذلك مقابل عشرين دولارًا، لكن معظمهم سيخبرون العالم أين يمكنه أن يضع نقوده.

لنفترض الآن أن العالم يُغريك بالتدريب، ولنفترض أنه عرض عليك عشرين دولارًا لإعطاء قدر ضئيل من الصدمة -على سبيل المثال عشرة فولتات- لزميل في الغرفة المجاورة لمعرفة ما إذا كانت هذه الصعقة ستحسن من قدرة الرجل على التعلم، ويجرب المجرب حتى عشرة فولتات عليك، وبالكاد، أن تشعر بها، ومن ثم توافق، فهو أمر غير ضار ويبدو أن الدراسة ممتعة للغاية، و(إلى جانب ذلك، فقد كنت ترغب دائمًا في معرفة ما إذا كان صفع أطفالك على الأرداف سيُحسّن سلوكهم)، والآن تتماشى مع الأمر في الوقت الحالي، ولكن المجرب يخبرك أن المتعلم إذا أخطأ في الإجابة، فيجب عليك الانتقال إلى مفتاح التبديل التالي الذي يعطي صدمة تبلغ عشرين فولتًا، ومرة أخرى، إنها هزة صغيرة وغير مؤذية، ونظرًا لأنك أعطيت المتعلم عشرة للتو فلا ترى أي سبب يمنعك من إعطائه عشرين. وبمجرد أن تعطيه عشرين تقول لنفسك: «الثلاثون ليس أكثر بكثير من العشرين، لذا سأذهب إلى الثلاثين»، وها هو يرتكب خطأ آخر، ويقول العالم: «الرجاء أعطه المستوى التالي؛ أربعين فولتًا».

أين ترسم الخط؟ متى تقرر أنه قد طَفَح الكيل؟ هل ستستمر في الانتقال إلى ٤٥٠ فولتًا أو حتى إلى ما بعد ذلك، إلى مفتاح وُضِعَتْ عليه

علامة خطر؟ عندما سُئل الأشخاص سابقًا عن المدى الذي يتخيلون أنهم سوف يصلون إليه، لم يقل أحد منهم تقريبًا إنهم سيذهبون إلى ٤٥٠ فولتًا، ولكنهم عندما كانوا في الموقف فعلاً، ذهب ثلثاهم إلى أقصى مستوى يعتقدون أنه خطير، وقد فعلوا ذلك من خلال تبرير كل خطوة في أثناء تقدمهم: «هذه الصدمة الصغيرة لا تؤذي؛ عشرون ليس أسوأ بكثير من عشرة، وإذا كنت قد أعطيت عشرين فلماذا ليس الثلاثين؟»، ومع كل مبرر فقد ألزموا أنفسهم أكثر، وبحلول الوقت الذي كان الناس يعطون فيه ما اعتقدوا أنه صدمات قوية، وجد معظمهم صعوبة في تبرير قرار بالتوقف، أما المشاركون الذين قاوموا في وقت مبكر من الدراسة، وشككوا في صحة الإجراء نفسه، فقد كانوا أقل عرضة للوقوع في الفخ وأرجح للانسحاب.

توضح لنا تجربة ميلجرام كيف يمكن أن ينتهي الأمر بالناس العاديين إلى القيام بأشياء غير أخلاقية وضارة من خلال سلسلة من ردود الفعل السلوكية والتبرير الذاتي اللاحق، وعندما ننظر إليهم - كمراقبين - في حيرة أو فزع، نفشل في إدراك أننا غالبًا ما ننظر إلى نهاية عملية طويلة وبطيئة أسفل هذا الهرم، وعند النطق بالحكم، قال ماجرودر للقاضي جون سيريك: «أنا أعرف ما فعلته وسعادتكم تعرف ما فعلت، في مكان ما بين طموحي ومثلي فقدت بوصلتي الأخلاقية»، فكيف تجعل رجالًا نزيهاً يفقد بوصلته الأخلاقية؟ عليك أن تجعله يأخذ خطوة واحدة في كل مرة، والتبرير الذاتي سوف يقوم بالباقي.

إن معرفة كيفية عمل التنافر لن تجعل أيًا منا محصنًا تلقائيًا من إغراء التبرير الذاتي، كما تعلم إليوت عندما اشترى ذلك الزورق في مينيسوتا في يناير، فلا يمكنك أن تقول للناس كما فعل هو بعد تجارب شعائر التكريس: «انظر كيف قللت التنافر، أليس هذا مثيرًا للاهتمام؟»، وتتوقع منهم الرد: «نعم، شكرًا لك لأنك أظهرت لي السبب الحقيقي لإعجابي بالمجموعة، فهذا بالتأكيد يجعلني أشعر بالذكاء!»، فللحفاظ على إيماننا بأننا أذكياء سنقوم جميعًا أحيانًا بأشياء غبية، ولا يمكننا أن نفعل شيئًا بشأنها، فنحن مجهزون بهذه الطريقة.

لكن هذا لا يعني أنه محكوم علينا أن نستمر في السعي لتبرير أفعالنا بعد حدوثها، ونصبح مثل سيزيف ولا نصل أبدًا إلى قمة تل قبول الذات. إن فهمًا أكثر ثراءً لكيف ولماذا تعمل عقولنا بالطريقة التي تعمل بها هو الخطوة الأولى نحو كسر عادة تبرير الذات، وهذا بدوره يتطلب منا أن نكون أكثر وعيًا بسلوكنا وأسباب اختياراتنا، ويتطلب هذا الأمر وقتًا وتفكيرًا ذاتيًا ورغبة.

في عام ٢٠٠٣، كتب كاتب العمود المحافظ وليام سافير أن «التحدي النفسي السياسي» الذي يواجهه الناخبون غالبًا يكون هو «كيفية التعامل مع التنافر المعرفي»^{٣٨}، وقد بدأ بقصة عن تحديه الخاص، وروى سافير أنه خلال إدارة بيل كلينتون انتقد هيلاري كلينتون لمحاولتها إخفاء هوية أعضاء فريق عملها الخاص بالرعاية الصحية، وكتب مقالًا ينتقد فيه جهودها في الحفاظ على السرية ووصفها بأنها سامة للديمقراطية، ولا يوجد أي تنافر في هذا، فهو لاء الديمقراطيون السيئون يفعلون دائمًا

أشياء سيئة، ولكنه بعد ست سنوات وجد أنه «مصاب» بالتنافر المعرفي عندما أصر نائب الرئيس ديك تشيني -وهو زميل جمهوري محافظ أُعجب به سافير- على الحفاظ على سرية هوية فريق العمل الخاص بسياسة الطاقة، فماذا فعل سافير؟ بسبب وعيه بالتنافر وكيف يعمل أخذ نفساً عميقاً، وربط سرواله، وفعل الشيء القاسي ولكن الفاضل: كتب عموداً ينتقد علناً تصرفات تشيني، والمفارقة أنه بسبب انتقاده لتشيني تلقى سافير عديداً من رسائل المديح من الليبراليين -والتي اعترف بأنها أحدثت تنافراً هائلاً، يا الله، لقد فعلت شيئاً وافق عليه هؤلاء الناس!

إن قدرة سافير على التعرف على تنافره الخاص وحله من خلال القيام بالأمر الصحيح أمر نادر الحدوث، وكما سنرى، فإن استعداده للاعتراف بأن فريقه ارتكب خطأ هو شيء لا يستعد للقيام به إلا قليلون، وبدلاً من ذلك، سيبدل المحافظون والليبراليون على حد سواء مزيداً من الجهود لتقليل التنافر بطريقة تكون في صالحهم وصالح فريقهم، وتختلف التكتيكات المحددة، ولكن جهودنا في تبرير الذات مصممة جميعها لخدمة حاجتنا إلى الشعور بالرضا عما فعلناه، وما نؤمن به، ومن نحن.

٢. الغرور والإجحاف... وغيرهما من البقع العمياء

«ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها؟».

- إنجيل متى، ٧: ٣

عندما علم الجمهور أن قاضي المحكمة العليا أنطونين سكاليا كان متوجهاً إلى لويزيانا على متن طائرة حكومية لصيد البط، مع نائب الرئيس ديك تشيني، على الرغم من وجود تشيني في قضية منظورة أمام المحكمة العليا، كانت هناك موجة من الاحتجاج على تضارب المصالح الواضح لسكاليا، وكان سكاليا نفسه غاضباً من الإيحاء بأن قدرته على تقييم دستورية ادعاء تشيني - أن نائب الرئيس كان مخولاً قانوناً بالحفاظ على سرية تفاصيل فريق العمل المعني بالطاقة - سوف يدب فيها الفساد بسبب صيد البط والامتيازات، وقد كتب في رسالة إلى صحيفة لوس أنجلوس تايمز يشرح فيها سبب عدم تنحيه، كتب: «لا أعتقد أن حيادي يمكن أن يكون موضع تساؤل بشكل يقبله العقل».

عَيَّتْ عالمَ النفس العصبي ستانلي بيرنت، وطبيب الأعصاب جيمس ألبرز، شركة سي إس إكس للنقل بالسكك الحديدية وشركة داو كيميكال، للتحقيق في ادعاءات عمال السكك الحديدية بأن التعرض للمواد الكيميائية قد تسبَّب في تلف دائم في المخ ومشكلات طبية أخرى، وشُخِّصَ أكثر من ستمائة من عمال السكك الحديدية في خمس عشرة ولاية بأنهم يعانون من شكل من أشكال تلف المخ بعد تعرض شديد لمذيبات الهيدروكربون المكلورة، ودفعت شركة سي إس إكس أكثر من ١٧٠ ألف دولار لشركة بيرنت وألبرز الاستشارية، من أجل البحث الذي عارض في النهاية وجود صلة بين التعرض للمذيبات الصناعية للشركة وتلف المخ، وفي أثناء إجراء دراستهما، والتي تضمنت مراجعة الملفات الطبية للعمال من دون موافقة مستنيرة من العمال، عمل العالمان كشاهدين خبيرين لشركات المحاماة التي تمثل شركة سي إس إكس في الدعاوى القضائية التي يرفعها العمال، ولم يرَ بيرنت شيئاً غير لائق في بحثه الذي ادعى أنه «أسفر عن معلومات مهمة حول التعرض للمذيبات»، ولاحقاً، أنَّب بيرنت وألبرز المكتبُ الفيدرالي لحماية البحوث البشرية بسبب تضارب مصالحهما في هذه القضية^١.

عندما تدخُل متحف التسامح في لوس أنجلوس، ستجد نفسك في غرفة من المعروضات التفاعلية المصممة لتحديد الأشخاص الذين لا يمكنك التسامح معهم، والأهداف المألوفة موجودة هناك (السود، والنساء، واليهود، والمثليون)، ولكن هنا أيضاً الأشخاص

القصار والبدناء، والشقراوات، والمعاقون... تشاهد مقطع فيديو عن مجموعة كبيرة من الإجحافات المصممة لإقناعك بأن كل البشر لديهم على الأقل بعض التعصب، وبعد ذلك تتم دعوتك لدخول المتحف من خلال أحد بايين، أحدهما وُضعت عليه علامة «متعصب»، والآخر وُضعت عليه علامة «غير متعصب»، ويُغلق الباب الأخير في حالة إغفال أي شخص النقطة، وهو ما يفعله أحيانًا بعض الأشخاص. عندما كنا نزور المتحف بعد ذلك بقليل، تعاملنا مع مشهد أربعة يهود حسيديين يقصفون بغضب الباب غير المتحيز، مطالبين بالسماح لهم بالدخول.

صُمِّم المنح بنقاط عمياء -بصرية ونفسية- وأحد أذكى حيله هو أن يضفي على صاحبه الوهم المريح الذي لا يعاني منه، وبمعنى من المعاني فإن نظرية التنافر هي نظرية النقاط العمياء، عن كيف ولماذا يعمي الناس أنفسهم عن غير قصد بحيث يفشلون في ملاحظة الأحداث الحيوية والمعلومات التي قد تجعلهم يتساءلون عن سلوكهم أو قناعاتهم، ويأتي المنح محشواً -إلى جانب التحيز التأكيدي- بعادات أخرى تخدمه ذاتياً، وتسمح لنا بتبرير تصوراتنا ومعتقداتنا على أنها دقيقة وواقعية وغير متحيزة، وقد أطلق عالم النفس الاجتماعي لي روس على هذه الظاهرة اسم «الواقعية الساذجة»، وهي التصورات التي لا مفر منها بإدراكنا الأشياء والأحداث «كما هي من الناحية الواقعية»^٢، ونفترض أن الأشخاص العقلانيين الآخرين يرون الأشياء بالطريقة نفسها التي نرى بها الأشياء، فإذا اختلفوا معنا فمن الواضح أنهم لا يرون بوضوح، والواقعية الساذجة تخلق متاهة منطقية لأنها تفترض شيئين، الأول: هو

أن الأشخاص المنفتحين والعادلين يجب أن يتفقوا على رأي معقول، والثاني: أن أي رأي أو من به يجب أن يكون منطقيًا؛ ولو لم يكن كذلك لما آمنت به، ولذلك، إذا كان بإمكانني فقط جعل خصومي يجلسون هنا ويستمعون إليّ وأنا أشرح لهم كيف تسير الأمور حقًا فسوف يتفقون معي، وإذا لم يتفقوا فلا بد وأنهم متحيزون.

يعرف لي روس ما يتكلم عنه، من تجاربه العملية وجهوده للحد من الصراع الميرير بين الإسرائيليين والفلسطينيين، أنه حتى عندما يدرك كل طرف أن الطرف الآخر يرى القضايا بشكل مختلف، فكل طرف يعرف أن الطرف الآخر متحيز بينما هم أنفسهم موضوعيون وأن تصوراتهم للواقع يجب أن توفر الأساس للتسوية، وفي إحدى التجارب أخذ روس مقترحات السلام التي وضعها المفاوضون الإسرائيليون ووصفها بأنها مقترحات فلسطينية، وطلب من المواطنين الإسرائيليين الحكم عليها، ويقول: «أحب الإسرائيليون الاقتراح الفلسطيني المنسوب إلى إسرائيل أكثر من إعجابهم بالمقترح الإسرائيلي المنسوب إلى الفلسطينيين، فإذا كان اقتراحك الخاص لن يكون جذابًا لك عندما يأتي من الجانب الآخر فما هي فرصة أن يكون اقتراح الطرف الآخر جذابًا عندما يأتي بالفعل من الجانب الآخر؟»^٣، وبالنظر إلى مثال أمريكي، وجد عالم النفس الاجتماعي جيفري كوهين أن الديمقراطيين سيصادقون على اقتراح رعاية اجتماعية مقيد للغاية - وهو اقتراح يرتبط عادةً بالجمهوريين - إذا اعتقدوا أن الحزب الديمقراطي هو من اقترحه، وسيدعم الجمهوريون سياسة رعاية سخية إذا اعتقدوا أنها تأتي من الحزب الجمهوري^٤،

ويمكنك أن تزعم أن نفس الاقتراح قادم من الجانب الآخر، وعندها قد تطلب أيضًا من الناس دعم سياسة اقترحها هتلر أو ستالين أو أتيتا الهوني، ولم يكن أي من الأشخاص الذين شاركوا في دراسة كوهين على دراية بنقطةهم العمياء، وهي أنهم تأثروا بموقف حزبهم، وبدلاً من ذلك زعموا جميعاً أن معتقداتهم نبعت منطقياً من دراستهم الدقيقة للسياسة المطروحة مسترشدة بفلسفتهم العامة للحكومة.

من الصعب للغاية التغلب على هذه النقطة العمياء حتى عندما يكون ذلك جزءاً من التوصيف الوظيفي، تأمل التحدي الذي يواجه أعضاء المحكمة العليا، الذين تتمثل وظيفتهم - كما لاحظ القاضي أوليفر ويندل هولمز جونيور - في حماية ضمان التعديل الأول لـ «حرية الفكر الذي نكرهه».

هذا تنافر قوي يجب التغلب عليه، فعلى الرغم من أن معظم القضاة يتصورون أنهم على مستوى التحدي، فإنه وفقاً لدراسة أُجريت على ٤٥١٩ صوتاً من قبل قضاة المحكمة العليا في أكثر من خمسمائة قضية بين عامي ١٩٥٣ و ٢٠١١، كان القضاة أكثر ميلاً إلى دعم حرية التعبير للمتحدثين الذين وافقوا على كلامهم؛ وحكم الأعضاء المحافظون في محكمة روبرتس لصالح المتحدثين المحافظين بنحو ٦٥٪ من الوقت والمتحدثين الليبراليين بنحو ٢١٪، ولم تكن الفجوة بالنسبة إلى القضاة الليبراليين كبيرة - في حدود ١٠٪ - ولكنهم كانوا أكثر عرضة للتصويت لدعم المتحدثين الذين يشاركونهم فلسفتهم السياسية^٥.

نعتقد أن أحكامنا أقل تحيزاً وأكثر استقلالاً من تلك الصادرة

عن الآخرين، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أننا نعتمد على التأمل الداخلي لإخبارنا بما نفكر فيه ونشعر به، ولكن ليس لدينا طريقة لمعرفة ما يفكر فيه الآخرون فعلاً، وعندما ننظر إلى نفوسنا وقلوبنا فإن الحاجة إلى تجنب التنافر تؤكد لنا أن لدينا فقط أفضل المحفزات وأكثرها احترامًا، فنحن نأخذ مشاركتنا في قضية ما كمصدر للدقة والتنوير («لقد شعرت بقوة بشأن التحكم في السلاح لسنوات، لذلك فأنا أعرف ما أتحذّر عنه»)، لكننا نعتبر مثل هذه المشاعر الشخصية من جانب الآخرين الذين يعتقدون وجهات نظر مختلفة كمصدر للتحيز («لا يمكن أن تكون محايدة بشأن التحكم في السلاح لأنها شعرت به بشدة منذ سنوات»).

كلنا لا ندرك بقعنا العمياء مثل الأسماك التي لا تدرك المياه التي تسبح فيها، لكن أولئك الذين يسبحون في مياه الامتياز لديهم دافع خاص ليظلوا غافلين، فعندما حققت مارينيا فارنهام الشهرة والثروة خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي من خلال نصحتها للنساء بالبقاء في المنزل وتربية الأطفال، أو المخاطرة بالبرود العصبي والعصاب وفقدان الأنوثة، لم ترَ أي تناقض (أو مفارقة) في حقيقة أنها كانت صاحبة امتيازات، كونها طبيبة لا تقيم في المنزل لتربية طفلها، وعندما يتحدث الأثرياء عن المحرومين فنادراً ما يشكرون حظوظهم السعيدة على أنهم أصحاب امتيازات، ناهيك عن الانتباه إلى أنهم قد يكونون مدللين، فالامتياز هو النقطة العمياء لديهم^٧. فهو غير مرئي ولا يفكرون فيه مرتين، بل يبررون وضعهم الاجتماعي على أنه شيء يستحقونه، ونحن جميعاً -بطريقة أو بأخرى- عميان عن كل ما منحه

لنا الحياة من امتيازات، حتى ولو كانت هذه الامتيازات مؤقتة، فينظر معظم الأشخاص الذين يسافرون عادةً في المقصورة الرئيسية لشركة طيران إلى الأشخاص المتميزين في مجال الأعمال والدرجة الأولى على أنهم متكبرون، وإن كانوا محسودين، تخيل أنك تدفع كل هذه الأموال الإضافية مقابل رحلة مدتها ست ساعات فقط! ولكن بمجرد أن يكونوا هم من يدفعون مقابل مقاعد رجال الأعمال، فإن هذا الموقف يتلاشى ويحل محله مزيج مبرر ذاتياً من الشفقة والازدراء تجاه زملائهم الركاب الذين يحتشدون بشكل يائس إلى جانبهم.

لا يمكن لسائقي السيارات تجنب وجود نقاط عمياء في مجال رؤيتهم، ولكن السائقين الجيدين على دراية بها، فهم يعلمون أنه من الأفضل أن يتوخوا الحذر عند الارتداد وتغيير الحارات إذا كانوا لا يريدون الاصطدام بصنابير إطفاء الحرائق والسيارات الأخرى. إن تحيزاتنا الفطرية - كما قال اثنان من الباحثين القانونيين - «مثل الأوهام البصرية من ناحيتين مهمتين، فهي تقودنا إلى استنتاجات خاطئة من البيانات، ويستمر صوابها الواضح حتى عندما تبين لنا الخدعة»^٨، ونحن لا نستطيع تجنب نقاطنا النفسية العمياء، ولكن إذا كنا غير مدركين لها فقد نصبح متهورين عن غير قصد، ونتخطى الخطوط الأخلاقية ونتخذ قرارات حمقاء، ولن يساعد التأمل الداخلي وحده رؤيتنا، لأنه سيؤكد ببساطة معتقداتنا للتبرير الذاتي بأننا - شخصياً - لا يمكن استقطابنا أو إفسادنا، وأن عدم إعجابنا بـ/ أو كراهيتنا للمجموعات الأخرى ليست غير عقلانية ولكنها منطقية ومشروعة، فالنقاط العمياء تعزز كبرياءنا وتنشط تعصبنا.

الطريق إلى سانت أندروز

يجب أن أقول إن أعظم الأخطاء هو عدم الوعي بأيّ منها.

- توماس كارليل، مؤرخ وكاتب مقالات

عندما علمت دوروثي صامويلز -كاتبة الافتتاحية في صحيفة نيويورك تايمز- أن توم ديلاي، الزعيم السابق لمجلس النواب الجمهوري، قد قبل رحلة إلى ملعب سانت أندروز الأسطوري للجولف في إسكتلندا من جاك أبراموف، وهو عضو إحدى جماعات الضغط الفاسدين والذي كان وقتها قيد التحقيق، أعربت عن حيرتها وكتبت: «لقد كنت أكتب عن نقاط ضعف المسؤولين الحكوميين الأقوياء لسنوات أكثر مما أهتم بالكشف عنه من دون أمر استدعاء قضائي، وما زلت لا أفهمه: لماذا يخاطر شخص ما بسمعته وحياته المهنية من أجل هدية ترويجية ممنوحة من أحد أعضاء جماعة ضغط مثل عطلة في منتجع فاخر؟»^٩، لماذا؟ تعطينا نظرية التنافر الجواب: خطوة واحدة في كل مرة، فعلى الرغم من وجود كثير من السياسيين الفاسدين بلا خجل الذين يبيعون أصواتهم لأكبر المساهمين في الحملة الانتخابية، فإن معظم السياسيين -بفضل نقاطهم العمياء- يعتقدون أنهم غير قابلين للفساد، وعندما يدخلون السياسة لأول مرة، يقبلون الغداء مع

أحد أعضاء جماعات الضغط، لأنه، في نهاية الأمر، هذه هي الطريقة التي تعمل بها السياسة، وهي طريقة فعالة للحصول على معلومات حول مشروع قانون وشيك، أليس كذلك؟ ويقول السياسي: «إلى جانب ذلك، فإن جماعات الضغط مثلهم مثل أي مواطن آخر يمارسون حقهم في حرية التعبير، ولا بد لي من الاستماع فقط؛ وسوف أقرر كيفية التصويت على أساس ما إذا كان حزبي وناخبي يؤيدون هذا القانون وما إذا كان هو الشيء الصحيح الذي يجب فعله للشعب الأمريكي».

مع ذلك، بمجرد أن تقبل الحافز الصغير الأول وتبرره بهذه الطريقة، فإنك تكون قد بدأت في الانزلاق إلى أسفل الهرم، وإذا تناولت الغداء مع أحد أعضاء جماعة الضغط للتحدث عن هذا التشريع الوشيك، فلماذا لا تتحدث عن هذه الأمور في ملعب الجولف المحلي؟ ما الفرق؟ إنه مكان أجمل لإجراء محادثة، وإذا تحدثت عن الأمور في الملعب المحلي فلماذا لا تقبل عرضاً ودوداً للذهاب إلى ملعب أفضل للعب الجولف معه أو معها، ولنقل إلى سانت أندروز في إسكتلندا؟ ما الخطأ في ذلك؟ وبحلول الوقت الذي يكون فيه السياسي قد وصل إلى قاع الهرم -بعد أن قبل وبرر الإغراءات المتزايدة، يصرخ الجمهور: «ما المشكلة في ذلك؟ هل تمزح؟»، وعلى أحد المستويات فإن السياسي لا يمزح، ودوروثي صامويلز محقة، فمن الذي سيهدد مهنة وسمعة من أجل رحلة إلى إسكتلندا؟ لا أحد سيفعل إذا كان هذا هو العرض الأول، ولكن كثيرًا منا سيفعل ذلك إذا كان هذا العرض قد سبقته عديد من العروض الأصغر التي قبلناها، فالكبراء -عندما يتبعها تبرير الذات- تمهد الطريق إلى إسكتلندا.

تضارب المصالح والسياسة مترادفان، ونحن جميعاً نفهم التعاون الدافئ والمريح الذي يصوغه السياسيون للحفاظ على سلطتهم على حساب الرفاهية المشتركة، ومن الأصعب رؤية أن نفس العملية تؤثر على القضاة والعلماء والأطباء وغيرهم من المهنيين الذين يفخرون بقدرتهم على الاستقلال فكرياً من أجل العدالة أو التقدم العلمي أو الصحة العامة، والذين يعزز تدريبهم وثقافتهم القيمة الأساسية للنزاهة، ولذلك يغضب معظم الناس في هذه المجالات من مجرد الإشارة إلى أن المصالح المالية أو الشخصية يمكن أن تلوث عملهم، لأن فخرهم المهني يجعلهم يرون أنفسهم فوق مثل هذه الأمور، ولا شك في أن بعضهم كما هي الحال في مهن أخرى، يكونون غير أمناء تماماً ويفسدهم الطموح أو المال، وبين طرفي النزاهة النادرة والخداع الصارخ توجد الغالبية العظمى، ولكونها بشرية فلديها كل النقاط العمياء التي يمتلكها بقيتنا، ولسوء الحظ فهم أيضاً أكثر عرضة للاعتقاد بأنهم ليسوا كذلك، مما يجعلهم أكثر عرضة للوقوع في المصيدة.

في سالف الأيام كان معظم العلماء يتجاهلون إغراء التجارة، فعندما سُئل جوناثان سالك في عام ١٩٥٤ حول ما إذا كان سيحصل على براءة اختراع لقاح شلل الأطفال، أجاب: «هل يمكنك الحصول على براءة اختراع للشمس؟»، فكم تبدو ملاحظته ساحرة وملیئة بالسذاجة اليوم، وتخيل تسليم اكتشافك للمصلحة العامة من دون الاحتفاظ ببضعة ملايين من الدولارات لنفسك، وقد احترمت ثقافة العلم الفصل بين البحث والتجارة، وحافظت الجامعات على جدار حماية بينهما،

ونظرًا لأن العلماء كانوا يحصلون على أموالهم من الحكومة أو من مؤسسات التمويل المستقلة، فقد كانوا بشكل أو آخر يتمتعون بحرية لقضاء سنوات في التحقيق في مشكلة قد تؤتي أو لا تؤتي ثمارها سواء على المستوى الفكري أو العملي، وكان يُنظر إلى العالم الذي يعلن عن اكتشافاته ويستفيد من اكتشافاته بعين الشك بل والازدراء، وقد قال عالم أخلاقيات البيولوجيا شيلدون كريمسكي^{١٠}: «لا يبدو أن الاثنين يختلطان، ولكن عندما بدأت الشخصيات الرائدة في مجال علم الأحياء في العثور بشكل مكثف على منافذ تجارية ومخططات للشراء السريع، فقد ساعدوا في تغيير روح المجال، والآن أصبح العلماء متعدّدو الاهتمامات هم الذين يتمتعون بالهبة».

حدثت نقطة الانقلاب الأساسية عام ١٩٨٠، عندما قضت المحكمة العليا بإمكانية إصدار براءات اختراع على بكتيريا معدلة وراثيًا مستقلة عن عملية التطور، وهو ما يعني أنه يمكنك الحصول على براءة اختراع لاكتشاف فيروس أو تغيير نبات أو عزل جين، أو تعديل أي كائن حي آخر باعتباره «منتجًا مُصنَّعًا»، وبدأت حمى الذهب وطريق العلماء إلى سانت أندروز، وسرعان ما أصبح عديد من أساتذة البيولوجيا الجزيئية يخدمون في المجالس الاستشارية لشركات التكنولوجيا الحيوية ويمتلكون أسهمًا في الشركات التي تبيع المنتجات بناءً على أبحاثهم، وبدأت الجامعات التي تبحث عن مصادر جديدة للدخل في إنشاء ملفات الملكية الفكرية وتقديم الحوافز لأعضاء هيئة التدريس الذين سجلوا براءات اختراع لاكتشافاتهم، وطوال ثمانينيات القرن العشرين

تحول المناخ الأيديولوجي من المناخ الذي كان يُقدَّر فيه العلم لذاته أو للمصلحة العامة، إلى مناخ يُقدَّر فيه العلم للأرباح التي يمكن أن يولدها للمصلحة الخاصة، وسُنَّت تغييرات كبيرة في قوانين الضرائب وبراءات الاختراع، وتراجع التمويل الفيدرالي للبحوث بحدّة، وخلقت المزاياء الضريبية ارتفاعاً حاداً في التمويل من الصناعة، وتم تحرير صناعة الأدوية، وفي غضون عقد من الزمان أصبحت واحدة من أكثر الأعمال ربحية في الولايات المتحدة^{١١}.

ثم بدأت الفضائح التي تنطوي على تضارب المصالح من جانب الباحثين والأطباء في الظهور، فقد كانت شركات الأدوية الكبرى تنتج عقاقير جديدة منقذة للحياة، ولكنها كانت تنتج أيضاً أدوية غير ضرورية - في أحسن الأحوال، ومحفوفة بالمخاطر في أسوأها - فأكثر من ثلاثة أرباع جميع الأدوية التي تمت الموافقة عليها بين عامي ١٩٨٩ و ٢٠٠٠ لم تقدم سوى تحسينات طفيفة على الأدوية الموجودة، وتكلفتها تقريباً ضعف تكلفة الأدوية الموجودة، وتنطوي على مخاطر أعلى^{١٢}، وبحلول عام ١٩٩٩ سُحِبَت سبعة أدوية رئيسية - بما في ذلك ريزولين ولوترونكس - من السوق لأسباب تتعلق بالسلامة، ولم يكن أيٌّ منها ضرورياً لإنقاذ الأرواح (أحدها للحموضة المعوية، والثاني حبوب منع الحمل، والثالث مسكن للألم، والرابع مضاد حيوي)، ولم يكن أيٌّ منها أفضل من الأدوية الأقدم والأكثر أماناً، ولكن هذه الأدوية السبعة كانت مسؤولة عن ١٠٠٢ حالة وفاة وآلاف المضاعفات المزعجة^{١٣}، وفي عام ٢٠١٧ أفاد باحثون في كلية الطب بجامعة ييل أن ما يقرب

من ثلث جميع الأدوية الجديدة التي وافقت عليها إدارة الغذاء والدواء بين عامي ٢٠٠١ و ٢٠١٠ كانت بها مشكلات أمان كبيرة، ولم تكن ظاهرة حتى طُرحت في السوق لمدة أربع سنوات في المتوسط. وكان من بين الأدوية التي سُحبت عقار باكسترا وهو دواء مضاد للالتهابات، ودواء زيلنورم لمتلازمة القولون العصبي، ودواء رابتيفا لعلاج الصدفية، وقد زاد الدواءان الأولان من مخاطر الإصابة بأمراض القلب والأوعية الدموية، وزاد الدواء الثالث من خطر الإصابة بعدوى دماغية نادرة ومميتة، وسُحب واحد وسبعون من الـ ٢٢٢ عقارًا معتمدًا، أو تطلبت تحذيرًا بشأن الآثار الجانبية، أو استدعت إعلانًا عن المخاطر التي حُدِّثت حديثًا، وكانت هذه المخاطر أكبر بالنسبة إلى الأدوية المضادة للذهان وعلم الأحياء والأدوية التي مُنحت «الموافقة المعجلة»^{١٤}.

لم يكن رد فعل الجمهور على مثل هذه الأخبار غاضبًا فقط كما اعتادوا أن يشعروا تجاه السياسيين فاقدِي النزاهة، ولكنه كان أيضًا شعور بالاستياء والمفاجأة: كيف يمكن للعلماء والأطباء الترويج لعقار يعلمون أنه ضار؟ ألا يرون أنهم يخونون مبادئهم؟ كيف يمكنهم تبرير ما يفعلونه؟ بالتأكيد بعض الباحثين -مثل بعض السياسيين- فاسدون ويعرفون ما يفعلونه، فهم يفعلون ما تم تعيينهم من أجله: الحصول على النتائج التي يريدونها أصحاب العمل وطمس النتائج التي لا يرغب أصحاب العمل في سماعها، كما فعل باحثو شركات التبغ منذ عقود، ولكن يمكن على الأقل لمجموعات المصلحة العامة، ووكالات المراقبة، والعلماء المستقلين في نهاية المطاف أن يفضحوا

مؤامرة البحث السيئ أو الخادع، إلا أن الخطر الأكبر على الجمهور يأتي من التبريرات الذاتية للعلماء والأطباء ذوي النيات الحسنة الذين يعتقدون حقاً أنهم فوق تأثير ممولي الشركات بسبب حاجتهم إلى الحد من التنافر، ومع ذلك فإنهم -مثل نبات عباد الشمس- يتجهون نحو مصالح رعاتهم من دون أن يدركوا أنهم يفعلون ذلك.

كيف نعرف هذا؟ إحدى الوسائل تتم من خلال الدراسات التجريبية التي تقيّم حكم الخبير وتحدد ما إذا كان هذا الحكم يتغير اعتماداً على من يدفع مقابل ذلك، وفي إحدى هذه التجارب دفع الباحثون ١٠٨ من علماء النفس الشرعيين، والأطباء النفسيين، المعدّل الساري لأتعاب مراجعة أربعة ملفات حالة متطابقة لمرتكبين فعليين لجرائم جنسية، واستخدام نفس المعايير التي تم التحقق من صحتها لتقييم المخاطر، وقدم الخبراء آراءهم حول ما إذا كان هؤلاء الرجال أكثر أو أقل عرضة للعودة إلى الإجرام، عندما يستخدم الخبراء هذه التدابير في مواقف غير تصادمية فإن اتفاقهم يكون عاليًا جداً، ولكن في هذه الدراسة قيل لبعض الخبراء إن الدفاع وظّفهم؛ وقيل لآخرين إن النيابة وظّفهم، مما أدى إلى أن تقييماتهم تميل إلى موظفهم المفترض: أولئك الذين اعتقدوا أنهم يعملون لصالح النيابة منحوا المخالفين درجات مخاطرة عالية، وأولئك الذين اعتقدوا أنهم يعملون لصالح الدفاع منحهم درجات مخاطرة أقل^{١٥}.

هناك طريقة أخرى لقياس الآثار الدقيقة للرعاية التجارية وذلك من خلال مقارنة نتائج الدراسات الممولة بشكل مستقل وتلك التي تمويلها الصناعة، والتي تكشف باستمرار عن تحيز للتمويل.

اختار اثنان من المحققين ١٦١ دراسة - نُشرت جميعها خلال نفس فترة السنوات الست - عن المخاطر المحتملة على صحة الإنسان بسبب أربع مواد كيميائية، ومن بين الدراسات التي تمويلها الصناعة، وجد ١٤٪ فقط آثارًا ضارة على الصحة؛ ومن بين أولئك الذين تم تمويلهم بشكل مستقل وجد ٦٠٪ آثارًا ضارة^{١٦}.

فحص أحد الباحثين أكثر من ١٠٠ تجربة سريرية خاضعة للسيطرة لتحديد فعالية دواء جديد مقارنة بالأدوية القديمة، ومن بين أولئك الذين فضّلوا العقار التقليدي، وُجد أنه تم تمويل ١٣٪ من قبل شركات الأدوية و ٨٧٪ من قبل مؤسسات غير ربحية^{١٧}.

فحص اثنان من المحققين الدنماركيين ١٥٩ تجربة سريرية نُشرت بين عامي ١٩٩٧ و ٢٠٠١ في المجلة الطبية البريطانية، حيث طُلب من المؤلفين الإعلان عن تضارب محتمل في المصالح، ومن ثم أمكن للباحثين مقارنة الدراسات التي كشف فيها المحققان عن تضارب في المصالح مع تلك التي لم يكن هناك أي تضارب في المصالح، وكانت النتائج «أكثر إيجابية بشكل ملحوظ تجاه التدخل التجريبي» (أي العقار الجديد مقارنة بالعقار الأقدم) عندما تم تمويل الدراسة من قبل منظمة تهدف إلى الربح^{١٨}.

إذا كان معظم العلماء الذين تمويلهم الصناعة لا يغشون بوعي، فما الذي يسبب تحيز التمويل؟ تتعدد التجارب السريرية للأدوية الجديدة بسبب عديد من العوامل التي تشمل: طول فترة العلاج، وشدة مرض المرضى، والآثار الجانبية، والجرعات، والتنوع في المرضى الذين يتم

علاجهم، ولذلك نادرًا ما يكون تفسير النتائج واضحًا ولا لبس فيه، وهذا هو السبب في أن جميع الدراسات العلمية تتطلب التكرار والتنقيح، والسبب في أن معظم النتائج تكون مفتوحة للاختلافات المشروعة في التفسير، فإذا كنت عالمًا غير متحيز وأظهر بحثك اكتشافًا غامضًا ولكنه مثير للقلق بشأن العقار الجديد - كأن تكون هناك زيادة طفيفة في خطر الإصابة بنوبة قلبية أو سكتة دماغية - فقد تقول: «هذا أمر مقلق ودعونا نتحرى أكثر، فهل هذا الخطر المتزايد مجرد صدفة؟ وهل كان بسبب الدواء، أم أن المرضى معرضين للخطر بشكل غير عادي؟».

ومع ذلك، إذا كنت متحمسًا لإظهار أن دواءك الجديد فعال وأفضل من الأدوية القديمة، فمن الأفضل الإبقاء على تمويلك وعلى موافقة كفيك، ومن ثم فسوف تميل إلى التقليل من شأن مخاوفك وحل الغموض لصالح الشركة، كما ستكون متحمسًا أيضًا بشكل لا شعوري للبحث عن أدلة مؤكدة فقط لفرضيتك، «إنها لا شيء، ولا توجد حاجة إلى مزيد من البحث، فهؤلاء المرضى كانوا حقيقة مرضى بالفعل على أي حال»، «لنفترض أن الدواء آمن حتى يثبت العكس»، وقد كان كان هذا هو منطق المحققين الممولين من شركة ميرك الذين كانوا يدرسون مسكن الألم فيوكس الذي تبلغ تكلفته مليارات الدولارات قبل أن يتم تقديم دليل على مخاطر الدواء من قبل علماء مستقلين^{١٩}.

في عام ١٩٩٨، أفاد فريق من العلماء في المجلة الطبية المتميزة ذا لانسييت أنهم وجدوا علاقة إيجابية بين التوحد واللقاح الثلاثي (الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية)، وقد أثار الإعلان خوفًا هائلًا ووضع

العلماء والأطباء وأولياء الأمور في قمة الهرم بهذا القرار: هل يجب أن نتوقف عن تطعيم الأطفال؟ صعد آلاف من الآباء باتجاه «نعم»، مرتاحين لأنهم يعرفون الآن سبب توحيد أطفالهم أو مطمئنين لأنهم الآن لديهم طريقة لمنع ذلك.

بعد ست سنوات، تراجع عشرة من العلماء الثلاثة عشر المشاركين في هذه الدراسة عن تلك النتيجة المحددة، وكشفوا أن أندرو ويكفيلد، المؤلف الرئيسي، كان لديه تضارب في المصالح لم يكشف عنه للمجلة، إذ كان يُجري بحثًا لصالح المحامين الممثلين لأولياء أمور الأطفال المصابين بالتوحد، وقد تقاضت شركة ويكفيلد أكثر من ثمانمائة ألف دولار لتحديد ما إذا كانت هناك أسباب لمتابعة الدعوى القانونية، وأعطت الدراسة إجابة تأكيدية للمحامين قبل النشر، وفي هذا كتب ريتشارد هورتون، محرر مجلة لانسيت: «نحن نحكم أن كل هذه المعلومات كانت ستكون جوهرية عند اتخاذنا للقرار بشأن ملاءمة الأوراق ومصادقيتها وصلاحياتها للنشر»^{٢٠}.

إلا أن ويكفيلد لم يوقع على التراجع ولم ير أي مشكلة، وكتب في دفاعه أن «تضارب المصالح» ينشأ عندما يمكن للمشاركة في مشروع ما أن تتداخل أو تتعارض بشكل كبير مع التقييم الموضوعي والعاطفي لعمليات أو نتائج مشروع آخر، ولا يمكننا قبول أن المعرفة بأن الأطفال المتأثرين كانوا لاحقًا سيرفعون دعاوى -بعد الإحالة السريية والتحقيق- بتأثير من محتوى أو نبذة ورقتنا [السابقة]... ونؤكد أن هذه لم تكن ورقة علمية بل تقريرًا طبيًا^{٢١}. يا إلهي، لم تكن ورقة علمية على أي حال.

لا أحد يعرف الدوافع الحقيقية لأندرو ويكفيلد أو أفكاره حول أبحاثه، ولكننا نشك في أنه -مثل ستانلي بيرنت في قصتنا الافتتاحية- أقنع نفسه بأنه يتصرف بشرف وأنه يقوم بعمل جيد، وأنه لم يتأثر بحصوله على ثمانمائة ألف دولار من قبل المحامين، ولكنه على عكس العلماء المستقلين حقاً لم يكن لديه أي حافز للبحث عن دليل غير مؤكد على وجود علاقة بين اللقاحات والتوحد، وكان لديه عديد من الحوافز للتغاضي عن التفسيرات الأخرى، ففي الواقع لا توجد علاقة سببية بين التوحد والثيرميروسال وهي المادة الحافظة في اللقاحات التي كانت السبب المفترض للإصابة (تمت إزالة الثيرميروسال من اللقاحات في عام ٢٠٠١ مع عدم وجود انخفاض في معدلات التوحد)، وقد كان الارتباط الظاهر مجرد مصادفة، لأن التوحد يتم تشخيصه عادةً عند الأطفال في نفس العمر الذي يتم تطعيمهم فيه^{٢٢}، ولم يجد المشروع الدنماركي الذي شارك فيه أكثر من ٦٥٠ ألف طفل أي علاقة بين لقاح الحصبة والنكاف والحصبة الألمانية، والتوحد.

وهل هتف بارتياح آلاف من الآباء الذين بدأوا انزلاقهم إلى أسفل الهرم من خلال اتخاذ قرار بوجود علاقة: «الحمد لله على هذه المعلومات المفيدة»؟ إن أي شخص يتابع الجهود الوطنية التي يبذلها بعض الآباء لمنع التطعيمات المطلوبة لأطفالهم يعرف الإجابة، فبعد أن أمضوا ست سنوات في تبرير الاعتقاد بأن الثيرميروسال هو العامل المسؤول عن التوحد لدى أطفالهم أو المسؤول عن أمراض أخرى، رفض هؤلاء الآباء البحث الذي أظهر أنه ليس كذلك، كما رفضوا

تصريحات مؤيدة للتطعيم صادرة عن مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها، وإدارة الغذاء والدواء، والمؤسسات الوطنية للطب، ومنظمة الصحة العالمية، والأكاديمية الأمريكية لطب الأطفال، وفي مواجهة التنافر بين «أنا والد جيد وأعرف ما هو الأفضل لطفلي»، و«تلك المنظمات تخبرني أنني اتخذت قرارًا قد يؤدي طفلي»، فما الذي يختارون تصديقه؟ إنه أمر لا يستحق التفكير، ويقولون: «ماذا يعرف هؤلاء العلماء على أي حال؟».

وهذه هي الطريقة التي خلق بها دعر «اللقاحات تسبب التوحد» آثارًا مأساوية وباقية، فقد وجدت دراسة وبائية كبرى أن برامج التطعيم للأطفال حالت دون حدوث أكثر من مائة مليون حالة من الأمراض المعدية الخطيرة منذ عام ١٩٢٤، وأنقذت حياة ما بين ثلاثة وأربعة ملايين شخص، ولكن عندما توقف بعض الآباء عن تطعيم أطفالهم بدأت معدلات الإصابة بالحصبة والسعال الديكي في الارتفاع، وحدث أسوأ وباء سعال ديكي منذ عام ١٩٥٩ في عام ٢٠١٢ - حيث تم الإبلاغ عن ٣٨٠٠٠ حالة على الصعيد الوطني، وشهد عام ٢٠١٩ أكبر عدد من حالات الحصبة خلال خمسة وعشرين عامًا بأكثر من ١٢٥٠ حالة، ويمثل هذا الرقم انتكاسة كبيرة للصحة العامة، بالنظر إلى أنه تم الإعلان عن القضاء على الحصبة في الولايات المتحدة في عام ٢٠٠٠، وقد كتب بول أوفيت، رئيس قسم الأمراض المعدية ومدير مركز تعليم اللقاحات في مستشفى الأطفال في فيلادلفيا: «شهد الأمريكيون زيادة في دخول المستشفيات والوفيات بسبب أمراض، مثل السعال الديكي والحصبة

والنكاف والالتهاب السحائي الجرثومي، لأن بعض الآباء أصبحوا خائفين من اللقاحات أكثر من خوفهم من الأمراض التي تمنعها»^{٢٣}.

لاحظنا في الفصل الأول أن الناس غالباً ما يتمسكون بمعتقد ما بعد فترة طويلة من معرفتهم المنطقية أنه خاطئ، ويكون هذا صحيح بخاصة إذا اتخذوا خطوات عديدة أسفل الهرم لدعم هذا الاعتقاد الخاطئ، فبحلول ذلك الوقت قد يؤدي الحصول على معلومات تتعارض مع معتقد قوي إلى نتائج عكسية، مما يجعل الفرد يتمسك بالاعتقاد الخاطئ بشكل أكثر حزمًا، وقد قدّم بريندان نيهان وزملاؤه لـ «لجنة تمثيلية على المستوى الوطني من الآباء والأمهات، أنواعًا مختلفة من المعلومات العلمية التي تخفف مخاوفهم بشأن اللقاحات: معلومات حول مخاطر الأمراض، وقصة مأساوية لما يمكن أن يحدث إذا لم يتم تطعيم الطفل، وحتى الصور المأساوية للأطفال المرضى، وأصبح الآباء الذين لديهم مشاعر مختلطة أو سلبية تجاه اللقاحات أقل احتمالية في الواقع للقول إنهم سيُلَقِّحون أطفالهم، فقد تم إقناعهم بأن اللقاحات لا تسبب التوحد، ولكنهم توصلوا إلى مخاوف أخرى أو مضايقات غامضة لتبرير إحجامهم عن التطعيم»^{٢٤}. (حصل نيهان على نفس النتائج مع الأشخاص الذين لم يحصلوا على لقاحات الإنفلونزا لأنهم اعتقدوا خطأ أن اللقاح يتسبب في إصابتك بالإنفلونزا).

هذا هو الإرث الدائم للتبرير الذاتي، لأن معظم دعاة التحذير من اللقاحات لم يقولوا قط: «لقد كنا مخطئين وانظروا إلى الضرر الذي تسببنا فيه»، فأندرو ويكفيلد الذي ألغت السلطات الطبية البريطانية

ترخيصه، يتمسك برأيه القائل بأن اللقاحات تسبب التوحد، وقال في بيان صحفي: «لن يردعوني، وهذه المسألة بالغة الأهمية»^{٢٥}، وفي أعقاب تفشٍّ واسع النطاق للحصبة بدأ في ديسني لاند في عام ٢٠١٥ قالت باربرا لوي فيشر -رئيسة منظمة مناهضة للقاحات تنشر معلومات مضللة وتكافح الجهود المبذولة لضمان تطعيم الأطفال- إن كل القلق كان ببساطة «ضحيجًا» مصممًا للتغطية على فشل اللقاح، ويبدو أن مجموعتها تقع في عالم الأوهام^{٢٦}.

الهدية التي تستمر في العطاء

يريد الأطباء -مثل العلماء- الاعتقاد بأن نزاهتهم لا يمكن المساومة عليها، ومع ذلك ففي كل مرة يقبل الأطباء رسومًا أو حافزًا آخر لإجراء اختبارات وإجراءات معينة، أو لإدخال بعض مرضاهم في التجارب السريرية، أو لوصف دواء جديد باهظ الثمن ليس أفضل أو أكثر أمانًا من دواء أقدم، فهم يوازنون بين رفاة مرضاهم ومخاوفهم المالية، وتساعدهم نقطتهم العمياء على قلب الميزان لصالحهم، ثم تبرير ذلك: «إذا أرادت شركة صيدلانية أن تعطينا أقلامًا أو دفاتر ملاحظات أو تقويمات أو وجبات غداء أو تكريمًا أو رسومًا استشارية صغيرة، فلماذا لا؟ فنحن لا يمكن شراءنا بالحلي والبيتزا»، ووفقًا للاستطلاعات يعتبر الأطباء الهدايا الصغيرة أكثر قبولًا من الناحية الأخلاقية من الهدايا الكبيرة، وتوافق الجمعية الطبية الأمريكية على قبول الهدايا من ممثلي الأدوية ما دام أنه لا توجد هدية واحدة تساوي أكثر من مائة دولار، إلا

أن الأدلة تشير إلى أن معظم الأطباء يتأثرون بالهدايا الصغيرة أكثر من تأثرهم بالهدايا الكبيرة^{٢٧}.

تعرف شركات الأدوية هذا، فقد وجدت دراسة استقصائية عشوائية على المستوى الوطني شملت ما يقرب من ثلاثة آلاف طبيب وإحصائي رعاية أولية أن ٨٤٪ أفادوا أنهم تلقوا شكلاً من أشكال المقابل من صناعة الأدوية - عينات الأدوية، وأغذية ومشروبات، ورد نفقات، ومدفوعات مقابل الخدمات^{٢٨}، ووفقاً لمراكز الرعاية الصحية والخدمات الطبية، ففي فترة خمسة أشهر - من أغسطس إلى ديسمبر ٢٠١٣ - دفعت شركات الأدوية وصانعو الأجهزة ما مجموعه ٣,٥ مليار دولار لمتخصصي الرعاية الصحية والمستشفيات التعليمية، وهو مبلغ شمل نحو ٣٨٠ مليون دولار كأتعاب للتحدث والاستشارات لـ ٥٤٦ ألف طبيب فردي، وقد ثبت أن هذا التقدير المبكر كان أقل بنحو مليار دولار^{٢٩}، وكان بعض هؤلاء الأطباء يحصلون على أكثر من نصف مليون دولار مقابل خدماتهم، ولكن الغالبية العظمى منهم كانوا يحصلون على الحلي المكتبية والزخارف المدفوعة، وبرامج «التعليم الطبي المستمر» (حيث يكون «التعليم» الوحيد حول الدواء الجديد لشركة الدواء) و«التدريب غير المعتمد».

السبب وراء الإنفاق الكبير لشركات الأدوية الكبرى على الهدايا الصغيرة -بالإضافة إلى الهدايا الكبيرة- معروف جيداً للمسوقين وأعضاء جماعات الضغط وعلماء النفس الاجتماعي، فتقديم هدية يثير رغبة ضمنية في رد المعروف. لقد فهم مندوبو مبيعات شركة فولر براش

هذا المبدأ منذ عقود عندما ابتكروا تقنية «القدم في الباب»: امنح ربة منزل فرشاة خفيفة كهدية ولن تغلق الباب في وجهك، وعندما لا تغلق الباب في وجهك ستكون أكثر ميلاً لدعوتك، وفي النهاية لشراء فرشك باهظة الثمن، وقد لاحظ روبرت سيالديني -الذي أمضى سنوات عديدة في دراسة تقنيات التأثير والإقناع- بشكل منهجي أن دعاة هاري كريشنا كانوا يجمعون الأموال في المطارات^{٣٠}، إلا أن مطالبة المسافرين المرهقين بالتبرع لم تنجح وجعلت فقط المسافرين غاضبين منهم، ومن ثم توصل أتباع كريشنا إلى فكرة أفضل، وهي أن يقتربوا من مسافر مستهدف ويدسون زهرة في يديه أو يعلقون زهرة على سترته، وإذا رفض المستهدف الزهرة وحاول إعادتها، فسوف يعترض أتباع كريشنا ويقولون: «إنها هديتنا لك»، وعندها فقط يطلب أتباع كريشنا التبرع، وفي هذه المرة كان من المرجح أن يتم قبول الطلب لأن هدية الزهرة قد أنشأت شعوراً بالمديونية والالتزام لدى المسافرين، فكيف تسدد الهدية؟ بتبرع صغير... وربما شراء طبعة مبالغ في سعرها من كتاب البهاجافاد جيتا (وهو الكتاب المقدس في الهندوسية).

هل كان المسافرون يدركون قوة المعاملة بالمثل في التأثير على سلوكهم؟ لا، على الإطلاق، ولكن بمجرد بدء المعاملة بالمثل سيتبعها التبرير الذاتي: «لطالما أردت نسخة من كتاب البهاجافاد جيتا ومعرفة ما هو بالضبط»، وتكون قوة الزهرة في العقل الباطن، إذ يقول المسافر: «إنها مجرد زهرة»، ويقول الطبيب المقيم: «إنها مجرد بيتزا»، ويقول الطبيب: «إنها تبرع صغير لندوة تعليمية»، ومع ذلك فإن قوة الزهرة هي

أحد الأسباب التي تجعل مقدار اتصال الأطباء بممثلي شركات الأدوية مرتبطاً بشكل إيجابي بتكلفة الأدوية التي يصفها الأطباء لاحقاً. «هذا الممثل كان مقنعاً بشكل كبير بشأن هذا الدواء الجديد، وقد أُجربه كذلك ويُلبي مرضاي بلاءً حسناً»، وبمجرد أن تأخذ الهدية - مهما كانت صغيرة - تبدأ العملية، لأنك ستشعر بالحاجة إلى رد شيء ما في المقابل، حتى لو كان فقط في البداية اهتمامك ورغبتك في الاستماع وتعاطفك مع المانح، وفي النهاية ستصبح أكثر استعداداً لإعطاء وصفتك وحكمك وتصويتك، ويتغير سلوكك ولكن - بفضل النقاط العمياء والتبرير الذاتي - تظل نظرتك إلى نزاهتك الفكرية والمهنية كما هي، وقد أُعطيت صديقة لنا وصفة طبية لعقار يحتوي على قائمة طويلة من التنبهات، وعندما سعت إلى موقع ويب مستقل أشار إلى أن جميع الأبحاث حول هذا الدواء أُجريت من قبل شركة الأدوية التي طوّرتَه فأوضحت ذلك لطبيبتها، الذي قال: ما الفرق الذي يحدثه ذلك؟

كتب كارل إليوت - وهو عالم أخلاقيات علم الأحياء، وفيلسوف، وحاصل أيضاً على دكتوراه في الطب - بشكل موسع عن الطرائق التي توقع بها الهدايا الصغيرة متلقيها في الفخ، وقد أخبره شقيقه هال - وهو طبيب نفسي - كيف انتهى به المطاف في مكتب المتحدثين في شركة أدوية كبيرة، ففي البداية طلبوا منه إلقاء محاضرة عن الاكتئاب لإحدى المجموعات المجتمعية، فقال لنفسه: ولمَ لا؟ كان يعتقد أنها ستكون خدمة عامة، وبعد ذلك طلبوا منه التحدث عن نفس الموضوع في المستشفى، وبعد ذلك بدأوا في تقديم اقتراحات حول محتوى حديثه،

وحثوه على التحدث ليس عن الاكتئاب ولكن عن مضادات الاكتئاب، ثم أخبروه أن بإمكانهم وضعه في دائرة التحدث الوطنية «حيث يوجد المال الحقيقي»، ثم طلبوا منه إلقاء محاضرة حول مضادات الاكتئاب الجديدة الخاصة بهم، وبالنظر إلى الوراء، قال هال لأخيه:

يبدو الأمر كما لو أنك امرأة في حفلة، ويقول لك رئيسك في العمل: «انظر، اعمل لي معروفًا؛ كن لطيفًا مع هذا الرجل هناك»، وترى أن الرجل ليس سيئ المظهر وأنت غير مرتبط، فتقول لنفسك: «لَمْ لا؟ يمكنني أن أكون لطيفًا»، وسرعان ما تجد نفسك في طريقك إلى بيت دعارة في بانكوك في عنبر شحن على متن طائرة لا تحمل أي علامات، ومن ثم تقول: «توقف، ليس هذا ما وافقت عليه»، ولكن بعد ذلك عليك أن تسأل نفسك: «متى بدأت الدعارة بالفعل؟ ألم تكن في تلك الحفلة؟»^{٣١}.

حاليًا، حتى الأخلاقيون المهنيون يذهبون إلى الحفلة، ويتم ترويض كلاب الحراسة من قبل الثعالب التي تم تدريبها على الإمساك بها، إذ تقدم صناعات الأدوية والتكنولوجيا الحيوية رسومًا استشارية وعقودًا وأتعابًا لخبراء أخلاقيات علم الأحياء، وهم الأشخاص الذين يكتبون -من بين أمور أخرى- عن مخاطر تضارب المصالح بين الأطباء وشركات الأدوية، ووصف كارل إليوت مبررات زملائه لأخذ المال وكتب: «غالبًا ما يغضب المدافعون عن استشارات الشركات من الادعاء القائل بأن قبول الأموال من الصناعة يضر بحيادهم أو يجعلهم

ناقدين أخلاقيين أقل موضوعية»، وكتب أن «الموضوعية أسطورة، كما أخبرتني عالمة أخلاقيات البيولوجيا إيفان ديرينزو، وهي تحشد الحجج من الفلسفة النسوية لتعزيز قضيتها، وأنا لا أعتقد أن هناك شخصاً على قيد الحياة يمكن أن يشارك في نشاط لا يهتم على الإطلاق بكيفية حدوثه»، وهناك ادعاء ذكي للحد من التنافر بالنسبة إليك وهو أن «الموضوعية الكاملة مستحيلة على أي حال، ولذلك يمكنني أن أقبل أيضاً رسوم الاستشارات هذه».

برر توماس دونالدسون -مدير برنامج الأخلاقيات في كلية وارتون- هذه الممارسة من خلال المقارنة بين مستشاري الأخلاقيات، وشركات المحاسبة المستقلة التي قد توظفها الشركة لتدقيق مواردها المالية، ولكن لماذا لا تدقق أخلاقياتهم؟ هذه الطعنة في تبرير الذات لم تتجاوز كارل إليوت أيضاً، إذ يقول: «التحليل الأخلاقي لا يتشابه في أي شيء مع التدقيق المالي، إذ يمكن الكشف عن تجاوز المحاسب والتحقق منه، ولكن كيف تكتشف تجاوزات مستشار الأخلاقيات؟ وكيف تفرق بين مستشارة الأخلاق التي غيرت رأيها لأسباب مشروعة وبين تلك التي غيرت رأيها من أجل المال؟ وكيف يمكنك التمييز بين المستشار الذي تم تعيينه من أجل نزاهته، والمستشار الذي تم تعيينه لأنه يدعم ما تخطط الشركة للقيام به؟»^{٣٢}، وقد صممت الشؤون القضائية مبادرة لتثقيف الأطباء حول المشكلات الأخلاقية المرتبطة بقبول الهدايا من صناعة الأدوية، وتم تمويل هذه المبادرة من خلال هدايا بقيمة ٥٩٠ ألف دولار من إيلي ليلي وشركاه، وجلاكسو سميث

كلاين، وشركة فايزر، والمجموعة الصيدلانية الأمريكية، وشركة باير،
وشركة بروكتر وجامبل، وشركة وايت إيرست الدوائية.

هفوة العقل

كان آل كامبانيس رجلاً طيباً جداً، وحتى رجلاً لطيفاً،
ولكنه أيضاً رجل ذو عيب، فقد ارتكب خطأ واحداً
فادحاً خلال ٨١ عاماً قضاها على الأرض، وهو خطأ
أصبح يحدده إلى الأبد.

- مايك ليتوين، كاتب رياضي

في ٦ أبريل ١٩٨٧، كرس برنامج نايت لاين التلفزيوني عرضه
بالكامل للذكرى السنوية للظهور الأول لجاكي روبنسون في الدوري
الرئيسي، وأجرى تيد كوبيل مقابلة مع آل كامبانيس، المدير العام لفريق
لوس أنجلوس دودجر لكرة القاعدة، والذي كان جزءاً من منظمة دودجر
منذ عام ١٩٤٣ وكان زميلاً لروبنسون في فريق مونتريال رويالز في عام
١٩٤٦، وفي ذلك العام لكم كامبانيس لاعباً متعصباً أهان روبنسون،
ودافع بعد ذلك عن قبول اللاعبين السود في دوري كرة القاعدة الرئيسي،
وبعد ذلك، في حديثه مع كوبيل وضع كامبانيس عقله في وضع الطيار
الآلي (من دون تحكم فيه)، وسأل كوبيل آل -وهو صديق قديم لجاكي
روبنسون- لماذا لم يكن هناك سود بين المديرين أو المديرين العامين
أو المالكين في لعبة كرة القاعدة، وكان كامبانيس مراوغة في البداية،

عليك أن تدفع مستحقّاتك من خلال العمل ضمن القاصرين، ولا يوجد أجر كبير في أثناء شقك طريقك للأعلى، إلا أن كويل ضغط عليه:

كويل: نعم، لكنك تعلم في قلبك... أن هذا كثير من الهراء، أعني أنه يوجد عديد من اللاعبين السود، وهناك كثير من رجال كرة القاعدة السود العظماء الذين يودون بشدة أن يكونوا في مناصب إدارية، وأعتقد أن ما أطلبه منك حقًا هو، كما تعلم، إزالة اللثام قليلًا قليلًا، وأن تخبرني فقط لماذا تعتقد ذلك، ألا يزال هناك كثير من التحامل في لعبة كرة القاعدة اليوم؟

كامبانيس: لا، لا أعتقد أنه تحامل، ولكنني أعتقد حقًا أنهم قد يفتقرون إلى بعض الضروريات التي تؤهلهم ليكونوا - على سبيل المثال - مديرين ميدانيين أو ربما مديرين عامّين.

كويل: هل تؤمن بذلك حقًا؟

كامبانيس: حسنًا، لا أقول إنهم جميعًا كذلك، لكنهم بالتأكيد أقل، فكم عدد لاعبي الوسط السود لديك؟ كم لاعب رمي أسود لديك؟

بعد يومين من هذه المقابلة والضجة العامة التي أحدثتها، أطلق فريق الدودجر حملة على كامبانيس، وبعد مرور عام قال إنه «قد أصبح أثرًا بعد عين» عندما أجريت المقابلة، ومن ثم لم يعد هو نفسه بالكامل.

من كان آل كامبانيس الحقيقي؟ أهو متعصب أم ضحية للاستقامة السياسية؟ لم يكن أيهما، فقد كان رجلًا يحب ويحترم اللاعبين السود الذين يعرفهم، وهو الذي دافع عن جاكي روبنسون عندما لم يكن ذلك

من المألوف ولا المتوقع، ولكن كانت لديه نقطة عمياء: كان يعتقد أن الرجال السود قادرون على أن يكونوا لاعبين رائعين، إلا أنهم لم يكونوا أذكاء بما يكفي ليكونوا مديرين، وقال لكوبيل من أعماق أعماقه إنه لا يرى ما هو الخطأ في هذا الموقف؛ قال: «لا أعتقد أنه تحيز»، ولم يكن كامبانيس يكذب أو يتصرف بخجل، ولكنه -بصفته مديراً عاماً- كان في وضع يسمح له بالتوصية بتعيين مدير أسود، ولكن النقطة العمياء لديه منعتة حتى من التفكير في هذا الاحتمال.

مثلما يمكننا أن نتعرف على النفاق في الجميع ما عدا أنفسنا، ومثلما هو واضح أن الآخرين يمكن أن يتأثروا بالمال ولكن ليس نحن، فيمكننا أن نرى التحيزات في الجميع باستثناء أنفسنا، لأنه بفضل النقاط العمياء التي تحافظ على الأنا لدينا لا يمكن أن يكون لدينا تحيز، وهو شعور غير عقلاني أو ناتج عن روح لئيمة تجاه جميع أعضاء مجموعة أخرى. لأننا لسنا غير عقلانيين أو شريرين، فإن أي مشاعر سلبية لدينا تجاه مجموعة أخرى لها ما يبررها، فكراهيتنا منطقية وقائمة على أسس سليمة، ونحن بحاجة إلى قمع المشاعر السلبية للمجموعة الأخرى، ومثل الحسيديين الذين يدقون على الباب غير المتحيز في متحف التسامح، نحن عميان عن تحيزاتنا.

يظهر التحامل والتعصب من نزوع العقل البشري للتعرف على المعلومات ومعالجتها في فئات، وهي كلمة أجمل وأكثر حيادية من كلمة الصور النمطية، ولكنها تعني نفس الشيء، وينظر علماء النفس المعرفيون إلى الصور النمطية كأجهزة موفرة للطاقة، تسمح لنا باتخاذ

قرارات فعالة على أساس التجارب السابقة، وتساعدنا في معالجة المعلومات الجديدة بسرعة، وفي استعادة الذكريات، وفهم الاختلافات الحقيقية بين المجموعات، والتنبؤ - غالبًا بدقة كبيرة - بالكيفية التي سيتصرف أو يفكر بها الآخرون^{٣٣}، ونحن نعتمد بحكمة على الصور النمطية والمعلومات السريعة التي تقدمها لنا لتجنب المخاطر، أو الاقتراب من أصدقاء جدد محتملين، أو في اختيار مدرسة أو وظيفة مقارنة بأخرى، أو في أن نقرر أن هذا الشخص في هذه الغرفة المزدحمة سيكون حب حياتنا.

هذا هو الجانب الإيجابي، أما الجانب السلبي فهو أن الصور النمطية تعمل على تسوية الاختلافات داخل الفئة التي ننظر إليها وتضخيم الاختلافات بين الفئات، فغالبًا ما يرى كل من الناخبين المنتمين إلى الولايات الحمراء (الجمهوريين) والناخبين المنتمين إلى الولايات الزرقاء (الديمقراطيين) بعضهما بعضًا على أنهما فئات غير متراكبة، ولكن كثيرًا من مواطني ولاية كانساس يريدون أن يتم تدريس التطور في مدارسهم، ويعارض كثير من سكان كاليفورنيا أي نوع من التحكم في السلاح، ونحن جميعًا ندرك الاختلاف داخل جنسنا أو حزبنا أو عرقنا أو أمتنا، ولكننا نميل إلى التعميم حول الأشخاص في الفئات الأخرى وجمعهم جميعًا معًا، وهذه العادة تبدأ في وقت مبكر جدًا، وقد ذكرت عالمة النفس الاجتماعي مارلين بروير - التي درست طبيعة الصور النمطية لسنوات عديدة - أن ابنتها عادت ذات مرة من روضة الأطفال وهي تشكو من أن «الأولاد كثيرو البكاء»^{٣٤}. وكان دليل الطفلة أنها

رأت صبيّين يبيكان في يومهما الأول بعيدًا عن المنزل، وسألت مارلين بروير التي لم تنسَ قطّ أنها عالمة، عما إذا لم يكن هناك فتيات صغيرات يبيكين، فقالت ابنتها: «أوه نعم، بعض الفتيات فقط يبيكين، وأنا لم أبكِ». كانت فتاة مارلين بروير الصغيرة تقسّم العالم بين «نحن» و«هم»، و«نحن» هي الفئة الاجتماعية الأساسية في نظام تنظيم العقول، وهذا المفهوم راسخ، فحتى ضمائر الجمع مثل «نحن» و«هم» هي إشارات عاطفية قوية، وفي إحدى التجارب السابقة التي اعتقد المشاركون فيها أن مهاراتهم اللفظية يتم اختبارها، تم إقران مقطع لفظي غير منطقي مثل xeh أو yof أو laj أو wuh عشوائيًا بكلمة في جماعة النّحن (نحن، أو لنا)، وفي جماعة الهم (هم، أو أولئك، أو لهم)، أو كمقياس تحكم، ضمير آخر (مثل هو، أو ملكها، أو ملككم)، وكان على جميع المشاركين بعد ذلك تقييم المقاطع من حيث كونها ممتعة أو غير ممتعة، وقد تتساءل لماذا يشعر أي شخص بشعور عاطفي تجاه كلمة هراء مثل yof أو يعتقد أنه كان لطيفًا أكثر من laj، ومع ذلك أحب المشاركون المقاطع الفارغة أكثر عندما تم ربطها بكلمات جماعة النّحن أكثر من أي كلمة أخرى^{٣٥}، ولم يخمن أحدهم السبب، ولم يكن أحد على علم بكيفية اقتران الكلمات.

بمجرد أن ينشئ الناس فئة تسمى «نحن»، فإنهم دائمًا ما يدركون أن كل شخص ليس فيها هو «ليس نحن». المحتوى الخاص بـ«نحن» يمكن أن يتغير في لمح البصر: نحن، سكان الغرب الأوسط العاقلين، ضدكم يا سكان السواحل البراقة؛ أو نحن، ملاك سيارات بريوس، ضد مالكي سيارات الدفع الرباعي التي تستهلك كثيرًا من الوقود؛ أو

نحن، مشجعي فريق بوسطن رد سوكس، ضدكم يا مشجعي ملائكة
لوس أنجلوس (لنلتقط مثلاً عشوائياً يحدث لوصف مؤلفيك خلال
موسم البيسبول)، يمكن خلق التعصب لـ«نحن» في دقيقة واحدة في
المختبر، كما أوضح هنري تاجفل وزملاؤه في تجربة كلاسيكية مع
تلاميذ بريطانيين^{٣٦}، حيث أظهر تاجفل للأولاد شرائح عليها أعداد
متفاوتة من النقاط وطلب منهم تخمين عدد النقاط الموجودة، وأخبر
بعضهم بشكل تعسفي بأنهم كانوا مبالغين في التقدير والبعض الآخر
بأنهم كانوا أقل من الواقع، ثم طلب من جميع الأولاد العمل في مهمة
أخرى، وفي هذه المرحلة، أتيحت لهم الفرصة لإعطاء نقاط للأولاد
الآخرين الذين تم تحديدهم على أنهم مبالغون في التقدير أو مقللون في
التقدير، وعلى الرغم من أن كل صبي كان يعمل بمفرده في مكتبه، فإن
كل واحد منهم تقريباً خصص مزيداً من النقاط للأولاد الذين اعتقد أنهم
مثله مبالغون في التقدير أو مقللون في التقدير، وعندما خرج الأولاد
من غرفهم سألهم الأطفال الآخرون: «من كنتم؟»، وتلقت الإجابات
هتافات تشجيع من أمثالهم وصيحات استهجان من الآخرين.

من الواضح أن فئات معينة من «نحن» أكثر أهمية لهوياتنا من نوع
السيارات التي نقودها أو عدد النقاط التي نقدرها على الشريحة، مثل
النوع الاجتماعي، والجنسانية، والدين، والسياسة، والعرق، والجنسية،
كبدائية، ومن دون الشعور بالارتباط بالمجموعات التي تعطي لحياتنا
معنى وهوية وهدفًا سنعاني من الإحساس الذي لا يُطاق بأننا كنا كرات
رخامية فضفاضة تتجول في عالم عشوائي، ولذلك سوف نفعل كل ما

يلزم للحفاظ على هذه الروابط. يجادل علماء النفس التطوريون بأن المركزية العرقية -أي الاعتقاد بأن ثقافتك أو أمتك أو دينك متفوق على ما عداه- تساعد على البقاء من خلال تقوية روابطك مع مجموعاتك الاجتماعية الأولية ومن ثم تزيد رغبتك في العمل والقتال وأحياناً الموت من أجلهم، وعندما تكون الأمور على ما يرام يشعر معظمنا بالتسامح تجاه الثقافات والأديان الأخرى، وحتى مع الجنس الآخر! ولكن عندما نشعر بالغضب أو القلق أو التهديد يتم تنشيط البقع العمياء لدينا تلقائياً، ونصبح نحن مالكي الصفات الإنسانية المتمثلة في الذكاء والمشاعر العميقة، أما هم فأغبياء، وأطفالٌ كثيرون البكاء لا يعرفون معنى الحب، أو العار، أو الحزن، أو الندم^{٣٧}.

إن مجرد التفكير في أنهم ليسوا أذكاء أو عاقلين مثلنا نحن يجعلنا نشعر بأننا أقرب إلى الآخرين الذين هم مثلنا، ولكنه أيضاً -وبنفس الأهمية- يسمح لنا بتبرير كيفية معاملتنا لهم، ويفترض معظم الناس أن التنميط يسبب التمييز، فرفض آل كامبانيس توظيف السود، اعتقاداً منه أن السود يفتقرون إلى «الضروريات» ليكونوا مديرين، إلا أن نظرية التنافر المعرفي تظهر أن المسار بين المواقف والعمل يسير في كلا الاتجاهين، وغالباً ما يكون التمييز هو الذي يثير الصورة النمطية التي تبرر الذات؛ آل كامبانيس الذي يفتقر إلى الإرادة أو الشجاعة لإقناع منظمة دودجر بتوظيف مدير أسود، برر فشله في التصرف بإخبار نفسه بأن السود لا يمكنهم القيام بالمهمة على أي حال، وبنفس الطريقة إذا قمنا باستبعاد أعضاء من مجموعة أخرى، أو حرمانهم من التعليم أو الوظائف اللائقة،

أو منعهم من التعدي على مجالتنا المهنية، أو حرمانهم من حقوقهم الإنسانية، فإننا نستدعي الصور النمطية عنهم لتبرير تصرفاتنا، وذلك من خلال إقناع أنفسنا بأنهم غير مستحقين، أو غير قابلين للتعليم، أو غير أكفاء، أو أنهم بطبيعتهم معوقون في الرياضيات، أو غير أخلاقيين، أو خاطئون، أو أغبياء، أو حتى دون البشر، فإننا نتجنب الشعور بالذنب أو عدم الأخلاقية بشأن كيفية معاملتنا لهم، ونحن بالتأكيد نتجنب الشعور بأننا متحيزون، لأننا حتى نحب بعض هؤلاء الأشخاص ما داموا يعرفون مكانهم، والذي هو -غني عن القول- ليس هنا في نادينا أو جامعتنا أو وظيفتنا أو منطقتنا، فباختصار، نحن نستخدم الصور النمطية لتبرير السلوك الذي من شأنه أن يجعلنا نشعر بالسوء تجاه نوع الأشخاص الذين نحن عليه أو نوع البلد الذي نعيش فيه.

لكن نظرًا لأن التفكير في فئات هو سمة عالمية للعقل، فلماذا لا يحمل سوى بعض الناس تحيزات مريرة وعاطفية تجاه المجموعات الأخرى؟ آل كامبانيس لم يكن متحيزًا من حيث كراهيته العاطفية القوية تجاه السود، ونشك في أنه كان من الممكن أن يجادل من منطلق مفهومه أن اللاعبين السود لا يمكن أن يكونوا مديرين جيدين، فقد تنحني الصورة النمطية أو حتى تتحطم تحت وطأة المعلومات غير المؤكدة، لكن السمة المميزة للتحيز هي أنها منيعة على العقل والخبرة والمثال المضاد، وقد وصف عالم النفس الاجتماعي جوردون أولبور في كتابه الخالد «طبيعة التحيز» -الذي كتبه عام ١٩٥٤- الاستجابات المميزة لرجل متحيز عند مواجهة أدلة تتعارض مع معتقداته:

السيد س: المشكلة مع اليهود أنهم يهتمون فقط بمجموعتهم.

السيد ص: لكن سجل حملة صندوق المجتمع يظهر أنهم يتبرعون بشكل أكثر سخاء - بما يتناسب مع أعدادهم - للجمعيات الخيرية العامة للمجتمع أكثر من غير اليهود.

السيد س: هذا يدل على أنهم يحاولون دائمًا شراء خدمة في المقابل والتطفل على الشؤون المسيحية، إنهم لا يفكرون إلا بالمال، وهذا هو سبب وجود كثير من المصرفيين اليهود.

السيد ص: لكن دراسة حديثة تظهر أن نسبة اليهود في الأعمال المصرفية ضئيلة للغاية، وهي أقل بكثير من نسبة غير اليهود.

السيد س: يبدو أنهم لا يذهبون للأعمال المحترمة، وهم فقط في صناعة الأفلام أو يديرون النوادي الليلية^{٣٧}.

لقد نال جوردون أولبور من عمليات تفكير السيد س بشكل مثالي، ولم يحاول السيد س حتى الرد على دليل السيد ص؛ لقد انتقل فقط إلى سبب آخر لعدم حبه لليهود، فبمجرد أن يكون لدى الناس تحيز - تمامًا كما هي الحال مثلما يكون لديهم أيديولوجية سياسية - فإنهم لا يتخلون عنها بسهولة حتى لو كان الدليل يتعارض بشكل حاسم مع التبرير الأساسي لها، وبدلاً من ذلك يأتون بمبرر آخر للحفاظ على معتقدتهم أو ترشيد مسار العمل. لنفترض أن السيد ص المعقول أخبرك بأن الحشرات كانت مصدرًا رائعًا للبروتين، وأن الطاهي الجديد المثير في مطعم عشاء الرخويات والبق يقدم مقبلات لذيذة تتضمن اليرقات المهروسة، فهل ستندفع لتجربة هذه المغامرة الطهوية؟ إذا كان لديك تحيز ضد أكل

الحشرات فعلى الأرجح أنك لن تفعل، حتى لو كان هذا الطاهي قد تصدر الصفحة الأولى من قسم الغذاء لصحيفة نيويورك تايمز، وسوف تجد، مثل السيد س المتعصب، سبباً آخر لتبرير ذلك، وستقول للسيد ص: «أف، الحشرات قبيحة وإسفنجية»، ولكنه سيقول: «بالتأكيد، ولكن أخبرني مرة أخرى لماذا تأكل الاستاكوزا والجندوفلي النيء؟».

من الصعب التخلص من التحيز المكتسب، وكما قال الفقيه العظيم أوليفر ويندل هولمز جونيور: «إن محاولة تثقيف المتعصب مثل تسليط الضوء على حدة العين جعلها تضيق»، وسوف ينفق معظم الأشخاص كثيراً من الطاقة العقلية لتجنب الاضطرار إلى تغيير تحيزاتهم، وذلك غالباً عن طريق تجاهل الأدلة غير المؤكدة باعتبارها «الاستثناءات التي تثبت القاعدة». (ونحن نتساءل ما الذي يمكن أن يدحض القاعدة)، والعبارة التالية: «لكن بعض أعز أصدقائي هم [س]» الذين يستحقون تماماً التهكم الذي يحصلون عليه الآن، استمر لأنه طريقة فعالة لحل التنافر الناتج عندما يتحول التحيز إلى استثناء، فعندما انتقل إليوت إلى مينيابوليس قبل سنوات للتدريس في جامعة مينيسوتا، قالت له إحدى الجارات: «أنت يهودي، لكنك ألطف بكثير من...»، وتوقفت، فسألها: «من ماذا؟»، فقالت: «مما كنت أتوقعه»، ومن خلال الاعتراف بأن إليوت لا يتناسب مع صورتها النمطية كانت قادرة على الشعور بالانفتاح والكرم مع الحفاظ على تحيزها الأساسي تجاه فئة اليهود بأكملها، ففي عقلها كانت تمدحه حتى: «إنه ألطف بكثير من كل أولئك الآخرين من... بني عرقه».

قام جيفري شيرمان وزملاؤه بسلسلة من التجارب التي توضح الجهد الذي يكون الأشخاص المتحيزون للغاية على استعداد لبذله للحفاظ على التوافق بين تحيزاتهم، والمعلومات التي لا تتفق معها، وهم في الحقيقة يولون اهتمامًا لهذه المعلومات غير المتسقة أكثر من اهتمامهم بالمعلومات المتسقة لأنهم -مثل السيد س والجارة في مينيسوتا- يحتاجون إلى معرفة كيفية تفسير الأدلة المتناقضة، وفي إحدى التجارب طُلب من الطلاب غير المثليين تقييم رجل مثلي الجنس -روبرت- والذي وُصف بأنه يقوم بثمانية أشياء تتفق مع الصورة النمطية للمثليين (على سبيل المثال أنه قد درس الرقص التفسيري) وثمانية أشياء كانت غير متسقة (على سبيل المثال كان قد شاهد مباراة كرة قدم يوم الأحد)، فحرّف المشاركون المعادون للمثلية الأدلة حول روبرت ووصفوه لاحقًا بأنه «أكثر أنوثة» مما وصفه الطلاب غير المتحيزين، وذلك للحفاظ على تحيزهم، لحل التنافر الناجم عن الحقائق غير المتسقة، وعللوا أن روبرت شاهد مباراة كرة القدم فقط لأن ابن عمه فريد كان في زيارة^{٣٩}.

تحدث هذه التشوهات التي تحد من التنافر في العالم خارج المختبر طوال الوقت. فكّر في المدى الذي يذهب إليه بعض أنصار التفوق الأبيض عندما يعلمون أن حليفًا محتملاً ليس ١٠٠٪ «أبيض»، وقد فحص آرون بانوفسكي وجوان دونوفان مئات المنشورات على الموقع الإلكتروني للجماعة القومية البيضاء الجبهة القوية ليرا كيف تقدم المنظمة المشورة للمتقدمين الذين يبلغون عن «الأخبار المزعجة»،

بأن حمضهم النووي كشف عن بعض الأصول غير البيضاء أو غير الأوروبية، فمؤسسو الجبهة القوية لديهم قواعد مطلقة للعضوية، فهم سوف يعترفون فقط «بالأشخاص غير اليهود من أصل أوروبي بالكامل بلا استثناءات»، ويقررون أن البياض يتم تحديده جينيًا، ولكن نظرًا لأنهم يريدون أكبر عدد ممكن من الأعضاء، فماذا يفعلون مع العضو المحتمل الذي يشير حمضه النووي إلى أصل غير أبيض؟ يمكنهم تقليل التنافر بطريقتين، الطريقة الصارمة والطريقة المرنة، والطريقة الصارمة هي طرده.

المنشور: مرحبًا، حصلت على نتائج الحمض النووي الخاصة بي وعلمت اليوم أنني أوروبي بنسبة ٦١٪، وأنا فخور جدًا بعريقي الأبيض وجذوري الأوروبية، وأعرف أن كثيرًا منكم «أكثر بياضًا» مني، ولكني لا أهتم فهدفنا هو نفسه، وأود أن أفعل أي شيء ممكن لحماية عرقنا الأبيض وجذورنا الأوروبية وعائلاتنا البيضاء.

الرد: لقد أعددت لك مشروبًا يتكون من ٦١٪ ماء نقيًا، والباقي هو سيانيد البوتاسيوم، وأفترض أنه ليس لديك أي اعتراضات على شربه، ولكن السيانيد ليس ماء وأنت لست أبيض.

لكن الباحثين وجدوا أن معظم أعضاء الجبهة القوية يقدمون أسبابًا غير علمية لعدم الوثوق بالنتائج من أجل زيادة أعدادهم وتقليل التنافر والتعامل مع المؤيدين المحتملين القلقين، بأقوال مثل: «هناك عديد من الطرائق للقياس لذا ابقَ معنا»، أو «إحصائيات الاختبارات لم يتم تفسيرها بدقة»، أو نظرية المؤامرة اليهودية الشائعة: «يملك اليهود

شركات الاختبار الجيني هذه ونعلم جميعاً بأجندتهم الخبيثة متعددة الثقافات». (هناك حقيقة مفادها أن شركة «٢٣ وأنا» هي شركة عامة متخصصة في الجينوم والتكنولوجيا الحيوية يسيطر عليها اليهود، ولن يكون من المفاجئ إذا كانت كل الشركات الأخرى كذلك»، وكتب أحد الأعضاء: «أعتقد أن شركة «٢٣ وأنا» قد تكون عملية سرية للحصول على الحمض النووي الذي يمكن لليهود استخدامه بعد ذلك لإنشاء أسلحة بيولوجية لاستخدامها ضدنا»)، وحتى الأشخاص الذين أبلغوا عن أدلة على وجود أصل أسود أو يهودي - وهما أكثر الأعراق احتقاراً في الجبهة القوية، حصلوا على ردود مطمئنة مصممة لشرح النتائج المتنافرة أو التقليل منها، وقد ناشدت إحدى النساء المجتمع المحلي وهي «في حالة من الذعر» لمساعدتها على تفسير الدليل على أن الحمض النووي لأمها أظهر «أصلاً قوقازياً فارسياً تركياً بنسبة ١١٪»، وهل هذا يعني أنها كانت ملوثة عنصرياً؟ فقال أحد المشاركين: ليس عليها أن تقلق، فعلى الرغم من أن سكان القوقاز مسلمون اليوم، فقد كانوا من «البيض في الأصل» وأن «الفرس آريون»^{٤٠}.

يتباهى أعضاء الجبهة القوية وغيرهم من القوميين البيض غير المستعدين لتقديم اعتذار بتحيزاتهم السابقة، ولكن معظم الأمريكيين المتحيزين ضد مجموعة معينة يعرفون أفضل الإعلان عن هذه الحقيقة، وذلك نظراً إلى أن عديداً من الناس يعيشون ويعملون في بيئات حيث يمكن صفعهم على المعصم، أو إذلالهم علناً، أو فصلهم من العمل لقولهم أي شيء ينم عن التعصب، ومع ذلك فمثلاً يتطلب الأمر جهداً

عقليًا للحفاظ على التحيز على الرغم من المعلومات المتضاربة، فإنه يتطلب أيضًا جهدًا عقليًا لقمع تلك المشاعر السلبية، وقد وجد عالما النفس الاجتماعي كريس كراندال وإيمي إيشلمان -بمراجعة الأدبيات البحثية الضخمة حول التحيز- أنه كلما كان الناس مستنفدين عاطفيًا (عندما يكونون نائمين أو محبطين أو غاضبين أو قلقين أو مخمورين أو متوترين)، يصبحون أكثر استعدادًا للتعبير عن تحيزاتهم الحقيقية تجاه مجموعة أخرى، فعندما أُلقي القبض على ميل جيسون بتهمة شرب الخمر انطلق في خطبة معادية للسامية، زعم في بيان اعتذاره في اليوم التالي: «قلت أشياء لا أعتقد أنها صحيحة وجديرة بالازدراء، وأنا أشعر بالخجل الشديد من كل ما قلته... أعترف عن أي سلوك لا يليق بي وأنا في حالة سكر»، والترجمة: «لم أكن أنا ولكن كانت الخمر». هذه محاولة جيدة ولكن الأدلة تظهر بوضوح أنه في حين أن السكر يسهّل على الناس الكشف عن تحيزاتهم، فإنه لا يضع هذه المواقف في أذهانهم.

لذلك عندما يعتذر الناس بقولهم: «أنا لا أؤمن حقًا بهذه الأشياء التي قلتها؛ لقد كنت [متعبًا/ قلقًا/ غاضبًا/ مخمورًا]»، أو -كما قال آل كامبانيس: «كنت مدمرًا تمامًا»، فيمكننا أن نكون متأكدين تمامًا من أنهم يصدقون ذلك حقًا.

لكن معظم الناس غير راضين عن الإيمان بذلك، وهذا يخلق التنافر: «أنا لا أحب هؤلاء الناس»، تصطدم مع اقتناع قوي بنفس القدر بأنه من الخطأ الأخلاقي أو الاجتماعي قول ذلك، ويرى كريس كراندال وإيمي

إيشلمان أن الأشخاص الذين يشعرون بهذا التنافر سوف يتوصلون بشغف إلى أي تبرير ذاتي يسمح لهم بالتعبير عن معتقداتهم الحقيقية، ومع ذلك يستمرون في الشعور بأنهم أخلاقيون وصالحون، ومن ثم لا عجب في أن يكون مخفضاً شعبياً للتنافر، فحتى دونالد ترامب مع تصريحاته الصاخبة ضد قائمة طويلة من الجماعات التي لا يحبها (لا سيما اللاتينيين والمسلمين وذوي الإعاقة)، واختراعه للكذبة التي تقول إن باراك أوباما لم يولد في الولايات المتحدة، وتاريخه الحافل بالتمييز ضد الأمريكيين من أصل إفريقي، شعر بالحاجة إلى طمأنة الجمهور عبر تويتير بالقول: «أنا أقل شخص قابلته عنصرية على الإطلاق»، وأنه «ليس لديَّ عظمة عنصرية في جسدي!». يوضح كريس كراندال وإيمي إيشلمان أن «التبرير» «يلغي القمع ويوفر الغطاء ويحمي الإحساس بالمساواة وصورة الذات غير المتحيزة»^{٤١}.

في إحدى التجارب النموذجية قيل للطلاب البيض إنهم سيُحدثون صدمة كهربائية لطالب آخر، وهو المتعلم، ظاهرياً كجزء من دراسة التغذية الرجعية الحيوية، وفي البداية أعطى الطلاب الذين يعملون مع متعلم أسود صدمات أقل شدة من الطلاب الذين يعملون مع متعلم أبيض، مما يعكس الرغبة -ربما- في إظهار أنهم غير متحيزين، ثم سمع الطلاب أن المتعلم يدلي بتعليقات مُهينة عنهم وهو ما جعلهم بطبيعة الحال غاضبين، ومن ثم مع إعطائهم فرصة أخرى لإحداث صدمة كهربائية، أعطى الطلاب الذين كانوا يعملون مع متعلم أسود مستويات أعلى من الصدمة من تلك التي أعطاهها الطلاب الذين كانوا يعملون مع

متعلم أبيض، وتظهر النتيجة نفسها في الدراسات حول كيفية تعامل الكنديين الناطقين باللغة الإنجليزية تجاه الكنديين الناطقين بالفرنسية، وغير المثليين تجاه المثليين، والطلاب غير اليهود تجاه اليهود، والرجال تجاه النساء^{٢٤}، ونجح المشاركون في التحكم في مشاعرهم السلبية في ظل الظروف العادية، ولكن بمجرد أن يصبحوا غاضبين أو محبطين أو عندما يتذبذب احترامهم لذاتهم، فإنهم يعبرون عن تحيزهم مباشرة لأنهم الآن يمكنهم تبرير ذلك: «أنا لست شخصاً سيئاً أو متحيزاً، ولكن مهلاً، لقد أهانني!».

بهذه الطريقة، فإن التحيز هو طاقة المركزية العرقية، وهو يتربص هناك غافياً حتى تستدعيه النزعة العرقية للقيام بعملها القذر، مبرراً الأشياء السيئة العرضية التي نريد القيام بها، نحن معشر الأشخاص الطيبين، ففي الغرب الأمريكي تم توظيف المهاجرين الصينيين في القرن التاسع عشر للعمل في مناجم الذهب، وربما أخذوا وظائف من العمال البيض، ولذا أثارت الصحف التي يديرها البيض التحيز ضدهم واصفة الصينيين بأنهم «فاسدون وأشرار»، و«شديدو الشراهة»، و«متعطشون للدماء وغير إنسانيين»، ومع ذلك، بعد عقد من الزمن فقط -عندما كان الصينيون على استعداد لقبول العمل الخطير والشاق لبناء خط السكة الحديد العابرة للقارة، وهو العمل الذي لم يكن العمال البيض راغبين في القيام به- هداً التحيز العام تجاههم وحل محله الرأي القائل بأن الصينيين كانوا رصينين ومجتهدين وملتزمين بالقانون، وقال رجل الأعمال تشارلز كروكر قطب السكك الحديدية: «إنهم متساوون

مع أفضل الرجال البيض، وهم مؤتمنون وأذكاء للغاية ويلتزمون بعقودهم»، وبعد الانتهاء من السكك الحديدية أصبحت الوظائف نادرة مرة أخرى، وأدت نهاية الحرب الأهلية إلى تدفق قدامى المحاربين إلى سوق العمل الضيق بالفعل، ومن ثم عاد التحيز ضد الصينيين، وأصبحت الصحافة تصف الصينيين بأنهم مجرمون ومتواطئون وماكرون وأغبياء^{٤٣}.

التحيز يبرر المعاملة السيئة التي نلحِقها بالآخرين، ونحن نريد معاملة الآخرين بطريقة سيئة لأننا لا نحبهم، ولكن لماذا لا نحبهم؟ لأنهم يتنافسون معنا على وظائف في سوق عمل قاسٍ، ولأن وجودهم يجعلنا نشك في أن ديننا هو الدين الوحيد الصحيح، ولأننا نريد الحفاظ على مناصبنا من حيث المكانة والسلطة والامتيازات، ولأن بلادنا تشن حرباً عليهم، ولأننا غير مرتاحين لعاداتهم -خاصة عاداتهم الجنسية- هؤلاء المنحرفين الفاسدين، ولأنهم يرفضون الاندماج في ثقافتنا، ولأنهم يحاولون جاهدين الاندماج في ثقافتنا، ولأننا بحاجة إلى أن نشعر بأننا أفضل من شخص آخر.

من خلال فهم التحيز باعتباره خادماً الذي يبرر نفسه، يمكننا أن نرى بشكل أفضل سبب صعوبة القضاء على بعض التحيزات: فهي تسمح للناس بتبرير أهم هوياتهم الاجتماعية والدفاع عنها، مثل عرقهم «الأيض»، ودينهم، وجنسهم، وميولهم الجنسية مع تقليل التنافر بين «أنا الشخص الطيب» و«أنا حقاً لا أحب هؤلاء الأشخاص»، ولحسن الحظ، يمكننا أيضاً أن نفهم بشكل أفضل الظروف التي تتضاءل فيها الأحكام

السابقة: عندما تهدأ المنافسة الاقتصادية، وعندما تُوقَّع الهدنة، وعندما تُدمَّج المهنة، وعندما يصبح أكثر دراية وراحة، وعندما نتوقف عن رؤيتهم ككتلة غير متميزة وندرك أنهم مجموعة متنوعة من الأفراد مثلنا. كتب ألبرت سبير -أحد أتباع هتلر- في مذكراته: «في الظروف العادية، إن الأشخاص الذين يديرون ظهورهم للواقع سرعان ما يُوضعون في نصابهم من خلال سخرية وانتقاد من حولهم، مما يجعلهم يدركون أنهم فقدوا مصداقيتهم، وفي الرايح الثالث لم تكن هناك مثل هذه التصحيحات، خاصة بالنسبة إلى أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة العليا، وعلى العكس من ذلك، فإن كل خداع للذات كان يتضاعف كما هي الحال في قاعة المرايا المشوهة، لتصبح صورة مؤكدة مرارًا وتكرارًا للعالم أحلام خيالي لم يعد يحمل أي علاقة بالعالم الخارجي الكئيب، وفي تلك المرايا لم أستطع أن أرى سوى وجهي الذي أعيد إنتاجه مرات ومرات»^{٤٤}.

يكنم أملنا الأكبر في التصحيح الذاتي في التأكد من أننا لا نعمل في قاعة المرايا، حيث كل ما نراه هو انعكاسات مشوهة لرغباتنا وقناعاتنا، فنحن بحاجة إلى عدد قليل من الرافضين الموثوق بهم في حياتنا، والنتقاد المستعدين لثقب فقاعة الحماية الخاصة بنا من المبررات الذاتية وإعادتنا إلى الواقع إذا انحرفنا بعيدًا أكثر من اللازم، وهذا مهم خاصة للأشخاص في مواقع السلطة.

وفقًا للمؤرخ دوريس كيرنز جودوين، كان أبراهام لنكولن أحد الرؤساء النادرين الذين فهموا أهمية إحاطة أنفسهم بأشخاص يرغبون في الاختلاف معهم، فقد شكَّل لنكولن حكومة ضمت أربعة من خصومه

السياسيين، منهم ثلاثة تنافسوا معه على ترشيح الحزب الجمهوري في عام ١٨٦٠ والذين شعروا بالإهانة والارتعاش والغضب لأنهم خسروا أمام محام غير معروف نسيباً، وهم: وليام سيوارد (الذي عينه لنكولن وزيراً للخارجية)، وسالمون بي تشيس (وزير الخزانة)، وإدوارد بيتس (المدعي العام)، وعلى الرغم من أن الجميع اشتركوا في هدف لنكولن المتمثل في الحفاظ على الاتحاد وإنهاء العبودية، فإن «فريق المنافسين» (كما يسميهم جودوين) اختلف بعضهم بشدة مع بعض حول كيفية القيام بذلك.

في بداية الحرب الأهلية، كان لنكولن في ورطة سياسية عميقة، إذ كان عليه أن يسترضي ليس فقط المؤيدين للقضاء على العنصرية في الشمال الذين أرادوا تحرير العبيد الهاربين، ولكن أيضاً مالكي العبيد من الولايات الحدودية مثل ميسوري وكنتاكي، وكان من الممكن أن تنضم هذه الولايات الحدودية إلى الكونفدرالية في أي وقت، وهو ما كان سيُسكِّل كارثة على الاتحاد، ونتيجة للمناقشات التي تلت ذلك مع مستشاريه، الذين كانت لديهم جميعاً أفكار مختلفة حول كيفية إبقاء كلا الجانبين في الصف، ولم يستطع لنكولن أن يخدع نفسه بأنه كان لديه إجماع المجموعة على كل قرار، ولكنه كان قادراً على التفكير في البدائل وفي النهاية حشد احترام ودعم منافسيه السابقين^{٤٥}.

ما دمنا مقتنعين بأننا موضوعيون تماماً، وأننا فوق الفساد، ومحصنون ضد التحيز، فمعظمنا سيجد نفسه -من وقت لآخر- على طريقنا الشخصي إلى سانت أندروز، وسيكون بعضنا على تلك الطائرة

إلى بانكوك. جيب ستيوارت ماجرودر، الذي وقع في فخ الفساد السياسي لفضيحة ووترجيت التي وصفناها في الفصل السابق، أعماه إيمانه بأهمية القيام بكل ما يتطلبه الأمر - حتى لو كان ذلك ينطوي على أعمال غير قانونية - لهزيمة «هم»، أعداء نيكسون السياسيون، ولكن عندما قُبض عليه كان يمتلك الشجاعة لمواجهة نفسه، وهي لحظة مروعة ومؤلمة لأي شخص، مثل رؤية نفسك في المرآة وإدراك أن لديك نموًا أرجوانيًا ضخماً على جبينك، وكان بإمكان ماجرودر أن يفعل ما يميل معظمنا إلى فعله: يحصل على بعض المكياج الثقيل ويقول: «أين هو النمو الأرجواني؟»، ولكنه قاوم الدافع وقال إنه في التحليل النهائي لم يجبره أحد أو يجبر الآخرين على خرق القانون، وكتب: «كان بإمكاننا الاعتراض على ما كان يحدث أو الاستقالة احتجاجاً»^{٤٦}، و«بدلاً من ذلك أقنعنا أنفسنا بأن الخطأ كان صواباً واندفعنا إلى الأمام».

«لا توجد طريقة لتبرير السطو والتنصت على المكالمات الهاتفية والحنث باليمين وجميع العناصر الأخرى للتستر... أنا وآخرون بررنا الإجراءات غير القانونية على أساس «السياسة كالمعتاد» أو «جمع المعلومات الاستخبارية» أو «الأمن القومي»، و«قد كنا مخطئين تماماً، وفقط عندما اعترفنا بذلك ودفعنا الثمن العام لأخطائنا، يمكننا أن نتوقع أن يكون لدى الجمهور عموماً ثقة كبيرة بحكومتنا أو نظامنا السياسي».

٣. الذاكرة، مؤرخ تبرير الذات

«ما نشير إليه بثقة كذاكرة... هو في الحقيقة شكل من أشكال سرد القصص الذي يجري باستمرار في ذهن وغالبًا ما يتغير مع السرد».

- وليام ماكسويل، كاتب مذكرات ومحرر

قبل سنوات عديدة - خلال إدارة كارتر- أجرى توم بروكاو، الصحفي التلفزيوني البارز والمضيف، مقابلة مع الروائي والشخصية الإعلامية اللامعة جور فيدال، في برنامج توداي، ووفقًا لفيدال فقد قال بروكاو: «لقد كتبت كثيرًا عن الثنائية الجنسية»، وقاطعه فيدال قائلاً: «توم، دعني أخبرك عن برامج الصباح هذه، من المبكر جدًا الحديث عن الجنس. لا أحد يريد أن يسمع عنه في هذه الساعة، فلا تطرحه»، «نعم، آه، لكن يا جور، أنت كتبت كثيرًا عن الثنائية الجنسية»، فقاطعه فيدال مرة أخرى قائلاً إن كتابه الجديد لا علاقة له بالثنائية الجنسية وإنه يفضل الحديث عن السياسة، وحاول بروكاو مرة أخرى ولكن فيدال رفض مرة أخرى مناقشة الموضوع قائلاً: «الآن دعونا نتحدث عن كارتر...

ماذا يفعل مع هؤلاء الدكاتوريين البرازيليين الذين يتظاهرون بأنهم قادة محبوبون للحرية وديمقراطيون؟». وهكذا تحولت المحادثة إلى كارتر لبقية المقابلة، وبعد عدة سنوات -عندما أصبح بروكاو مذيعةً لنايتلي نيوز، قامت مجلة تايم بعمل تحقيق عنه وسألته عن أي مقابلات صعبة خاصة أجراها، فحدد بروكاو المحادثة مع جور فيدال قائلاً: «أردت التحدث عن السياسة وأراد التحدث عن الثنائية الجنسية».

وعقب فيدال قائلاً: «كان العكس تمامًا، لجعلي شرير القصة»^١.

هل كانت نية توم بروكاو تحويل جور فيدال إلى شرير القصة؟ هل كان بروكاو يكذب، كما أشار فيدال؟ هذا غير محتمل، ففي النهاية لقد اختار بروكاو القصة ليخبرها لمراسل التايم، وكان بإمكانه اختيار أي مقابلة صعبة في حياته المهنية الطويلة بدلاً من تلك التي تطلبت منه التجميل أو الكذب، وفي الواقع، كان الصحفي يتحقق من النسخة الأصلية، وعكس بروكاو من قال ماذا من دون وعي، ليس لجعل فيدال يبدو سيئاً ولكن لجعل نفسه يبدو جيداً، وكان من غير اللائق أن يطرح المذيع الجديد في برنامج نايتلي نيوز أسئلة حول الثنائية الجنسية؛ من الأفضل تصديق (وتذكر) أن فيدال اختار دائماً الطريق الفكري العالي للسياسة.

عندما يُنتج شخصان ذكريات مختلفة تمامًا عن نفس الحدث، يفترض المراقبون عادةً أن أحدهما يكذب، وبالطبع يخترع بعض الأشخاص القصص أو يزينونها للتلاعب بجماهيرهم أو خداعهم (أو بيع الكتب)، ولكن معظمنا -في معظم الأحيان- لا يقول الحقيقة كاملة

ولا يخدع عن قصد، فنحن لا نكذب ولكن نبرر أنفسنا، وكلنا -ونحن نروي قصصنا- نضيف التفاصيل ونحذف الحقائق غير المريحة. نعطي الحكاية دوراً صغيراً يعزز الذات، وينجح هذا الدوران لدرجة أنه في المرة القادمة التي نروي فيها القصة نضيف زخرفة أكثر دراماتيكية، ونحن نبرر تلك الكذبة البيضاء الصغيرة باعتبارها تجعل القصة أفضل وأوضح، وفي نهاية المطاف، فإن الطريقة التي نتذكر بها الحدث قد تجعلنا نبتعد كثيراً عما حدث بالفعل.

وبهذه الطريقة، تصبح الذاكرة مؤرخنا الشخصي، الذي يعيش في ذاته ويبرر ذاته، وقد وصف عالم النفس الاجتماعي أنطوني جرينوالد الذات بأنها محكومة بـ«الأنا الشمولية» التي تدمر بلا رحمة المعلومات التي لا تريد سماعها -مثل كل القادة الفاشيين- وتعيد كتابة التاريخ من وجهة نظر المنتصر^٢، ولكن في حين أن الحاكم الشمولي يعيد كتابة التاريخ ليضعه على الأجيال القادمة، فإن الأنا الشمولية تعيد كتابة التاريخ لتضعه على نفسها، والتاريخ يكتبه المنتصرون، وعندما نكتب تاريخنا تكون لدينا نفس الأهداف التي يمتلكها غزاة الأمم، لتبرير أفعالنا وجعلنا نشعر بالرضا عن أنفسنا وعما فعلناه أو فشلنا في القيام به، وفي حالة حدوث أخطاء تساعدنا الذاكرة على تذكر أن شخصاً آخر قد ارتكبها، وأنها إذا كنا موجودين، فقد كنا مجرد متفرجين أبرياء.

تعمل الذاكرة -في أبسط مستوى- على تلطيف تجاعيد التنافر من خلال تمكين التحيز التأكيدي من التدمير، مما يؤدي بشكل انتقائي إلى نسيان المعلومات المتضاربة والمثبطة عن المعتقدات التي نعتز بها، وإذا

كنا كائنات عقلانية مثالية فسنحاول أن نتذكر الأفكار الذكية والعقلانية، ولا نُتعب عقولنا من خلال تذكر الأفكار الحمقاء. لكن نظرية التنافر تتنبأ بأننا سننسى بشكل مريح الحجج الجيدة التي قدمها الخصم، تمامًا كما سننسى الحجج الحمقاء التي قدمها جانبنا، إذ تشير حجة سخيفة لصالح موقفنا التنافر لأنها تثير الشكوك حول حكمة هذا الموقف أو ذكاء الأشخاص الذين يتفقون معه، وبالمثل، فإن الحجة المعقولة من قبل الخصم تثير التنافر لأنها تثير احتمال أن يكون الطرف الآخر -لا سمح الله- على حق أو أن تكون لديه وجهة نظر يجب أن نأخذها على محمل الجد، ونظرًا لأن الجدل السخيف من جانبنا والحجة الجيدة من جانب الشخص الآخر تثير التنافر، فإن النظرية تتنبأ بأننا إما لن نتعلم هذه الحجج جيدًا أو سننساها بسرعة، وهذا بالضبط ما أظهره إدوارد جونز وريكا كوهلر في تجربة كلاسيكية عام ١٩٥٨، حول المواقف تجاه إلغاء الفصل العنصري في ولاية كارولينا الشمالية^٣، فقد كان كل جانب يميل إلى تذكر الحجج المعقولة التي تتفق مع موقفه والحجج غير المعقولة التي تتفق مع الموقف المعارض، ونسي كل جانب الحجج غير المعقولة لوجهة نظره والحجج المعقولة للمعارضة.

بطبيعة الحال، يمكن أن تكون بعض الذكريات مفصلة ودقيقة بشكل ملحوظ، فنحن نتذكر القبلات الأولى والمعلمين المفضلين، ونعيد نشر القصص العائلية والأفلام والمواعيد العاطفية وإحصائيات كرة القاعدة وإذلالات الطفولة وانتصاراتها، إننا نتذكر الأحداث المركزية لقصص حياتنا، ولكننا عندما نخطئ في التذكر فإن أخطاءنا

لا تكون عشوائية، إذ تساعدنا تشوهات الذاكرة اليومية التي تقلل من التنافر على فهم العالم ومكاننا فيه وحماية قراراتنا ومعتقداتنا، ويكون التشويه أكثر قوة عندما يكون مدفوعاً بالحاجة إلى الحفاظ على تماسك مفهومنا الذاتي، أو الرغبة في أن نكون على حق، أو بالحاجة إلى الحفاظ على احترام الذات، أو بالحاجة إلى تبرير الفشل أو القرارات السيئة، أو بالحاجة إلى إيجاد تفسير، ويفضل أن يكون تفسيراً مأموناً من الماضي للمشكلات الحالية، ومن ثم فإن التشويش والتشويه والنسيان الواضح هم جنود الذاكرة، ويتم استدعائهم إلى الخطوط الأمامية عندما تريد الأنا الشمولية حمايتنا من الألم والإحراج، ومن الإجراءات التي اتخذناها والتي تتعارض مع صورتنا الذاتية الأساسية: «هل فعلت ذلك؟»، هذا هو السبب في أن الباحثين في الذاكرة يحبون اقتباس نيتشه: «لقد فعلت ذلك» كما تقول ذاكرتي، و«لا يمكنني فعل ذلك» تقول كبريائي، ويستمر العناد ولكن في النهاية تدعن الذاكرة».

تحيزات الذاكرة

كان لدى أحدها (كارول) كتاب مفضل للأطفال، وهو كتاب جيمس ثوربر **حرف الواو الرائع** (The Wonderful O)، الذي تتذكر أن والدها أعطاها إياه عندما كانت طفلة، وتتذكر كارول القصة: «استولت مجموعة من القراصنة على جزيرة ومنعت السكان المحليين من نطق أي كلمة أو استخدام أي شيء يحتوي على حرف الواو، وأتذكر والذي وهو يقرأ قصة **حرف الواو الرائع** ونحن نضحك معاً على فكرة محاولة

أوفيليا أوليفر الخجولة لأن تقول اسمها من دون حروف الواو، وأتذكر محاولتي بشكل جريء -جنباً إلى جنب مع سكان الجزر الذين تم غزوهم- تخمين الكلمة الرابعة التي يجب ألا تضيع أبداً (بعد الوجد love والتوق hope والبطولة valor)، وتخمينات والذي المزعجة: أوريجون؟ أورانج أوتان؟ وبعد ذلك، منذ وقت ليس ببعيد، وجدت نسختي من أول طبعة لكتاب **حرف الواو الرائع** والتي نُشرت في عام ١٩٥٧، بعد وفاة والذي بعام واحد، حدثت إلى ذلك التاريخ في حالة من الصدمة وعدم التصديق، ومن الواضح أن شخصاً آخر أعطاني هذا الكتاب، وقرأه لي، وضحك معي بشأن أوفيليا أوليفر، «شخص آخر أرادني أن أفهم أن الكلمة الرابعة هي الحرية freedom. شخص ما ضاع من ذكرياتي».

توضح هذه القصة الصغيرة ثلاثة أشياء مهمة عن الذاكرة: كم هو مريبك أن تدرك أن ذكرى حية مليئة بالعواطف والتفاصيل خاطئة بلا منازع؛ وحتى أن كونك متأكداً بشكل إيجابي من دقة الذاكرة لا يعني أنها كذلك؛ وكيف تدعم الأخطاء في الذاكرة مشاعرنا ومعتقداتنا الحالية، وفي هذا تلاحظ كارول: «لديّ مجموعة من المعتقدات حول والذي، والرجل الدافئ الذي كان عليه، ذلك الأب المضحك والمخلص الذي أحب أن يقرأ لي ويأخذني في البحث في المكتبات، والذي يعشق التلاعب بالألفاظ، ولذلك كان من المنطقي بالنسبة إليّ أن أفترض -بل أتذكر- أنه هو من قرأ لي كتاب **حرف الواو الرائع**».

تناسب استعارات الذاكرة العصر والتقنيات، فقبل قرون قارن

الفلاسفة الذاكرة بلوح شمع ناعم يحفظ أي شيء مطبوع عليه، ومع ظهور المطبعة بدأ الناس يفكرون في الذاكرة كمكتبة أو ربما مجموعة من خزائن الملفات، حيث يمكن تخزين الأحداث والحقائق لاسترجاعها لاحقاً إذا كان بإمكانك العثور عليها فقط في كتالوج البطاقات اللعينة، ومع اختراعات الأفلام وأجهزة التسجيل بدأ الناس يفكرون في الذاكرة ككاميرا فيديو يتم الضغط عليها في لحظة الولادة، أما في الوقت الحاضر فإننا نفكر في الذاكرة من منظور الكمبيوتر، وعلى الرغم من أن بعضنا يرغب في مزيد من ذاكرة الوصول العشوائي، فإننا نفترض أن كل ما يحدث لنا يتم «حفظه»، وقد لا يختار عقلك عرض كل تلك الذكريات، ولكنها موجودة هناك تنتظر فقط وصولك إليها وإظهارها على الشاشة وإخراج الفشار والمشاهدة.

هذه الاستعارات للذاكرة شائعة ومطمئنة وخاطئة، لأن الذكريات لا تُدفن في مكان ما في المخ مثلما تُدفن العظام في موقع أثري ولا يمكنك استخراجها فهي محفوظة بشكل مثالي، فنحن لا نتذكر كل ما يحدث لنا، وإنما نختار فقط النقاط البارزة، وإذا لم ننسَ فلن تتمكن أذهاننا من العمل بكفاءة، لأنها ستكون مزدحمة بالخردة العقلية، مثل: درجة الحرارة يوم الأربعاء الماضي، أو محادثة مملة في الحافلة، أو سعر الخوخ في السوق بالأمس، وقلة قليلة من الناس لديهم الاستعداد الذي يسمح لهم بتذكر كل شيء تقريباً، من حقيقة عشوائية مثل الطقس في ١٢ مارس ١٩٩٧، إلى الأحداث العامة، إلى التجارب الشخصية، ولكن هذه الموهبة ليست دائماً النعمة التي قد تبدو عليها، فقد وصفت

امرأة تتمتع بهذه القدرة ذاكرتها بأنها «بلا توقف ولا يمكن السيطرة عليها ومرهقة تمامًا وعبء»^٥، ومن ثم فإن التشذيب الحكيم للذكريات يجعلها قابلة للمواءمة، وحتى الأشخاص الذين لديهم ذكريات غير عادية لا «يسجلون» كل ما يحدث لهم كما لو كانوا على الفيديو.

علاوة على ذلك، فإن استعادة الذاكرة لا تشبه على الإطلاق استرجاع ملف أو تشغيل تسجيل؛ إنها أشبه بمشاهدة عدد قليل من الإطارات غير المتصلة ليلم ثم اكتشاف ما يجب أن يكون عليه المشهد المتبقي، وقد نعيد إنتاج الشعر والنكات وأنواع أخرى من المعلومات عن طريق الحفظ عن ظهر قلب، ولكن عندما نتذكر معلومات معقدة، فإننا نُشكّلها لتلائم قصة ما.

نظرًا لأن الذاكرة هي عملية إعادة بناء، فهي عرضة للارتباك والخلط بين حدث وقع لشخص آخر وحدث وقع لك، أو اعتقادك أنك تتذكر شيئًا لم يحدث قط في الواقع، وعند إعادة بناء الذاكرة يعتمد الناس على عديد من المصادر، فعندما تتذكر حفلة عيد ميلادك الخامس قد تتذكر مباشرة أن أخاك الأصغر وضع إصبعه في الكعكة وأفسدها، ولكنك ستدرج أيضًا المعلومات التي حصلت عليها لاحقًا من القصص العائلية والصور ومقاطع الفيديو المنزلية وحفلات أعياد الميلاد التي شاهدتها على التلفزيون، يمكنك نسج كل هذه العناصر معًا في رواية واحدة متكاملة، وإذا نَوَّمت شخص ما مغناطيسيًا وأعادك إلى حفلة عيد ميلادك الخامس، فسوف تروي قصة حية عنها ستشعر بأنها حقيقية للغاية بالنسبة إليك، ولكنها ستضمن عديدًا من التفاصيل

التي لم تحدث في الواقع، وبعد فترة لن تتمكن من تمييز ذاكرتك الفعلية عن المعلومات اللاحقة التي تتسلل من مكان آخر، وتسمى هذه الظاهرة بـ«ارتباك المصدر»، والمعروفة أيضًا باسم مشكلة «أين سمعت ذلك؟»^٦، هل قرأتها، أم شاهدتها، أم أخبرني أحد بها؟

استفادت ماري مكارثي ببراعة من فهمها للتخاريف في رواية ذكريات فتاة كاثوليكية، وهي استثناء نادر للطريقة التي يروي بها معظمنا قصصنا، ففي نهاية كل فصل أخضعت ماري مكارثي ذكرياتها للأدلة المؤيدة لها أو المضادة لها، وحتى عندما قتلت الأدلة قصة جيدة، ففي رواية «فراشة القصدير»، تتذكر مكارثي بوضوح الوقت الذي اتهمها فيه عمها مايروز وعمتها مارجريت -الأقارب الذين أخذوها هي وإخوتها عندما توفي والداهم- بسرقة جائزة حلوى كراكر جاك والتي كانت فراشة من القصدير، وكانت بريئة، إلا أن البحث الشامل للأسرة فشل في العثور عليها. وفي إحدى الليالي بعد العشاء عُثِر على الفراشة تحت القماش الخشن على طاولة الطعام، بالقرب من منزل ماري، وقام عم ماري وعمتها بجلدها بشدة بسبب هذه السرقة المزعومة، فجلدها العم بمِشْحَد جلدي، وضربتها العمة بفرشاة شعر، ولكن ما حدث للعبة ظل لغزًا. وبعد سنوات، عندما كبر الأشقاء واستعادوا ذكرياتهم معًا، تحدثوا عن العم مايروز اللعين، وكتبت ماري مكارثي: «أخبرني أخي بريستون أنه في الليلة الشهيرة للفراشة، رأى العم مايروز يتسلل إلى غرفة الطعام من حجرة صغيرة ويرفع مفرش المائدة، بفراشة قصدير في يده».

نهاية الفصل ... خلاب! نهاية درامية رُويت ببراعة، وتضيف ماري مكارثي حاشية في أثناء كتابتها للقصة، تقول فيها: «تذكرت فجأة أنني بدأت في كتابة مسرحية حول هذا الموضوع وأنا في الكلية، فهل يمكن أن تكون فكرة وضع العم مايروز الفراشة بالقرب من منزلي قد اقترحتها لي معلمتي؟ أكاد أسمع صوتها يقول لي بحماس: «يجب أن يكون عمك قد فعل ذلك!»». اتصلت ماري بأشقائها، ولكن لم يتذكر أي منهم روايتها للأحداث -بما في ذلك بريستون الذي لم يتذكر رؤية العم مايروز مع الفراشة (كان عمره سبع سنوات فقط في ذلك الوقت) - أو زعم أنه قال ذلك ليلة الزيارة العائلية، وتستنتج ماري مكارثي أن «الشيء الأكثر احتمالاً - كما أخشى - هو أنني دمجت ذكريات قصة الفراشة المفقودة وشرح المعلمة اللاحق لما يمكن أن يكون قد حدث^٧، وكان زرع العم مايروز للفراشة تحت مفرش المائدة منسجماً مع مشاعر ماري مكارثي حول خُبثه العام، وبررت سخطها عن حق بشأن معاقبتها ظلمًا.

عندما يكتب معظم الناس مذكراتهم أو يصفون تجاربهم السابقة، فإنهم لا يفعلون ذلك بالطريقة التي قامت بها ماري مكارثي. إنهم يفعلون ذلك بالطريقة التي يروون بها قصصهم لمعالج: «دكتور، هذا ما حدث»، وهم يعتمدون على أن المستمع لن يقول: آه طبعًا، هل أنت متأكد من حدوث الأمر بهذه الطريقة؟ هل أنت متأكد من أن والدتك كرهتك؟ هل أنت متأكد من أن والدك كان مثل هذا الوحش؟ وبينما نحن هنا، دعنا نفحص ذكرياتك تلك عن حبيبك السابقة الرهيبة. هل من المحتمل أن تكون قد نسيت أي شيء فعلته قد يكون مزعجًا ولو

بقدر ضئيل؟ هل من المحتمل أن تكون قد نسيت أي شيء فعلته ربما كان أمرًا مزعجًا، كتلك العلاقة الصغيرة التي بررتها مع المحامي من باجتسل، أو كلاهما؟ وعلى العكس من ذلك، نحن نروي قصصنا بثقة بأن المستمع لن يجادل فيها أو يطلب رفض الأدلة، مما يعني أنه نادرًا ما يكون لدينا حافز للتدقيق فيها للتأكد من دقتها، فقد تكون لديك ذكريات بارزة بالنسبة إليك عن والدك، والتي تمثل الرجل الذي كان عليه والعلاقة التي تربطك به، ماذا نسيت؟ أنت تتذكر ذلك الوقت الذي كنت فيه غير مطيع وضربك، وما زلت غاضبًا لأنه لم يشرح سبب تأديبه لك، ولكن هل يمكن أن تكون من النوع الذي لا يستطيع الأب أن يشرح له الأشياء لأنك كنت غير صبور ومندفعًا ولم تستمع إليه؟ وعندما نحكي قصة فإننا نميل إلى ترك أنفسنا خارجًا: لقد فعل والدي كذا وكذا بسبب هويته، وليس بسبب نوع الطفل الذي كنت عليه. هذا هو تبرير الذات للذاكرة، ولهذا السبب عندما نتعلم أن الذاكرة خاطئة نشعر بالذهول والارتباك كما لو أن الأرض قد مادت تحت قدمينا، وهو ما حدث بمعنى ما، فقد جعلنا نعيد التفكير في دورنا في القصة.

كل والد كان لاعبًا غير راغب في لعبة لا يمكنه الفوز بها، فاطلب من ابنتك أن تأخذ دروسًا في العزف على البيانو، وستشتكي بعد ذلك من أنك دمرت جها للبيانو، ودع ابنتك تتخلى عن الدروس لأنها لا تريد أن تتدرب وبعد ذلك ستشتكي من أنه كان عليك إجبارها على الاستمرار، لأنها الآن لا يمكنها العزف على البيانو على الإطلاق. اطلب من ابنك أن يذهب إلى المدرسة العبرية في فترة ما بعد الظهر، وسوف يلومك

لأنك حرمته من أن يصبح هانك جرينبيرج آخر (هانك جرينبيرج هو لاعب كرة قاعدة أمريكي)، واسمح لابنك بتخطي المدرسة العبرية وسوف يلومك لاحقاً على عدم شعوره بالارتباط بترائه، وقد أنتجت بيتسي بترسن انتحاباً يتميز بالشراء في مذكراتها المعنونة **الرقص مع أبي**، وألقت باللوم على والديها لإعطائها دروس السباحة ودروس الترامبولين ودروس ركوب الخيل ودروس التنس، ولكن ليس دروس الباليه، وكتبت: «الشيء الوحيد الذي أردته لم يعطيني إياه»، ولوم الوالدين هو شكل شائع وملائم لتبرير الذات، لأنه يسمح للناس بالعيش بشكل أقل انزعاجاً مع ندمهم وعيوبهم، فقد ارتكبت الأخطاء ولكن من قبل والدي فقط، ودعك من أنني أثرت الجحيم حول تلك الدروس أو رفضت بعناد أن أفكر فيها، وبالتالي فإن الذاكرة تقلل من مسؤوليتنا وتبالغ في مسؤوليتها.

إن أهم التشوهات والتخاريف في الذاكرة -إلى حد بعيد- هي تلك التي تعمل على تبرير وتفسير حياتنا، فالعقل باعتباره العضو الذي يصنع المعنى لا يفسر تجاربنا كما لو كانت شظايا منفصلة من الزجاج، وإنما يجمعها في فسيفساء، ومن على بُعد سنوات نرى نمط الفسيفساء، الذي يبدو ملموساً وغير قابل للتغيير، ولا يمكننا تخيل كيف يمكننا إعادة تشكيل تلك القطع في تصميم آخر، ولكنها نتيجة سنوات من سرد قصتنا، وتشكيلها في قصة حياة كاملة مع الأبطال والأشرار، تصف كيف أصبحنا على ما نحن عليه، ولأن هذا السرد هو الطريقة التي نفهم بها العالم ومكاننا فيه فهو أكبر من مجموع أجزائه، وإذا ظهر خطأ في

جزء واحد -ذاكرة واحدة- يجب على الناس تقليل التنافر الناتج، وحتى إعادة التفكير في الفئة العقلية الأساسية: هل تقصد أن أبي [أمي] لم يكن شخصاً سيئاً [جيداً] في نهاية الأمر؟ تقصد أن أبي [أمي] كان إنساناً معقداً؟ قد تكون قصة الحياة صحيحة بشكل أساسي، وربما كان والدك أو والدتك حقاً مكروهين أو مثاليين، ولكن تكمن المشكلة في أن السرد عندما يصبح مصدرًا رئيسيًا لتبرير الذات، فإن أحد المصادر التي يعتمد عليها الراوي لتبرير الأخطاء والفشل تصبح الذاكرة معوجة لخدمته، ويتذكر الراوي فقط الأمثلة المؤكدة لحقد الوالدين وينسى الحالات المتنافرة من الصفات الجيدة للوالد، وبمرور الوقت، تتصلب القصة ويصبح من الصعب رؤية الوالد بأكمله كمزيج من الخير والشر، ونقاط القوة والضعف، والنيّات الحسنة والأخطاء الفادحة.

تصنع الذكريات قصصنا، ولكن قصصنا تصنع ذكرياتنا أيضًا، فبمجرد أن نحصل على قصة نشكّل ذكرياتنا لتلائمها، وقد أظهرت باربرا تيفرسكي وإليزابيث مارش في سلسلة من التجارب كيف «نسجّل قصص حياتنا»، وفي إحداها قرأ الناس قصة عن رفيقين في السكن فعل كلاهما شيئاً مزعجاً وشيئاً اجتماعيًا، ثم طُلب منهما كتابة رسالة عن أحد زملائهما في السكن -إما رسالة شكوى إلى سلطة الإسكان أو خطاب توصية إلى نادٍ اجتماعي- وفي أثناء كتابتهما أضاف المشاركون في الدراسة توضيحات وتفاصيل إلى رسائلهما لم تكن جزءًا من القصة الأصلية، فإذا كانا يكتبان توصية فقد يضيفان «راشيل مَرِحَة»، وفي وقت لاحق عندما طُلب منهما تذكر القصة الأصلية بأكبر قدر ممكن

من الدقة، أصبحت ذكرياتهما متحيزة في اتجاه الرسالة التي كتبها^٨، وتذكرا التفاصيل المزيفة التي أضافها ونسيا المعلومات المتنافرة التي لم يكتبها عنها.

لإظهار كيف تتغير الذاكرة لتناسب قصصنا، يدرس علماء النفس كيف تتطور الذكريات بمرور الوقت: إذا تغيرت ذكرياتك عن نفس الأشخاص وأصبحت إيجابية أو سلبية اعتمادًا على ما يحدث في حياتك الآن، فالأمر كله يتعلق بك وليس بهم، وتحدث هذه العملية تدريجيًا لدرجة أنه قد يكون من المفاجئ أن تدرك أنك شعرت بشكل مختلف، وقد كتبت امرأة إلى كاتبة النصيحة العزيزة إيمي: «قبل بضع سنوات وجدت يوميات كتبتها عندما كنت مراهقة، وكانت مليئة بعدم الأمان والغضب، وقد صُدمت عندما قرأت أنني شعرت بهذه الطريقة، فأنا أعتبر علاقتي بأمي وثيقة جدًا ولا أتذكر أي مشكلات كبيرة، رغم أن اليوميات تشير إلى عكس ذلك».

تم تحديد سبب عدم «تذكر كاتب الرسالة لأي مشكلات كبيرة» في تجربتين بواسطة بروك فيني وجود كاسيدي، اللتين أظهرتا كيف أن المراهقين يتذكرون (بشكل غير صحيح) الخلافات مع كلا والديهم. جاء المراهقون وأولياء أمورهم إلى المختبر وملأوا استمارات تسرد موضوعات الخلاف النموذجية -المظهر الشخصي، وحظر التجول، والخناقات مع الأشقاء، وغيرها من الأمور المعتادة، وبعد ذلك، كانت لكل مراهق جلسة مدتها عشر دقائق مع كل والد على حدة لمناقشة ومحاولة إعادة حل أكبر مجالات الخلاف لديهم، وأخيرًا، صنّف

المراهقون شعورهم حيال النزاع، ومدى حدة مشاعرهم، وما هي مواقفهم تجاه والديهم وما إلى ذلك، وبعد ستة أسابيع طُلب منهم تذكر النزاع وتقييمه مرة أخرى وردود أفعالهم عليه، فتذكر المراهقون الذين شعروا في تلك اللحظة بأنهم قريبون من والديهم أن الشجار كان أقل حدة وتضاربًا مما ذكروه في ذلك الوقت، أما المراهقون الذين كانوا يشعرون بالتناقض والبعد عن والديهم فتذكروا النزاع على أنه كان أشد غضبًا وأكثر مرارة مما صنفوه في ذلك الوقت^٩.

مثلما تشكّل مشاعرنا الحالية تجاه والدينا ذكرياتنا عن الطريقة التي عاملونا بها، فإن مفاهيمنا الذاتية الحالية تؤثر على ذكرياتنا في حياتنا، ففي عام ١٩٦٢ أجرى دانيال أوفر -وهو شاب مقيم في قسم الطب النفسي- وزملاؤه مقابلات مع ثلاثة وسبعين مراهقًا حول حياتهم المنزلية، والجنس، والدين، والآباء، والانضباط الأبوي، وغيرها من الموضوعات المشحونة عاطفيًا، وتمكن أوفر وزملاؤه من إعادة إجراء مقابلات مع كل هؤلاء المتدربين تقريبًا بعد أربعة وثلاثين عامًا، عندما كانوا في الثامنة والأربعين من العمر، لسؤالهم عما يتذكرونه، وخلص الباحثون إلى أنه «من اللافت للنظر أن قدرة الرجال على تخمين ما قالوه عن أنفسهم في فترة المراهقة لم تكن أكثر من صدفة»، فمعظم الذين تذكروا أنفسهم على أنهم كانوا جريئين، ومراهقين غير متحفّظين، وصفوا أنفسهم في سن الرابعة عشرة بأنهم خجولون، وبعد أن عاشوا الثورة الجنسية في السبعينيات والثمانينيات، تذكر هؤلاء الرجال أنفسهم على أنهم أكثر ليبرالية ومغامرة من الناحية الجنسية مما كانوا

عليه بالفعل، وما يقرب من نصفهم تذكروا أنهم عندما كانوا مراهقين كانوا يعتقدون أن الممارسة الجنسية لطلاب المدرسة الثانوية أمر جيد، ولكن ١٥٪ منهم فقط شعروا بهذه الطريقة عندما كانوا في الرابعة عشرة من العمر، فقد طمست المفاهيم الذاتية الحالية للرجال ذاكرتهم، مما أدى إلى انسجام ماضيهم مع ذكرياتهم الحالية^{١٠}.

تُشوّه الذكريات في اتجاه تعزيز الذات بكل أنواع الطرائق، فيتذكر الرجال والنساء على حد سواء أن عدد الشركاء الجنسيين لديهم كان أقل مما كان عليه في الواقع؛ ويتذكرون أنهم مارسوا الجنس مع هؤلاء الشركاء أكثر بكثير مما فعلوه بالفعل؛ ويتذكرون استخدام الواقي الذكري أكثر مما فعلوا بالفعل، ويتذكر الناس أيضًا التصويت في انتخابات لم يصوتوا فيها؛ ويتذكرون التصويت للمرشح الفائز بدلاً من السياسي الذي صوتوا له فعلياً؛ ويتذكرون التبرع لجمعيات خيرية أكثر مما فعلوا بالفعل؛ ويتذكرون أن أطفالهم ساروا وتحدثوا في سن مبكرة عما حدث بالفعل... ولعلكم قد أدركتم الفكرة^{١١}.

إن تقدير كيفية عمل الذاكرة ولماذا ترتكب الأخطاء في كثير من الأحيان يمكن أن يساعدنا في تقييم عديد من حالات نزاعات القيل والقال في حرم الجامعات وفي القصص الإخبارية بشكل أفضل، ونحن لا نشير إلى المواجهات التي يكون المرء فيها مجبراً بشكل لا لبس فيه، ولكن إلى الغالبية العظمى التي تحدث في منطقة رمادية من التفاعل البشري، حيث تكون القوة الدافعة المعتادة لدى العامة هي الوقوف في صف أحد الأطراف واستنتاج أن الطرف الآخر يكذب، ولكن فهم

الذاكرة وتبرير الذات يقوداننا إلى رؤية أكثر دقة لكل وجهة نظر: لا يجب أن يكون الشخص كاذبًا كي يكون مخطئًا.

بالطبع يمكن أن يحدث التخاطب الجنسي الخاطئ والامتهان والتحرش في جميع أنواع الأزواج (مثلي الجنس، ومغايري الجنس، وثنائيي الجنس، والمتحولين جنسيًا)، مع كثير من القيل والقال، ولكن غالبًا ما يعاني الأزواج المغايرون جنسيًا من طبقة إضافية من سوء الفهم الناجم عن القواعد والمعايير والتوقعات الجنسية المختلفة، ويجد الباحثون في مجال الجنس مرارًا وتكرارًا أن عديدًا من الأشخاص نادرًا ما يقولون ما يقصدونه في بداية اللقاء الجنسي، وغالبًا ما لا يقصدون ما يقولونه، ويجدون صعوبة في قول ما يكرهون لأنهم لا يريدون إيذاء مشاعر الشخص الآخر، فقد يظنون أنهم يريدون ممارسة الجنس ثم يغيرون رأيهم، أو قد يظنون أنهم لا يريدون ممارسة الجنس ثم يغيرون رأيهم، وهم -باختصار- يشاركون فيما تسميه عالمة النفس الاجتماعي ديورا ديفيز «رقصة الغموض»، ويعلم علماء الجنس من خلال الأبحاث والخبرة السريرية أن معظم الرجال والنساء المغايرين جنسيًا -حتى الأزواج المرتبطين لمدة طويلة- ينقلون رغباتهم الجنسية بما في ذلك الرغبة في عدم ممارسة الجنس بشكل غير متوقع ومثير للقلق، وذلك من خلال التلميحات ولغة الجسد والتواصل البصري، «اختبار المياه» وقراءة الأفكار، ورقصة الغموض هذه تفيد كلا الشريكين، فمن خلال الغموض والمراوغة تتم حماية غرور كل طرف في حال رفض الآخر، وتنقذ المراوغة كثيرًا من المشاعر المؤذية، ولكنها تسبب أيضًا

مشكلات، إذ تعتقد المرأة حقاً أن الرجل كان يجب أن يعرف أنها تريده أن يتوقف، ويعتقد الرجل حقاً أنها قد أعطت موافقتها.

ترى ديبورا ديفيس وزملاؤها، جييرمو فيلالوبوس وريتشارد ليو، أن السبب الرئيسي للاختلافات بين روايتي الطرفين ليس بسبب اختلاق ادعاء أو كذب بشأن إنكار، وإنما يقدم كل شريك «شهادة أمينة ولكن زائفة» عما حدث بينهما^{١٢}، ويعتقد كلا الطرفين أنه يقول الحقيقة، ولكن قد يكون أحدهما أو كلاهما مخطئاً بسبب عدم موثوقية الذاكرة -وهي ترميمية بطبيعتها وقابلة للإيحاء بإجادة- لأن كليهما لديه الدافع لتبرير أفعاله، ويتسبب تبرير الذات للأفراد في تشويه ذكرياتهم أو إعادة كتابتها لتتوافق مع آرائهم عن أنفسهم، ولهذا السبب يمكنهم «تذكر» قول أشياء كانوا يفكرون فقط في قولها أو قصدوا قولها في ذلك الوقت، ونتيجة لذلك قد تتذكر المرأة خطأ قول أشياء فكرت في قولها ولكنها لم تقلها لوقف الموقف، لأنها ترى نفسها كشخصية حازمة تدافع عن نفسها، وقد يتذكر الرجل خطأ أنه حاول التحقق من موافقة المرأة (وهو ما لم يفعل)، لأنه يعتبر نفسه رجلاً محترماً لا يغتصب امرأة أبداً، وهي ليست بالضرورة كاذبة ولكنها تسيء التذكر، وهو ليس بالضرورة كاذباً، ولكنه يبرر ذاته.

أضف الكحول إلى هذا الموقف وسوف تشعل حريقاً، ويعد المسار الأكثر شيوعاً -إلى حد بعيد- من المفاوضات الجنسية غير المريحة أو الغامضة إلى شهادة الزور الصادقة هو الكحول، وخاصة إذا كان بكميات تجعل المشاركين في حالة سُكْر أو فقدان مؤقت للوعي،

وهي مشكلة وبائية في حرم الجامعات، ولا يقلل الكحول من الكوابح فحسب، بل ويضعف أيضًا التفسير المعرفي لسلوك شخص آخر، فمن غير المرجح أن يفسر الرجال السكارى رسائل عدم الموافقة بدقة، والنساء في حالة سُكْر ينقلن علامات الرفض بشكل أقل حسماً، والأهم من ذلك كله أن الكحول يضعف بشدة ذاكرة كلا الشريكين لما حدث بينهما، وبينما يشكلان ذكرياتهما فإن تبرير الذات سوف يجعلهما لا يتغيران.

إذا كانت الذاكرة جزءاً أساسياً من هويتك، فمن المرجح أن يكون التشويه لخدمة الذات أكثر احتمالاً. يحب رالف هابر -عالم النفس المعرفي المتميز- سرد قصة اختياره الذهاب إلى كلية الدراسات العليا في ستانفورد بسبب اعتراضات والدته، التي أرادت -كما يتذكر- أن يواصل تعليمه في جامعة ميشيجان حيث سيكون قريباً من المنزل، إلا أنه أراد أن يتعد كثيراً ويصبح أكثر استقلالية، «كنت أتذكر دائماً أنه عندما وافقت جامعة ستانفورد على قبولي وعرضت عليّ الزمالة قفزت من الفرح وقبلت بحماس واستعدت للتوجه غرباً، صفقة كاملة!»، ولكن بعد خمسة وعشرين عاماً عندما عاد هابر إلى ميشيجان للاحتفال بعيد ميلاد والدته الثمانين، سلمته علبة أحذية مليئة بالرسائل التي كتبها بعضهم لبعض على مر السنين، وفي الرسائل الأولى التي سحبها، علم أنه قرر بوضوح البقاء في ميشيجان ورفض جميع العروض الأخرى، وقال لنا: «كانت أُمي هي التي ناشدتني بشغف أن أغير رأيي وأغادر ميشيجان»، ويقول هابر الآن: «لا بد أنني أعدت كتابة التاريخ الكامل

لهذا الخيار المتضارب حتى خرجت ذاكرتي بشكل متسق، بما يتفق مع ما فعلته فعلاً عندما تركت حماية المنزل، بما يتوافق مع الطريقة التي أردت أن أرى بها نفسي، وهي القدرة على مغادرة المنزل، وبما يتفق مع حاجتي إلى أم محبة تريدني في مكان قريب»، وبالمناسبة، تخصص هابر المهني هو ذاكرة السيرة الذاتية.

في حالة رالف هابر حافظت تشوهات الذاكرة على مفهومه الذاتي عن كونه دائماً روحاً مستقلة، ولكن بالنسبة إلى معظم الناس يعتمد مفهوم الذات على الإيمان بالتغيير والتحسين والنمو، وبالنسبة إلى بعضنا يقوم على الاعتقاد بأننا قد تغيرنا بالكامل، وفي الواقع تبدو الذات السابقة وكأنها شخص مختلف تماماً، فعندما يتحول الناس دينياً، أو ينجون من كارثة، أو يعانون من مرض السرطان، أو يتعافون من الإدمان، فغالباً ما يشعرون بالتحول؛ وتكون الذات السابقة «ليست أنا»، وبالنسبة إلى الأشخاص الذين مروا بمثل هذه التحولات، تساعد الذاكرة في حل التناقض بين ذواتهم السابقة والحالية من خلال تغيير وجهات نظرهم حرفياً.

عندما يتذكر الناس أفعالاً تتعارض مع نظرتهم الحالية لأنفسهم، كأن يُطلب من المتدينين أن يتذكروا الأوقات التي لم يحضروا فيها الشعائر الدينية عندما كانوا يشعرون بضرورة حضورها، أو عندما يتذكر الأشخاص المناهضون للدين حضور الشعائر الدينية، فإن الذاكرة تترأى لهم من منظور شخص ثالث؛ أي كما لو كانوا مراقبين محايدين، ولكن عندما يتذكرون الأفعال التي تتوافق مع هوياتهم الحالية، فإنهم

يروون قصة من منظور الشخص الأول؛ أي كما لو كانوا ينظرون إلى أنفسهم بأعينهم^{١٣}.

لكن ماذا يحدث إذا اعتقدنا أننا قد تحسناً وإن كنا في الواقع لم نغير على الإطلاق؟ مرة أخرى تهب الذاكرة للإنقاذ، ففي إحدى التجارب كان لدى مايكل كونواي ومايكل روس ١٠٦ طلاب جامعيين يأخذون برنامجاً لتحسين المهارات الدراسية، والذي وعد -مثل عديد من البرامج المماثلة- بأكثر مما قدمه، وفي البداية، قُيِّمَت مهارات الطلاب الدراسية، ثم عُيِّنوا عشوائياً إما في الدورة التدريبية أو ظلوا على قائمة الانتظار، ولم يكن للتدريب أي تأثير على عادات الدراسة أو الدرجات، فكيف إذن برر الطلاب الذين التحقوا بالدورة التدريبية إضاعة الوقت والجهد؟ عندما طُلب منهم بعد ثلاثة أسابيع أن يتذكروا بأكبر قدر ممكن من الدقة تقييمهم الأولي لمهاراتهم، فقد أخطأوا في تذكر مهاراتهم كأسوأ بكثير مما كانوا قد ذكروه في البداية، وهو ما سمح لهم بالاعتقاد بأنهم قد تحسّنوا في حين أنهم فعلاً لم يتغيروا على الإطلاق، وبعد ستة أشهر عندما طُلب منهم تذكر درجاتهم في تلك الدورة، أخطأوا في التذكر أيضاً، واعتقدوا أن درجاتهم كانت أعلى مما كانت عليه، أما الطلاب الذين بقوا على قائمة الانتظار لبرنامج المهارات، ولم يبذلوا أي جهد أو طاقة أو وقت، فلم يشعروا بأي تنافر معرفي ولم يكن لديهم ما يبرره، ونظراً لعدم الحاجة إلى تشويه ذكرياتهم، فقد تذكروا قدراتهم ودرجاتهم الحديثة بدقة^{١٤}.

أشار مايكل كونواي ومايكل روس إلى هذا التشوه الذاتي للذاكرة على أنه «الحصول على ما تريد من خلال مراجعة ما لديك»، وفي المرحلة الأكبر من الحياة، يفعل كثير منا ذلك بالضبط: نحن نخطئ في تذكر تاريخنا باعتباره أسوأ مما كان عليه، ومن ثم تشويه تصورنا لمدى تحسنا حتى نشعر بتحسن تجاه أنفسنا الآن^{١٥}، وكلنا ننمو وننضج، ولكن -بشكل عام- ليس بقدر ما نعتقد، ويفسر هذا التحيز في الذاكرة سبب شعور كل منا بأنه قد تغير بشكل عميق، ولكن أصدقاءنا وأعداءنا وأحباءنا هم نفس الأصدقاء والأعداء والأحباء القدامى كما كانوا من قبل، وقد صادفنا هاري في لَمَّ شمل المدرسة الثانوية، وبينما كان هاري مشغولاً بوصف مقدار ما تعلمه ونمّاه منذ التخرج، فإننا نومي برأسنا ونقول لأنفسنا: «هو نفسه هاري القديم، وإن أصبح أكثر بدانة، وأكثر صلعا».

آليات تبرير الذات للذاكرة كانت ستكون مجرد جانب آخر ساحر ومثير للسخط في كثير من الأحيان من الطبيعة البشرية، لولا حقيقة أننا نعيش حياتنا ونتخذ قرارات بشأن الناس ونُشكّل فلسفات إرشادية، ونبني روايات كاملة على أساس ذكريات غالباً ما تكون مخطئة، وإنه لأمر محبط بما فيه الكفاية أن تحدث أشياء لا نتذكرها، وهو أمر مخيف أن نتذكر أشياء لم تحدث قط. عديد من ذكرياتنا الخاطئة حميدة، على مستوى من قرأ لنا قصة حرف الواو الرائع، ولكن في بعض الأحيان تكون لها عواقب أكثر عمقاً ليس فقط بالنسبة إلى أنفسنا ولكن إلى عائلاتنا وأصدقائنا والمجتمع ككل.

قصص حقيقية من ذكريات كاذبة

نشر بنجامين ويلكوميرسكي في ألمانيا عام ١٩٩٥ قصة شظايا، وهي مذكرات عن تجارب طفولته المرعبة في معسكرات الاعتقال في مايدانيك وبيركيناو، وفيها سرد ملاحظات طفل صغير عن الفظائع النازية وإنقاذه في نهاية المطاف وانتقاله إلى سويسرا، وقد تلقت قصة شظايا مدحًا مبالغًا فيه وقارنها المراجعون بأعمال بريمو ليفي وآن فرانك، وقالت صحيفة نيويورك تايمز إنها كانت «مذهلة»، ووصفتها صحيفة لوس أنجلوس تايمز بأنها «رواية كلاسيكية مباشرة عن الهولوكوست»، وفي الولايات المتحدة حصلت قصة شظايا على جائزة الكتاب اليهودي الوطني لعام ١٩٩٦ عن السيرة الذاتية والمذكرات، ومنحت الجمعية الأمريكية للطب النفسي جائزة هايمان عن دراسة الهولوكوست والإبادة الجماعية لويلكوميرسكي، وفي بريطانيا حصلت على الجائزة اليهودية الفصلية للأدب، وفي فرنسا فازت بجائزة تذكاري جائزة المحرقة، وأرسل متحف الهولوكوست التذكاري الأمريكي في واشنطن وويلكوميرسكي في جولة لجمع التبرعات في ست مدن.

اتضح أن رواية الشظايا كانت تخاريف من البداية إلى النهاية، فلم يكن مؤلفها -واسمه الحقيقي برونو جروجيان- يهوديًا ولم يكن له أصل يهودي، بل كان موسيقيًا سويسريًا وُلد في عام ١٩٤١ لأمراة غير متزوجة تدعى إيفون جروجيان، وتبناه بعد عدة سنوات زوجان

سويسريان من دون أطفال، هما آل دوسيك، ولم تطأ قدمه معسكر اعتقال، وكانت قصته مستمدة من كتب التاريخ التي قرأها، والأفلام التي شاهدها، ورواية «العصفور الملون» لجيرزي كوسينسكي، وهي رواية سرالية عن معاملة وحشية للأولاد خلال فترة الهولوكوست^{١٦}، (ومن المفارقات أن ادعاء كوسينسكي بأن روايته كانت سيرة ذاتية تبين لاحقاً أنه غير حقيقي).

لننتقل من سويسرا إلى إحدى ضواحي بوسطن الثرية حيث يعيش ويل أندروز -وهو الاسم الذي أطلقه عليه الطبيب النفسي الذي أجرى مقابلة معه- وهو رجل وسيم فصيح، في الأربعينيات من عمره، ومتزوج ويعيش حياة زوجية سعيدة، ولكن ويل يعتقد أنه قد اختُطف من قبل كائنات فضائية، ولديه ذكريات حية عن التجارب التي أُجريت عليه طبيًا ونفسيًا وجنسيًا لمدة عشر سنوات على الأقل، وأن دليلته الفضائية في الواقع أصبحت حاملًا منه، وولدت توأمًا يبلغ من العمر الآن ثمانين سنوات، ويقول إنه للأسف لن يراه أبدًا ولكنه يلعب دورًا عاطفيًا كبيرًا في حياته، وقال إن عمليات الاختطاف كانت مرعبة ومؤلمة، ولكنه بشكل عام سعيد لأنه «اختير»^{١٧}.

هل هذان الرجلان مذنبان بتهمة الاحتيال بشأن روايتي معسكر الاعتقال والاختطاف بواسطة فضائيين؟ هل اختلق برونو جروجيان/ بنجامين ويلكوميرسكي أو دوسيك قصته ليصبح مشهورًا عالميًا؟ وهل اختلق ويل أندروز ذكريات اختطافه من قبل كائنات فضائية للمشاركة في برامج حوارية وطنية؟ لا نعتقد ذلك، ولا نعتقد أنهما

كانا يكذبان أيضًا أكثر مما كان توم بروكاو يكذب. حسنًا، هل هذان الرجلان مريضان عقليًا؟ مطلقًا، فقد عاشا حياة رشيدة تمامًا، ويعملان بشكل طبيعي، ويشغلان وظائف جيدة، ولديهما علاقات، ويدفعان فواتيرهما، وفي الواقع هما يمثلان عدة آلاف من الأشخاص الذين أصبحوا يتذكرون روايات المعاناة الرهيبة في طفولتهم أو بلوغهم، وهي تجارب ثبت لاحقًا بما لا يدع مجالًا للشك أنها لم تحدث لهم مطلقًا، وقد أفاد علماء النفس الذين اختبروا عديدًا من هؤلاء الأفراد أنهم لا يعانون من مرض انفصام الشخصية أو اضطرابات ذهانية أخرى، وأن مشكلاتهم العقلية -إن وُجدت- تقع ضمن النطاق المعتاد للبؤس البشري: الاكتئاب، أو القلق، أو اضطرابات الأكل، أو الوحدة، أو اللا معيارية الوجودية.

لذا فإن ويلكوميرسكي وأندروز ليسا مجنونين أو مخادعين، ولكن ذكرياتهما خاطئة وكاذبة لأسباب معينة تتعلق بتبرير الذات، ورغم أن قصصهما مختلفة جدًا في ظاهرها، فهي مرتبطة بآليات نفسية وعصبية مشتركة يمكن أن تخلق ذكريات خاطئة، ولكنها مع ذلك تعطي شعورًا بالحيوية والواقعية، وهذه الذكريات لا تتطور بين عشية وضحاها في وميض يعمي، ولكن يستغرق تطورها شهرًا -وأحيانًا سنوات- والمراحل التي تظهر بها معروفة جيدًا الآن لعلماء النفس.

وفقًا للمؤرخ السويسري ستيفان مايشلر الذي أجرى مقابلة مع ويلكوميرسكي وأصدقائه وأقاربه وزوجته السابقة وكل شخص آخر مرتبط بالقصة، لم يكن دافع برونو جروجان محسوبًا بالمصلحة الذاتية

بل بالإقناع الذاتي، فقد أمضى جروجان أكثر من عشرين عامًا في تحويل نفسه إلى ويلكوميرسكي، وكانت كتابة رواية شظايا هي الخطوة الأخيرة في تحوله إلى هوية جديدة وليست الخطوة الأولى في كذبة محسوبة، وكتب مايشلر أن «أشرطة الفيديو وتقارير شهود العيان عن عروض ويلكوميرسكي تعطي انطباعًا بأن الرجل يشعر بالبهجة من خلال روايته الخاصة، وقد ازدهر حقًا في دوره كضحية لمعسكر الاعتقال، لأنه وجد نفسه فيها أخيرًا»^{١٨}، فقد أعطت هوية ويلكوميرسكي الجديدة كنانج من الهولوكوست إحساسًا قويًا بالمعنى والهدف، إلى جانب العشق والدعم من عدد لا يحصى من الآخرين، وإلا كيف كان سيحصل على ميداليات ودعوات للتحدث؟ وهو أمر لم يكن ليحدث له كعازف كلارينيت من الدرجة الثانية.

أمضى بنجامين ويلكوميرسكي -المعروف أيضًا باسم برونو جروجان- سنواته الأربع الأولى في التنقل من مكان إلى آخر، ولم تره والدته إلا بشكل متقطع، وأخيرًا تركته تمامًا ووضعتة في ملجأ للأطفال حيث كان يعيش إلى أن تبناه آل دوسيك، وفي مرحلة البلوغ قرر ويلكوميرسكي أن سنواته الأولى كانت مصدر مشكلاته الحالية، وربما كانت كذلك فعلاً، ومع ذلك فإن القصة الشائعة -أنه وُلد لأم عزباء لم تستطع الاعتناء به وتبناه في النهاية زوجان لطيفان لكن تقليديان- لم تستطع تفسير الصعوبات التي واجهها بشكل كبير بما فيه الكفاية، ولكن ماذا لو لم يكن قد تم تبنيه لكن تم إنقاذه بعد الحرب واستبدال طفل يُدعى برونو جروجان به في دار الأيتام؟ يقول كاتب سيرته الذاتية

إن ويلكوميرسكي أحس فتساءل: «لماذا إذن يصاب بنوبات الهلع التي تطفئ عليه فجأة؟ أو التواء المشوه في مؤخرة رأسه والندبة على جبهته؟ أو الكوابيس التي ابتلي بها باستمرار؟»^{١٩}.

لماذا إذن؟ إن نوبات الهلع هي استجابة طبيعية للإجهاد من قبل المستهدفين له، وكل شخص تقريباً لديه نتوءات وندوب من نوع أو آخر، وفي الواقع فإن ابن ويلكوميرسكي لديه نفس التواء المشوه في نفس المكان، مما يشير إلى إجابة وراثية لهذا اللغز، والكوابيس أمور شائعة بين عموم السكان، والمدهش أنها لا تعكس بالضرورة تجارب حقيقية، وعديد من البالغين والأطفال المصابين بصدمات نفسية لا يعانون من كوابيس، وعديد من الأشخاص غير المصابين بصدمات نفسية يعانون منها.

لكن ويلكوميرسكي لم يكن مهتماً بهذه التفسيرات، ففي سعيه للحصول على معنى في حياته نزل من هرمه عندما قرر أنه سيجد السبب الحقيقي لأعراضه في السنوات الأربع الأولى التي خسرها. في البداية، لم يتذكر أي تجارب صادمة مبكرة، وكلما زاد هوسه بذكرياته أصبحت سنواته الأولى أكثر مراوغة، فبدأ يقرأ عن الهولوكوست -بما في ذلك روايات الناجين- وبدأ يعتبر نفسه من اليهود، ووضع تيممة مزوزاه اليهودية على بابه وارتدى نجمة داود، وفي سن الثامنة والثلاثين التقى إليسور برنشتاين، وهو طبيب نفسي إسرائيلي يعيش في زيورخ، والذي سيصبح أقرب أصدقائه ومستشاره في رحلاته إلى ماضيه.

سافر ويلكوميرسكي إلى مايدانيك مع مجموعة من الأصدقاء -بما في ذلك عائلة برنشتاين- بحثًا عن ذكرياته، وعندما وصلوا بكى ويلكوميرسكي وصاح: «كان هذا منزلي! هنا وُضع الأطفال في الحجر الصحي!»، وزارت المجموعة المؤرخين في أرشيف المخيم، وعندما سألهم ويلكوميرسكي عن الحجر الصحي للأطفال، سخرُوا منه، وقالوا إن الأطفال الصغار جدًّا ماتوا أو قُتلوا، فالنازيون لم يديروا حضانة لهم في ثكنات خاصة، ولكن بحلول هذا الوقت كان ويلكوميرسكي قد مضى بعيدًا جدًّا في سعيه للهوية بحيث أصبح من الصعب التراجع بسبب الدليل على أنه كان مخطئًا، ومن ثم فقد كان رد فعله هو تقليل التنافر من خلال استبعاد المؤرخين وقال لستيفان مايشلر: «لقد جعلوني أبدو غيبًا حقًا. لقد كان شيئًا عفنًا للغاية ما فعلوه، ومنذ هذه اللحظة فصاعدًا أعرف أنه يمكنني الاعتماد على ذاكرتي أكثر من الاعتماد على ما يقوله هؤلاء المدعوون بالمؤرخين الذين لم يفكروا قط في الأطفال في أبحاثهم»^{٢٠}.

كانت الخطوة التالية لويلكوميرسكي هي الحصول على علاج لمساعدته في التغلب على كوابيسه وخوفه ونوبات الهلع، وقد وجد مونيكا ماتا، وهي محللة نفسية ذات توجه ديناميكي، حللت أحلامه وعملت بتقنيات غير لفظية مثل الرسم والطرائق الأخرى لزيادة «الوعي بمشاعر الجسد»، وقد حثته مونيكا ماتا على تدوين ذكرياته، وبالنسبة إلى الأشخاص الذين يتذكرون دائمًا تجربة صادمة أو سرية يمكن أن تكون الكتابة مفيدة حقًا، وغالبًا ما تمكن المرضى من رؤية تجربتهم في

ضوء جديد والبدء في التخلي عنها^{٢١}، ولكن بالنسبة إلى أولئك الذين يحاولون تذكر شيء لم يحدث قط، فإن الكتابة وتحليل الأحلام ورسم الصور -وهي تقنيات أساسية لعدد من المعالجين النفسيين- فكلها طرائق تخلط بسرعة بين الخيال والواقع.

تسمي إيزابيث لوفتوس -وهي عالمة رائدة في مجال الذاكرة- هذه العملية بـ«تضخم الخيال»، لأنه كلما تخيلت شيئاً ما زادت ثقتك بأنه حدث بالفعل، وزادت احتمالية تضخيمه في ذاكرة فعلية^{٢٢} (حتى إن العلماء تتبعوا تضخم الخيال في المخ -باستخدام التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي- لإظهار كيف يعمل على المستوى العصبي)^{٢٣}. طلبت جوليانا مازوني وزملاؤها من المشاركين في إحدى الدراسات إخبارهم بحلم، وفي المقابل أعطوهم تحليل حلم «شخصي» (زائف)، حيث أخبروا نصف المشاركين أن الحلم يعني أنهم تعرضوا لمضايقات من قبل متنمر قبل سن الثالثة، أو أنهم قد تاهوا في مكان عام، أو أنهم قد مروا بحدث مزعج مماثل في فترة مبكرة من حياتهم، وبالمقارنة مع الأشخاص الضابطين -الذين لم يتم إعطاؤهم مثل هذه التفسيرات- كان من المرجح أن يعتقد الأشخاص الذين لديهم أحلام أن تفسير الحلم قد حدث بالفعل، وأنتج نصفهم تقريباً في النهاية ذكريات مفصلة عن التجربة، وفي تجربة أخرى طُلب من المشاركين أن يتذكروا عندما أخذت ممرضة المدرسة عينة من الجلد من إصبعهم الصغيرة لإجراء اختبار صحي على المستوى الوطني، (لا يوجد مثل هذا الاختبار)، وبمجرد تخيل هذا السيناريو غير المحتمل أصبح المشاركون أكثر

ثقة بحدوثه لهم، وكلما زادت ثقتهم زاد عدد التفاصيل الحسية التي أضافوها إلى ذكرياتهم الخاطئة («المكان كره الرائحة» مثلاً)، كما ابتكر الباحثون أيضاً تضخماً في الخيال بشكل غير مباشر بمجرد أن يطلبوا من المشاركين شرح كيفية وقوع حدث غير محتمل، وقد وجدت عالمة النفس المعرفي ماريان جاري أنه عندما يخبرك الناس كيف يمكن أن يكون حدث ما قد حدث، فإنك تبدأ في الشعور بواقعيته بالنسبة إليك، والأطفال معرضون بشكل خاص لهذا الإيحاء^{٢٥}.

تحوّل الكتابة فكرة عابرة إلى حقيقة من حقائق التاريخ، وبالنسبة إلى ويلكوميرسكي فإن تدوين ذكرياته أكّد ذكرياته، وقال ويلكوميرسكي: «لقد أظهر لي مرضي أن الوقت قد حان لكي أكتب كل شيء لنفسي، تمامًا كما احتفظت به في ذاكرتي، لتتبع كل تلميح على طول طريق العودة»^{٢٦}، ومثلما رفض المؤرخون في مجلدانيك الذين تحدوا ذكرياته، فقد رفض هو العلماء الذين قالوا له إن الذاكرة لا تعمل بهذه الطريقة.

في أثناء إنتاج رواية الشظايا، تلقى الناشر رسالة من رجل يزعم أن قصة ويلكوميرسكي غير صحيحة، ومن ثم اتصل الناشر -الذي انزعج من الرسالة- بويلكوميرسكي للتأكد، وأرسل كل من إليسور برنشتاين ومونيكا ماتا خطابات تأييد، وكتب برنشتاين إلى الناشر: «عند قراءة مخطوطة برونو لم يكن لديّ أي شك بشأن ما يسمى بـ«أصالتها»، وسوف أسمح لنفسي بالقول إن فقط الشخص الذي عانى من مثل هذه الأشياء هو من يمكنه الكتابة عنها بهذه الطريقة»، وبالمثل قالت مونيكا ماتا -التي كانت تمارس رقصة صغيرة لتبرير الذات- إنها لم تكن

لديها شكوك حول صحة ذكريات ويلكوميرسكي أو هويتها، وكتبت أن ويلكوميرسكي كان رجلاً موهوباً وصادقاً يتمتع «بذاكرة تعمل بدقة غير عادية»، وقد تشكلت بعمق من خلال تجربته في طفولته، وأضافت أنها تأمل في أن «يمكن تبديد أي شكوك غير منطقية»، لأن نشر الكتاب كان مهمًا جدًا لصحة ويلكوميرسكي العقلية، وقد كانت رغبته - كما كتبت - ألا يتغلب عليه القدر بهذه الطريقة الغادرة، «مما يثبت له مرة أخرى أنه لا أحد»^{٢٧}، ولأن الناشر اقتنع بشهادات الخبراء وتأكيداتهم، فقد أُنتج الكتاب في الموعد المحدد، وأصبح الـ«لا أحد» شخصًا ما أخيرًا.

* * *

في إحدى الأمسيات اختطف مايكل شيرمر في أثناء ركوبه دراجته عبر ريف نبراسكا من قبل كائنات فضائية، فقد هبطت سفينة فضاء كبيرة، وأجبرت شيرمر على الوقوف إلى جانب الطريق، ونزل الفضائيون من السفينة واختطفوه لمدة تسعين دقيقة، وبعد ذلك لم يتذكر ما حدث، ولم تكن تجربة شيرمر غريبة، إذ يعتقد الملايين من الأمريكيين أنه قد حدث لهم مواجهة من نوع ما مع أجسام طائرة مجهولة أو كائنات فضائية، بالنسبة إلى البعض يحدث ذلك في أثناء القيادة لأميال طويلة مملة مع تغيير بسيط في المشهد - عادة في الليل - عندما يصبح المنظر رماديًا، ويفقدون الإحساس بالوقت والمسافة، ثم يتساءلون عما حدث خلال الدقائق أو الساعات الماضية، ويرى بعض الناس - ومن بينهم طيارون محترفون - أنوارًا غامضة تحوم في السماء، وبالنسبة إلى معظم

الناس تحدث هذه التجربة في ضباب ذهني غريب بين النوم والاستيقاظ عندما يرون أشباحًا أو كائنات فضائية أو ظلالًا أو أرواحًا على فراشهم، وغالبًا ما يشعرون بالشلل الجسدي وعدم القدرة على الحركة.

يعد متسابق الدراجات والسائق والنائم على قمة الهرم: حدث شيء لا يمكن تفسيره ومثير للقلق، ولكن ماذا؟ يمكنك التعايش مع عدم معرفة سبب استيقاظك في حالة مزاجية غاضبة اليوم، ولكن لا يمكنك التعايش مع عدم معرفة سبب استيقاظك مع وجود عفريت جالس على سريرك، وإذا كنت عالمًا أو شخصًا آخر من المتشككين، فستقوم ببعض التحريات وتعلم أن هناك تفسيرًا مطمئنًا لهذا الحدث المخيف: خلال أعمق مرحلة من النوم -عندما يكون من المرجح أن يحدث الحلم- يُوقَف جزء من المخ حركات الجسم حتى لا تنطلق حول السرير بينما تحلم بمطاردة النمر، وإذا استيقظت من هذه المرحلة قبل أن يستيقظ جسدك فسوف تصاب بالشلل مؤقتًا، وإذا كان عقلك لا يزال يولّد صورًا للأحلام فسيكون لديك حلم يَقْظ لبضع ثوانٍ، وهذا هو السبب في أن هذه الأشكال على السرير تشبه الحلم وكابوسية، فأنت تحلم ولكن عينيك مفتوحتان، ويقول ريتشارد ج. ماكنالي، وهو عالم نفسي في جامعة هارفارد وطبيب سريري يدرس الذاكرة والصدمات، إن شلل النوم «ليس أكثر مرضية من الزغطة»، وهو شائع جدًا «خاصة بالنسبة إلى الأشخاص الذين اضطربت أنماط نومهم بسبب الرحلات الجوية الطويلة أو العمل بنظام الورديات أو التعب»، ونحو ٣٠٪ من السكان لديهم الإحساس بشلل النوم، ولكن نحو ٥٪

فقط أصيبوا بهلوسة اليقظة أيضًا، وقد أفاد كل شخص عانى من شلل النوم بالإضافة إلى أحلام اليقظة أن الشعور الذي يشهه هذا المزيج هو الدُّعر^{٢٨}، إنه إحساس غريب.

فهم مايكل شيرمر -وهو أحد المتشككين من حيث الطبيعة والمهنة- على الفور تقريبًا ما حدث له: «كانت تجربتي في الاختطاف ناتجة عن الحرمان الشديد من النوم والإرهاق الجسدي»، وكتب لاحقًا^{٢٩}: «كنت قد ركبت للتو دراجة ٨٣ ساعة متواصلة و١٢٥٩ ميلًا في الأيام الافتتاحية لسباق عابر للقارات عبر أمريكا لمسافة ٣١٠٠ ميل من دون توقف، وكنت أقود بنعاس على الطريق عندما أضاء منزلي المتنقل الداعم بعوارضه العالية وركن على جانب الطريق، وناشدني طاقم العمل أن آخذ استراحة للنوم، وفي تلك اللحظة غُرس في حلم اليقظة ذكرى بعيدة عن المسلسل التلفزيوني في الستينيات الغزاة... فجأة تحول أعضاء فريق الدعم إلى كائنات فضائية».

يتفاعل الأشخاص مثل شيرمر مع هذه التجربة الدنيوية بقولهم: «يا له من حلم يقظة غريب ومخيف؛ أليس المنح رائعًا؟»، ولكن ويل أندروز وأكثر من ثلاثة ملايين أمريكي ممن يعتقدون أنهم واجهوا نوعًا من اللقاء مع كائنات فضائية ينزلون من الهرم في اتجاه مختلف، وقد وجدت عالمة النفس الإكلينيكي سوزان كلانسي -التي أجرت مقابلات مع مئات المصدقين- أن العملية تمضي بثبات حينما تبدو إمكانية اختطاف الفضائيين أكثر وأكثر قابلية للتصديق، وكتبت: «كل الأشخاص الذين قابلتهم اتبعوا نفس المسار، بمجرد أن بدأوا في

الاشتباه بأنهم تعرضوا للاختطاف من قِبل كائنات فضائية، لم يكن هناك تراجع... بمجرد زرع بذرة الإيمان، وبمجرد الاشتباه في قيام الفضائيين بالخطف، بدأ المختطفون في البحث عن أدلة مؤكّدة، وبمجرد بدء البحث كانت الأدلة تظهر دائماً تقريباً»^{٣٠}.

مطلق الحدث هو التجربة المخيفة، وقد قالت واحدة ممن تمت مقابلتهم: «استيقظت في منتصف الليل ولم أستطع الحركة، وكنت ممتلئة بالرعب واعتقدت أن هناك دخيلاً بالمنزل، وأردت أن أصرخ ولكنني لم أستطع إخراج أي صوت، واستمر كل شيء للحظة واحدة فقط، ولكن ذلك كان كافياً كي أخاف من العودة للنوم»، ومن المفهوم أن الشخص يريد أن يفهم ما حدث ويبحث عن تفسير قد يفسر أيضاً مشكلات أخرى مستمرة، وقال أحد الأشخاص في دراسة كلانسي: «لقد أصبت بالاكئاب منذ أطول فترة يمكن أن أتذكرها، وهناك خطب خطير معي وأريد أن أعرف ما هو»، وأبلغ آخرون عن اختلالات جنسية، ومعارك مع الوزن، وتجارب أو أعراض غريبة حيرتهم وأقلقتهم: «لم أفهم لماذا كانت بيجاماتي على الأرض عندما استيقظت»؛ و«لقد كنت أعاني من نزيف في الأنف رغم أنني لم أُصّب بنزيف في الأنف قط»؛ أو «تساءلت من أين أُصبت بهذه الكدمات التي تشبه العملة المعدنية على ظهري»^{٣١}.

لماذا يختار هؤلاء الأشخاص اختطافاً فضائياً لشرح هذه الأعراض والمخاوف؟ لماذا لا يفكرون في تفسيرات أكثر منطقية، مثل: «لأنني كنت أشعر بالحر في منتصف الليل وخلعت بيجامتي»، أو «ربما يكون

نزيف الأنف هذا ناتجاً عن الجفاف المروع في هذه الغرفة، ربما يكون من الأفضل أن أحصل على جهاز ترطيب»، أو «ربما حان الوقت بالنسبة إليّ لأعطني بنفسى بشكل أفضل»؟ وقد تساءلت كلانسي، بالنظر إلى جميع التفسيرات المتاحة لمشكلات النوم والاكتئاب والضعف الجنسي والأعراض الجسدية المعتادة، لماذا يختار أي شخص أكثر الأسباب غير معقولة، مدعيًا أنه يتذكر الأحداث التي يعتبرها معظمنا مستحيلة؟ تكمن الإجابات جزئيًا في الثقافة الأمريكية وجزئيًا في احتياجات وشخصيات المُجَرَّبِينَ؛ وهو المصطلح الذي يستخدمه كثير ممن يعتقدون أنهم تعرضوا للاختطاف ليصفوا أنفسهم.

يعتقد المُجَرَّبُونَ أن الاختطاف بواسطة فضائيين هو تفسير معقول لأعراضهم، أولاً من خلال قراءة قصص عنه وسماع شهادات من المؤمنين، وعندما تتكرر القصة في كثير من الأحيان بما يكفي تصبح مألوفة لدرجة أنها تقضي على شكوك الشخص الأولية، وحتى لو كانت قصة غير مرجحة مثل إقناع الناس بأنهم شهدوا استحواذاً شيطانيًا عندما كانوا أطفالاً^{٣٢}، ولسنوات كانت قصة الاختطاف بواسطة الفضائيين منتشرة في الثقافة الشعبية الأمريكية: في الكتب والأفلام والتلفزيون والبرامج الحوارية، وبدورها فإن القصة تناسب احتياجات المُجَرَّبِينَ، وقد وجدت سوزان كلانسي أن معظمهم نشأ مع المعتقدات الدينية التقليدية، ورفضوها في النهاية واستبدلوا بها تركيز العصر الجديد على التوجيه وممارسات الشفاء البديلة، وهو ما يجعلهم أكثر عرضة للخيال والإيحاء من غيرهم، ولديهم مشكلات أكبر مع ارتباك المصدر،

ويميلون إلى الخلط بين الأشياء التي فكروا فيها أو مروا بها بشكل مباشر مع القصص التي قرأوها أو سمعوها على التلفزيون، (في المقابل، أدرك شيرمر أن الفضائيين التابعين له جاءوا من مسلسل تلفزيوني في الستينيات)، ولعل الأهم من ذلك هو أن تفسير الاختطاف يجسّد الكثافة العاطفية والأهمية الدرامية لتجارب أحلام اليقظة المخيفة، وتقول سوزان كلانسي إن هذا التفسير يبدو حقيقياً بالنسبة إليهم، بطريقة لا يفعلها شلل النوم القديم العادي.

إنَّ «صَيِّحَةً وَجَدْتُهَا!» التي يشعر بها المجرَّبون في التوافق بين تفسير اختطاف الفضائيين وأعراضهم مبهجة، كما كان التوافق الذي وجده ويلكوميرسكي بين تفسير الناجين من الهولوكوست والصعوبات التي واجهها، وتساعد قصة الاختطاف المجرَّبين في شرح ضغوطهم النفسية وكذلك في تجنب المسؤولية عن أخطائهم وندمهم ومشكلاتهم، وقد قالت إحدى النساء لسوزان كلانسي: «لا يمكن أن أُلَمَسَ - ولا حتى من قبل زوجي - رغم أنه رجل طيب ولطيف، تخيلي أنك تبلغين من العمر خمسة وأربعين عاماً ولا تعرفين ما هو الجنس الجيد! الآن أفهم أن الأمر يتعلق بما فعلته الكائنات الفضائية بي، فقد كنت تجربة جنسية بالنسبة إليهم منذ سن مبكرة»، وكل الأشخاص الذين قابلتهم كلانسي أخبروها أنهم شعروا بالتغير بسبب تجاربهم، وأنهم أصبحوا أشخاصاً أفضل، وأن حياتهم قد تحسنت، وفي أغلب الأحيان أصبح لحياتهم معنى الآن، وقال ويل أندروز: «كنت مستعداً للاستسلام، ولم أكن أعرف ما هو الخطأ، ولكنني كنت أعرف أن هناك شيئاً مفقوداً، أما اليوم فالأمور

مختلفة وأشعر بشعور رائع، وأنا أعلم أن هناك شيئاً ما في الفضاء -أكبر بكثير وأكثر أهمية منا- ولسبب ما اختاروا أن يجعلوا وجودهم معروفاً بالنسبة إليّ. ولديّ صلة بهم... وهذه الكائنات الفضائية تتعلم منا ونحن نتعلم منهم، وفي النهاية يتم إنشاء عالم جديد، وسيكون لي دور فيه، إما بشكل مباشر أو من خلال التوائم»، وقد أعطتنا زوجة ويل (تلك الموجودة على كوكبنا) دافعاً إضافياً لاختراع ويل للذرية الفضائية غير المرئية عندما سألت بحزم سوزان كلانسي: «هل كانت الأمور ستختلف لو كنا قادرين على إنجاب الأطفال؟»^{٣٣}.

في المرحلة النهائية، متى قبل المجربون تفسير الاختطاف الفضائي لمشكلاتهم واسترجعوا ذكرياتهم، فإنهم يبحثون عن أشخاص آخرين مثلهم ويقرأون فقط التقارير التي تؤكد تفسيرهم الجديد، وهم يرفضون بشدة أي دليل يؤدي إلى التنافر أو أي طريقة أخرى لفهم ما حدث لهم، وقد قال أحد ممن قابلتهم سوزان كلانسي: «أقسم بالله، إذا ذكر أحدهم شلل النوم مرة أخرى فسوف أُنقياً، لقد كان هناك شيء ما في الغرفة تلك الليلة! كنت في حالة دَوْران... لم أكن نائماً»^{٣٤}، وكان كل من قابلتهم سوزان كلانسي على علم بالتفسير العلمي ورفضوه بغضب. دار نقاش في بوسطن قبل سنوات بين ريتشارد ج. ماكنالي وجون ماك، وهو طبيب نفسي يعتقد أن قصص الاختطاف صحيحة^{٣٥}، وأحضر جون ماك معه إحدى المجربات، واستمعت المرأة للنقاش، بما في ذلك دليل ريتشارد ماكنالي حول كيف أن الأشخاص الذين يعتقدون أنهم تعرضوا للاختطاف هم عرضة للخيال، وأصبحوا يسيئون تفسير تجربة

نوم شائعة على أنها تجربة رؤية كائنات فضائية، وخلال المناقشة التي أعقبت ذلك قالت المرأة لريتشارد ماكنالي: «ألا ترون؟ لن أصدق أنني قد اختُطفْتُ إذا كان بإمكان أحدهم أن يقدم لي شرحًا بديلًا معقولاً»، فقال لها ماكنالي: «لقد فعلنا ذلك للتو».

بنهاية هذه العملية يكون المجربون واقفين في أسفل الهرم على مسافة بعيدة من المتشككين مثل مايكل شيرمر، وقد استوعبوا ذكرياتهم الخاطئة الجديدة ولا يمكنهم الآن تمييزها عن الذكريات الحقيقية، وعندما يُحضرون إلى المختبر ويُطلب منهم وصف عمليات الاختطاف المؤلمة التي تعرضوا لها بواسطة الفضائيين، فإن ردود أفعالهم الفسيولوجية المتزايدة (مثل معدل ضربات القلب وضغط الدم) تكون كبيرة مثل تلك الخاصة بالمرضى الذين يعانون من اضطراب ما بعد الصدمة^{٣٦}، لقد أصبحوا يصدقون قصصهم الخاصة.

تسمح الذكريات الكاذبة للناس بمسامحة أنفسهم وتبرير أخطائهم، ولكن بثمان باهظ أحياناً يتمثل في: عدم القدرة على تحمل المسؤولية عن حياتهم، ولكن إدراك تشوهات الذاكرة، وإدراك أنه حتى الذكريات التي تشعر بها بعمق قد تكون خاطئة، ربما يشجع الناس على الاحتفاظ بذكرياتهم بشكل أكثر استخفافاً، والتخلي عن اليقين بأن ذكرياتهم دقيقة دائماً، والتخلي عن الدافع الجذاب لاستخدام الماضي لتبرير مشكلات الحاضر. لقد طُلب منا توخي الحذر فيما نتمناه لأنه قد يتحقق، ولكن يجب علينا أيضاً أن نكون حذرين بشأن الذكريات التي نخtarها لتبرير حياتنا، لأنه سيتعين علينا أن نعيش وفقاً لها.

بالتأكيد، واحدة من أقوى القصص التي يرغب كثير من الناس في العيش بها هي قصة الضحية، فلم يُخْتَفَ أحد من قِبل كائنات فضائية (على الرغم من أن المُجَرَّبِينَ سوف يجادلون بشدة معنا)، ولكن الملايين نجوا من المعاملة القاسية كأطفال: كالإهمال، والاعتداء الجنسي، وإدمان الوالدين على الكحول، والعنف، والهجر، وأهوال الحرب، وقد تقدم كثير من الناس ليخبروا قصصهم: كيف تأقلموا، وكيف تحملوا، وماذا تعلموا، وكيف استمروا في الماضي قدمًا، وقصص الصدمة والسمو هي أمثلة ملهمة على المرونة البشرية^{٣٧}.

هذه التقارير على وجه التحديد مفعمة بالحيوية عاطفيًا لدرجة أن آلافًا من الناس قد تم جذبهم لبناء نسخ «أنا أيضًا» منها، وادعى عدد قليل منهم أنهم نجوا من الهولوكوست، وادعى آلاف أنهم نجوا من اختطاف فضائي، وزعم عشرات الآلاف أنهم نجوا من الأذى والاعتصاب والصدمات الجنسية الأخرى التي تم قمعها في الذاكرة حتى دخلوا العلاج في مرحلة البلوغ، ولكن لماذا يدعي الناس أنهم يتذكرون أنهم عانوا من تجارب مروعة إذا لم يكونوا قد مروا فعليًا بهذه التجارب؟ خاصة عندما يتسبب هذا الاعتقاد في حدوث صدوع بين العائلات أو الأصدقاء؟ يمكن لهؤلاء الأشخاص الحصول على ما يريدون من خلال تشويه ذكرياتهم ومراجعة ما لديهم، وما يريدونه هو تحويل حياتهم القائمة الحالية أو مجرد حياتهم العادية إلى انتصارات مبهرة على الشدائد، وتساعدهم ذكريات الإساءة أيضًا على حل التنافر بين «أنا شخص ذكي وقادر» و«حياتي بالتأكيد فوضى الآن»، مع شرح

يجعلهم يشعرون بتحسّن تجاه أنفسهم ويزيل المسؤولية: «ليس خطئي أن حياتي في حالة من الفوضى ولم أصبح قَط المطربة العالمية التي كان يمكن أن أكونها، انظروا إلى الأشياء الفظيعة التي فعلها والدي بي»، وقد أوضحت إيلين باس ولورا ديفيس هذا المنطق في كتابهما «شجاعة أن تُشفى»، فقد أخبرتا القراء الذين ليس لديهم ذاكرة عن اعتداءات جنسية في مرحلة الطفولة أنه: «عندما تتذكر الاعتداء عليك لأول مرة أو تعترف بآثاره، قد تشعر بارتياح هائل، فأخيرًا هناك سبب لمشكلاتك وهناك شخص أو شيء ما يمكنك إلقاء اللوم عليه»^{٣٨}.

لا عجب إذن أن معظم الناس الذين خلقوا ذكريات زائفة عن المعاناة المبكرة -مثل أولئك الذين يعتقدون أنهم اختطفوا من قبل كائنات فضائية- يبذلون قصارى جهدهم لتبرير تفسيراتهم الجديدة والحفاظ عليها. تأمل قصة امرأة شابة تدعى هولي رامونا -بعد عام في الكلية- دخلت مستشفى لعلاج الاكتئاب والشره المرضي، وأخبرها المعالج أن هذه المشكلات الشائعة عادة ما تكون أعراضًا لانتهاك جنسي في مرحلة الطفولة، وهو ما نفت هولي أنه حدث لها على الإطلاق، ومع ذلك فبمرور الوقت وبناءً على طلب من المعالج ثم على يد طبيب نفسي أعطها أميتال الصوديوم (يُعرف بشكل شائع ولكن خطأ باسم «مصل الحقيقة»)، تذكرت هولي أنها تعرضت للاغتصاب مرارًا وتكرارًا بين سن الخامسة والسادسة عشرة من قبل والدها الذي أجبرها حتى على ممارسة الجنس مع كلب العائلة، فرفع والد هولي الغاضب دعوى قضائية ضد كلا المعالجين بسبب سوء الممارسة متهمًا إياهما «بزرع

أو تعزيز ذكريات كاذبة [بأنه] تحرش بها عندما كانت طفلة»، ووافقت هيئة المحلفين على تبرئة الأب ووجدت أن المعالجين مذنبان^{٣٩}.

وضع هذا الحكم هولي في حالة من التنافر المعرفي الذي يمكن أن تحله بإحدى طريقتين: يمكنها قبول الحكم، وإدراك أن ذكرياتها كاذبة، والتوصل إلى والدها كي يسامحها، ومحاولة استرضاء الأسرة التي تمزقت بسبب اتهاماتها، أو يمكنها أن ترفض الحكم باعتباره تحريفاً للعدالة، وتصبح أكثر اقتناعاً من أي وقت مضى بأن والدها أساء إليها، وتجدد التزامها بعلاج الذاكرة المستعادة. وكانت الطريقة الأولى المتمثلة في تغيير رأيها والاعتذار، ستكون مثل تدوير باخرة في نهر ضيق حيث لا يوجد مجال كبير للمناورة والمخاطر في كل اتجاه، أما الطريقة الثانية فكانت إلى حد بعيد هي الخيار الأسهل بسبب حاجتها إلى تبرير الأذى الذي تسببت به لوالدها وبقيّة أفراد أسرتها، لذا فمن الأبسط كثيراً البقاء في المسار، وبالفعل لم ترفض هولي رامونا الحكم فحسب، بل ذهبت إلى كلية الدراسات العليا... لتصبح طبيبة نفسية.

لكن من حين لآخر يتقدم شخص ما للدفاع عن الحقيقة، حتى عندما تقف الحقيقة في طريق قصة جيدة تبرر ذاته، وهو ليس بالأمر السهل لأنه يعني إلقاء نظرة جديدة متشككة على الذاكرة المريحة التي عاشها المرء، والتدقيق فيها من كل زاوية لاختبار معقوليتها، والتخلي عنها بصرف النظر عن كبر التنافر الذي يتبع ذلك. احتفظت الكاتبة ماري كار طوال حياتها البالغة بذكرى تخلي والدها عنها كمراهقة بريئة، وسمحت لها تلك الذكرى بأن تشعر وكأنها ناجية بطولية من

إهمال والدها، إلا أنها عندما جلست لكتابة مذكراتها واجهت إدراكاً بأن القصة لا يمكن أن تكون حقيقية، وكتبت: «فقط من خلال دراسة الأحداث الفعلية والتشكيك في دوافعك الخاصة، ستظهر الحقائق الداخلية المعقدة من الظلام.

ولكن كيف يمكن لكاتب المذكرات أن يبدأ حتى في الكشف عن حقائق حياته بأحداث مزيفة؟ في وقت من الأوقات، كتبتُ مشهد وداع لإظهار كيف أن والدي راعي البقر مدمن شرب الخمر قد تخلص مني عندما بلغت سن البلوغ، ولكن عندما بحثت بالفعل عن ذكريات المراهقين لإثبات ذلك، أخبرتني الحقائق بقصة مختلفة: استمر والدي في اصطحابي في الوقت المحدد وإعداد وجبة الإفطار لي، وفي دعوتي إلى رحلات الصيد وصيد الأسماك، وكنت أنا من قال لا وتركته متوجهة إلى المكسيك وكاليفورنيا مع مجموعة من تجار المخدرات، ثم إلى الكلية.

كان هذا أكثر حزناً من الصورة الذاتية الكرتونية التي بدأت بها، وإذا كنت قد تمسكت بافتراضاتي، معتقدة أن الدراما الخاصة بي جاءت من عقبات لم أكن مضطرة للتغلب عليها قط - صورة لنفسك كناجية مفككة من قسوة غير مكتسبة - فلم أكن سأعلم ما حدث حقاً، وهذا هو ما أعنيه عندما أقول إن الله يوجد في الحقيقة»^{٤٠}.

٤. النِّيَّات الحسنة والعلم السيئ؛

الدائرة المغلقة للحكم السريري

«لا يُحدِّث أي فرق مدى جمال تخمينك. لا يحدث أي فرق مدى ذكائك، أو مَنْ خَمَّن، أو ما اسمه وإذا كان لا يتفق مع التجربة فهو خطأ، وهذا كل ما في الأمر».

- ريتشارد فاينمان، فيزيائي

إذا كانت هولي رامونا قد شعرت بالتنافر عندما أدانت هيئة المحلفين معالجيها بتهمة زرع ذكريات كاذبة فيها، فكيف تتخيل شعور معالجيها؟ هل كانا ميالين للقول: «نعتذر أيتها العزيزة هولي لأننا كنا مخطئين للغاية في علاجنا لاكتئابك واضطرابات أكلك، وكان يجب علينا أن نعود إلى المدرسة ونتعلم مزيداً عن الذاكرة؟» نخشى أن تكون استجابة معالج آخر أكثر نموذجية، فقد دخلت امرأة ولنسمها جريس للعلاج بعد إصابتها بنوبة هلع، فلم تكن على وفاق مع صاحب العمل الذكر، ولأول مرة في حياتها شعرت أنها في وضع لا تستطيع السيطرة عليه، ولكن بدلاً من علاجها من نوبات الهلع أو مساعدتها في

حل صعوبات العمل قرر المعالج النفسي أن أعراض جريس تعني أن والدها اعتدى عليها جنسيًا عندما كانت طفلة، وفي البداية تبنت جريس تفسير معالجها، ففي النهاية المعالج خبير في هذه الأمور، وبمرور الوقت اعتقدت جريس -مثل هولي- أن والدها تحرش بها، واهتمته مباشرة وقطعت العلاقات مع والديها وأخواتها، وتركت زوجها وابنها مؤقتًا، ومع ذلك فإنها لم تشعر قَطُّ أن ذكرياتها الجديدة مناسبة لها لأنها تتناقض مع التاريخ العام لعلاقتها الجيدة والمحبة مع والدها، وفي أحد الأيام أخبرت المعالج أنها لم تعد تعتقد أن والدها أساء معاملتها.

كان يمكن لمعالجة جريس تقبُّل ما قالته لها مريضتها وتبدأ العمل معها لإيجاد تفسير أفضل لمشكلاتها، وكان يمكن أن تقرأ عن أحدث الأبحاث التي تُظهر أي نهج علاجي هو الطريقة المفضلة لنوبات الهلع، وكان يمكن أن تتحدث عن الحالة مع زملائها لمعرفة ما إذا كانت أغفلت شيئًا، إلا أن معالجة جريس لم تفعل أيًا من هذه الأشياء، وعندما أعربت جريس عن شكوكها في أن ذكرياتها المستعادة كانت صحيحة، أجابت المعالجة: «أنت أكثر مرضًا مما كنت عليه في أي وقت مضى»^١.

أدت الأدلة الناشئة في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي عن الاعتداء الجنسي على الأطفال والنساء إلى انتشار وباءين عاطفيين غير مقصودين، وهما ما يطلق عليهما علماء الاجتماع «الذعرين الأخلاقيين»، والذعر الأخلاقي الأول هو ظاهرة علاج الذاكرة المستعادة، حيث ذهب بالغون إلى العلاج من دون أن يتذكروا صدمة الطفولة وخرجوا معتقدين أنهم تعرضوا للتحرش الجنسي من قبل والديهم أو تعرضوا للتعذيب

في طوائف شيطانية -أحياناً لسنوات عديدة- من دون أن يكونوا على دراية بذلك، ومن دون أي إثبات من الأشقاء أو الأصدقاء أو الأطباء، وتحت التنويم المغناطيسي -على حد قولهم- مكّنهم المعالجون من تذكر التجارب المروعة التي عانوا منها وهم أطفال صغار، وكرضع في المهد، وأحياناً حتى في حياتهم السابقة، وتذكرت إحدى النساء أن والدتها وضعت العناكب في مهبلها، وقالت أخرى إن والدها تحرش بها من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين، وأنه اغتصبها قبل أيام قليلة من زفافها، وهي ذكريات كانت قد كبتها حتى عولجت، وقالت أخريات إنهن أُصِبن بحروق، رغم أن أجسادهن لم تحمل ندوباً، وقالت بعضهن إنهن تعرضن للحمل وأُجبرن على الإجهاض، رغم أن أجسادهن لم تظهر أي دليل على الحمل، وأولئك اللاتي ذهبن إلى المحكمة لمقاضاة الجناة المزعومين تمكنوا من استدعاء شهود خبراء -عديد منهم يتمتعون بأوراق اعتماد مثيرة للإعجاب في علم النفس السريري والطب النفسي- للإدلاء بشهادتهم بأن هذه الذكريات المستعادة كانت دليلاً صالحاً على سوء المعاملة^٢.

ادعى الأطباء النفسيون أنه إذا كانت الصدمة مروعة بشكل خاص، فقد تنقسم شخصية الضحية إلى شخصين أو ثلاثة أو عشرة أو مائة شخصية، مما يتسبب في إصابته باضطراب تعدد الشخصية، وقبل عام ١٩٨٠ لم يتم الإبلاغ إلا عن عدد قليل من هذه الحالات، وكانوا عادة يدّعون وجود شخصيتين. (ولكن قضية «إيفا» جعلتها ثلاث شخصيات)، ثم نُشرت قصة سيبيلا في عام ١٩٧٣ والتي كشفت عن

ست عشرة شخصية حتى النهاية، وأصبحت ظاهرة وطنية، ويستند الكتاب إلى رواية كورنيليا ويلبر المعالجة النفسية لسيبيل، وباع أكثر من خمسة ملايين نسخة، وشاهد أربعون مليون أمريكي البرنامج التلفزيوني الخاص المكون من جزأين عام ١٩٧٦ من بطولة جوان وودوارد وسالي فيلد، وفي عام ١٩٨٠ أعطت الجمعية الأمريكية للطب النفسي تصريحها الرسمي للمتلازمة من خلال جعل اضطراب تعدد الشخصية تشخيصاً شرعياً، وبدأت الحالات تتكاثر وافتتحت عيادات اضطراب تعدد الشخصية في جميع أنحاء البلاد لعلاج الأعداد المتزايدة من المرضى، وبحلول منتصف التسعينيات كان هناك -وفقاً لتقديرات مختلفة- أكثر من أربعين ألف شخص خضعوا للعلاج وخرجوا معتقدين أن لديهم عشرات، بل مئات من «الشخصيات»^٣.

أما الذعر الأخلاقي الثاني فقد نشأ من مخاوف بشأن الاعتداء الجنسي على الأطفال في مراكز الرعاية النهارية، ففي عام ١٩٨٣ اتُهم المعلمون في روضة أطفال ماكمارتن في مانهاتن بيتش، كاليفورنيا، بارتكاب أفعال شنيعة ضد الأطفال الصغار في رعايتهم، مثل تعذيبهم في طقوس شيطانية في غرف تحت الأرض، وذبح الأرناب الأليفة أمامهم، وإجبارهم على الخضوع لأفعال جنسية، وقال بعض الأطفال إن المعلمين أخذوهم في طائرة، ورغم أن الادعاء لم يقنع هيئة المحلفين بأن الأطفال قد تعرضوا لسوء المعاملة، فإن القضية أسفرت عن اتهامات مماثلة ضد معلمي الحضانة في جميع أنحاء البلاد، وكان برنارد بي باران -وهو شاب مثلي الجنس من ولاية ماساتشوستس-

أول شخص أُدين ظلماً، وأمضى عشرين عاماً في السجن قبل أن تحرره إعادة المحاكمة، وكان الأب الذي بدأ الاتهامات ضد باران قد اشتكى إلى مركز الرعاية النهارية من أنه «لا يريد لأي شخص مثلي» أن يعلم طفله، وكانت زوجته قد صرحت في إفادة بأنه «لا ينبغي السماح للمُثلين بالظهور علناً»^٤.

سرعان ما تبعت قضية باران اتهامات ضد معلمي حضانات أخرى: ليتل راسكالز داي كير في ولاية كارولينا الشمالية، وكيلي مايكلز في نيو جيرسي، وعائلة أميرولت في ماساتشوستس، وديل أكيكي في سان دييجو، وفران ودان كيلر في أوستن، وبروس بيركنز في هيوستن، وعصابات التحرش المزعومة في جوردان، ومينيسوتا، ويناتشي، وواشنطن، ونيلز، وميتشيجان، وميامي، وفلوريدا؛ وعشرات المجتمعات الأخرى، حيث روى الأطفال قصصاً غريبة، إذ قال بعضهم إنهم تعرضوا للهجوم من قبل روبوت، وتم التحرش بهم من قبل مهرجون وشرطانات البحر، أو أنهم أُجبروا على أكل ضفدع، وقال أحد الأطفال إنه تم تقييده عارياً على شجرة في ساحة المدرسة أمام جميع المعلمين والأطفال، رغم أن أياً من المارة لم يلاحظه، ولم يشهد أي طفل آخر ذلك، وتم استدعاء الإخصائيين الاجتماعيين والمعالجين النفسيين الآخرين لتقييم قصص الأطفال، والقيام بعلاج الأطفال ومساعدتهم في الكشف عما حدث، وقد شهد كثيرون منهم في وقت لاحق في المحكمة أن، في حكمهم السريري، معلمي الرعاية النهارية كانوا مذنبين^٥.

أين تذهب الأوبئة عندما تموت؟ كيف لم يحضر المشاهير في البرامج الحوارية مؤخرًا للكشف عن ذكرياتهم المستردة عن تعرضهم للتعذيب وهم أطفال رضع؟ أين جميع حالات تعدد الشخصيات؟ هل أغلق جميع مشتهي الأطفال جنسيًا الساديين مراكز الرعاية النهارية الخاصة بهم؟ لقد تم إطلاق سراح معظم المدرسين الذين أُدينوا عند الاستئناف، ولكن عديدًا من المعلمين والآباء ما زالوا في السجن أو خاضعين للإقامة الجبرية أو يجب أن يعيشوا حياتهم مسجلين كمرتكبي جرائم جنسية، وتحطمت أرواح كثيرة ولم يتم لم شمل عدد لا يحصى من العائلات، ولكن حالات استعادة ذكريات الإساءة في الطفولة لا تزال تتأرجح في المحاكم وفي الأخبار وفي الأفلام^٦، وإذا نظرت عن كثب إلى هذه القصص، فعدد منها يشتمل على معالج ساعد الشخص على «استعادة» ذكرياته.

أما بالنسبة إلى اضطراب تعدد الشخصية، فقد تم إغلاق العيادات في نهاية المطاف من خلال دعاوى قضائية ناجحة ضد الأطباء النفسيين الذين كانوا يحرضون المرضى المعرضين للخطر على الاعتقاد بأنهم مصابون بالاضطراب، وبدأ اضطراب الشخصية المتعددة في التلاشي من المشهد الثقافي، وقد نشرت الصحيفة الاستقصائية ديبى ناثن في عام ٢٠١١ سيرة ذاتية لسيبيل تُظهر أن كورنيليا ويلبر لَفَقَت القصة بأكملها تقريبًا للترويج لنفسها وبيع الكتب، وأن سيبيل لم تعانِ من صدمة في طفولتها تسببت في تفكك شخصيتها، وأن شخصياتها المزعومة قد وُلدت استجابةً للضغوط والإخضاع والإكراه من قِبل كورنيليا ويلبر،

التي أرادت سبيل بشدة إرضاءها لأنها هددت بالتوقف عن إعطائها الأدوية التي وصفتها لها والتي أصبحت مدمنة عليها^٧.

بينما هدأت الأوبئة، فإن الافتراضات التي أشعلتها تظل متأصلة في الثقافة الشعبية: إذا تعرضت لصدمة متكررة في الطفولة، فمن المحتمل أنك قمعت ذكرى تلك الصدمة، وإذا قمعت ذكرى الصدمة، يمكن استرجاعها بالتنويم المغناطيسي، وإذا كنت مقتنعًا تمامًا بأن ذكرياتك صحيحة فهي كذلك، وإذا لم تكن لديك ذكريات ولكنك فقط تشك في تعرضك للإساءة، فمن المحتمل أنك قد تعرضت للإساءة، وإذا كانت لديك ذكريات مفاجئة أو أحلام بإساءة، فأنت تكتشف ذاكرة حقيقية، ويكاد الأطفال لا يكذبون أبدًا بشأن الأمور الجنسية، فراقب العلامات: إذا كان طفلك يعاني من كوابيس، أو يتبول في السرير، أو يريد النوم مع إضاءة ليلية، أو يمارس العادة السرية، فربما يكون قد تعرض للتحرش.

لم تظهر هذه المعتقدات مثل فطر عيش الغراب بين عشية وضحاها في المشهد الثقافي، ولكنها جاءت من متخصصين في الصحة العقلية نشروها في المؤتمرات والمجلات الطبية وفي وسائل الإعلام وفي الكتب الأكثر مبيعًا، والذين رَوَّجوا لأنفسهم كخبراء في تشخيص الاعتداء الجنسي على الأطفال وتحديد مدى صدق الذاكرة المستعادة، وقد استندت ادعاءاتهم إلى حد كبير على أفكار فرويدية (وشبه فرويدية) حول القمع والذاكرة والصدمة الجنسية ومعنى الأحلام، وعلى ثقتهم بقدراتهم السريرية في البصيرة والتشخيص، وتمت دراسة

جميع ادعاءات هؤلاء المعالجين علمياً منذ ذلك الحين، وثبت أن كلهم مخطئون.

من المؤلم الاعتراف بهذا، ولكن عندما ظهرت قصة ماكمارتن في الأخبار لأول مرة، كنا نحن الاثنان بشكل مستقل نميل إلى الاعتقاد بأن معلمي مرحلة ما قبل المدرسة مذبنون، وذلك من دون معرفة تفاصيل الادعاءات، وقبلنا بلا مبالاة العبارة المبتذلة «لا يوجد دخان من دون نار»، ولكن كعالمين كان يجب أن نعرف أفضل، وأنه في كثير من الأحيان، حيث يوجد دخان يكون هناك دخان فقط، وعندما ظهرت القصة الكاملة - بعد شهر من انتهاء المحاكمة - عن الأم المضطربة عاطفياً التي وجّهت الاتهام الأول والتي أصبحت اتهاماتها أكثر جنوناً حتى توقف المدّعون العامون عن الاهتمام بها؛ حول كيفية إجبار الأطفال على مدى عدة أشهر على «التحدث» من قبل الإخصائيين الاجتماعيين المتحمسين في حملة صليبية أخلاقية، وحول كيف أصبحت قصص الأطفال غريبة بشكل متزايد؛ فقد شعرنا بالحماسة والإحراج لأننا ضحينا بشكو كنا العلمية على مذبح الغضب، وتسببت سذاجتنا الأولية في كثير من التنافر ولا تزال كذلك، ولكن تنافرنا لا يعد شيئاً مقارنةً بتنافر الأشخاص الذين شاركوا شخصياً أو اتخذوا موقفاً عاماً، بما في ذلك عديد من المعالجين النفسيين والأطباء النفسيين والإخصائيين الاجتماعيين الذين اعتبروا أنفسهم أطباء مهرة ومدافعين عن حقوق الأطفال.

لا أحد منا يحب أن يعرف أنه كان مخطئاً، وأن ذكرياتنا مشوهة أو تخاريف، أو أننا ارتكبنا خطأ مهنيًا محرّجًا، وبالنسبة إلى الأشخاص في أيّ من المهن العلاجية فإن المخاطر كبيرة بشكل خاص، وإذا كانت لديك مجموعة من المعتقدات التي توجه ممارستك وعلمت أن بعضها غير صحيح، يجب عليك إما الاعتراف بأنك كنت مخطئًا وتغيير نهجك، وإما أن ترفض الدليل الجديد، وإذا كانت الأخطاء لا تهدد وجهة نظرك بشأن كفاءة تلك المهنة بشكل كبير، وإذا لم تتخذ موقفًا علنيًا للدفاع عنها، فمن المحتمل أن تغير نهجك عن طيب خاطر ممتنًا لامتلاك نهج أفضل، ولكن إذا أدت بعض هذه المعتقدات الخاطئة إلى تفاقم مشكلات مرضاك، أو مزقت عائلاتهم، أو أرسلت الأبرياء إلى السجن، فعندئذ سيكون لديك -مثل معالج جريس- تنافر معرفي جاد يجب عليك أن تحله.

إنها ظاهرة إجناز سيميلويس التي وصفناها في المقدمة، فقد اكتشف سيميلويس أنه عندما يغسل طلاب الطب أيديهم قبل مباشرة علاج النساء في أثناء المخاض يموت عدد أقل من النساء بسبب حمى النفاس، فلماذا لم يُقل زملاؤه: «مرحبًا يا إجناز، شكرًا جزيلاً لك على إيجاد سبب الوفاة المأساوية غير الضرورية لمرضانا»؟ فقبل أن يتمكن هؤلاء الأطباء من قبول تدخله البسيط المنقذ للحياة، كان عليهم أن يعترفوا بأنهم كانوا سبب وفاة كل هؤلاء النساء في رعايتهن، وكان هذا اعترافًا لا يُطاق لأنه يذهب مباشرة إلى قلب نظرة الأطباء إلى أنفسهم كخبراء طبيين ومعالجين حكماء، ومن ثم فقد أخبروا إجناز سيميلويس

-في الجواهر- بأن يغرب عن وجوههم ويأخذ أفكاره الغبية معه، لأن رفضهم العنيد قبول أدلة سيميلويس المتمثلة في انخفاض معدل الوفيات بين النساء اللاتي باشرهن الأطباء بعد غسل أيديهم، حدث قبل فترة طويلة من عصر دعاوى سوء الممارسة، يمكننا أن نقول بالتأكيد إنهم كانوا يتصرفون بدافع الحاجة إلى حماية غرورهم وليس دخلهم، وقد تقدم الطب منذ ذلك الوقت، ولكن الحاجة إلى تبرير الذات لم تتزحزح.

تُحسّن معظم المهن في نهاية المطاف نفسها وتُصوّبها وإن كان ببطء، وإن كنت طبيباً اليوم فإنك تغسل يديك وترتدي قفازات، وإذا نسيت فسيُذكرك زملاؤك أو الممرضات أو المرضى، وإذا كنت تدير شركة ألعاب وأخطأت في التنبؤ بأن دميّك الجديدة ستفوق على باربي فسيخبرك السوق بذلك، وإذا كنت عالماً وزيّفت البيانات الخاصة بأغنامك المستنسخة ثم حاولت خداع زملائك، فإن أول مختبر لا يمكنه تكرار نتائجك سوف يتسابق لإخبار العالم بأنك محتال، وإذا كنت عالماً نفسياً تجريبياً وارتكبت خطأ في تصميم تجربتك أو في تحليلك للنتائج، فسيحرص زملاؤك ونقادك وبقية المجتمع العلمي وكل شخص على كوكب بلوتو السابق على إعلامك، وبطبيعة الحال ليس كل العلماء علميين؛ أي منفتحين ومستعدين للتخلي عن قناعاتهم القوية أو الاعتراف بأن تضارب المصالح قد يشوه أبحاثهم، ولكن حتى عندما لا يُصحّح العالم الفرد نفسه، فإن العلم يفعل ذلك في النهاية.

لكن مهنة الصحة العقلية تختلف، إذ يمتلك المحترفون في هذه المجالات مزيجًا من الشهادات المعتمدة والتدريب، والتخصصات التي غالبًا ما تحمل قليلًا من الارتباط بعضها ببعض، وتخيل أن مهنة القانون تتكون من أشخاص التحقوا بكلية الحقوق ودرسوا كل مجال من مجالات القانون واجتازوا امتحان المحاماة القاسي، بالإضافة إلى الأشخاص الذين لم يفعلوا شيئًا سوى دفع ثمانية وسبعين دولارًا لدورة عطلة نهاية الأسبوع في آداب قاعة المحكمة، وسوف تكون لديك لمحة عن المشكلة، وعن أي محامٍ تريده أن يدافع عنك.

في مهنة العلاج النفسي، يعد علماء النفس الإكلينيكيون أقرب ما يكونون إلى المحامين المدربين تقليديًا، ومعظمهم حاصل على درجة الدكتوراه، وإذا كانوا قد حصلوا على الدرجة من جامعة كبيرة بدلًا من معمل علاج مستقل، فإنهم سيكونون على دراية بالنتائج النفسية الأساسية، وسيقوم البعض بعمل أبحاث بأنفسهم لتحديد مكونات العلاج الناجح أو أصول الاضطرابات العاطفية، ولكن سواء أجروا أبحاثًا بصفة شخصية أم لا، فإنهم يميلون إلى أن يكونوا على دراية جيدة بالعلوم النفسية، ويعرفون أي نوع من العلاج هو الأكثر فاعلية بشكل واضح لأي مشكلة، وسيعرفون أن الأساليب المعرفية والسلوكية هي العلاجات النفسية المختارة لنوبات الهلع والاكتئاب واضطرابات الأكل والأرق والغضب المزمن، والاضطرابات العاطفية الأخرى، وغالبًا ما تكون هذه الطرائق فعالة أو أكثر فاعلية من الأدوية^٨.

في المقابل، يتعلم معظم الأطباء النفسيين الحاصلين على شهادات طبية عن الطب والأدوية، ولكنهم نادرًا ما يتعلمون كثيرًا عن الأبحاث الأساسية في علم النفس، وعلى مدار القرن العشرين، كانوا عمومًا ممارسين للتحليل النفسي الفرويدي أو أحد فروعه. كنت في حاجة إلى بكالوريوس طب كي تُقبل في معهد تدريب للتحليل النفسي، ومع انخفاض شعبية التحليل النفسي واكتساب النموذج الطبي الحيوي للاضطراب اليد العليا، بدأ معظم الأطباء النفسيين في علاج المرضى بالأدوية بدلًا من أي شكل من أشكال العلاج بالكلام، ومن ناحية أخرى، بينما يدرس الأطباء النفسيون المخ، لا يزال كثير منهم لا يتعلمون شيئًا تقريبًا عن الأسباب غير الطبية للاضطرابات العاطفية أو عن الجوهر المتشكك للعلم. أمضت عالمة الأنثروبولوجيا تانيا لورمان أربع سنوات في دراسة الأطباء النفسيين، وحضرت فصولهم الدراسية ومؤتمراتهم، وراقبتهم في العيادات وغرف الطوارئ، ووجدت أن الأطباء النفسيين المقيمين لم يكن من المتوقع منهم أن يقرأوا كثيرًا، وكان من المتوقع أن يستوعبوا الدروس المعطاة لهم من دون مناقشة أو سؤال، والمحاضرات التي حضروها تقدم مهارات عملية وليس مادة فكرية، حيث سيتحدث المحاضر عما يجب القيام به في العلاج بدلًا من السبب في أن العلاج يساعد، أو نوع العلاج الذي قد يكون أفضل لمشكلة معينة^٩.

أخيرًا، هناك عديد من الأشخاص الذين يمارسون عديدًا من أشكال العلاج النفسي المختلفة، وبعضهم حاصل على درجة الماجستير في

علم النفس أو تقديم النصح والإرشاد أو العمل الاجتماعي السريري، ومرخص لهم العمل في تخصصات مثل علاج مشكلات الزواج والأسرة، ومع ذلك، فبعضهم لم يتلقَّ أي تدريب في علم النفس على الإطلاق، والبعض لم يحصل حتى على شهادة جامعية، وصفة المعالج النفسي غير منظمة إلى حد كبير في عديد من الولايات، ويمكن لأي شخص أن يقول إنه معالج نفسي من دون الحصول على أي تدريب في أي شيء.

في العقود الماضية، ومع ارتفاع عدد ممارسي الصحة العقلية على اختلاف أنواعهم، انفصلت معظم برامج التدريب على علم النفس والعلاج النفسي عن أبناء عموماتها المدربين علمياً في أقسام علم النفس الجامعية^١، ويسأل عديد من خريجي هذه البرامج: «لماذا أحتاج إلى معرفة الإحصائيات والأبحاث؟ فكل ما أريد معرفته هو كيفية العلاج، ولهذا فأنا أحتاج في الغالب إلى خبرة إكلينيكية»، وهم على حق في بعض النواحي، لأن المعالجين يكونون باستمرار على استعداد لاتخاذ القرارات بشأن مسار العلاج: ما الذي قد يكون مفيداً الآن؟ ما الاتجاه الذي يجب أن نسير فيه؟ هل هذا هو الوقت المناسب للمخاطرة بتحدي قصة مريض أم سأتحده فوراً خارج الغرفة؟ يتطلب اتخاذ هذه القرارات خبرة بالتشكيلة اللا نهائية من المزاوغات والمشاعر في النفس البشرية، التي تمثل جوهر الظلام والحب.

علاوة على ذلك، فإن العلاج النفسي بحكم طبيعته هو تفاعل خاص بين المعالج والمريض، ولا يوجد من يراقب المعالج في خصوصية

غرفة الاستشارات مستعداً للانقضاء عليه إذا ما ارتكب خطأ ما، ومع ذلك، فإن الخصوصية المتأصلة في التفاعل تعني أن المعالجين الذين يفتقرون إلى التدريب في العلوم والتشكيك ليس لديهم تصحيحات داخلية للتحيزات المعرفية ذاتية الحماية التي تصينا جميعاً، فما يراه هؤلاء المعالجون يؤكد ما يؤمنون به، وما يؤمنون به يشكّل ما يرونه، وهي دائرة مفرغة. هل تحسّنت مريضتي؟ ممتاز، إذن ما فعلته كان فعالاً. هل ظلت مريضتي من دون تغيير أم ساءت حالتها؟ هذا أمر مؤسف، ولكنها تقاوم العلاج ومضطربة بشدة؛ وبالإضافة إلى ذلك، في بعض الأحيان، يجب أن تسوء حالة المريض قبل أن تتحسن. هل أعتقد أن الغضب المكبوت يسبّب صعوبات جنسية؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن مشكلة الانتصاب لدى موكلي يجب أن تعكس غضبه المكبوت تجاه والدته أو زوجته. هل أعتقد أن الاعتداء الجنسي يسبّب اضطرابات الأكل؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن الشره المرضي لدى مريضتي يعني بالضرورة أنها تعرضت للتحرش عندما كانت طفلة.

نريد أن نكون واضحين في أنه يوجد بعض المرضى المقاومين للعلاج والمضطربين بشدة، وهذا الفصل من الكتاب ليس إدانة للعلاج، مثلما أن الإشارة إلى أخطاء الذاكرة لا تعني أن كل الذاكرة غير موثوقة، أو أن تضارب المصالح بين العلماء يعني أن جميع العلماء يقومون بأبحاث مشبوهة، فهدفنا هو فحص أنواع الأخطاء التي يمكن أن تنجم عن الحلقة المغلقة للممارسة السريرية وإظهار كيف يديمها تبرير الذات.

يعد الشك والعلم طريقين للخروج من الدائرة المفرغة بالنسبة إلى أي معالج في العمل الخاص، إذ يُعَلِّم الشك المعالجين أن يكونوا حذرين بشأن أخذ ما يقوله مرضاهم في ظاهره، فإذا قالت امرأة إن والدتها وضعت العناكب في مهبليها عندما كانت في الثالثة من عمرها، يمكن للمعالج المتشكك أن يشعر بالتعاطف من دون الاعتقاد بأن هذا قد حدث بالفعل، وإذا قال طفل إن أساتذته اصطحبوه في طائرة مليئة بالمهرجين والضفادع، فقد يكون المعالج المتشكك مفتونًا بالقصة من دون تصديق أن المعلمين استأجروا بالفعل طائرة خاصة (من رواتبهم). ويوفر البحث العلمي للمعالجين طرائق لتحسين ممارساتهم السريرية وتجنب الأخطاء، فإذا كنت ستستخدم التنويم المغناطيسي يجب أن تعلم أنه في حين يمكن أن يساعد المرضى على تعلم الاسترخاء وإدارة الألم والإقلاع عن التدخين، ولكن يجب ألا تستخدمه أبدًا لمساعدة مريضك على استعادة الذكريات، لأن مريضك الراغب والقابل للإيحاء غالبًا ما سيخلق ذاكرة لا يمكن الاعتماد عليها^{١١}.

ومع ذلك، يوجد اليوم عدة آلاف من الأطباء النفسيين والإخصائيين الاجتماعيين والمستشارين والمعالجين النفسيين الذين يمارسون في عيادات خاصة من دون أن يتشككوا أو يكون لديهم إثباتات لترشدهم، وقد لاحظ بول ميهل -الذي حقق تميزًا كبيرًا كطبيب وباحث علمي- أنه وهو طالب كان العامل المشترك في تدريب جميع علماء النفس هو «الالتزام العلمي العام بالألا تُخدَع والألا تُخدَع أي شخص آخر، ولكن حدثت بعض الأشياء في عالم الممارسة السريرية التي تقلقني في هذا الصدد، فهذا الشك

وهذا الشغف بعدم الانخداع وعدم خداع أي شخص آخر، لا يبدو أنهما الآن جزء أساسي من المعدات العقلية لعلماء النفس كما كانا قبل نصف قرن... وقد سمعت عن بعض الشهادات النفسية في قاعات المحاكم المحلية التي تبدو فيها هذه العقلية النقدية غائبة إلى حد كبير»^{١٢}.

يمكن رؤية مثال على المشكلة التي يخشاها بول ميهل في إفادة طبيب نفسي بارز، هو بيسيل فان دير كولك، الذي أدلى بشهادته بشكل متكرر لمصلحة المدعين في قضايا الذاكرة المكبوتة، حيث أوضح فان دير كولك أنه، كطبيب نفسي، قد تلقى تدريباً طبياً وإقامة في قسم الطب النفسي، ولكنه لم يدرس مطلقاً أي مقرر في علم النفس التجريبي.

س: هل أنت على علم بأي بحث حول موثوقية أو صحة الحكم السريري أو التنبؤات السريرية بناء على المعلومات المستقاة من المقابلات الشخصية؟

ج: لا.

س: ما فهمك للمصطلح الحالي «الأدلة غير المؤكدة»؟

ج: أعتقد أن هذا يعني دليلاً يُثبت بطلان المفاهيم التي يعتز بها الناس.

س: ما أقوى دليل غير مؤكّد تعرفه بالنسبة إلى النظرية القائلة بأن الناس يمكنهم قمع الذكريات أو أنه يمكنهم حجب سلسلة من الأحداث المؤلمة عن وعيهم، وتخزينها في ذاكرتهم، وإعادة تغطيتها ببعض الدقة بعد سنوات؟

ج: ما أقوى شيء ضد ذلك؟

س: نعم. ما هو أقوى دليل غير مؤكّد؟

ج: لا أستطيع التفكير في أي دليل جيد ضد ذلك...

س: هل قرأت أي أدبيات حول مفهوم الذكريات المزيفة باستخدام التنويم المغناطيسي؟

ج: لا.

س: هل هناك بحث حول ما إذا كان الأطباء قد طوروا عبر السنين حكمًا سريريًا أكثر دقة؟

ج: لا أعرف ما إذا كان هناك بالفعل مثل هذا البحث...

س: هل [هناك] تقنية يمكن استخدامها لتمييز الذكريات الحقيقية والمزيفة؟

ج: نحن جميعًا - كبشر - نواجه باستمرار ما إذا كنا نؤمن بما يزودنا به شخص ما أم لا، وكلنا نصدر أحكامًا طوال الوقت، وهناك شيء اسمه الاتساق الداخلي، وإذا أخبرك الناس بأشياء تتسم بالاتساق الداخلي وبالتأثير المناسب، فإنك تميل إلى الاعتقاد بأن القصص صحيحة^{١٣}.

لم يكن فان دير كولك قد قرأ في وقت هذه الإفادة أيًا من المؤلفات البحثية الضخمة حول الذكريات الزائفة، أو كيف يمكن للتنويم المغناطيسي أن يخلقها، ولم يكن على دراية بالمعلومات الموثقة بعدم موثوقية «التنبؤات السريرية المستندة إلى معلومات المقابلات

الشخصية»، ولم يقرأ أيًا من الأبحاث التي تؤكد -على عكس اعتقاده- أن الذكريات المؤلمة عادة ما تُقمَع، ومع ذلك، فقد شهد مرارًا وبثقة نيابة عن مدعين في قضايا الذاكرة المكبوتة، وهو واثق -مثله مثل عديد من الأطباء- بأنه يعرف متى يقول المريض الحقيقة سواء كانت الذاكرة حقيقية أو مزيفة بناءً على خبرته السريرية؛ والقرائن هي ما إذا كانت قصة المريض «متسقة داخليًا» وما إذا كان المريض يعيد سرد الذكرى بمشاعر مناسبة؛ أي ما إذا كان المريض يشعر حقًا أن الذكرى حقيقية، إلا أن المشكلة في هذا المنطق -كما رأينا في الفصل السابق- هي أن آلاف الأشخاص الأصحاء عقليًا يعتقدون أنهم قد اختُطفوا من قبل كائنات فضائية وهم قادرون على رواية -بكل المشاعر المناسبة- قصص متسقة داخليًا عن التجارب الغريبة التي يعتقدون أنهم مروا بها، وكما لاحظ عالم النفس البحثي جون كيلستروم: «إن ضعف العلاقة بين الدقة والثقة هو أحد أفضل الظواهر الموثقة في ١٠٠ عام من تاريخ أبحاث ذاكرة شهود العيان»^{١٤}، ولكن فان دير كولك لم يكن على دراية بالنتيجة التي يعرفها كل طالب جامعي درس علم النفس.

رغم تراكم الأدلة العديدة على قابلية الذاكرة للخطأ والتخاريف لحالات الذاكرة المستعادة، فإن مؤيدي هذه الفكرة لم يعترفوا بالخطأ، ولكن غيروا ببساطة وجهة نظرهم حول الآلية التي يُزعم فقدان الذكريات المؤلمة من خلالها، فلم يعد تأثير القمع ولكن التفكيك، حيث يقسّم العقل بطريقة ما الذاكرة المؤلمة ويبعدها إلى التخوم، وقد سمح لهم هذا التحول بالاستمرار في الإدلاء بشهادتهم -من دون أن يترف لهم

جفن - كخبراء علميين في حالات استعادة الذكريات.

تأمل شهادة كريستين كورتوا عام ٢٠١٤، وهي إحصائية نفسية استشارية كانت من دعاة علاج الذاكرة المستعادة لأكثر من ثلاثين عامًا، (أُغْلِقَ عملها في عام ٢٠١٦)، والتي استُدْعِيَتْ كخبيرة في دعوى مدنية، لصالح المدعي الذي ادعى أنه تعرض للتحرش عندما كان صبيًا من قبل المدعى عليه ولكنه لم يتذكر الإساءة، وعُقدت جلسة استماع قبل المحاكمة لتحديد ما إذا كان هناك أساس علمي موثوق لادعائه، وعادةً يطبق قانون التقادم في الدعاوى المدنية -بما في ذلك قضايا الإساءة للأطفال- ولكن عديدًا من المحاكم قضت بالتغاضي عن الحد الزمني للتقادم إذا لم يكن لدى المدعي في البداية أي علم بالضرر الذي يتذكره لاحقًا، وتتفق المحاكم على أن الشخص الذي يكون في غيبوبة يوقف الساعة وفقًا لقانون التقادم، ولكنهم لا يتفقون حول ما إذا كانت الذكريات المكبوتة توقف الساعة أيضًا، ويعتمد القرار على الجدارة العلمية للادعاء بأن الذكريات المؤلمة يمكن قمعها أو فصلها، فإذا كان ذلك ممكنًا يمكن رفع الدعاوى المدنية والجنائية في غضون فترة زمنية معينة بعد أن يتذكر المدعي تعرضه للتحرش وليس بعد التحرش نفسه، ولهذا السبب يجلب محامو المدعي -في مثل هذه الحالات- أكبر الأسلحة السريية التي يمكنهم العثور عليها للشهادة حول وجود القمع أو -في الوقت الحاضر- التفكك، وبفضل الشعبية الهائلة لعلم الأعصاب ودراسات المخ، فإن هؤلاء الخبراء الذين شهدوا لسنوات بوجود ذكريات مكبوتة، يلوحون الآن بإشارات غامضة لأجزاء من

المخ لدعم اعتقادهم الجديد بوجود ذكريات منفصلة، مثل تلك التي يمكن رؤيتها في شهادة الدكتورة كريستين كورتوا غير المتسقة:

ج. والتي لها علاقة بالتثبيط المفرط للاستجابة لصدمة الإجهاد في مخ الفرد، وأجزاء مختلفة من المخ إما تضيء أو تنطفئ وتظهر استجابة متباينة، لذا فإن الجزء الانفصامي مرتبط بتعدد الشخصية، وتبدد الواقع عن التجربة، وهذه الأنواع من الآليات ستجعل من السهل البحث عن تلك المعلومات، فمن الواضح أنها لا تختفي ويمكن الوصول إليها لاحقاً، ولكن يتم عزلها في المخ.

تُظهر بعض الأبحاث أيضاً أن أمخاخ الأطفال المصابين بصدمات نفسية، وأمخاخ الأطفال المصابين بصدمات نفسية والذين لم يتعرضوا للصدمات بسبب تجربتهم المختلفة -والتي غالباً ما تبدأ في سن مبكرة جداً- أن الأمخاخ مختلفة وتطور الأمخاخ مختلف، ووظائف المخ وبنية المخ مختلفة، وهو ما قد يكون له آثار على الاحتفاظ بالذاكرة، وتشفيرها، واسترجاعها لاحقاً^{١٥}.

هل تأثرت؟ إذا كنت تأثرت فأنت لست وحدك، فهذا هو نوع اللغة الذي يبدو جاداً وعلمياً، ولكن عند فحصه عن قرب تكتشف أنه هراء، ماذا تفعل الأجزاء المختلفة في المخ؟ أي أجزاء؟ بنية المخ مختلفة في ضحايا الصدمات؟ كيف؟ ماذا تعني بالضبط: «الآثار المترتبة على الاحتفاظ بالذاكرة»؟ «مَحجُوز في المخ»؟ أين؟ في خزانة صغيرة قبالة

الجسم الجاسئ المخي؟ أوضحت دينا ويسبرج وزملاؤها في ورقتهم البحثية «الجاذبية المغرية لتفسيرات علم الأعصاب»، أنك إذا أعطيت مجموعة من الأشخاص العاديين تفسيرًا مباشرًا لسلوك ما، ومجموعة أخرى نفس التفسير ولكن مع إشارات غامضة إلى المخ مثل («تشير عمليات مسح المخ إلى» أو: «دوائر الفص الجبهي للمخ المعروفة بأنها ذات علاقة»)، فسيفترض الناس أن التفسير الثاني أكثر علمية وبالتالي أكثر واقعية، ويقع عديد من الأشخاص الأذكياء -بمن فيهم المعالجون النفسيون- فريسة للجاذبية المغرية لهذه اللغة، ولكن لا يُطلب من الأشخاص العاديين الحضور للمحكمة لمحاولة شرح ما تعنيه^{١٦}.

لا أحد يقترح أن يخل مراقبو الأمم المتحدة بخصوصية اللقاء العلاجي، أو أن على جميع المعالجين البدء في إجراء أبحاثهم الخاصة، وقد لا يساعد فهم كيفية التفكير العلمي المعالجين في العملية الذاتية المتعلقة بمساعدة العميل الذي يبحث عن إجابات للأسئلة الوجودية، ولكن الأمر مهم للغاية عندما يدعي المعالجون الخبرة واليقين في المجالات التي يمكن أن تؤدي فيها آراؤهم السريرية غير المؤكدة إلى تدمير الحياة، وتشكل الطريقة العلمية من استخدام إجراءات مصممة لإظهار، ليس أن تنبؤاتنا وفرضياتنا صحيحة، ولكن لإظهار أنها قد تكون خاطئة، والتفكير العلمي مفيد لأي شخص في أي وظيفة لأنه يجعلنا نواجه احتمالاً -وحتى الواقع المرير- أننا كنا مخطئين، وهو يجبرنا على مواجهة تبريراتنا الذاتية وعرضها على الملأ لكي يتفحصها الآخرون، ومن ثم فإن العلم في جوهره هو شكل من أشكال السيطرة على الغطسة.

مشكلة الدرافيل المحب لعمل الخير

بين الحين والآخر تطالعنا قصة إخبارية تثلج القلب تحكي عن بحّار تحطمت سفينته وكان على وشك الغرق في بحر مضطرب، ولكن فجأة ظهر درفيل بجانبه ودَفَعَه - بلطف ولكن بقوة - حتى أوصله بأمان إلى الشاطئ. يبدو أن الدرافيل تحب البشر حقًا لدرجة أنها تنقذنا من الغرق! ولكن انتظر، هل تدرك الدرافيل أن البشر لا يجيدون السباحة مثلهم؟ هل ينوون فعلًا أن يكونوا متعاونين؟ للإجابة عن هذا السؤال سنحتاج إلى معرفة عدد البحّارة الغرقى الذين دفعتهم الدرافيل بعيدًا إلى داخل البحر ليغرقوا ولا يُسمع عنهم مرة أخرى أبدًا، ونحن لا نعرف عن تلك الحالات، لأن البحّارة الغرقى لا يعيشون ليخبرونا عن تجاربهم مع الدرافيل الشريرة، وإذا كانت لدينا هذه المعلومات فقد نستنتج أن الدرافيل ليست خيِّرة ولا شريرة، ولكنها فقط تلعب.

وقع سيجموند فرويد نفسه ضحية للمنطق الخاطئ لمشكلة الدرافيل المحب لعمل الخير، فعندما شكك زملاؤه المحللون في مفهومه بأن جميع الرجال يعانون من قلق الإخصاء كان مستمتعًا وكتب: «يسمع المرء محللين يتفاخرون بأنهم - رغم عملهم لعشرات السنين - لم يجدوا قُط علامة على وجود عقدة الإخصاء، ويجب أن نحني رؤوسنا تقديرًا لهذه القطعة من البراعة في فن التغاضي والخطأ»^{١٧}، ولذلك إذا رأى المحللون قلق الإخصاء لدى مرضاهم، فإن فرويد كان على حق،

وإذا فشلوا في رؤيته فإنهم يكونون «متغاضين» عنه، ولا يزال فرويد على حق، فالرجال أنفسهم لا يستطيعون إخبارك إذا كانوا يشعرون بالقلق من الإخصاء، لأنه في اللاوعي، ولكن إذا أنكروا أنهم يشعرون به فهم في حالة إنكار.

يا لها من نظرية رائعة! ومستحيل أن تكون خاطئة، ولكن هذا هو السبب في أن فرويد -على الرغم من كل ملاحظاته المضئة حول الحضارة وسخطها- لم يكن يمارس العلم، فلن يكون أي نظرية علمية، يجب ذكرها بطريقة يمكن إثبات أنها خاطئة وصحيحة على حد سواء، وإذا أكدت أي نتيجة فرضيتك القائلة بأن جميع الرجال يعانون من دون وعي من قلق الإخصاء (أو أن هذا التصميم الذكي بدلاً من التطور يفسر اختلاف الأنواع، أو أن وسيطك الروحاني المفضل كان سيتوقع بدقة ١١ سبتمبر لو لم يكن يستحم في ذلك الصباح)، فإن معتقداتك هي مسألة إيمانية وليست علمًا، ومع ذلك، اعتبر فرويد نفسه عالمًا بارعًا، ففي عام ١٩٣٤ كتب إليه عالم النفس الأمريكي شاول روزنروب، مقترحًا أن يُخضع فرويد تأكيدات التحليلية النفسية للاختبار التجريبي، فأجاب فرويد بصوت عالٍ: «إن ثروة الملاحظات التي يمكن الاعتماد عليها والتي تستند إليها هذه التأكيدات تجعلها مستقلة عن التحقق التجريبي، ومع ذلك، فإن [التجارب] لا يمكن أن تسبب أي ضرر»^{١٨}.

ولكن بسبب الانحياز التأكيدي، فإن «الملاحظة التي يمكن الاعتماد عليها» لا يمكن الاعتماد عليها، فالحدس الإكلينيكي -«أعرفها عندما

أراها»- هو نهاية المحادثة لعديد من الأطباء النفسيين والمعالجين النفسيين، ولكنه بداية المحادثة للعالم: «ملاحظة جيدة، ولكن ما الذي رأيته بالضبط، وكيف تعرف أنك على صواب؟»، الملاحظة والحدس من دون تحقق مستقل هما دليان غير موثوقين؛ مثل السكان المحليين الأشرار الذين يضللون السياح، ويرسلوننا أحياناً في الاتجاه الخاطئ.

على الرغم من وجود عدد قليل من الفرويديين الأرثوذكس، يوجد عديد من مدارس العلاج النفسي الديناميكي، والتي يطلق عليها هذا الاسم لأنها مشتقة من تركيز فرويد على الديناميكيات العقلية اللا واعيّة، ومعظم هذه البرامج غير مرتبطة بأقسام العلوم النفسية بالجامعة (على الرغم من أن بعضها لا يزال جزءاً من تدريب الأطباء النفسيين المقيمين)، ويتعلم طلابهم قليلاً أو لا شيء عن الأساليب العلمية أو حتى عن الاكتشافات النفسية الأساسية، كما يوجد عديد من المعالجين غير المرخصين الذين لا يعرفون كثيراً عن النظريات الديناميكية النفسية ولكنهم مع ذلك استوعبوا اللغة الفرويدية التي تتغلغل في الثقافة، مثل مفاهيم الانحدار والإنكار والقمع، وما يوحد هؤلاء الممارسين السريريين هو اعتمادهم الخاطئ على قدراتهم الخاصة في الملاحظة والحلقة المغلقة التي يخلقها، فكل ما يرونه يؤكّد ما يؤمنون به.

يتمثل أحد مخاطر الحلقة المغلقة في أنها تجعل الممارسين عرضة للمغالطات المنطقية. تأمل في القياس المنطقي الشهير: «كل الرجال مائتون، وسقراط رجل، إذن سقراط مائت»، حتى الآن جيدة جداً، ولكن لمجرد أن جميع الرجال مائتون، فهذا لا يعني أن جميع المائتين

رجال، وبالتأكيد لا يعني ذلك أن كل الرجال هم سقراط، ومع ذلك، فإن حركة الذاكرة المستعادة كانت مبنية على مغالطة منطقية مفادها أنه إذا تعرضت بعض النساء اللواتي تعرضن للاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة للاكتئاب واضطرابات الأكل ونوبات الذعر، يجب أن تكون جميع النساء اللواتي يعانين من الاكتئاب واضطرابات الأكل ونوبات الهلع قد تعرضن للاعتداء الجنسي في مرحلة الطفولة، ولهذا بدأ عديد من الأطباء النفسيين في دفع مرضاهم غير الراضين للبحث في ماضيهم للعثور على أدلة داعمة لنظريتهم، ولكن بعض مرضاهم نفوا تعرضهم لسوء المعاملة، فماذا يجب أن يفعلوا مع هذا الرد المتنافر؟ جاءت الإجابة في فكرة فرويد بأن اللاوعي يقمع نشاط التجارب المؤلمة، لا سيما التجارب ذات الطبيعة الجنسية، فهذا يفسر الأمر! إنه يفسر كيف يمكن أن تنسى هولي رامونا أن والدها اغتصبها لمدة أحد عشر عامًا.

بمجرد أن يتشبث هؤلاء الأطباء بالقمع لشرح سبب عدم تذكر مرضاهم للاعتداء الجنسي المؤلم، يمكنك أن ترى لماذا شعر البعض بأن لها مبرراتها، بل وبأنه ملزم مهنيًا بفعل كل ما يلزم للتنقيب عن تلك الذاكرة المكبوتة، ولأن إنكار المرضى هو دليل إضافي على القمع، فإن هناك حاجة إلى أساليب قوية، وإذا لم ينجح التنويم المغناطيسي في ذلك، فلنجرّب أميتال الصوديوم («مصل الحقيقة»)، وهو تدخل آخر يريح الشخص ويزيد من فرص الذكريات الزائفة^{١٩}.

بالطبع، يتجنب كثير منا عمدًا الذكريات المؤلمة عن طريق تشتيت انتباهنا أو محاولة عدم التفكير فيها، وقد مر كثير منا بتجربة تذكر فجأة

ذكرى محرجة، كنا نظن أنها قد ولت منذ زمن طويل، وذلك عندما نكون في موقف يستدعيها، حيث يوفر الموقف ما يسميه علماء الذاكرة «إشارات الاسترجاع»، وهي إشارات مألوفة تعيد إيقاظ الذاكرة^{٢٠}.

يزعم المعالجون النفسيون الديناميون أن القمع يختلف تمامًا عن الآليات العادية للنسيان والتذكر، ويعتقدون أن هذا يفسر سبب نسيان الشخص لسنوات وسنوات من التجارب المؤلمة، مثل الاغتصاب المتكرر. ومع ذلك، خلص عالم النفس الإكلينيكي ريتشارد ماكنالي، في مراجعته الدقيقة للبحث التجريبي والأدلة السريرية المقدمة في كتابه «تذكر الصدمات»، إلى أن: «الفكرة القائلة بأن العقل يحمي نفسه بقمع أو فصل ذكريات الصدمة، مما يجعلها غير قابلة للوصول إلى الوعي، هو جزء من الفولكلور النفسي ويخلو من الدعم التجريبي المقنع»^{٢١}، وتظهر الأدلة -بشكل ساحق- عكس ذلك تمامًا، فالمشكلة بالنسبة إلى معظم الناس الذين عانوا من تجارب مؤلمة ليست أنهم نسوها، ولكن أنهم لا يستطيعون نسيانها، وأن الذكريات تستمر في الاقتحام.

وهكذا، لا يقمع الناس ذكرى تعرضهم للتعذيب في السجن، أو مشاركتهم في القتال، أو وقوعهم ضحية لكارثة طبيعية (إلا إذا تسبب ذلك في تلف في المخ)، وذلك على الرغم من أن تفاصيل هذه التجارب الرهيبة تخضع للتشويه على مر السنين، وكذلك كل الذكريات، ويقول ريتشارد ماكنالي: «الأحداث المؤلمة حقًا -التجارب المرعبة والمهددة للحياة- لا تُنسى أبدًا، خاصة إذا تكررت، والمبدأ الأساسي هو أنه: إذا كانت الإساءة مؤلمة وقت حدوثها، فمن غير المرجح أن تُنسى، وإذا

نُسيت فمّن غير المرجح أن تكون مؤلّمة، وحتى إذا نُسيت، لا يوجد دليل على أنها قد حُظرت أو قُمعت أو حُجبت خلف حاجز عقلي لا يمكن الوصول إليه».

من الواضح أنه يوجد عدم اتصال في المعلومات بالنسبة إلى الأطباء الملتزمين بالاعتقاد بأن الأشخاص الذين تعرضوا لمعاملة وحشية لسنوات سيقمعون الذاكرة، ولكن إذا كانوا على حق، فمّن المؤكد أن الناجين من الهولوكوست سيكونون مرشحين رئيسيين للقمع، ولكن كما يعلم الجميع -وكما يوثّق ريتشارد ماكنالي- لم ينسَ أيُّ ناجٍ من الهولوكوست أو قَمَعَ ما حدث له، ولكن دعاة استعادة الذاكرة لديهم رد على هذه الأدلة أيضًا بأن يشوهوها، ففي إحدى الدراسات التي أُجريت بعد أربعين عامًا من الحرب طُلب من الناجين من معسكر إريكا -وهو معسكر اعتقال نازي- أن يتذكروا ما عانوه هناك، وعندما قورنت ذكرياتهم الحالية مع الروايات التي قدموها عندما تم إطلاق سراحهم لأول مرة، اتضح أن الناجين تذكروا ما حدث لهم بدقة ملحوظة، وأي مراقب محايد سيقراً هذا البحث ويقول: «يا له من أمر لا يُصدّق! لقد تمكنا من تذكر كل تلك التفاصيل بعد أربعين عامًا»، ومع ذلك، استشهد فريق من دعاة الذاكرة المستعادة بهذه الدراسة كدليل على أنه «تم الإبلاغ أيضًا عن فقدان الذاكرة لتجارب معسكر الهولوكوست النازي»، ولكن ما تم الإبلاغ عنه لم يكن شيئاً يشبه فقدان الذاكرة ولو من بعيد، فقد فشل بعض الناجين في تذكر بعض الأحداث العنيفة من بين عديد من الأحداث المماثلة، ونسي البعض بعض التفاصيل، مثل اسم

الحارس السادي، وهذا ليس قمعاً ولكنه النسيان الطبيعي للتفاصيل التي نمر بها جميعاً عبر السنين^{٢٢}.

الأطباء الذين يؤمنون بالقمع يرونه في كل مكان حتى في الأماكن التي لا يراه فيها أحد، ولكن إذا كان كل ما تلاحظه في تجربتك السريرية دليلاً يدعم معتقداتك، فما الذي ستعتبره دليلاً مضاداً؟ وماذا لو لم يكن لدى مريضتك ذاكرة بسوء المعاملة، ليس لأنها تقمعها ولكن لأنها لم تحدث قط؟ ما الذي يمكن أن يخرجك من الحلقة المغلقة؟ للحماية من تحيز ملاحظتنا المباشرة، اخترع العلماء مجموعة التحكم، وهي المجموعة التي لا تحصل على الطريقة العلاجية الجديدة، أو المرضى الذين لا يحصلون على الدواء الجديد، ويفهم معظم الناس أهمية مجموعات التحكم في دراسة فعالية أي دواء جديد، لأنه من دون مجموعة تحكم، لا يمكنك القول ما إذا كانت الاستجابة الإيجابية للناس ناتجة عن العقار أم من تأثير الدواء الوهمي؛ أي التوقع العام بأن الدواء سيساعدهم، وقد وجدت إحدى الدراسات التي أجريت على النساء اللاتي اشتكين من مشكلات جنسية أن ٤١٪ منهن قلن إن الرغبة الجنسية لديهن عادت عندما تناولن الفياجرا، وكذلك قالت ٤٣٪ من مجموعة التحكم اللاتي تناولن حبة سكر^{٢٣}، (أظهرت هذه الدراسة بشكل قاطع أن العضو الأكثر مسؤولية عن الإثارة الجنسية هو المخ).

من الواضح أنك إذا كنت معالجاً نفسياً، لا يمكنك وضع بعض عملائك عشوائياً على قائمة الانتظار، وإعطاء الآخرين انتباهك الشديد،

لأن من على قائمة الانتظار سيجدون معالجاً آخر على الفور، ولكن إذا لم تكن مدرباً على أن تكون على دراية بمشكلة الدرفيل المحب لعمل الخير، وإذا كنت مقتنعاً بشكل مطلق بأن آراءك صحيحة وأن مهاراتك السريرية لا جدال فيها، فقد ترتكب أخطاء جسيمة. شرحت إخصائية اجتماعية سريرية لماذا قررت حرمان أم من حضانة طفلتها قائلة للقاضي: لقد تعرضت الأم للإيذاء الجسدي عندما كانت طفلة، و«نعلم جميعاً» أن هذا يعني أنها ستكون بالتأكيد أمّاً مؤذية جسدياً، وجاء هذا الافتراض لدورة الإساءة من ملاحظة الحالات المؤكدة: للآباء المسيئين الذين أبلغوا -في السجن أو في العلاج- عن تعرضهم للضرب المبرح أو الاعتداء الجنسي من قبل والديهم. وما ينقص هو الحالات غير المؤكدة لأطفال تعرضوا للإيذاء الجسدي ولم يكبروا ليصبحوا آباءً مسيئين، فهؤلاء غير مرئيين بالنسبة إلى الإخصائيين الاجتماعيين وغيرهم من المتخصصين في الصحة العقلية، لأنهم -بحكم التعريف- لا ينتهي بهم الأمر في السجن أو العلاج، وقد وجد الباحثون، من علماء النفس الذين أجروا دراسات طويلة لمتابعة الأطفال عبر السنين، أنه في حين أن تعرضهم للإيذاء الجسدي عندما كانوا أطفالاً يرتبط بزيادة فرصة أن يصبحوا آباءً مسيئين، فإن الغالبية العظمى من الأطفال المعتدى عليهم -ما يقرب من ٧٠٪- لا يكررون قسوة والديهم^{٢٤}، فإذا كنت تعالج ضحية تعرض لإساءة معاملة من الوالدين أو تعالج أحد الوالدين المسيئين، فقد لا تكون هذه المعلومات ذات صلة بك، ولكن إذا كنت في وضع يسمح لك بعمل تنبؤات من شأنها أن تؤثر على ما إذا كان

يجب على أحد الوالدين -على سبيل المثال- أن يفقد حضانة الطفل، فمن المؤكد أن هذه المعلومات تصبح ذات صلة.

وبالمثل، افترض أنك تعالج أطفالاً تعرضوا للتحرش الجنسي، فهم يلمسون قلبك بينما تلاحظ أعراضهم بشكل دقيق: فهم خائفون، أو يتبولون في السرير، أو يريدون النوم في وجود ضوء بالليل، أو يعانون من كوابيس، أو يمارسون العادة السرية، أو يعرضون أعضاءهم التناسلية لأطفال آخرين، وبعد فترة من الوقت، وباستخدام هذه الأعراض كقائمة مراجعة، من المحتمل أن تصبح واثقاً تماماً بقدرتك على تحديد ما إذا كان الطفل قد تعرض لإساءة جسدية، فيمكنك إعطاء طفل صغير دمية صحيحة تشريحياً ليلعب بها على أساس أن ما لا يمكنه كشفه بالكلمات قد يتم الكشف عنه في أثناء اللعب، وقد يُقحم أحد مرضاك الصغار عصا في مهبل الدمية، وقد يدقق آخر في قضيب دمية بتركيز مقلق بالنسبة إلى طفل يبلغ من العمر أربع سنوات.

المعالجون الذين لم يتم تدريبهم على التفكير العلمي، ربما لن يتساءلوا عن الحالات غير المرئية؛ وهم الأطفال الذين لا يرونهم كمرضى، وربما لن يفكروا في السؤال عن مدى شيوع أعراض التبول في الفراش واللعب الجنسي والخوف في عموم الأطفال، فعندما سأل الباحثون وجدوا أن الأطفال الذين لم يتعرضوا للتحرش من المحتمل أيضاً أن يمارسوا العادة السرية ويكونوا فضوليين جنسياً، ومن المرجح أيضاً أن يبذل الأطفال الخائفون مزاجياً الفراش ويخافوا من الظلام^{٢٥}، وحتى الأطفال الذين تعرضوا للتحرش لا تظهر عليهم مجموعة

أعراض يمكن التنبؤ بها، وهو أمر تعلّمه العلماء فقط من خلال مراقبة ردود أفعال الأطفال بمرور الوقت بدلاً من تقييمها مرة أو مرتين في مقابلة سريرية، وقد وجدت مراجعة، لخمس وأربعين دراسة تابعت الأطفال الذين تعرضوا للاعتداء الجنسي لمدة تصل إلى ثمانية عشر شهراً، أنه على الرغم من أن هؤلاء الأطفال في البداية عانوا من أعراض الخوف والتصرفات الجنسية أكثر من الأطفال غير المعتدى عليهم، «لم يكن هناك عرض واحد يميز غالبية الأطفال الذين تعرضوا للاعتداء الجنسي، وأن ما يقرب من ثلث الضحايا لم تظهر عليهم أعراض... وتشير النتائج إلى عدم وجود أي متلازمة محددة لدى الأطفال المعتدى عليهم جنسياً»^{٢٦}.

علاوة على ذلك، لا يختلف الأطفال الذين لم يتعرضوا للتحرش بشكل ملحوظ عن الأطفال الذين تعرضوا للتحرش في طريقة لعبهم بالدمى المفصلة تشريحياً، فتلك الأعضاء التناسلية البارزة مثيرة جداً للاهتمام، ويقوم بعض الأطفال بأشياء غريبة، ولا يعني ذلك أي شيء على الإطلاق، باستثناء أن الدمى لا يمكن الاعتماد عليها كاختبارات تشخيصية^{٢٧}، وفي إحدى الدراسات التي قادها اثنان من علماء النفس التنموي البارزين -ماججي بروك وستيفن سيسي- أقحمت طفلة عصا في مهبل الدمى لتُظهر لوالديها ما يُفترض أنه حدث لها في أثناء فحص الطبيب في ذلك اليوم^{٢٨}، ولكن الطبيب (المسجل بالفيديو) لم يفعل شيئاً كهذا، ولكن يمكنك أن تتخيل كيف ستشعر إذا شاهدت ابتك تلعب بعنف مع الدمى، وأخبرك طبيب نفسي رسمياً بأن هذا يعني أنها

تعرضت للتحرش، فلا شك في أنك ستريد أن يختفي ذلك الطبيب من على ظهر الأرض.

يشعر عديد من المعالجين بثقة كبيرة بقدرتهم على تحديد ما إذا كان الطفل قد تعرض للتحرش أم لا، لأنهم - كما يقولون - لديهم سنوات من الخبرة السريرية تدعم أحكامهم، ومع ذلك تظهر دراسات متعددة أن ثقتهم غير مبررة، وفي إحدى الدراسات المهمة فحص عالم النفس السريري توماس هورنر وزملاؤه التقييمات التي قدمها فريق من الأطباء الخبراء في حالة اتُّهم فيها الأب بالتحرش بابنته البالغة من العمر ثلاث سنوات، واستعرض الخبراء النصوص، وشاهدوا مقابلات مع الطفلة وأشرطة فيديو للتبادلات بين الوالدين والطفلة، وراجعوا النتائج السريرية، ورغم أن المعلومات لديهم كانت متطابقة فإن البعض كانوا مقتنعين بأن التحرش قد حدث، بينما كان آخرون مقتنعين بأنه لم يحدث قط، ثم جند الباحثون ١٢٩ اختصاصياً في الصحة العقلية وطلبوا منهم تقييم الأدلة في هذه الحالة، وتقدير احتمالية تعرض الطفلة للتحرش من قبل والدها، وتقديم توصية بشأن الحضانة، ومرة أخرى تراوحت النتائج بين اليقين بأن الطفلة قد تعرضت للتحرش إلى اليقين بأنها لم تتعرض للتحرش، وأراد البعض منع الأب من رؤية ابنته مرة أخرى، بينما أراد آخرون منحه الحضانة الكاملة، وسارع الخبراء الذين كانوا يميلون إلى الاعتقاد بأن الاعتداء الجنسي متفشٍّ في الأسر إلى تفسير الأدلة الغامضة بطرائق تدعم هذا الاعتقاد، أما أولئك الذين كانوا متشككين فلم يفعلوا ذلك، وقد عقب

الباحثون على رأي الخبراء غير المتشككين بقولهم: «يرى المرء ما يُؤمن به»^{٢٩}.

حتى الآن أظهرت مئات الدراسات عدم موثوقية التنبؤات السريرية، وهذا الدليل هو خبر يخلق التنافر لإحصائي الصحة العقلية الذين تعتمد ثقتهم بأنفسهم على الاعتقاد بأن التقييمات المبنية على خبرتهم دقيقة للغاية^{٣٠}، وعندما قلنا إن العلم هو شكل من أشكال السيطرة على الغطرسة، فهذا هو ما نعنيه.

كان مبدأ «يرى المرء ما يُؤمن به» هو المبدأ الذي خلق كل واحدة من فضائح الرعاية النهارية في ثمانينيات وتسعينيات القرن العشرين، وكما حدث في قضية ماكمارتن، بدأ كل منها باتهام من والد مضطرب أو معادٍ للمثليين أو تعليقات غريبة لطفل، والتي أفضت إلى تحقيقٍ أثار الذعر، ففي حضانة وي كير في نيو جيرسي، كان طفل يبلغ من العمر أربع سنوات يقيس درجة حرارته شرجياً في عيادة طبية عندما قال: «هذا ما تفعله بي معلمتي [كيلى مايكلز] في المدرسة»^{٣١}، فأبلغت والدته الطفل وكالة حماية الطفل في الولاية، التي أحضرت الطفل إلى مكتب المدعي العام وأعطته دمية تشريحية ليلعب بها، فأدخل الطفل إصبعه في شرح الدمية وقال إن اثنين من الأولاد الآخرين قيسَت درجة حرارتهم بهذه الطريقة أيضاً، وأخبرَ أولياء أمور الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة بالبحث عن علامات تحرش جنسي في أطفالهم، واستدعي متخصصون لمقابلة الأطفال، وسرعان ما كان الأطفال يدعون أن كيلى مايكلز -من بين أمور أخرى- قد لعقت زبدة الفول السوداني

من أعضائهم التناسلية، وجعلتهم يشربون بولها ويأكلون برازها، واغتصبتهم بالسكاكين والشوك واللعب، وقيل إن هذه الأفعال حدثت خلال ساعات الدوام المدرسي على مدى سبعة أشهر، رغم عدم تقدم أي طفل بشكوى، ورغم أن الآباء -الذين يمكنهم القدوم والذهاب كما يحلو لهم- لم يشهدوا أي تحرش أو يلاحظوا أي مشكلات في أطفالهم.

أُدينَت كيلي مايكلز بـ ١١٥ تهمة تتعلق بالاعتداء الجنسي وحُكِمَ عليها بالسجن سبعة وأربعين عامًا، ولكن أُفرج عنها بعد خمس سنوات عندما قضت محكمة الاستئناف بأن شهادة الأطفال قد تلوّث بالطريقة التي تمت مقابلتهم بها، وكيف كان ذلك؟ مع التحيز التأكيدي الذي يسير بأقصى سرعة وعدم وجود لجام من الحذر العلمي لكبح جماحه، وهو المزيج القاتل الذي كان السمة المميزة لمقابلات الأطفال التي أُجريت في جميع حالات الرعاية النهارية، وإليك كيف استخدمت سوزان كيلي -ممرضة أطفال أجرت مقابلات مع أطفال في عدد من هذه الحالات- دمي بيرت وإيرني «لمساعدة» الأطفال كي يتذكروا:

كيلي: هل تخبري إيرني؟

الطفلة: لا.

كيلي: آه، هيا [بنبرة استجداء]، من فضلك قولي لإيرني، أرجوك قولي لي، أرجوك قولي لي، حتى نتمكن من مساعدتك، من فضلك... اهمسي بها لإيرني... هل لمسك أحد من قبل هناك؟ [تشير إلى فرج دمية فتاة].

الطفلة: لا.

كيلبي: [مشيرة إلى مؤخرة الدمية] هل لمس أحد مؤخرتك؟

الطفلة: لا.

كيلبي: هل لك أن تخبري بيرت؟

الطفلة: لم يلمسوني!

كيلبي: من الذي لم يلمسك؟

الطفلة: ليس أستاذي. لا أحد.

كيلبي: هل لمس أي شخص كبير، أو أي شخص بالغ، مؤخرتك؟

الطفلة: لا^{٣٢}.

«من الذي لم يلمسك؟». نحن ندخل عالم كاتش ٢٢، الرواية العظيمة لجوزيف هيلر (ويشير كاتش ٢٢ إلى نوع من الألفاظ المنطقية التي لا يوجد لها حل)، حيث يقول العقيد ذو الشارب السميك لكليفنجر: «ماذا كنت تقصد عندما قلت إننا لا نستطيع معاقبتك؟». يرد كليفنجر: «لم أقل إنك لا تستطيع معاقبتني يا سيدي». فيقول العقيد: «متى لم تقل إننا لا نستطيع معاقبتك؟». كليفنجر: «لم أقل قط إنه لا يمكنك معاقبتني يا سيدي».

في ذلك الوقت كان المعالجون النفسيون والإخصائيون الاجتماعيون الذين تم استدعاؤهم لمقابلة الأطفال يعتقدون أن الأطفال الذين تعرضوا للتحرش لن يخبروك بما حدث لهم ما لم تضغط عليهم،

من خلال طرح الأسئلة الإرشادية باستمرار، لأنهم كانوا خائفين أو خجولين، وفي غياب البحث كان هذا افتراضاً معقولاً، ومن الواضح أنه كان صحيحاً في بعض الأحيان، ولكن متى ينزلق الضغط إلى الإكراه؟ أجرى علماء النفس تجارب للتحقق من جوانب مختلفة في ذاكرة الأطفال وشهاداتهم، مثل: كيف يفهم الأطفال ما يطلبه الكبار منهم؟ هل تعتمد إجاباتهم على سنهم وقدراتهم اللغوية وأنواع الأسئلة التي تُطرح عليهم؟ في ظل أي ظروف يُحتمل أن يقول الأطفال الحقيقة؟ ومتى يُحتمل أن يكونوا قابلين للإيحاء ليقولوا إن شيئاً ما حدث بينما هو لم يحدث؟^{٣٣}

في تجربة مع أطفال ما قبل المدرسة، استخدمت سينا جارفن وزملاؤها تقنيات المقابلة التي استندت إلى النصوص الفعلية لاستجابات الأطفال في قضية ماكمارتن، حيث زار شابُّ الأطفال في روضة الأطفال وقرأ لهم قصة ووزع الحلوى عليهم، ولم يفعل شيئاً عدوانياً أو غير مناسب أو مفاجئاً، وبعد أسبوع استجوبت إحدى المختبرات الأطفال عن زيارة الرجل، وسألت مجموعة أسئلة، مثل: «هل دفع المعلم؟ هل ألقى بقلم تلوين على طفل كان يتحدث؟». وسألت مجموعة ثانية نفس الأسئلة لكنها أضافت تقنيات التأثير التي استخدمها محققو ماكمارتن؛ أخبرت الأطفال بما يفترض أن قاله الأطفال الآخرون، وأعربت عن خيبة أملها إذا كانت إجاباتهم سلبية، وأثنت على الأطفال الذين وجَّهوا اتهامات. الأطفال في المجموعة الأولى -الذين حصلوا على الأسئلة الرئيسية فقط- قالوا: «نعم، حدث

ذلك» في نحو ١٥٪ من الادعاءات الكاذبة حول زيارة الرجل، وهي ليست نسبة عالية ولكنها ليست نسبة تافهة أيضًا، ولكن في المجموعة الثانية -التي أضيفت فيها تقنيات التأثير- قال الأطفال البالغون من العمر ثلاث سنوات: «نعم، حدث ذلك» لأكثر من ٨٠٪ من الادعاءات الكاذبة التي اقترحت عليهم، وقال الأطفال البالغون من العمر أربع إلى ست سنوات: «نعم» لنحو نصف الادعاءات، وتلك النتائج حدثت بعد مقابلات استغرقت خمس دقائق إلى عشر دقائق فقط، أما في التحقيقات الجنائية الفعلية، فغالبًا ما يستجوب المحاورون الأطفال مرارًا وتكرارًا على مدار أسابيع وشهور، وفي دراسة مماثلة ولكن مع أطفال تتراوح أعمارهم بين ٥ و ٧ سنوات، وجد المحققون أنه يمكنهم بسهولة التأثير على الأطفال للإجابة بنعم عن أسئلة غير معقولة، مثل: «هل أخذك باكو معه لتطير في طائرة؟». والأمر الأكثر إثارة للقلق هو أنه في غضون فترة قصيرة تبلورت عديد من العبارات غير الدقيقة للأطفال في ذكريات مستقرة ولكنها مزيفة^{٣٤}.

مكنت مثل هذه الأبحاث علماء النفس من تحسين أساليبهم في إجراء مقابلات مع الأطفال، وذلك بهدف مساعدة الأطفال الذين تعرضوا للتحرش في الكشف عما حدث لهم، ولكن من دون زيادة قابلية الإيحاء للأطفال الذين لم يتعرضوا للتحرش، وقد بين العلماء أن الأطفال دون سن الخامسة لا يستطيعون، في كثير من الأحيان، التمييز بين شيء قيل لهم وشيء حدث لهم بالفعل، فإذا سمع الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة البالغين يتبادلون الشائعات حول حدث

ما، فسيصدق عديد من الأطفال لاحقاً أنهم قد اختبروا هذا الحدث بأنفسهم^{٣٥}، وأقوى نتيجة في كل هذه الدراسات هي أن البالغين من المرجح جداً أن يلوثوا المقابلة عندما يذهبون إليها مقتنعين بالفعل بأن الطفل قد تعرض للتحرش، وعندما يكون الأمر كذلك فهناك «حقيقة» واحدة فقط هم على استعداد لقبولها عندما يطلبون من الطفل أن يقول الحقيقة، وهم -مثل سوزان كيلى- لا يقبلون أبداً كلمة «لا» من الطفل، ويفهمون كلمة «لا» على أنها تعني أن الطفل ينكر أو يجمع أو يخشى أن يخبر، ولا تستطيع الطفلة فعل أي شيء لإقناع الشخص البالغ بأنها لم تتعرض للتحرش.

قد يكون الشخص البالغ هو والد الطفل، فبعد عشرين عاماً من محاكمات ماكمارتن اعتذر كايل زيربولو -الذي كان أحد الأطفال الذين شهدوا ضد معلمي مرحلة ما قبل المدرسة- علناً في صحيفة لوس أنجلوس تايمز، وقال إنه كان يعلم في ذلك الوقت أنه كان يكذب، ولكنه فعل ذلك لإرضاء زوج والدته، ضابط الشرطة، الذي كان مقتنعاً بأن معلمي الحضانة كانوا من مشتهي الأطفال جنسياً، وكما قال كايل زيربولو: ولكن الكذب أزعجني حقاً، وفي إحدى الليالي التي أتذكرها جيداً، وكنت أبلغ نحو عشر سنوات، حاولت إخبار أمي أنه لم يحدث شيء، واستلقيت على السرير وأنا أبكي بشكل هستيري، وأردت أن أزيح الأمر عن صدري وأخبرها بالحقيقة، فظلت والدتي تطلب مني أن أخبرها بالأمر، فقلت إنها لن تصدقني أبداً، ولكنها قالت بإصرار: «أعدك أنني سأصدقك! فأنا أحبك جداً! قل لي ما الذي يزعجك!».

واستمر هذا لفترة طويلة: أخبرها أنها لن تصدقني، بينما تؤكد لي أنها ستصدقني، وأتذكر أنني أخبرتها أخيرًا: «لم يحدث شيء! لم يحدث لي أي شيء على الإطلاق في تلك المدرسة»، ولكنها لم تصدقني^{٣٦}.

يعتقد كايل زيربولو أن والدته لا تستطيع قبول الحقيقة - أنه لم يتعرض للتحرش - لأنها إذا فعلت ذلك «فكيف يمكنها أن تشرح جميع مشكلات الأسرة؟»، وقال إنها وزوجها لم يستمعا إليه قط، ولم يُبدِ أي ارتياح لأنه لم يتعرض لأذى، ولم يشاهدا أيًا من الأفلام أو يقرأ أيًا من الكتب التي شككت في تعامل النيابة مع القضية.

يمكننا أن نفهم لماذا سارع كثير من أمثال سوزان كيلى، والمدعون العامون، وأولياء الأمور، إلى افتراض الأسوأ، فلا أحد يريد إطلاق سراح متحرش بطفل، ولكن لا ينبغي لأحد أيضًا أن يرغب في المساهمة في إدانة شخص بالغ بريء، والآن بعد سنوات من البحث التجريبي مع الأطفال، صاغ المعهد الوطني لصحة الطفل والتنمية البشرية وبعض الولايات بروتوكولات نموذجية جديدة للإخصائيين الاجتماعيين ومحققي الشرطة وغيرهم ممن يجرون مقابلات مع الأطفال^{٣٧}، وتشدد هذه البروتوكولات على مخاطر التحيز التأكيدي، ويطلبون من المحاورين اختبار فرضية الإساءة المحتملة وعدم افتراض أنهم يعرفون ما حدث، وتدرّك الإرشادات العامة أن معظم الأطفال سيفصّحون بسهولة عن التحرش الفعلي، ويحتاج البعض إلى حث؛ كما تحذر الإرشادات العامة من استخدام الأساليب المعروفة بإنتاجها تقارير مزيفة.

يعكس هذا التغيير من عبارة «صدقوا الأطفال» غير الناقدة، إلى «افهموا الأطفال» الأكثر فطنة، اعترافاً بأن العاملين في مجال الصحة العقلية يحتاجون إلى التفكير بشكل أكبر مثل العلماء، وأقل شبهة بالدعاة؛ ويجب عليهم تقييم جميع الأدلة بشكل عادل والنظر في احتمال أن تكون شكوهم لا أساس لها من الصحة، وإذا لم يفعلوا ذلك فلن تتحقق العدالة ولكن سيتحقق تبرير الذات.

العلم والشك وتبرير الذات

عندما نشرت الطيبة النفسية جوديث هيرمان عن سفاح القربى بين الأب وابنته في عام ١٩٨١، تذكر المرضى الذين وصفتهم ما قد حدث لهم بكل وضوح، وفي ذلك الوقت كانت الطبيبات النسويات مثل جوديث هيرمان يعملن على زيادة الوعي العام بالاغتصاب والتحرش بالأطفال وسفاح القربى والعنف المنزلي، ولم يزعمن أن مريضاتهن قد كبتن ذكرياتهن، ولكنهن أوضحن أن هؤلاء النساء قلن إنهن اخترن الصمت لأنهن شعرن بالخوف والخجل، ولأنهن واثقات بأن لا أحد سوف يصدقهن. لا توجد خانة للقمع في قائمة محتويات سفاح القربى بين الأب وابنته، ولكن في غضون عشر سنوات أصبحت جوديث هيرمان مدافعة عن الذاكرة المستعادة، وكانت الجملة الأولى في كتابها الصادر عام ١٩٩٢ «الصدمة والتعافي» هي: «الرد العادي على الفظائع هو إبعادها عن الوعي»، فكيف انتقلت جوديث هيرمان وغيرها من الأطباء ذوي الخبرة العالية من الاعتقاد بأن التجارب المؤلمة نادرًا ما

تُنسَى إلى الاعتقاد بأن هذه الاستجابة كانت «عادية»؟ خطوة واحدة في كل مرة.

تخيل أنك معالج يهتم بشدة بحقوق وسلامة النساء والأطفال، وترى نفسك ممارسًا ماهرًا ورحيمًا، وتعرف مدى صعوبة حمل السياسيين والجمهور على الاهتمام الجاد بمشكلات النساء والأطفال، كما تعرف كم كان من الصعب على النساء المعنفات التحدث، والآن تبدأ في سماع ظاهرة جديدة: تستعيد النساء فجأة في أثناء العلاج الذكريات التي كن يقمعنها طوال حياتهن، وهي ذكريات بأحداث مروعة، وتظهر هذه الحالات في البرامج الحوارية، وفي المؤتمرات التي تذهب إليها، وفي موجة من الكتب، ولا سيما كتاب «شجاعة أن تُشفى (١٩٨٨)» الذي يحظى بشعبية كبيرة، وصحيح أن مؤلفتي الكتاب -إيلين باس ولورا ديفيس- لم تتلقيا أي تدريب من أي نوع في البحث النفسي أو العلاج النفسي -ناهيك عن العلم- وهو أمر اعترفنا به بحرية وصراحة، فقد أوضحت إيلين باس في المقدمة: «لا شيء مما نقدمه هنا مبني على نظريات نفسية»، ولكن هذا الجهل بعلم النفس لم يمنعهما من تعريف نفسيهما على أنهما معالجتان وخبيرتان في التحرش الجنسي، استنادًا إلى ورش العمل التي قادتاهما^{٣٨}، وقدمتا قائمة بالأعراض التي قالتا إن أيًا منها يشير إلى أن المرأة ربما كانت ضحية لسفاح القربى، بما في ذلك أنها تشعر بالعجز وعدم التحفيز، أو تعاني من اضطراب في الأكل أو مشكلات جنسية، أو تشعر أن هناك شيئًا خاطئًا في أعماقها، أو تشعر أنها يجب أن تكون مثالية، أو تشعر أنها سيئة أو قذرة أو تشعر

بالخجل، فإذا كنت معالجًا يعمل مع النساء اللواتي يعانين من بعض هذه المشكلات، فهل يجب أن تفترض أن سنوات من سفاح القربى -المكبوتة في الذاكرة- هي السبب الرئيسي لهذه المشكلات؟

ها أنت ذا في قمة الهرم وعليك أن تتخذ قرارًا، إما أن تلتحق بركب الذاكرة المستعادة أو أن تكون متشككًا، وقد اختار غالبية إخصائيي الصحة العقلية المسار الأخير ولم يوافقوا على المسار الأول، ولكن عددًا كبيرًا من المعالجين -بين الربع والثلث، وفقًا لعدة دراسات استقصائية^{٣٩}، اتخذوا تلك الخطوة الأولى في اتجاه الاعتقاد، وبالنظر إلى الحلقة المغلقة في الممارسة السريرية، يمكننا أن نرى مدى سهولة ذلك بالنسبة إليهم كي يفعلوا ذلك، إذ لم يتم تدريب معظمهم على روح التشكيك التي تطالب بإظهار البيانات، ولم يعرفوا شيئًا عن التحيز التأكيدي، ولذلك لم يخطر ببالهم أن إيلين باس ولورا ديفيس كانتا تشاهدان دليلًا على سفاح القربى في أي أعراض تعاني منها المرأة، وحتى في حقيقة أنها لا تعاني من أي أعراض. كانتا تفتقران إلى تقدير عميق لأهمية مجموعات التحكم، ولذلك فمن غير المرجح أن تتساءلا عن عدد النساء اللواتي لم يتعرضن للتحرش، ومع ذلك يعانين من اضطرابات الأكل أو يشعرن بالضعف وعدم التحفيز^{٤٠}، ولم تتوقفا للنظر في أسباب أخرى غير سفاح القربى قد تسبب في مشكلات جنسية لمريضاتهن.

حتى بعض الممارسين المتشككين كانوا مترددين في إبطاء ركب الذاكرة المستعادة بقول أي شيء ينتقد زملاءهم أو النساء اللواتي يروين

قصصهن. من غير المريح -والمتنافر- أن تدرك أن بعض زملائك يلوثون مهنتك بأفكار سخيفة أو خطيرة، كما أنه أمر محرج -ومتنافر- أن تدرك أنه ليس كل ما تقوله النساء والأطفال صحيحًا، خاصة بعد كل جهودك لإقناع النساء الضحايا بالتحدث بصوت عالٍ وجعل العالم يتعرف على مشكلة إساءة معاملة الأطفال، وقد خشي بعض المعالجين من أن التشكيك علنًا في صحة الذكريات المستعادة من شأنه تقويض مصداقية النساء اللواتي تعرضن بالفعل للتحرش أو الاغتصاب، كما خشي البعض من أن انتقاد حركة الذاكرة المستعادة من شأنه أن يعطي الذخيرة والدعم المعنوي للمفترسين الجنسيين والمناهضين للنسوية. وفي البداية، لم يكن بإمكانهم توقع اندلاع دعر وطني بشأن الاعتداء الجنسي، وأن يتم اكتساح الأبرياء في أثناء ملاحقة المذنبين، ولكن من خلال التزامهم الصمت في أثناء حدوث ذلك، فقد عززوا انزلاقهم إلى أسفل الهرم.

لكن ما حالة علاج الذاكرة المستعادة اليوم وافترضها الأساسي بأن التجارب المؤلمة عادةً ما تُقَمَّع؟ نظرًا لأن القضايا المثيرة قد خبت من انتباه الجمهور، فقد يبدو أن المشكلات قد حُلَّت وساد العقل والعلم، ولكن كما تتنبأ نظرية التنافر، فبمجرد أن تحظى فكرة غير صحيحة بالشهرة -وخاصة إذا تسببت هذه الفكرة في ضرر واسع النطاق- فإنها نادرًا ما تتلاشى، ولكنها تكمن في الانتظار -مثل الاعتقاد الخاطئ بأن اللقاحات تسبب التوحد- وتعود للظهور في أي فرصة قد تسمح لمروجيها بادعاء أنهم كانوا على حق طوال الوقت، وما زالت

الدعاوى القضائية تُرفع، وما زالت العائلات تتفكك على يد أشخاص تذكروا - في أثناء العلاج - أنهم تعرضوا للتحرش الجنسي أو الاعتداء عليهم بطريقة أخرى، وقد غيّرت الجمعية الأمريكية للطب النفسي اسم اضطراب تعدد الشخصية إلى اضطراب الهوية الانفصامي، ولكن لا تزال جمعية مهنية للأطباء النفسيين والمعالجين النفسيين الذين رَوَّجوا لهذا التشخيص لسنوات - تحت كلا التصنيفين - تمنح جائزة كورنيليا ويلبر «للمساهمات السريرية البارزة في علاج الاضطرابات الانفصامية».

ذكرت دراسة أجريت عام ٢٠١٤ أنه «على الرغم من وجود مؤشرات على وجود شكوك اليوم أكثر مما كانت عليه في تسعينيات القرن العشرين»، فإن الفجوة بين العلماء والممارسين لا تزال «فجوة خطيرة». أخذ الباحثون عينات من عديد من مجموعات علماء النفس والمعالجين النفسيين المحترفين ووجدوا أنه كلما كانوا أكثر تدريباً علمياً، زادت دقة معتقداتهم حول الذاكرة والصدمات، ومن بين أعضاء جمعية علم النفس الإكلينيكي اعتقد ١٧,٧٪ فقط أن «الذكريات المؤلمة غالباً ما تُقمَع»، ومن بين المعالجين النفسيين العامين كانت النسبة ٦٠٪، ومن بين المحللين النفسيين ٦٩٪، ومن بين معالجي البرمجة اللغوية العصبية والمعالجين بالتنويم المغناطيسي ٨١٪، وهي نفس النسبة تقريباً الموجودة لدى عامة الناس^{٤١}، وقد كتب فريق من علماء الذاكرة في عام ٢٠١٩ أن «حروب الذاكرة لم تختفِ، ولكنها استمرت في الصمود والمساهمة في عواقب من المحتمل أن تكون ضارة في السياقات السريرية والقانونية والأكاديمية»^{٤٢}.

لا عجب أن هذه الفجوة لا تزال قائمة، بالنظر إلى ما سيتكلفه كل هؤلاء المعالجين النفسيين والأطباء النفسيين الذين ولّدوا وباء الذاكرة المستعادة وحالات تعدد الشخصيات وجعلوها تصعد مرة أخرى إلى أعلى الهرم، ويستمر البعض في فعل ما كانوا يفعلونه منذ سنوات لمساعدة المرضى على الكشف عن الذكريات «المكبوتة»^٣، وتخلي آخرون بهدوء عن تركيزهم على الذكريات المكبوتة عن سفاح القربى كتفسير رئيسي لمشكلات مرضاهم، ويرون أنه قد عفا عليها الزمن مثلما حدث تمامًا لحسد القضيبي والبرود الجنسي والجنون الاستمنائي منذ عقود، وهم يُسْقِطون إحدى البدع عندما تفقد قوتها ويلتحقون بالبدعة التالية، ونادرًا ما يتوقفون للتساؤل عن أين ذهبت حالات سفاح القربى المكبوتة، وقد يكونون مدرّكين بشكل غامض وجود تناقض، ولكن من الأسهل الالتزام بما فعلوه دائمًا وربما إضافة تقنية أحدث لمواكبة ذلك، وقد نسي بعض المعالجين مدى حماسهم وإيمانهم بافتراضات وأساليب الذاكرة المستعادة، وأصبحوا الآن يرون أنفسهم معتدلين في الجدل القائم بأكمله.

مما لا شك فيه أن الممارسين الذين لديهم أكبر قدر من التنافر هم علماء النفس الإكلينيكي والأطباء النفسيون الذين رَوّجوا لعلاجات الذاكرة المستعادة والشخصيات المتعددة في البداية واستفادوا منها، فكثير منهم لديهم مؤهلات رائعة، وأعطتهم الحركة شهرة ونجاحًا كبيرين، وكانوا محاضرين بارزين في المؤتمرات المهنية، وجرى استدعاؤهم (ولا يزالون) للإدلاء بشهادتهم في المحكمة حول ما إذا

كان الطفل قد تعرض لاعتداء جنسي، أو ما إذا كانت الذاكرة المستعادة للمدعين يمكن الاعتماد عليها، وكما رأينا، فإنهم عادة ما يصدرون أحكامهم بدرجة عالية من الثقة، وعندما بدأت الدلائل العلمية على أنهم أخطأوا في التراكم، فماذا كان احتمال أن يتبنوا البيانات بسهولة، وبامتنان لدراسات الذاكرة وشهادات الأطفال التي من شأنها تحسين ممارساتهم؟ لقد كان قيامهم بذلك بمثابة اعتراف بأنهم قد أساءوا إلى النساء والأطفال الذين قالوا إنهم كانوا يحاولون مساعدتهم، وكان من الأسهل عليهم الحفاظ على التزاماتهم من خلال رفض البحث العلمي باعتباره لا علاقة له بالممارسة السريرية، وبمجرد أن اتخذوا خطوة تبرير الذات، أصبحوا غير قادرين على التراجع من دون صعوبات نفسية هائلة.

اليوم، يقفون في قاع الهرم، على بُعد أميال مهنيًا من زملائهم العلميين، وبعد أن كرّسوا أكثر من عقدين للترويج لشكل من أشكال العلاج الذي يسميه ريتشارد ماكنالي «أسوأ كارثة تصيب مجال الصحة العقلية منذ عصر الجراحات الفصية»^{٤٤}، وظل معظم أطباء الذاكرة المستعادة ملتزمين كما كانوا دائمًا بمعتقداتهم، ومستمرين في الوعظ بما مارسوه منذ فترة طويلة، فكيف قللوا من التنافر عندهم؟

إحدى الطرائق الشائعة هي تقليل حجم المشكلة والضرر الذي تسببت فيه، فقد اعترف أخيرًا عالم النفس السريري جون بريير -أحد أوائل مؤيدي علاج الذاكرة المستعادة- في مؤتمر، بأن العدد الكبير من حالات استعادة الذاكرة التي تم الإبلاغ عنها في ثمانينيات القرن

الماضي ربما يكون سببها، على الأقل جزئياً، معالجين «متحمسين»، والذين حاولوا بشكل غير لائق «شفط ذكريات (كشفط الدهون) من أمخاخ [مرضاهم]»، وقد ارتكبت أخطاء بواسطة قليل منهم، كما قال إن استعادة الذكريات المزورة أمر نادر، ولكن الذكريات الحقيقية المكبوتة هي الأكثر شيوعاً^{٤٥}.

يقلل البعض الآخر من التنافر بإلقاء اللوم على الضحية، فمثلاً كولين روس، وهو الطبيب النفسي الذي صعد إلى الشهرة والثروة من خلال الادعاء بأن الذكريات المكبوتة عن الإيذاء الجسدي تسبب اضطراب الشخصية المتعددة، قد وافق في النهاية على أن «الأفراد القابلين للإيحاء يمكن أن تكون لديهم ذكريات مفصلة في أذهانهم بسبب ضعف التقنية العلاجية»، ولكن نظراً لأن «الذاكرة البشرية الطبيعية معرضة بدرجة كبيرة للخطأ، فالذكريات الخاطئة طبيعية من الناحية البيولوجية، وبالتالي ليست بالضرورة خطأ المعالجين». والمعالجون لا يصنعون ذكريات زائفة لمرضاهم، لأن المعالجين مجرد «مستشارين»^{٤٦}، ومن ثم إذا أدرك المريض ذاكرة خاطئة فهذا خطأ المريض. (فاز كولين روس بجائزة كورنيليا ويلبر عام ٢٠١٦).

قلل الأطباء الأكثر التزاماً من الناحية الأيديولوجية التنافر بمهاجمة الباحثين العلميين، ففي أواخر تسعينيات القرن العشرين، عندما أُدين المعالجون النفسيون والأطباء النفسيون بارتكاب خطأ مهني لاستخدامهم أساليب قسرية لتوليد ذكريات مستردة مزورة وشخصيات متعددة، نصح كوردون هاموند زملاءه السريريين في مؤتمر بما يلي:

«أعتقد أن الوقت قد حان كي يدعو شخص ما إلى موسم مفتوح لصيد الأكاديميين والباحثين، ففي الولايات المتحدة وكندا على وجه الخصوص أصبحت الأمور متطرفة للغاية مع دعم الأكاديميين لمواقف متطرفة للذاكرة المزورة، لذلك أعتقد أن الوقت قد حان كي يبدأ الأطباء في توجيه تهم أخلاقية للأخطاء المهنية المرتكبة من الباحثين، ومحوري المجالات العلمية، وأود أن أشير إلى أن معظمهم ليس لديهم تأمين للأخطاء المهنية»^{٤٧}، وقد أخذ بعض الأطباء النفسيين وعلماء النفس السريريين بنصيحة هاموند وأرسلوا رسائل مضايقة إلى الباحثين ومحوري المجالات، وقدموا ادعاءات كاذبة بانتهاكات أخلاقية ضد العلماء الذين يدرسون الذاكرة وشهادات الأطفال، كما رفعوا دعاوى قضائية مزعجة تهدف إلى منع نشر المقالات والكتب النقدية^{٤٨}، ولكن لم تنجح أي من هذه الجهود في إسكات العلماء^{٤٩}.

هناك طريقة أخيرة يمكنهم من خلالها تقليل التنافر، وهي رفض كل هذا البحث العلمي باعتباره جزءاً من رد فعل عنيف ضد الأطفال الضحايا والناجين من سفاح القربى، كان عنوان القسم الختامي من الطبعة الثالثة من كتاب «شجاعة أن تُشفى» هو: «تكريم الحقيقة: استجابة لرد الفعل العنيف»، ولم يكن هناك قسم بعنوان: «تكريم الحقيقة: لقد ارتكبنا بعض الأخطاء الكبيرة»^{٥٠}.

لا يوجد تقريباً أي من المعالجين النفسيين الذين مارسوا علاج الذاكرة المستعادة، ولا من خبراء الأطفال الذين أرسلوا عشرات من

أمثال برنارد باران إلى السجن، واعترفوا بأنهم كانوا مخطئين، ولكن من بين هؤلاء القلائل الذين اعترفوا علناً بأخطائهم، يمكننا أن نرى ما لزم لإخراجهم من شرائقهم الوقائية لتبرير الذات، فبالنسبة إلى ليندا روس كانت تنزع نفسها من الحلقة المغلقة لجلسات العلاج الخاصة، وتجبر نفسها على المواجهة الشخصية مع الآباء الذين دُمرت حياتهم بسبب اتهامات أطفالهم الراشدين، وقد أحضرتها إحدى موكلاتها إلى اجتماع مع والديها المتهمين، وأدركت ليندا روس فجأة أن القصة التي بدت غريبة ولكنها ممكنة عندما أخبرتها موكلتها في العلاج، بدت الآن خيالية عندما تضاعفت في غرفة مليئة بالحكايات المماثلة، وقالت: «لقد كنت داعمة جدًا للنساء وذكرياتهن المكبوتة، ولكنني لم أفكر قط في شكل هذه التجربة بالنسبة إلى الوالدين، والآن سمعت كيف بدا الأمر سخيفًا للغاية، لقد قدم زوجان عجوزان نفسيهما، وأخبرتني الزوجة أن ابنتهما اتهمت زوجها بقتل ثلاثة أشخاص... كان الألم في وجهي هذين الوالدين واضحًا جدًا. وكان الخيط الفريد هو أن بناتهم ذهبن إلى علاج [للتذكير المستعادة]، وفي ذلك اليوم لم أشعر بالفخر بنفسى أو بمهنتى».

قالت ليندا روس إنها كانت -بعد ذلك الاجتماع- تستيقظ كثيرًا في منتصف الليل، «في حالة من الرعب والألم»، حيث بدأت الشرنقة تنفتح، وكانت قلقة بشأن مقاضاتها، ولكنها في معظم الأحيان «فكرت فقط في هؤلاء الآباء والأمهات الذين يريدون عودة أطفالهم»، فاتصلت بمريضاتها السابقات في محاولة للتغلب على الضرر الذي تسببت فيه

وغيّرت الطريقة التي تمارس بها العلاج، وفي مقابلة مع أليكس شبيجل على الإذاعة الوطنية العامة، تحدثت ليندا روس عن مرافقة إحدى مريضاتها إلى اجتماع مع والدَي المرأة، اللذين تم تفكيك منزلهما من قبل الشرطة في محاولة للعثور على دليل على جثة ادعت ابنتهما أنها تذكرها في العلاج^{٥١}، ولم تكن هناك جثة مثلما لم تكن هناك غرف تعذيب تحت الأرض في مدرسة ماكمارتن التمهيدية، وقالت ليندا روس: «لقد أتيت لي الفرصة لأخبرهم بالدور الذي لعبته، ولأخبرهم أنني أفهم تمامًا أنهم سيجدون صعوبة لبقية حياتهم في أن يسامحوني، ولكنني أدرك بالتأكيد أنني بحاجة إلى مسامحتهم».

في نهاية المقابلة قال أليكس شبيجل: «لا يوجد تقريبًا أشخاص مثل ليندا روس ممن يمارسون العلاج النفسي وتقدموا للتحدث علنًا عن تجربتهم، أو للاعتراف بالذنب، أو لمحاولة معرفة كيف حدث هذا، فالخبراء صامتون - هذه المرة - بشكل غريب».

٥. القانون والفوضى

«أعتقد أنه من الصعب حقًا على أي مُدَّعٍ عام [الاعتراف بالأخطاء] وأن يقول: «لقد حصلنا على ٢٥ عامًا من حياة هذا الرجل، وهذا يكفي»».

- ديل إم روبين، محامي توماس لي جولدشتاين

توماس لي جولدشتاين -طالب جامعي وعسكري سابق في مشاة البحرية- أُدين في عام ١٩٨٠ بجريمة قتل لم يرتكبها، وقضى السنوات الأربع والعشرين التالية في السجن، وكانت جريمته الوحيدة وجوده في المكان الخطأ في الزمان الخطأ، فعلى الرغم من أنه كان يعيش بالقرب من القتل، فإن الشرطة لم تجد أي دليل مادي يربطه بالجريمة، لا بندقية ولا بصمات ولا دماء، كما لم يكن لديه دافع، وقد أُدين بناءً على شهادة مخبر في السجن -يُدعى على الأرجح إدوارد فينك- كان قد اعتُقل خمسًا وثلاثين مرة، وكان لديه ثلاث إدانات جنائية، وكان مدمن هيروين، وسبق له أن شهد ضد عشرة رجال مختلفين، وذكر في كل قضية أن المتهم اعترف له بينما كانا يتشاركان في زنازنة السجن، (وقد

وصف مستشار السجن فينك بأنه «محتال يميل إلى التعامل مع الحقائق كما لو كانت مرنة»، وكذب فينك تحت القسم، نافياً أنه حكم عليه بعقوبة مخففة مقابل شهادته، وكان التأييد الوحيد الآخر للدعاء في هذه القضية هو شاهد العيان لوران كامبل، الذي تعرف على جولدشتاين باعتباره القاتل بعد أن أكدت له الشرطة زوراً أن جولدشتاين فشل في اختبار كشف الكذب، ولم يتعرف أي من شهود العيان الخمسة الآخرين على جولدشتاين، وقال أربعة منهم إن القاتل «أسود أو مكسيكي»، وتراجع لوران كامبل عن شهادته في وقت لاحق قائلاً إنه كان «متلهفًا بعض الشيء» لمساعدة الشرطة من خلال إخبارهم بما يريدون سماعه، ولكن الوقت كان قد فات، فقد حُكم على جولدشتاين بالسجن سبعة وعشرين عامًا بتهمة القتل.

على مر السنين، اتفق خمسة قضاة فيدراليين على أن المدعين العامين حرموا جولدشتاين من حقه في محاكمة عادلة من خلال عدم إخبار الدفاع عن اتفاقهم مع فينك، ورغم ذلك ظل جولدشتاين في السجن، وأخيرًا -في فبراير ٢٠٠٤- رفض قاضي المحكمة العليا في كاليفورنيا القضية «تعزيزاً للعدالة»، مشيراً إلى افتقارها إلى الأدلة، وإلى «طبيعتها السرطانية»، واعتمادها على مخبر محترف حث باليمين، وحتى ذلك الحين، كان المدعون العامون في مقاطعة لوس أنجلوس يرفضون الاعتراف بأنهم ربما ارتكبوا خطأ، وفي غضون ساعات من قرار القاضي، قدموا تهمًا جديدة ضد جولدشتاين، وحددوا الكفالة بمليون دولار، وأعلنوا أنهم سيعيدون محاكمته بتهمة القتل، وقال

نائب المدعي العام باتريك كونولي: «أنا واثق جدًا بأن لدينا الرجل الصحيح»، ولكن بعد شهرين، أقر مكتب المدعي العام أنه ليس لديه قضية ضد جولدشتاين وأطلق سراحه.

في ليلة ١٩ أبريل ١٩٨٩، تعرضت المرأة التي أصبحت تُعرف باسم عداءة المتنزه المركزي للاغتصاب والضرب بوحشية، وسرعان ما ألقت الشرطة القبض على خمسة من المراهقين السود واللاتينيين من هارلم الذين كانوا في المتنزه «يغيرون» على المارة، ويهاجمونهم عشوائيًا ويتعاملون معهم بخشونة، ورأت الشرطة -بشكل معقول- أنهم مشتبه بهم محتملون في الهجوم على العداءة، واحتجزوهم واستجوبوهم بشكل مكثف لمدة تتراوح بين أربع عشرة ساعة وثلاثين ساعة، وأخيرًا اعترف الأولاد -الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ و ١٦ عامًا- بارتكاب الجريمة، ولكنهم فعلوا أكثر من الاعتراف بالذنب: لقد أبلغوا عن تفاصيل مروعة عما فعلوه، فوصف أحد الصبية كيف خلع سروال العداءة، وروى أحدهم كيف قُطع قميصها بسكين وكيف ضرب أحد أفراد العصابة رأسها بحجر بشكل متكرر، وأعرب آخر عن ندمه على «اغتصابه الأول» قائلاً إنه شعر بالضغط من قبل الأولاد الآخرين للقيام بذلك، ووعد بأنه لن يفعل ذلك مرة أخرى، ولكن لم يكن هناك دليل مادي يربط المراهقين بالجريمة، فلا يوجد تطابق للسائل المنوي أو الدم أو الحمض النووي، وعلم الادعاء أن الحمض النووي الموجود على الضحية لا يتطابق مع أيٍّ من المراهقين، ولكن اعترافات الأولاد

أقنعت الشرطة وهيئة المحلفين وخبراء الطب الشرعي والجمهور بأنه تم القبض على الجناة، وأنفق دونالد ترامب ثمانين ألف دولار على إعلانات صحفية تطالب بتوقيع عقوبة الإعدام عليهم^١.

ومع ذلك، كان المراهقون الخمسة أبرياء، وبعد ثلاثة عشر عامًا اعترف مجرم يُدعى ماتياس ريس، مسجون لارتكابه ثلاث جرائم سطو مقترنة باغتصاب، وجريمة قتل مقترنة باغتصاب، بأنه هو وحده من ارتكب الجريمة، وكشف عن تفاصيل لم يعرفها أي شخص آخر، وتطابق حمضه النووي مع الحمض النووي المأخوذ من السائل المنوي الموجود في الضحية وعلى جوربها. وحقق مكتب المدعي العام لمنطقة مانهاتن، برئاسة روبرت مورجنثاو، لمدة عام تقريبًا، ولم يجد أي صلة بين ماتياس ريس والأولاد الذين أُدينوا، وأعرب عن أسفه لاحقًا قائلاً: «لو كان لدينا الحمض النووي من ١٣ عامًا»، وأيد مكتبه طلب الدفاع بإلغاء إدانات الأولاد، وفي عام ٢٠٠٢ تمت الموافقة على الطلب، واستغرق الأمر اثني عشر عامًا أخرى قبل أن تتوصل مدينة نيويورك -من دون الاعتراف بالخطأ- إلى تسوية مع أولاد المتنزه المركزي الخمسة مقابل واحد وأربعين مليون دولار.

شُجِب قرار مورجنثاو بغضب من قبل المدعين السابقين في مكتبه ومن قبل ضباط الشرطة الذين شاركوا في التحقيق الأصلي، ورفضوا تصديق أن الأولاد أبرياء^٢، لأنهم رغم كل شيء كانوا قد اعترفوا، ولم تكن ليندا فيرشتاين، المدعية العامة في القضية والتي كانت رئيسة وحدة الجرائم الجنسية في مكتب المدعي العام، والتي نجحت في مقاضاة

عديد من القضايا البشعة، مستعدةً لاعتبار أن أولاد المتنزه المركزي الخمسة قد يكونون أبرياء، وكانت متحمسة جدًا للحصول على اعترافات بالإكراه من المراهقين، لدرجة أن قاضي محكمة الاستئناف خصَّها لاحقًا في رأيه، قائلاً: «لقد كنت قلقًا بشأن نظام العدالة الجنائية الذي يتسامح مع سلوك المدعية العامة ليندا فيرشتاين التي هندست عمدًا اعترافات الأولاد البالغين من العمر ١٥ عامًا»، وفي عام ٢٠٠٤، بعد عامين من تحديد ماتياس ريبس بلا منازع على أنه المغتصب، وبعد إطلاق سراح الشبان الخمسة من السجن، أخبرت ليندا فيرشتاين أحد المراسلين بأنها متأكدة من أن الإدانات الأصلية كانت صحيحة: «أولئك الذين منا في فريق الادعاء كانوا يبحثون دائمًا عن الرجل السادس، وأعتقد أنه تم إطلاق سراح [الخمسة] لأنه كان من المناسب سياسيًا القيام بذلك»^٣، ولم يغير رأيها الفيلم الوثائقي اللاذع لسارة وكين بيرنز لعام ٢٠١٢ أولاد المتنزه المركزي الخمسة ولا رواية آفا دوفيرناي الدرامية لعام ٢٠١٩ عندما يروننا، وكتبت في مقال افتتاحي لصحيفة وول ستريت جورنال أن «مسلسل آفا دوفيرناي يصورهم خطأ على أنهم أبرياء تمامًا - ويشوهونني في هذه العملية»^٤.

تقاعدت ليندا فيرشتاين لكتابة روايات تضم مدعية عامة جريئة مثلها (ولكن «أصغر سنًا، وأنحف، وأشقّر») والتي تحصل دائمًا على رجليها، وهي طريقة مبتكرة لتقليل التنافر بالفعل.

في عام ١٩٣٢، نشر إدوين بورشارد، أستاذ القانون في جامعة ييل، كتاب إدانة الأبرياء: خمسة وستون من الأخطاء الفعلية للعدالة

الجنائية، وتضمنت ثمانى من تلك القضايا مدعى عليهم أدينوا بارتكاب جريمة قتل على الرغم من أن الضحية المفترضة قد ظهرت لاحقاً وهي تنبض بالحياة، وقد تعتقدون أن هذا قد يكون دليلاً مقنعاً إلى حد ما على أن الشرطة والمدعين العامين ارتكبوا بعض الأخطاء الجسيمة، ومع ذلك، قال أحد المدعين العامين لإدوين بورشارد: «إن الرجال الأبرياء لا يُدانون أبداً، فلا تقلق بشأن ذلك، فهذا لا يحدث أبداً... إنه استحالة مادية».

ثم جاء الحمض النووي، ومنذ عام ١٩٨٩ - وهو العام الأول الذي أسفر فيه اختبار الحمض النووي عن إطلاق سراح سجين بريء - واجه الجمهور مراراً وتكراراً أدلة على أن إدانة الأبرياء - بعيداً عن كونها مستحيلة - أكثر شيوعاً مما كنا نخشى، ويحتفظ مشروع البراءة، الذي أسسه باري شيك ويتر جيه نيوفيلد، بسجل مستمر على موقعه على الإنترنت لمئات الأشخاص المسجونين بتهمة القتل أو الاغتصاب الذين تمت تبرئتهم عن طريق اختبار الحمض النووي، وبحلول عام ٢٠١٩ كان العدد ٣٦٥°.

من المفهوم أن الإدانات الخاطئة التي تُلغى بواسطة أدلة الحمض النووي تحظى بقدر كبير من الاهتمام العام، ولكن - كما سنرى - أدلة الحمض النووي ليست دائماً ذات صلة، إذ يمكن إدانة الناس ظلماً لأسباب عديدة، من اندفاع الادعاء وسوء تصرفه إلى شهادة العلوم التافهة إلى شهود العيان المخطئين، وتتراوح تقديرات معدل الإدانات الخاطئة في الولايات المتحدة من ٥, ٠٪ في النهاية المنخفضة إلى

١-٣٪ في النهاية العليا، وقد وضع أستاذ القانون صموئيل جروس -وهو خبير وطني في الإبراء- تقديره الخاص للإدانات الخاطئة للجنایات، والذي كان أعلى إلى حد ما، من ١ إلى ٥٪، وكتب «هل هذا كثير أم قليل؟»، ذلك يعتمد على وجهة نظرك، فإذا كانت نسبة قليلة تصل إلى ١٪ من الإدانات بجرائم خطيرة خاطئة، فهذا يعني أنه ربما يكون عشرة إلى عشرين ألفاً أو أكثر من نحو ٣, ٢ مليون نزيل في السجون والمحابس الأمريكية أبرياء. لو تحطمت نسبة قليلة مثل ١, ٠٪ من الطائرات عند الإقلاع، فسنغلق كل شركة طيران في البلاد، فهذه مخاطرة لسنا مستعدين لتحملها، ونعتقد أننا نعرف كيف نعالج هذا النوع من المشكلات، فهل ما بين ١٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ مواطن مسجون ظلماً عدد كبير جداً؟ وهل يمكننا أن نفعل ما هو أفضل؟ كيف؟ لا توجد إجابات واضحة، ولكن النبأ السار هو أن الغالبية العظمى من المتهمين بارتكاب جرائم جنائية في أمريكا مذنبون، أما النبأ السيئ فهو أن عدداً كبيراً ليس مذنباً^٦.

في عام ٢٠١٢، أطلق جروس وروب واردن، المديران التنفيذيان لمركز الإدانات الخاطئة في كلية الحقوق بجامعة نورث وسترن، السجل الوطني للتبرئة المحددة وغير المحددة بالحمض النووي، وكما يشير موقعه على الإنترنت: «يوفر السجل معلومات مفصلة حول كل تبرئة معروفة في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٨٩، عن الحالات التي أُدين فيها شخص خطأً بارتكاب جريمة ثم تمت تبرئته لاحقاً من جميع التهم بناءً على أدلة جديدة على البراءة. كما يحتفظ السجل بقاعدة

بيانات محدودة بدرجة أكبر للتبرئات المعروفة قبل عام ١٩٨٩»، وفي غضون عامين، سجلوا أكثر من ١٤٠٠ حالة تبرئة -أي أكثر من أربعة أضعاف عدد الأبرياء الذين أُطلق سراحهم عن طريق اختبار الحمض النووي- واعتبارًا من عام ٢٠١٩ كان العدد يقارب ٢٥٠٠ حالة، ويعتبر السجل بمثابة تبرئة تلك الحالات التي تتم فيها تبرئة الشخص المدان بارتكاب جريمة رسميًا بناءً على أدلة جديدة على براءته، وهو يستثني الحالات العديدة التي تمت فيها تبرئة الشخص المدان بارتكاب جريمة لأسباب لا تتضمن «أدلة جديدة على البراءة»، ولذلك -كما يذكر موقع الويب- «فإن عمليات التبرئة التي نعرف عنها ليست سوى جزء بسيط من تلك التي حدثت»^٧.

هذه معلومات غير مريحة وتثير التنافر المعرفي لأي شخص يريد أن يعتقد أن النظام يعمل، وحله صعب بما يكفي بالنسبة إلى المواطن العادي، ولكن إذا كنت مشاركًا في نظام العدالة، فإن دافعك لتبرير أخطائها -ناهيك عن أخطائك- سيكون هائلًا، وقد لاحظ عالم النفس الاجتماعي ريتشارد أوفش -الخبير في سيكولوجية الاعترافات الكاذبة- أن إدانة الشخص الخطأ هي «أحد أسوأ الأخطاء المهنية التي يمكن أن ترتكبها، ويمائل قيام طبيب بتر الذراع الخاطئة»^٨.

لنفترض أنه تم تقديم دليل لك على أنك فعلت ما يعادل بتر الذراع الخاطئة: لقد ساعدت في إرسال الشخص الخطأ إلى السجن. ماذا تفعل؟ سيكون اندفاعك الأول هو إنكار خطأك، لسبب واضح وهو حماية وظيفتك وسمعتك وزملائك، وعلاوة على ذلك، إذا أطلقت

سراح شخص ارتكب لاحقاً جريمة خطيرة أو حتى إذا أطلقت سراح شخص بريء ولكنه سُجن خطأ بسبب جريمة شنيعة مثل التحرش بالأطفال، فقد يصلبك الجمهور الغاضب بسبب ذلك^٩، ولديك عديد من الحوافز الخارجية لإنكار أنك ارتكبت خطأ، ولكن لديك حافز داخلي أكبر: أنت تريد أن تفكر في نفسك كشخص نزيه وكفاء لن يساعد أبداً في إدانة بريء، ولكن كيف يمكنك أن تعتقد أنك حصلت على الرجل الصحيح في مواجهة الدليل الجديد على عكس ذلك؟ بأن تُطمئن نفسك، الدليل رديء وهو رجل سيء، وحتى لو لم يرتكب هذه الجريمة بالذات، فقد ارتكب بلا شك جريمة أخرى، أما البديل بأن ترسل رجلاً بريئاً إلى السجن لمدة خمسة عشر عاماً، فهو يتناقض تماماً مع وجهة نظرك حول كفاءتك لدرجة أنك ستقفز عبر أطواق عقلية متعددة لإقناع نفسك بأنه لا يمكن أن تكون قد ارتكبت مثل هذا الخطأ الفادح.

مع كل إطلاق لسراح شخص بريء بعد سنوات في السجن من خلال اختبار الحمض النووي، يمكن للجمهور أن يستمع تقريباً إلى صوت المكائد العقلية للمدعين العامين والشرطة والقضاة المنهمكين في حل التنافر، وتتمثل إحدى الإستراتيجيات في الادعاء بأن معظم هذه القضايا لا تعكس إدانات خاطئة ولكنها تعكس عمليات عفو خاطئة: فمجرد تبرئة سجين لا يعني دائماً أنه بريء، وإذا كان الشخص بريئاً حقاً، فهذا عار، ولكن الإدانات الخاطئة نادرة للغاية، وهذا ثمن معقول ندفعه مقابل النظام الرائع الذي نطبقه، وتكمن المشكلة الحقيقية في

أن كثيرًا من المجرمين يفلتون من العقاب بسبب أمور فنية، أو يهربون من العدالة لأنهم أغنياء بما يكفي لشراء فرق دفاع باهظة الثمن، وكما قال جوشوا ماركيز، المدعي العام السابق لولاية أوريغون والمدافع المحترف عن نظام العدالة الجنائية: «يجب على الأمريكيين أن يكونوا أكثر قلقًا بشأن المفرج عنهم خطأ من قلقهم بشأن المدانين خطأ»^{١٠}، وعندما نشر مركز النزاهة العامة غير الحزبي تقريره لعام ٢٠١٢ عن حالات سوء ممارسات الادعاء الموثقة التي أدت إلى إدانات خاطئة، رفض جوشوا ماركيز الأرقام وتلميح التقرير إلى أن المشكلة قد تكون «وبائية»، وكتب: «الحقيقة هي أنه يمكن وصف سوء الممارسة بشكل أفضل بأنه «عرضي»، وهذه الحالات قليلة ونادرة بحيث لا تستحق اهتمامًا كبيرًا من قبل كلٍّ من المحاكم ووسائل الإعلام».

للأسف فهي أمر نادر، فوفقًا لمركز نزاهة النيابة العامة الذي أنشئ في عام ٢٠١٤، كان هناك ما يقدر بنحو ١٦٠٠٠ حالة من سوء ممارسة الادعاء منذ عام ١٩٧٠، وأقل من ٢٪ منها أسفرت عن أي عقوبة للمدعي العام المسيء، وأظهر تحليل شامل لـ ٧٠٧ حالات سوء ممارسة مؤكدًا في كاليفورنيا من عام ١٩٩٧ حتى عام ٢٠٠٩، ولكن المحاكم ألغت الإدانة أو العقوبة أو أعلنت خطأ المحاكمة في نحو ٢٠٪ منها فقط، وتم تأديب ١٪ فقط من المدعين العامين المسيئين علنًا من قبل هيئة تنظيم المهن القانونية بالولاية، وخلص التقرير إلى أن «المدعين العامين يواصلون الانخراط في سوء الممارسة -وأحيانًا عدة مرات- ودائمًا تقريبًا من دون عواقب. إن إحجام المحاكم عن الإبلاغ

عن سوء ممارسات النيابة العامة وفشل هيئة تنظيم المهن القانونية بالولاية في تأديبهم «يسمح للمدعين العامين بالإفلات من العقاب في حالة إدانة رجال أبرياء زورًا»^{١١}.

هذا الدليل لا يردع المدافعين عن الوضع الراهن، وهم يصرون على أنه عند حدوث أخطاء أو سوء ممارسة، فإن النظام لديه عديد من إجراءات التصحيح الذاتي لإصلاحها على الفور، وفي الواقع فإن جوشوا ماركيز يشعر بالقلق من أننا إذا بدأنا في إصلاح النظام لتقليل معدل الإدانات الخاطئة، فسيتهي بنا الأمر إلى إطلاق سراح كثير من المذنبين، ويعكس هذا الادعاء المنطق المنحرف للتبرير الذاتي، لأنه عندما يُدان شخص بريء زورًا، فإن المذنب الحقيقي يبقى في الشارع، ويزعم جوشوا ماركيز أن «الولاء الوحيد للمدعين العامين وحدهم من بين المشتغلين بالمهن القانونية هو الحقيقة حتى لو كان ذلك يعني نسف قضية المدعي العام نفسها»^{١٢}. وهذا شعور مثير للإعجاب ويقلل من التنافر، ويكشف عن المشكلة الأساسية أكثر مما يدركه جوشوا ماركيز، وهي على وجه التحديد لأن المدعين العامين يعتقدون أنهم يسعون وراء الحقيقة، فإنهم لا ينسفون قضاياهم عندما يحتاجون إلى ذلك، وبفضل تبرير الذات فإنهم نادرًا ما يعتقدون أنهم بحاجة إلى ذلك. لا يجب أن تكون مدعيًا عامًا سافلاً وفاسدًا كي تفكر بهذه الطريقة. لاحظ روب واردن التنافر في العمل بين المدعين العامين الذين يعتبرهم «جيدين بشكل أساسي»، والأشخاص الشرفاء الذين يريدون فعل الشيء الصحيح. عندما تمت تبرئة واحدة، جاك أومالي، المدعي العام

في القضية، ظل يقول لو اردن: «كيف يمكن أن يكون هذا؟ كيف يمكن حصول هذا؟». قال واردين لمراسل: «لم يفهم. لم يفهم. هو حقًا لم يفعل. وكان جاك أومالي رجلًا طيبًا». ومع ذلك، لا يمكن للمدعين العامين تجاوز رؤية أنفسهم ورجال الشرطة كأشخاص صالحين والمتهمين كأشرار. قال واردين: «تدخل النظام ونصبح ساخرًا جدًا. الناس يكذبون عليك في كل مكان. ثم تطوّر نظرية للجريمة، وتؤدي إلى ما نسميه رؤية النفق. بعد سنوات ظهرت أدلة دامغة على أن الرجل بريء. وأنت جالس هناك تفكر. انتظر لحظة. إما أن هذا الدليل القاطع خاطئ أو كنت مخطئًا - ولم أكن لأكون مخطئًا لأنني رجل صالح. هذه ظاهرة نفسية رأيتها مرارًا وتكرارًا»^{١٣}.

هذه الظاهرة هي تبرير الذات، وقد رأينا مرارًا وتكرارًا -بينما كنا نقرأ البحث عن الإدانات الخاطئة في التاريخ الأمريكي- كيف يمكن لتبرير الذات أن يزيد من احتمالية الظلم في كل خطوة في العملية من الاعتقال إلى الإدانة، إذ تستخدم الشرطة والمدعون العامون أساليب مستقاة من خبرتهم طوال حياتهم لتحديد المشتبه به وبناء قضية للإدانة، وعادة يكونون على حق، ولكن لسوء الحظ تزيد هذه الأساليب نفسها من مخاطر ملاحقة المشتبه به الخطأ، وتجاهل الأدلة التي قد تورط شخصًا آخر، ومن ثم تعزز التزامهم بقرار خاطئ، وفي وقت لاحق يرفضون الاعتراف بخطئهم، ومع تقدم العملية فغالبًا ما يصبح أولئك المتورطون في محاولة إدانة المشتبه به الأصلي أكثر ثقة بأن لديهم الجاني وأكثر التزامًا بالحصول على إدانة، وبمجرد أن يذهب هذا الشخص إلى

السجن فإنهم يعتقدون أن هذه الحقيقة وحدها تبرر ما فعلوه لوضعه هناك، وعلاوة على ذلك فقد وافق القاضي وهيئة المحلفين، أليس كذلك؟ ومن ثم فإن تبرير الذات لا يضع فحسب الأبرياء في السجن بل يتأكد أيضًا من بقائهم هناك.

المحققون

عُثر في صباح يوم ٢١ يناير ١٩٩٨ بمدينة إسكونديدو بكاليفورنيا على ستيفاني كرو، البالغة من العمر اثني عشر عامًا، في غرفة نومها، وقد طُعنَت حتى الموت، وفي الليلة السابقة كان الجيران قد اتصلوا برقم ٩١١ للإبلاغ عن مخاوفهم بشأن متشرد في الحي كان يتصرف بغرابة، وهو رجل يُدعى ريتشارد تويتي كان يعاني من الفصام وله تاريخ في مطاردة الشباب واقتحام منازلهم، ولكن محققي إسكونديدو وفريقًا من وحدة التحليل السلوكي التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي خلصوا على الفور تقريبًا إلى أن القتل كان عملاً داخليًا، وكانوا يعلمون أن معظم ضحايا القتل يُقتلون على يد شخص مرتبط بهم وليس من قبل متسللين مجانيين.

وفقًا لذلك حوّل المحققون -بشكل أساسي رالف كلايتور وكريس ماكدونو- انتباههم إلى مايكل، شقيق ستيفاني الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، وجرى استجواب مايكل -الذي كان مصابًا بالحمى- من دون علم والديه ولمدة ثلاث ساعات في جلسة واحدة، ثم لمدة ست ساعات أخرى من دون انقطاع، وكذب عليه المحققون وقالوا

إنهم وجدوا دماء ستيفاني في غرفته، وإن خصلات من شعره كانت في يدها، وإن شخصاً ما داخل المنزل هو القاتل لأن جميع الأبواب والنوافذ كانت مغلقة، وإن دماء ستيفاني كانت منتشرة على كل مكان في ملابسه، وإنه فشل في اختبار محلل التوتر الصوتي المحوسب، (وهي تقنية شبه علمية يُفترض أنها تحدد الكاذبين عن طريق قياس الهزات الدقيقة في أصواتهم، ولكن لم يثبت أحد قَط صحة هذه الطريقة علمياً)^{١٤}، وعلى الرغم من أن مايكل أخبرهم مرارًا وتكرارًا أنه لا يتذكر الجريمة ولم يقدم أي تفاصيل -مثل المكان الذي وضع فيه سلاح الجريمة- فقد اعترف أخيرًا بأنه قتلها في نوبة غضب بسبب الغيرة، وفي غضون أيام اعتقلت الشرطة أيضًا صديقي مايكل -جوشوا تريدواي وآرون هاوسر- وكلاهما في الخامسة عشرة، وقد أنتج جوشوا تريدواي رواية تفصيلية عن كيفية تأمر ثلاثتهم لقتل ستيفاني بعد استجواب دام اثنتين وعشرين ساعة.

عشية المحاكمة وفي تحول دراماتيكي للأحداث اكتشف دم ستيفاني على قميص من النوع الثقيل كان يرتديه المشتد ريتشارد تويتي ليلة مقتلها، وأجبرت هذه الأدلة المدعي العام في المنطقة، بول بفينجست، على رفض التهم الموجهة إلى المراهقين، وذلك رغم أنه قال إنه ظل مقتنعًا بجرمهم بسبب اعترافاتهم وبالتالي لن يوجه اتهامات إلى تويتي، أما المحققون الذين طاردوا الصبية - كلايتور وماكدونو- فلم يتخلوا قَط عن يقينهم بأنهم قبضوا على القتلة الحقيقيين، ونشروا كتابًا بأنفسهم لتبرير إجراءاتهم ومعتقداتهم، وفي هذا الكتاب زعموا

أن ريتشارد تويتي كان مجرد ضحية وكبش فداء، وأنه كان هائماً على وجهه واستخدمه كبيدق السياسيون والصحافة والمشاهير والمحامون الجنائيون والمدنيون الذين استأجرتهم عائلات الأولاد «لتحويل اللوم من موكلهم ونقله إليه بدلاً من ذلك»^{١٥}.

أُطلق سراح المراهقين وسُلِّمت القضية للتصرف فيها إلى محقق آخر في القسم هو فيك كالوكا، الذي أعاد فتح التحقيق على الرغم من معارضة الشرطة والمدعين العامين، وامتنع رجال الشرطة الآخرون عن التحدث إليه، ووبخه أحد القضاة لأنه أحدث اضطراباً، وتجاهل المدعون العامون طلباته للمساعدة، وكان عليه الحصول على أمر من المحكمة للحصول على الأدلة التي سعى إليها من المعمل الجنائي، ولكن فيك كالوكا أصر على الاستمرار، وجمع في النهاية تقريراً من ثلاثمائة صفحة يسرد «التكهنات وسوء التقدير والأدلة غير الحاسمة» التي استخدمت في القضية ضد مايكل كرو وأصدقائه، ونظراً لأن فيك كالوكا لم يكن جزءاً من فريق التحقيق الأصلي وبالتالي لم يقفز إلى الاستنتاج الخاطئ، فإن الأدلة التي تورط تويتي لم تكن متنافرة بالنسبة إليه، ولكنها كانت أدلة فحسب.

تخطى فيك كالوكا مكتب المدعي العام المحلي وأخذ هذه الأدلة إلى مكتب المدعي العام لولاية كاليفورنيا في ساكرامنتو، وهناك وافق مساعد المدعي العام ديفيد درولينر على مقاضاة تويتي، وفي مايو ٢٠٠٤ بعد ست سنوات من استبعاد المحققين له كمشتبه به - وقرارهم أنه ليس أكثر من متجول فاشل - أدين ريتشارد تويتي بقتل ستيفاني

كرو^(١)، وقد انتقد ديفيد درولينر بشدة التحقيق الأولي الذي أجراه محققو إسكونديدو، وقال: «لقد انطلقوا تمامًا في الاتجاه الخاطئ على حساب الجميع، ولم يركزوا على السيد تويتي، ونحن لم نتمكن من فهم سبب ذلك»^{١٦}.

ومع ذلك، يمكن الآن لبقيتنا فهم السبب، وكم يبدو سخيًّا أن المحققين لم يغيروا رأيهم -أو على الأقل تساورهم الشكوك للحظة- عندما ظهرت دماء ستيفاني على ستره تويتي، لأنه بمجرد أن أقنع المحققين أنفسهم بأن مايكل وأصدقائه مذنبون، بدأوا في نزول هرم القرار، مبررين لأنفسهم كل عشرة تقابلهم إلى الأسفل.

دعونا نبدأ من القمة، من العملية الأولية لتحديد المشتبه به، حيث يقوم عديد من المحققين بما يميل بقيتنا إلى فعله عندما نسمع لأول مرة عن جريمة، إذ نقرر باندفاع أننا نعرف ما حدث ثم نلائم الأدلة لدعم استنتاجاتنا، ونتجاهل أو نستبعد الأدلة التي تتعارض معها، وقد درس علماء النفس الاجتماعي هذه الظاهرة على نطاق واسع من خلال وضع الناس في دور المحلفين ومعرفة العوامل التي تؤثر على قراراتهم، وفي إحدى التجارب استمع المحلفون الصوريون إلى إعادة تمثيل مسجلة على شريط صوتي لمحاكمة قتل فعلية، ثم سُئِلوا كيف كانوا سيصوتون ولماذا، وبدلاً من التفكير في الأحكام المحتملة وتقييمها في ضوء الأدلة، كوّن معظمهم على الفور قصة حول ما حدث، ونظرًا

(١) في عام ٢٠١٣، أُلغيت إدانة تويتي لأسباب فنية، وفي محاكمته اللاحقة قضت هيئة المحلفين بأن الأداء المتدني للدعاء فشل في إثبات إدانته بما لا يدع مجالاً للشك.

لأنه كان قد تم تقديم الأدلة في أثناء إعادة تمثيل المحاكمة، فإنهم قبلوا بعد ذلك الأدلة التي تدعم فقط رؤيتهم السابقة لما حدث، وكان أولئك الذين سارعوا إلى الاستنتاج في وقت مبكر أكثر ثقة بقراراتهم والأكثر احتمالاً لتبريرها بالتصويت لحكم متطرف^{١٧}، وهذا أمر طبيعي، ولكنه مثير للقلق أيضاً.

يميل المحققون في أول مقابلة مع مشتببه به إلى اتخاذ قرار سريع بشأن ما إذا كان هذا الرجل مذنباً أم بريئاً، وبمرور الوقت -ومع الخبرة- تتعلم الشرطة متابعة خيوط معينة ورفض أخرى، وفي النهاية تصبح متأكدة من دقتها، وثقتهم هي جزئياً نتيجة للخبرة وجزئياً نتيجة لتقنيات التدريب التي تكافئ السرعة واليقين على حساب الحذر والشك، وقد قال جاك كيرش -الرئيس السابق لوحدة العلوم السلوكية في مكتب التحقيقات الفيدرالي- لأحد المحاورين إن ضباط الشرطة الزائرين غالباً ما يجيئون لأعضاء فريقه بحالات صعبة ويطلبون النصيحة، وبقدر ما كانت مرتجلة فلم تكن نخاف من التسرع في إبداء الرأي وعادة ما كنا ننجح، وقد فعلنا هذا آلاف المرات^{١٨}.

غالباً ما تكون هذه الثقة في محلها، لأن الشرطة عادة ما تتعامل مع حالات مؤكدة، وهي الأشخاص المذنبون، إلا أن يزيد أيضاً من مخاطر الوصم الخاطئ لأبرياء بأنهم مذنبون، ومن ثم إغلاق الباب أمام المشتبه بهم المحتملين الآخرين في وقت مبكر جداً، وبمجرد أن يُغلق هذا الباب يُغلق العقل أيضاً، وهكذا لم يحاول المحققون استخدام محلل الصوت الرائع الخاص بهم مع ريتشارد تويتي كما فعلوا مع مايكل

كرو، وأوضح المحقق ماكدونو أنه «نظرًا لأن ريتشارد تويتي كان له تاريخ من الأمراض العقلية وتعاطي المخدرات وقد يكون لا يزال يعاني من مرض عقلي ويتعاطى المخدرات حاليًا، فقد لا يكون اختبار محلل التوتر الصوتي المحوسب صالحًا»^{١٩}، أو بعبارة أخرى «دعونا نستخدم أجهزتنا غير الموثوق بها مع المشتبه بهم فقط الذين نعتقد بالفعل أنهم مذنبون، لأنه مهما فعلوا فإنهم سيؤكدون اعتقادنا؛ ولن نستخدمها مع المشتبه بهم الذين نعتقد أنهم أبرياء لأنها لن تنجح معهم على أي حال».

قد يبدو القرار الأولي بشأن ذنب المشتبه به أو براءته واضحًا ومنطقيًا في البداية: فقد يتوافق المشتبه فيه مع وصف قدمته الضحية أو شاهد عيان، وقد يتناسب المشتبه به مع فئة محتملة إحصائيًا، واقتنف أثر الحب والمال وستكون القوة معك، وهكذا في غالبية جرائم القتل يكون القاتل الأكثر احتمالًا هو عشيق الضحية أو زوجها أو زوجها السابق أو قريبها أو المستفيد منها، ولهذا كان الملازم رالف لاسر على يقين من أن طالبة جامعية أمريكية من أصل صيني تدعى بيبي لي قد قُتلت على يد صديقها برادلي بيج، ولهذا السبب لم يتابع شهادة شهود العيان الذين رأوا رجلًا بالقرب من مسرح الجريمة يدفع امرأة «شرقية» شابة إلى شاحنة ويقود بعيدًا^{٢٠}، وفي هذا قال رالف لاسر: «عندما تُقتل امرأة شابة، فإن أول شخص ستبحث عنه هو الشخص المهم بالنسبة إليها، ولن تبحث عن أحد الرجال في شاحنة»، ولكن كما لاحظ المحامي ستيفن دريزين «قد يكون أفراد العائلة نقطة انطلاق شرعية للتحقيق ولكن هذا كل ما في الأمر، وبدلاً من محاولة إثبات أن القتل كان داخل

العائلة، يجب على الشرطة استكشاف جميع البدائل الممكنة، إلا أنها في كثير من الأحيان لا تفعل ذلك»^{٢١}.

بمجرد أن يقرر المحقق أنه قد عثر على القاتل فإن التحيز التأكيدي يرى أن المشتبه به الرئيسي يصبح المشتبه به الوحيد، وإذا تصادف أن المشتبه به الرئيسي بريء، فهذا سيئ للغاية لأنه لا يزال في وضع حرج، وقد وصفنا في مقدمة هذا الكتاب قضية باتريك دن الذي قُبض عليه في مقاطعة كيرن بكاليفورنيا وأُتهم بقتل زوجته، وفي هذه الحالة اختارت الشرطة تصديق رواية غير مؤكدة للأحداث من مجرم محترف، والتي دعمت نظريتهم القائلة بأن دن مذنب بدلاً من الأقوال المؤيدة التي تضعف نظريتهم من قبل شاهد محايد، وكان هذا القرار غير قابل للتصديق من قبل المدعى عليه الذي سأل محاميه ستان سيمرين: «لكن ألا يريدون الحقيقة؟»، الذي أجاب قائلاً: «بلى يريدون، وهم مقتنعون بأنهم وجدوها، وهم يعتقدون أن الحقيقة هي أنك مذنب، والآن سيقومون بكل ما يلزم لإدانتك»^{٢٢}.

إن القيام بكل ما يلزم لإدانة شخص ما يؤدي إلى تجاهل أو استبعاد الأدلة التي قد تتطلب من الضباط تغيير رأيهم بشأن المشتبه به، وفي حالات متطرفة يمكن أن تغري أفراداً من الضباط أو حتى إدارات بأكملها بتجاوز الخط الفاصل بين الإجراءات القانونية والإجراءات غير القانونية، فمثلاً أنشأ قسم رامبارت في إدارة شرطة لوس أنجلوس وحدة لمكافحة العصابات، وقد اتهم فيها عشرات من الضباط في نهاية المطاف بالقيام باعتقالات كاذبة، والإدلاء بشهادات زور، وإيذاء

أشخاص أبرياء؛ وألغي ما يقرب من مائة إدانة تم التوصل إليها باستخدام هذه الأساليب غير القانونية، وفي نيويورك وجد تحقيق حكومي أن إدارة شرطة مقاطعة سوفولك قد أفسدت عددًا من القضايا الكبرى من خلال التعامل بوحشية مع المشتبه بهم، والتنصت على الهواتف بشكل غير قانوني وفقدان أو تزوير أدلة مهمة.

الضباط الفاسدون مثل هؤلاء يصنعون ولا يولدون هكذا، ويدفعون إلى أسفل منحدر الهرم من خلال ثقافة قسم الشرطة وولائهم لأهدافه، وقد تتبع أستاذ القانون أندرو مكلورج العملية التي أدت بعدد من الضباط إلى التصرف بطرائق لم يكن من الممكن تخيلها قط عندما بدأوا العمل كمبتدئين مثاليين، إن دعوتهم للكذب في أثناء أداء واجباتهم الرسمية تخلق في البداية تنافرًا، «أنا هنا لأحافظ على القانون» في مقابل «وها أنا أتعدى على القانون بنفسى»، ولكن بمرور الوقت - كما يلاحظ أندرو مكلورج - فإنهم «يتعلمون أن يخنقوا تنافرهم تحت حشية وقائية من التبرير الذاتي»، وبمجرد أن يعتقد الضباط أن الكذب يمكن الدفاع عنه، بل إنه حتى جانب أساسي من الوظيفة «لا تعود مشاعر التنافر بسبب النفاق للظهور، ويتعلم الضباط تبرير الكذب كعمل أخلاقي أو على الأقل كعمل ليس غير أخلاقي، وبالتالي فإن رؤيته لذاته كشخص محترم وأخلاقي لا تتعرض للخطر بشكل كبير»^{٢٣}.

لنفترض أنك شرطي تُفْتَش بمقتضى أمر قضائي مكانًا يُباع فيه الكوكايين، وتطارد أحد الرجال إلى الحمام آملًا أن تمسك به قبل أن يلقي بالمخدرات - وبقضيتك - في المرحاض. لقد فات الأوان، وها

أنت ذا يتسارع ضحك الأدرينالين في شرايينك، لقد وضعت نفسك في طريق الأذى وهذا الوغد سوف يفلت، وأنت هنا في مكان يُباع فيه المخدرات، وأنت وزميلك تعرفان ما يجري، ولكن هؤلاء الحثالة سوف يخرجون من القضية، فسيحصلون على محامٍ بارع ويخرجون بسرعة، وكل هذا العمل وكل هذا الخطر من أجل لا شيء. لماذا لا تأخذ قليلاً من الكوكايين من جيبيك، من الاعتقال السابق، اليوم وتضعه على أرضية الحمام وتتهم المجرم به؟ كل ما عليك قوله هو: «سقط بعض هذا الكوكايين من جيبي قبل أن يتمكن من التخلص منه بالكامل»^{٢٤}.

من السهل أن تفهم سبب فعلك في ظل هذه الظروف، وهذا لأنك تريد القيام بعملك، وأنت تعلم أنه من غير القانوني زرع الأدلة ولكن الأمر يبدو مبرراً جداً، وفي المرة الأولى التي تقوم فيها بذلك ستقول لنفسك إن الرجل مذنب! وستسهّل هذه التجربة عليك القيام بنفس الشيء مرة أخرى؛ وفي الواقع سيكون لديك دافع قوي لتكرار السلوك لأن عدم قيامك بذلك يعني أن تعترف -ولو لنفسك- أنك كنت مخطئاً في المرة الأولى التي قمت فيها بذلك، ولن ينقضي وقت طويل قبل أن تجد نفسك تخالف القواعد في مواقف أكثر غموضاً، ولأن ثقافة الشرطة تدعم هذه التبريرات عمومًا، يصبح من الصعب على الضابط مقاومة انتهاك (أو تطويع) القوانين، ومع الوقت سيتخذ عديد من رجال الشرطة الفاسدين الخطوات التالية بدعوة الضباط الآخرين وإقناعهم بالانضمام إليهم في خرق بريء للقواعد، وتجنب الضباط الذين لا يمضون معهم أو تحطيمهم لأنهم يمثلون تذكيراً بالطريق الأخلاقي الذي لم يأخذوه.

وفي الحقيقة أكدت لجنة مولين عام ١٩٩٢ -التي أبلغت عن أنماط الفساد في إدارة شرطة نيويورك- أن ممارسة الشرطة لتزوير الأدلة «شائعة جدًا في دوائر معينة لدرجة أنها اخترعت لها كلمة خاصة هي: «testilying»^{٢٥}، وفي مثل هذه الثقافات البوليسية يكذب رجال الشرطة بشكل روتيني لتبرير تفتيش أي شخص يُشتبه في أنه يحمل مخدرات أو أسلحة، ويُقسّمون أمام المحكمة إنهم أوقفوا المشتبه به لأن سيارته اخترقت إشارة مرور حمراء، أو لأنهم رأوا المخدرات يجري تبادلها، أو لأن المشتبه به أسقط المخدرات عندما اقترب منه الضابط، وهو ما أعطاهم سببًا محتملًا لاعتقال الرجل وتفتيشه^(١)، وقد كتب نورم ستامبر -ضابط شرطة لمدة أربعة وثلاثين عامًا والرئيس السابق لقسم شرطة سياتل- لا توجد قوة شرطة رئيسية في البلاد «نجت من المشكلة، حيث رجال الشرطة الذين أقسموا على دعم القانون، [يضبطون] مخدرات ويحولونها لاستخدامهم الخاص [و] يزرعون هذه المخدرات للمشتبه بهم»^{٢٦}، والمبرر الأكثر شيوعًا للكذب وزرع الأدلة هو أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد قال أحد الضباط لمحقيقي لجنة مولين إنه كان «يقوم بعمل الله»، وقال آخر: «إذا كنا سنقبض على هؤلاء الرجال فتبًا للدستور»، وعندما أُلقي القبض على أحد الضباط بتهمة الحنث باليمين سأل غير

(١) هذه الممارسة لا تتغير ولكن تتغير فقط قواعد ما يسمح أو يحظر على الشرطة القيام به، وفي يوليو ٢٠١٩، أصدرت قاضية في نيويورك رأيًا لادعاء يدين ممارسة الشرطة «واسعة الانتشار»، المتمثلة في الادعاء بأنهم «شموا رائحة الماريجوانا» لتبرير التوقيف والتفتيش غير القانوني، وكتبت: «لقد حان الوقت لرفض كذبة الماريجوانا المنبثقة من كل مركبة تقريبًا تتوقف في إشارة مرور». انظر Joseph Goldstein, «Officers Said They Smelled Pot. A Judge

Called Them Liars,” New York Times, September 13, 2019.

مصدق «وما الخطأ في هذا؟ إنهم مذنبون»^{٢٧}.

الخطأ في هذا هو أنه لا يوجد ما يمنع الشرطة من زرع الأدلة وارتكاب الحث باليمين لإدانة شخص يعتقدون أنه مذنب في حين أنه بريء، ومن المؤكد أن رجال الشرطة الفاسدين يشكّلون خطراً على الجمهور، ولكن هذه هي الحال كذلك بالنسبة إلى عديد من أصحاب النيات الحسنة الذين لن يحلموا أبداً بدفع شخص بريء إلى السجن، وبمعنى ما فإن رجال الشرطة الصادقين أكثر خطورة من رجال الشرطة الفاسدين لأنهم أكثر عدداً ويصعب اكتشافهم، والمشكلة أنه بمجرد اتخاذ قرار بشأن المشتبه به المحتمل، فإنهم لا يعتقدون أنه من الممكن أن يكون بريئاً، ولذلك بمجرد أن يوجد لديهم مشتبه به فإنهم يتصرفون بطرائق تؤكد ذلك الحكم الأولي بالذنب، مبررين الأساليب التي يستخدمونها بالاعتقاد أن المذنبين فقط هم من سيكونون عرضة لها.

المُستجوبون

أقوى دليل يمكن أن يقدمه المحقق في التحقيق هو الاعتراف، لأنه الشيء الوحيد الذي سيُقنع في الغالب المدعي العام وهيئة المحلفين والقاضي بجريمة الشخص، ولذلك، يتم تدريب مستجوبي الشرطة للحصول على هذا الاعتراف حتى لو كان ذلك يعني الكذب على المشتبه به واستخدام «التحايل والخداع» كما اعترف ضابط مباحث بفخر لأحد المراسلين^{٢٨}، ويفاجأ معظم الناس عندما يعلمون أن هذا قانوني تماماً، ويفخر المحققون بقدرتهم على خداع المشتبه به

للاعتراف، فهي دلالة على مدى تعلمهم لمهنتهم، وكلما زادت ثقتهم زاد التنافر الذي يشعرون به إذا ما وُوجهوا بأدلة على أنهم كانوا على خطأ، وزادت الحاجة إلى رفض هذا الدليل.

من الواضح أن إقناع شخص بريء بالاعتراف هو أخطر خطأ يمكن أن يحدث في استجواب الشرطة، ولكن معظم المحققين والمدعين العامين والقضاة لا يعتقدون أن ذلك ممكن، وقال جوشوا ماركيز: «فكرة أن شخصًا ما يمكن حثه على الاعتراف زورًا هي فكرة سخيفة، وهو دفاع توينكي^(١) في [عصرنا]، وفي أسوأ الحالات هو علم تافه»^{٢٩}، ويتفق معظمنا مع هذا، لأننا لا نستطيع أن نتخيل أننا سنقر بارتكاب جريمة إذا كنا أبرياء، بل كنا سنحتج وكنا سنقف بحزم وكنا سنتصل بمحامينا... أليس كذلك؟ ومع ذلك، فإن قائمة السجل الوطني للسجناء الذين تمت تبرئتهم بشكل لا لبس فيه تشير إلى أن نحو ١٣ إلى ١٥٪ منهم قد اعترفوا بجرائم لم يرتكبوها، وقد حلل علماء الاجتماع وعلماء الجريمة عديدًا من هذه الحالات وأجروا أبحاثًا تجريبية لتوضيح كيف يمكن أن يحدث هذا.

إن عُمدة أساليب الاستجواب هو كتاب «الاستجواب والاعترافات الجنائية»، من تأليف فريد إنباو، وجون ريد، وجوزيف باكلي، وبريان

(١) «دفاع توينكي» هو تسمية ساخرة للدفاع القانوني بعيد الاحتمال، وهو مصطلح صاغه الصحفيون في أثناء تغطيتهم لمحاكمة دفع فيها المدعى عليه بأنه عانى من انخفاض القدرة العقلية نتيجة لاكتنابه، وكان من أعراضه تغيير النظام الغذائي من الطعام الصحي إلى توينكي والأطعمة السكرية الأخرى، ولم يجادل محامو المدعى عليه بأن توينكي كان سبب تصرفاته ولكن ذكر المنتج نفسه فقط بشكل عابر في أثناء المحاكمة. (المترجم).

جاين، ويقدم جون ريد وشركاه برامج تدريبية وندوات ومقاطع فيديو حول تقنية ريد المكونة من تسع خطوات، وعلى موقعهم الإلكتروني يزعمون أنهم دربوا أكثر من خمسمائة ألف من العاملين في مجال إنفاذ القانون بأكثر الطرائق فعالية لانتزاع الاعترافات، ويبدأ كتاب «الاستجواب والاعترافات الجنائية» على الفور بطمأنة القراء بأننا «نعارض استخدام أي تكتيك أو أسلوب استجواب من شأنه جعل شخص بريء يعترف»، على الرغم من أن بعض الاستجابات «تتطلب استخدام تكتيكات وأساليب نفسية يمكن أن تصنف على أنها «غير أخلاقية» إذا ما قُيِّمَت بلغة السلوك الاجتماعي اليومي العادي»^{٣٠}.

إن موقفنا الواضح هو أن مجرد تقديم أدلة زائفة في أثناء الاستجواب لن يتسبب في اعتراف شخص بريء، ومن السخف الاعتقاد بأن المشتبه به الذي يعرف أنه لم يرتكب جريمة من شأنه أن يعطي أهمية ومصادقية للأدلة المزعومة أكثر من معرفته ببراءته، وفي ظل هذا الظرف سيكون رد الفعل البشري الطبيعي هو الغضب وعدم الثقة بالمحقق، وسيكون التأثير الصافي هو قرار المشتبه به المعزز للالتزام ببراءته^{٣١}.

خطأ، فعادة لا يكون «رد الفعل البشري الطبيعي» هو الغضب وعدم الثقة، بل الارتباك واليأس -التنافر- لأن معظم المشتبه بهم الأبرياء يثقون بأن المحقق لا يكذب عليهم، ولكن المحقق متحيز منذ البداية، ففي حين أن المقابلة محادثة مصممة للحصول على معلومات عامة من الشخص، فإن الاستجواب مصمم لجعل المشتبه به يعترف بالذنب (غالبًا ما يكون المشتبه به غير مدرك للفرق)، وينص الكتاب

الإرشادي على هذا صراحة: «يُجرى الاستجواب فقط عندما يكون المحقق متأكدًا بشكل معقول من ذنب المشتبه به»^{٣٢}، وتكمن خطورة هذا الموقف في أنه بمجرد أن يكون المحقق «متأكدًا بشكل معقول»، لا يمكن للمشتبه به إزاحة هذا اليقين، بل على العكس من ذلك، فإن أي شيء يفعله المشتبه به سيُفسَّر على أنه دليل على الكذب أو الإنكار أو التهرب من الحقيقة، بما في ذلك ادعاءات البراءة المتكررة، ويطلب من المحققين صراحة التفكير بهذه الطريقة، وقد تعلموا أن يتبنوا موقف «لا تكذب فنحن نعلم أنك مذنب»، وأن يرفضوا إنكار المشتبه به، وقد رأينا حلقة تبرير الذات هذه من قبل في الطريقة التي يقابل بها بعض المعالجين والإخصائيين الاجتماعيين الأطفال الذين يعتقدون أنهم تعرضوا للتحرش، وبمجرد أن يبدأ استجوابٌ مثل هذا فلا يوجد شيء اسمه دليل غير مؤكَّد^{٣٣}.

يملك واضعو تقنية ريد فهمًا بديهيًا لكيفية عمل التنافر (على الأقل في الأشخاص الآخرين)، وهم يدركون أنه إذا أُتيحت الفرصة للمشتبه به كي يعلن براءته فسيكون قد قدم التزامًا علنيًا، ويصبح من الصعب عليه التراجع لاحقًا والاعتراف بالذنب، وقد كتب لويس سينييس، نائب رئيس مجموعة ريد وشركاه: «كلما نفى المشتبه به تورطه زادت صعوبة اعترافه بأنه ارتكب الجريمة»، وذلك على وجه التحديد بسبب التنافر، ولذلك ينصح لويس سينييس المحققين بأن يكونوا مستعدين لإنكار المشتبه به وقطع الطريق عليه، وأنه يجب على المحققين مراقبة الإشارات غير اللفظية التي تشير إلى أن المشتبه به على وشك إنكار

الذنب («رفع يده أو هز رأسه بالرفض أو الانصال بالعين»)، وإذا قال المشتبه به صراحةً: «هل يمكنني أن أقول شيئاً؟»، يجب على المحققين الرد بأمرٍ مستخدمين الاسم الأول للمشتبه به («انتظر دقيقة واحدة فقط يا جيم») ثم العودة إلى استجوابه^{٣٤}.

إن افتراض المُستجوب للذنب يخلق نبوءة تحقق نفسها، لأنه يجعل المُستجوب أكثر عدوانية، مما يجعل المشتبه بهم الأبرياء يتصرفون بشكل أكثر إثارة للريبة. وفي إحدى التجارب قام عالم النفس الاجتماعي شاول كاسين وزملاؤه بمزاوجة أفراد كانوا إما مذنبين وإما أبرياء من سرقة وهمية مع محققين قيل لهم إن المشتبه بهم مذنبون أو أبرياء، ولذلك كانت هناك أربع مجموعات محتملة من المشتبه به والمحقق: أنت بريء ويعتقد أنك بريء، وأنت بريء ويعتقد أنك مذنب، وأنت مذنب ويعتقد أنك بريء، وأنت مذنب ويعتقد أنك مذنب، وكانت التركيبة الأكثر دموية والتي أنتجت أكبر قدر من الضغط والإكراه من قِبل المحقق، هي تلك التي تربط محققاً مقتنعاً بذنب المشتبه به مع المشتبه به الذي كان في الواقع بريئاً، ففي مثل هذه الظروف كلما نفى المشتبه به الذنب تأكد المحقق من أن المشتبه فيه يكذب وزاد الضغط عليه وفقاً لذلك.

يحاضر كاسين على نطاق واسع للمحققين وضباط الشرطة ليوضح لهم كيف يمكن لأساليبهم في الاستجواب أن تأتي بنتائج عكسية. يقول إنهم دائماً ما يؤمنون برأسهم، ويتفقون معه على أنه يجب تجنب الاعترافات الكاذبة، ولكنهم يضيفون على الفور أنهم أنفسهم لم

يُكرهوا أي شخص على الاعتراف الكاذب، وقد سأل كاسين شرطياً: «كيف علمت بذلك؟»، فقال: «لأنني لم أستجوب أبرياء قط». وجد كاسين أن يقين العصمة هذا يبدأ من القمة، وقال لنا: «كنت في مؤتمر دولي لإجراء لمقابلات الشرطة في كيبك، وشاركت في لجنة مناظرة مع جو باكلي، رئيس مدرسة ريد، وبعد عرضه التقديمي سأله أحد الحضور عما إذا كان قلقاً من أن يعترف الأبرياء بسبب تقنياته، وقد فوجئت بعرضه العلني لمثل هذه الغطرسة لدرجة أنني كتبت الاقتباس والتاريخ الذي قاله فيه: «لا. لأننا لا نستجوب الأبرياء»^{٣٥}. (في هذا صدى لتصريحات إدوين ميس، المدعي العام، في أثناء رئاسة رونالد ريجان، الذي قال في عام ١٩٨٦: «لكن الأمر هو أنه ليس لديك كثير من المشتبه بهم الأبرياء من جريمة، هذا متناقض، لأنه إذا كان الشخص بريئاً من جريمة، فهو ليس مشتبهاً به»).

في المرحلة التالية من التدريب يصبح المحققون واثقين بقدرتهم على قراءة الإشارات غير اللفظية للمشتبه بهم، مثل: التواصل البصري، ولغة الجسد، وطريقة الجلوس، وإيماءات اليد، وشدة الإنكار، فإذا لم ينظر الشخص إلى عينيك - كما يوضح الدليل - فهذه علامة على الكذب، وإذا جلس الشخص مترخياً (أو جلس جامداً) فهذه علامات على الكذب، وإذا أنكر الشخص الذنب فهذه علامة على الكذب، ومع ذلك تنصح تقنية ريد المحققين بـ«منع الاتصال البصري للمشتبه به»؛ أي حرمان المشتبه به من الاتصال المباشر بالعين الذي يعتبرونه هم أنفسهم دليلاً على البراءة.

وبالتالي، فإن تقنية ريد هي حلقة مغلقة: كيف أعرف أن المشتبه به مذنب؟ لأنه عصبي ويتعرق (أو مسيطر على نفسه جدًا)، ولأنه لا ينظر في عيني (ولن أسمح له إذا أراد ذلك)، ولذلك استجوبته أنا وشركائي لمدة اثنتي عشرة ساعة باستخدام تقنية ريد واعترف، ولذلك -ولأن الأبرياء لا يعترفون أبدًا- فإن اعترافه يؤكد اعتقادي بأن كونه عصبيًا ويتعرق (أو مسيطرًا على نفسه جدًا) وينظر في عيني (أو لا ينظر) هو علامة على الذنب، ووفقًا لمنطق هذا النظام فإن الخطأ الوحيد الذي يمكن أن يرتكبه المحقق هو الفشل في الحصول على اعتراف.

كُتِبَ الدليل بلهجة أمرة كما لو كان صوت الله الذي يكشف حقائق لا جدال فيها، ولكنه في الواقع يفشل في تعليم قرائه مبدأً أساسيًا للتفكير العلمي: أهمية فحص واستبعاد التفسيرات المحتملة الأخرى لسلوك الشخص قبل تحديد أيها أكثر احتمالًا. كان شاول كاسين مشتركًا في قضية عسكرية استجوب فيها المحققون بلا هوادة مدعى عليه لا توجد أدلة دامغة ضده، (اعتقد كاسين أن الرجل بريء وتمت تبرئته بالفعل)، وعندما سُئِلَ أحد المحققين عن سبب ملاحقته للمتهم بهذه القوة قال: «لقد توصلنا إلى أنه لم يخبرنا بالحقيقة كاملة، وتخبرنا بعض الأمثلة من لغة الجسد أنه حاول أن يظل هادئًا، ولكن يمكنك أن تقول إنه كان متوترًا، وفي كل مرة حاولنا أن نطرح عليه سؤالًا كانت عيناه تتجولان ولا تقومان بعمل تواصل مباشر معنا، وفي بعض الأحيان كان يتصرف بشكل متشتت جدًا ويبدأ في البكاء في نفس الوقت».

يقول شاول كاسين: «ما وصفه هو شخص تحت ضغط»، وعمومًا

لا يتعلم طلاب تقنية ريد أن الشعور بالتوتر والتملل وتجنب الاتصال البصري والتراخي بشكل غير مريح قد تكون علامات على شيء آخر غير الشعور بالذنب، فقد تكون علامات على العصبية أو المراهقة أو الأعراف الثقافية أو احترام السلطة أو القلق من الاتهامات الزور.

يدّعي المروجون للدليل أن طريقتهم تدرب المحققين على تحديد ما إذا كان شخص ما يقول الحقيقة أو يكذب بمستوى دقة يتراوح بين ٨٠ و ٨٥٪، ولكن لا يوجد أي دعم علمي لهذا الادعاء، فكما هي الحال مع المعالجين النفسيين الذين ناقشناهم في الفصل ٤، فإن التدريب لا يزيد من الدقة، ولكنه يزيد من ثقة الناس بدقتهم، وفي واحدة من الدراسات العديدة التي وثّقت ظاهرة الثقة الزائفة، درّب شاول كاسين وزميلته كريستينا فونج مجموعة من الطلاب على تقنية ريد، وشاهد الطلاب مقاطع فيديو تدريب ريد وقرأوا الدليل واختبروا على ما تعلموه للتأكد من فهمهم له، ثم طلب منهم مشاهدة مقاطع فيديو لأشخاص قابلهم ضابط شرطة متمرس، وكان المشتبه بهم الذين صوّروا إما مذنبين بارتكاب جريمة لكنهم ينكرونها، أو ينكرونها لأنهم أبرياء، إلا أن التدريب لم يحسّن دقة الطلاب بمقدار ذرة واحدة، وكان اكتشافهم للمذنبين مجرد صدفة، ولكن التدريب جعلهم يشعرون بمزيد من الثقة بقدراتهم، إلا أنهم كانوا طلابًا جامعيين فقط ولم يكونوا محترفين، ولذلك طلب شاول كاسين وكريستينا فونج من أربعة وأربعين محققًا محترفًا في فلوريدا وأونتاريو بكندا مشاهدة الأشرطة، وكان متوسط خبرة هؤلاء المهنيين ما يقرب من أربعة عشر عامًا لكل منهم، وتلقى

ثلاثهم تدريباً خاصاً وعديداً منه في تقنية ريد، ولكنهم مثل الطلاب كان اكتشافهم للمذنبين مجرد صدفة، ولكنهم كانوا مقتنعين بأن معدل دقتهم كان قريباً من ١٠٠٪، ولم تحسن خبرتهم ولا تدريبهم من أدائهم، ولكنهما زادا من اعتقادهم بأن أداءهم قد تحسن^{٣٦}.

مع ذلك، لماذا لا يستمر المشتبه به البريء في إنكار الذنب؟ لماذا لا يغضب المستهدف من المحقق؟ فكما يقول الدليل: أي شخص بريء سيفعل ذلك. لنفترض أنك شخص بريء استدعي للاستجواب ربما «لمساعدة الشرطة في تحقيقاتها»، وليس لديك أي فكرة أنك المشتبه به الرئيسي، وأنت تثق بالشرطة وتريد أن تكون مفيداً، ومن ناحية أخرى ها هو محقق يخبرك بأن بصمات أصابعك موجودة على سلاح الجريمة، وأنك فشلت في اختبار كشف الكذب، وأن دمك وُجد على الضحية أو أن دم الضحية وُجد على ملابسك، فلا شك أن هذه الادعاءات ستخلق تنافراً معرفياً كبيراً:

الإدراك المعرفي ١: أنا لم أكن هناك، ولم أرتكب الجريمة، وليس لدي أي ذاكرة لذلك.

الإدراك المعرفي ٢: أخبرني أشخاص يُعتمد عليهم وجديرون بالثقة وذوو سلطة بأن بصمات أصابعي موجودة على سلاح الجريمة، وأن دم الضحية كان على قميصي، وأن شاهد عيان رأي في مكان أنا متأكد من أنني لم أكن فيه قط.

كيف ستحل هذا التنافر؟ إذا كنت قوياً بما يكفي، أو ثرياً بما يكفي، أو لديك خبرة كافية مع الشرطة لتعرف أنه يتم الإيقاع بك،

فستقول الثلاث كلمات السحرية: «أنا أريد محامياً»، ولكن كثيراً من الناس يعتقدون أنهم لا يحتاجون إلى محامٍ إذا كانوا أبرياء^{٣٧}، معتقدين (خطأً) أنه غير مسموح للشرطة بالكذب عليهم، ومن ثم يندهشون لسماع أن هناك دليلاً ضدهم، ويا له من دليل دامغ؛ بصمات أصابعهم! ويدعي المَرَجع أن «غرائز الحفاظ على الذات لشخص بريء في أثناء الاستجواب» سوف تطنى على أي شيء يفعله المحقق، إلا أنه بالنسبة إلى الأشخاص الضعفاء، فإن الحاجة إلى فهم ما يحدث لهم تفوق حتى الحاجة إلى الحفاظ على الذات.

برادلي بيج: هل من الممكن أن أفعل هذا الشيء الفظيع وأنساه تماماً؟

الملازم لاسر: أوه، نعم، إنه يحدث طول الوقت.

والآن تقدّم لك الشرطة تفسيراً منطقيّاً وطريقة لحل تناورك: أنت لا تتذكر لأنك أسقطته من الذاكرة، فقد كنت في حالة سكر وفقدت الوعي، أو قمعت الذاكرة، أو لم تكن تعلم أنك مصاب باضطراب الشخصية المتعددة وأن إحدى شخصياتك الأخرى فعلت ذلك، وهذا ما فعله المحققون في استجوابهم لمايكل كرو، فقد أخبروه أنه ربما كان هناك «مايكلان»، أحدهما جيد والآخر سيئ، وأن مايكل السيئ ارتكب الجريمة من دون أن يكون مايكل الجيد على علم بها.

لكن مايكل كان في الرابعة عشرة من عمره - كما قد تقول - لذا لا عجب أن الشرطة يمكن أن تخيفه كي يعترف، وصحيح أن الأحداث والمرضى العقلين سريعو التأثير خاصةً بهذه الأساليب، لكن البالغين

الأصحاء كذلك، ففي فحص دقيق لـ ١٢٥ حالة تمت فيها تبرئة السجناء لاحقاً على الرغم من الإدلاء باعترافات كاذبة، وجد ستيفن دريزين وريتشارد ليو أن أكثر من نصفهم لم يكونوا مرضى عقليين أو ناقصين عقلياً أو أحداثاً، ومن بين الحالات التي أمكن فيها تحديد مدة الاستجواب، استُجوب أكثر من ٨٠٪ من المعترفين الكاذبين لأكثر من ست ساعات متواصلة، ونصفهم لأكثر من اثنتي عشرة ساعة، وبعضهم تقريباً من دون توقف لمدة يومين^{٣٨}.

كان هذا ما حدث للمراهقين الخمسة الذين اعتُقلوا في الليلة التي تعرضت فيها عدّاءة المتنزه المركزي للهجوم، فقد استُجوبوا لعدة ساعات من دون تسجيل إلكتروني من أي نوع، لكن النيابة العامة أعدت فيما بعد مقاطع فيديو لملخصات موجزة لاعترافات أربعة من الخمسة، وعندما تمكن علماء الاجتماع وعلماء القانون من فحص جميع الأدلة الموجودة، وعندما أعاد مكتب المدعي العام روبرت مورجنثاو فحص هذه الأدلة بدءاً من افتراض أن الأولاد قد يكونون أبرياء وليسوا مذنبين، ذاب الإقناع الدرامي لاعترافاتهم في الضوء، وتبين أن تصريحاتهم كانت مليئة بالتناقضات والأخطاء الوقائية والتخمينات والمعلومات التي زرعتها أسئلة المحققين المتحيزة^{٣٩}، وعلى عكس الانطباع العام بأنهم جميعاً اعترفوا، ففي الواقع لم يعترف أيٌّ من المتهمين بأنه اغتصب العدّاءة شخصياً، فقد قال أحدهم إنه «أمسك» بها، وذكر آخر أنه «لمس ثدييها»، وقال أحدهم إنه «أمسك ساقها وداعبها»، وكما لُوْحِظ في طلب المدعي العام لإلغاء إدانتهم فإن «الروايات التي قدمها

المتهمون الخمسة اختلف بعضها عن بعض بشأن التفاصيل المحددة لكل جانب رئيسي تقريباً من جوانب الجريمة، مثل من بدأ الهجوم، ومن أسقط الضحية، ومن خلع ملابسها، ومن ضربها، ومن احتجزها، ومن اغتصبها، وما الأسلحة التي استخدمت في أثناء الاعتداء، ومتى وقع الهجوم في تسلسل الأحداث»^{٤٠}.

بعد ساعات طويلة من التحقيق، فإن المشتبه به المنهك لا يريد شيئاً أكثر من السماح له بالعودة إلى المنزل، ومن ثم يقبل التفسير الذي يقدمه المحققون باعتباره التفسير الوحيد الممكن، والتفسير الوحيد المنطقي ويعترف، وعادة بمجرد زوال الضغط وحصول الهدف على نوم ليلي، سيتراجع على الفور عن الاعتراف، ولكن سيكون الأوان قد فات.

المدعون العامون

في الفيلم الرائع جسر على نهر كواي، بنى أليك جينيس وجنوده -أسرى اليابانيين في الحرب العالمية الثانية- جسراً للسكك الحديدية يساعد المجاهد الحربي للعدو، ويوافق جينيس على هذا المطلب من قبل أسريه كوسيلة لخلق الوحدة واستعادة الروح المعنوية بين رجاله، ولكن بمجرد أن يبنيه يصبح مصدر فخر ورضا، وفي نهاية الفيلم عندما يجد جينيس الأسلاك التي تكشف أن الجسر قد تم تفخيخه، ويدرك أن كوماندوز الحلفاء يخططون لتفجيره، فإن رد فعله الأول كان: «لا يمكنكم ذلك! إنه جسري، كيف تجرؤون على تدميره!». ولرعب الكوماندوز الذين يراقبون، يحاول قطع الأسلاك لحماية الجسر، ولكن فقط في

اللحظة الأخيرة يصرخ جينيس قائلاً: «ماذا فعلت؟»، مدرّكاً أنه كان على وشك تخريب هدف فريقه في النصر للحفاظ على إبداعه الرائع.

وبنفس الطريقة، ينتهي الأمر بعدد من المدعين العامين إلى الاستعداد لتخريب هدف فريقهم، المتمثل في العدالة للحفاظ على قناعاتهم، بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وبحلول الوقت الذي يذهب فيه المدعون إلى المحاكمة، فغالباً ما يجدون أنفسهم في العالم الحقيقي المكافئ لتجربة تبرير الجهد، فلقد اختاروا هذه القضية من بين كثيرين لأنهم مقتنعون بأن المشتبه به مذب، وأن لديهم الدليل لإدانته، وأنهم قضوا -في كثير من الأحيان- عدة أشهر في التحضير لها، وعملوا بشكل مكثف مع الشرطة والشهود والضحايا المحطمين، وعائلاتهم التوّاقة إلى الانتقام غالباً، وإذا كانت الجريمة قد أثارت المشاعر العامة، فإنهم يتعرضون لضغوط هائلة للحصول على إدانة بسرعة، وأي شكوك قد تكون لديهم تغرق في الشعور بالرضا بأنهم يمثلون قوى الخير ضد مجرم حقير، وهكذا -وبضمير مرتاح- ينتهي المدعون العامون قائلين لهيئة المحلفين: «هذا المدعى عليه وحش دون البشر، فافعلوا الصواب واحكموا بإدانته»، وفي بعض الأحيان يُقنعون أنفسهم تماماً بأنهم قبضوا على وحش لدرجة أنهم -مثل الشرطة- يتمادون في: تدريب الشهود، أو تقديم صفقات لمخبري السجن، أو الفشل في إعطاء الدفاع جميع المعلومات الملزمون قانوناً بتسليمها له.

كيف سيكون رد فعل أغلب المدعين العامين إذن عندما يطالب المغتصب أو القاتل المدان -بعد سنوات والذي لا يزال يتذرع بالبراءة

(كما يفعل كثير من المجرمين المذنبين) - بإجراء اختبار الحمض النووي؟ أو يدعي أن اعترافه كان بالإكراه؟ أو يقدم أدلة جديدة تشير إلى أن شهادة شهود العيان التي أدت إلى الإدانة كانت خاطئة؟ (قراءة ثلاثة أرباع حالات التبرئة المستندة إلى الحمض النووي هي حالات تضمنت التعرف الخاطئ من جانب شهود العيان)^{٤١}، وماذا لو لم يكن المدعى عليه وحشًا، بعد كل هذا العمل الشاق الذي بذله الفريق القانوني لإقناع أنفسهم وهيئة المحلفين بأنه كذلك؟ يعد رد فعل المدعين العامين في فلوريدا نموذجًا، فبعد إطلاق سراح أكثر من ١٣٠ سجينًا عن طريق اختبار الحمض النووي في غضون خمسة عشر عامًا، قرر المدعون العامون أنهم سيردون من خلال إطلاق تحدّد شديد للقضايا الجديدة المماثلة، وقد اضطر المغتصب المدان ويلتون ديدج إلى مقاضاة الدولة لإعادة اختبار الأدلة في قضيته، وعلى الرغم من الاعتراضات الشديدة للمدعين العامين الذين قالوا إن مصلحة الولايات في النهاية، ومشاعر الضحية يجب أن تحل محل المخاوف بشأن براءة ديدج المحتملة^{٤٢}، فقد تمت تبرئة ديدج في النهاية وإطلاق سراحه.

هذه النهاية للمرافعة والتحجج بأن مشاعر الضحية ينبغي أن تحول دون تطبيق العدالة تبدو حجة مروعة من قبل أولئك الذين تثق بهم لتوفير العدالة، ولكن هذه هي قوة التبرير الذاتي، وإضافة إلى ذلك: ألن يشعر الضحايا بتحسّن إذا قُبض على الجناة الحقيقيين وعُوقبوا؟ وقد أدى اختبار الحمض النووي إلى تحرير مئات السجناء، وغالبًا ما تتضمن التقارير الإخبارية في جميع أنحاء البلاد اقتباسًا أو اثنين من المدعين

العامين الذين حاكموهم في الأصل، ففي فيلادلفيا رفض المدعي العام للمقاطعة آنذاك، بروس كاستور جونيور، قبول نتائج اختبار الحمض النووي الذي برّأ رجلاً كان في السجن لمدة خمسة عشر عاماً، وعندما سأله الصحفيون عن الأساس العلمي الذي يستند إليه لرفض الاختبار، أجاب: «ليس لديّ أي أساس علمي. أعرف ذلك لأنني أثق برجل المباحث وبالاعتراف المسجل على الشريط»^{٤٣}.

كيف نعرف أن هذا الرفض العرضي لاختبار الحمض النووي هو علامة على تبرير الذات وليس مجرد تقييم صادق للأدلة؟ إنها مثل دراسة سباق الخيل التي وصفناها في الفصل ١، فبمجرد أن تضع رهانك على حصان لا تريد أن تحتفي بأي أفكار تلقي بظلال من الشك على هذا القرار، وهذا هو السبب في أن المدعين العامين يفسرون نفس الأدلة بإحدى طريقتين، على حسب وقت اكتشافها، ففي وقت مبكر من التحقيق تستخدم الشرطة الحمض النووي لتأكيد ذنب المشتبه به أو استبعاد المتهم، ولكن عندما تُجرى اختبارات الحمض النووي بعد توجيه الاتهام إلى المدعى عليه وإدانته، فإن المدعين العامين عادة ما يرفضون نتائج الحمض النووي باعتبارها غير ذات صلة وليست مهمة بما يكفي لإعادة فتح القضية، وفي هذا قال المدعي العام في تكساس، مايكل ماك دو جال: إن حقيقة أن الحمض النووي الذي عُثر عليه في ضحية اغتصاب وقتل شابة لا يتطابق مع الحمض النووي لروي كرينر -الرجل المدان بالجريمة- لا تعني أنه بريء، وقال: «هذا يعني أن الحيوانات المنوية الموجودة فيها لم تكن له، وهذا لا يعني أنه لم يغتصبها، ولا يعني أنه لم يقتلها»^{٤٤}.

من الناحية الفنية، ماكدوجال على حق، فقد كان بإمكان كرينر اغتصاب المرأة في تكساس والقذف في مكان آخر ربما أركنساس، ولكن لا بد من استخدام أدلة الحمض النووي بنفس الطريقة كلما ظهرت، إلا أن الحاجة إلى تبرير الذات هي التي تمنع معظم المدعين العامين من القيام بذلك، ويقول محامي الدفاع بيتر نيوفيلد -من واقع خبرته- إن إعادة تفسير الأدلة لتبرير الحكم الأصلي أمر شائع للغاية بين المدعين العامين والقضاة، ففي أثناء المحاكمة كانت نظرية المدعي العام هي أن شخصًا واحدًا بمفرده -المدعى عليه- أمسك بالضحية واغتصبها، ولكن بعد إدانة المدعى عليه إذا استبعده اختبار الحمض النووي باعتباره الجاني، فإن المدعين العامين يتوصلون بأعجوبة إلى نظريات أخرى، والنظرية المفضلة لدينا هي ما يسميه نيوفيلد نظرية «قاذف المني المشترك غير المُتهم»: فالمتهم المدان أمسك المرأة بينما ارتكب رجل ثانٍ غامض الاغتصاب بالفعل، أو أن الضحية كانت مستلقية هناك عاجزة وحيوان مفترس ذكر «يأتي ويرى فرصة ويغتنمها»، كما ادعى أحد المدعين العامين^{٤٥}، أو كان المدعى عليه يرتدي واقياً ذكرياً، وكانت الضحية قد مارست الجنس بالتراضي مع شخص آخر قبل وقت قصير من اغتصابها. (عندما أُرسِلت قضية روي كرينر إلى محكمة الاستئناف الجنائية في تكساس، حكمت رئيسة المحكمة شارون كيلر بأن الحمض النووي «الذي يُظهر أن الحيوانات المنوية لم تكن لرجل أُدين بالاغتصاب لم يكن حاسماً لأنه ربما كان يرتدي الواقي الذكري»)، وإذا احتجت الضحية بأنها لم تمارس الجنس في

الأيام الثلاثة السابقة، فإن المدعين العامين يدفعون بالنظرية -مرة أخرى بعد المحاكمة- بأنها تكذب، لأنها لا تريد الاعتراف بأنها مارست الجنس غير المشروع لأن زوجها أو صديقها سيكون غاضباً.

في روك هيل بولاية ساوث كارولينا، أُجبر بيلي واين كوب، وهو رجل أبيض معزول اجتماعياً، على الاعتراف باغتصاب وقتل ابنته البالغة من العمر اثني عشر عاماً، وعلى الرغم من عدم وجود دليل مادي واحد يربطه بالجريمة، فقد اعتقد كوب -وهو مسيحي وُلد من جديد^(١)- أن ابنته ربما ماتت في أثناء نشوة الطرب^(٢) ثم سأل بحزن عما إذا كان يمكن أن يكون قد قتلها في أثناء نومه. عندما عادت اختبارات الحمض النووي، حددوا بوضوح الجاني على أنه مجرم محترف أسود ومغتصب متسلسل يدعى جيمس ساندرز، وهو رجل كان دائماً يرتكب جرائمه بمفرده، ومع ذلك حوكم الرجلان معاً، وقال المدعي العام: «التفسير المنطقي الوحيد هو أن بيلي كوب قدّم ابنته من أجل ملذاته وملذات جيمس ساندرز المنحرفة وقتلها، وأنهما فعلاً ذلك معاً، ولا يوجد تفسير معقول آخر»^{٤٦}، ولكن ماذا عن «التفسير المعقول» بأن بيلي واين كوب كان بريئاً؟ وفي عام ٢٠١٤، أيدت المحكمة العليا في ساوث

(١) الولادة من جديد هي عبارة خاصة في الكرازة تشير إلى «ولادة روحية» أو تجديد للروح البشرية، وعلى النقيض من الولادة الجسدية فإن «الولادة الثانية» تنتج بشكل واضح ومنفصل عن عمل الروح القدس، وهي عقيدة أساسية لجميع الطوائف المسيحية الإنجيلية الذين تنص تعاليمهم على أنه لكي «تُولد من جديد» و«تُخلّص»، يجب أن تكون لك علاقة شخصية وحميمة بيسوع المسيح. (المترجم).

(٢) نشوة الطرب هو حدث يؤمن به بعض المسيحيين، خصوصاً الإنجيليين الأمريكيين، ويتألف من حدث في آخر الزمان عندما يُرفع المسيحيون المؤمنون إلى السماء ليروا يسوع المسيح.

كارولينا الحكم على بيلي واين كوب بالسجن مدى الحياة، وتوفي في السجن بعد ثلاث سنوات، وهو يصبر على براءته حتى النهاية.

مثل هذه المبررات الذاتية تخلق مأساة مزدوجة: فهي تُبقي الأبرياء في السجن وتسمح للمذنبين بأن يظلوا أحرارًا، ويمكن استخدام نفس الحمض النووي الذي يُبرئ شخصًا بريئًا للتعرف على المذنب، ولكن هذا لا يحدث في كثير من الأحيان كما ينبغي له أن يحدث^{٤٧}، فعادة ما تفضّل الشرطة والمدعون العامون إغلاق دفاتر القضية تمامًا، وكأنهم يطمسون اتهامها الصامت بالخطأ الذي ارتكبه.

التسرع في الإدانات

«إذا كان النظام لا يستطيع أن يعمل بشكل عادل، وإذا كان النظام لا يستطيع تصحيح أخطائه وأن يعترف بأنه يرتكب أخطاء ويعطي الناس فرصة [لتصحيحها]، فإن النظام خَرِبَ».

- مايكل تشارلتون، محامي الاستئناف الذي مثل روي كرينر

لجميع المواطنين الحق في نظام عدالة جنائية يدين المذنبين، ويحمي الأبرياء، ويصحح أخطائه بسرعة، وقد اقترح علماء القانون وعلماء الاجتماع عديدًا من سبل الانتصاف الدستورية والتحسينات التدريجية المهمة للحد من خطر الاعترافات الكاذبة، وشهادات شهود العيان غير الموثوقة، و«الشهادات الكاذبة» للشرطة، وما إلى ذلك^{٤٨}،

ولكن من منظورنا فإن أكبر عائق أمام الاعتراف بالأخطاء وتصحيحها في نظام العدالة الجنائية هو أن معظم أعضائه يقللون من التنافر من خلال إنكار وجود مشكلة، وكما قال المدعي العام السابق بينيت جيرشمان: «يجب على نظامنا أن يخلق هذه الهالة بأنه قريب من الكمال وباليقين بأننا لا ندين الأبرياء»^{٤٩}، وفائدة هذا اليقين لضباط الشرطة والمحققين والمدعين العامين هي أنهم لا يقضون ليالي بلا نوم قلقين من أنهم ربما وضعوا شخصًا بريئًا في السجن، إلا أنه توجد حاجة إلى بضع ليالٍ بلا نوم، فالشك ليس عدو العدالة، ولكن عدوتها هي الثقة المفرطة.

لا يتضمن التدريب المهني لمعظم ضباط الشرطة والمحققين والقضاة والمحامين في الوقت الحالي أي معلومات تقريبًا حول تحيزاتهم المعرفية، وكيفية تصحيحهم لها - قدر الإمكان - وكيفية إدارة التنافر الذي سي شعرون به عندما تلتقي معتقداتهم بأدلة لا تؤكدها، بل على العكس من ذلك، فكثير مما يتعلمونه عن علم النفس يأتي من خبراء نصّبوا أنفسهم من دون تدريب في العلوم النفسية والذين - كما رأينا - لا يعلمونهم أن يكونوا أكثر دقة في أحكامهم، بل مجرد ثقة أكبر بدقتهم: «الشخص البريء لن يعترف أبدًا»، أو «رأيت ذلك بأم عيني، لذلك أنا على حق»، أو «أستطيع أن أقول متى يكذب شخص ما، فقد كنت أفعل هذا منذ سنوات»، إلا أن هذا النوع من اليقين هو السمة المميزة للعلم الزائف، فالعلماء الحقيقيون يتحدثون بلغة الاحتمال الحذرة: «يمكن بالتأكيد حث الأبرياء على الاعتراف في ظل ظروف معينة، واسمحوا لي أن أشرح لماذا أعتقد أن اعتراف هذا الشخص من المحتمل أن يكون قد

تم بالإكراه»، وهذا هو السبب في أن شهادة العلماء غالبًا ما تكون مثيرة للغضب، إذ يفضل عديد من القضاة والمحلفين وضباط الشرطة اليقين على العلم، وقد أعرب أستاذ القانون مايكل ريسينجر والمحامي جيفري لوب عن أسفهما «للفشل العام للقانون في أن يعكس فعليًا أيًا من رؤى البحث الحديث حول خصائص الفهم البشري أو الإدراك أو الذاكرة أو الاستنتاج أو القرار في ظل عدم اليقين، سواء في بنية قواعد الإثبات نفسها أو في الطرائق التي يتم بها تدريب القضاة أو توجيههم لإدارتها»^{٥٠}.

إلا أن التدريب الذي يعزز يقين العلم الزائف بدلًا من التقدير المتواضع لتحيزاتنا المعرفية ونقاطنا العمياء يزيد من فرص الإدانات الخاطئة بطريقتين، أولاً: يشجع مسؤولي إنفاذ القانون على القفز إلى الاستنتاجات بسرعة كبيرة، فيقرر ضابط شرطة أن المشتبه به هو الطرف المذنب ثم يغلق الباب أمام الاحتمالات الأخرى، ثم يقرر المدعي العام بشكل مندفع رفع دعوى قضائية -خاصة تلك المثيرة- من دون أن يكون لديه كل الأدلة؛ ويعلن قراره لوسائل الإعلام ثم يجد صعوبة في التراجع عندما تثبت الأدلة اللاحقة أنها مهترزة، وثانيًا: بمجرد محاكمة القضية والفوز بالإدانة سيكون لدى المسؤولين دافع لرفض أي دليل لاحق على براءة المتهمين.

الترياق المضاد لهذه الأخطاء البشرية هو التأكد من أن الطلاب في أكاديميات الشرطة وكليات الحقوق يتعلمون عن التنافر المعرفي وعدم حصانتهم للتبرير الذاتي، وقد فعل ذلك بالتأكيد مارك جودسي -أستاذ القانون والمدعي العام السابق الذي أصبح محاميًا للمدانيين ظلمًا- في كتابه العدالة العمياء، ووصف صدمته عندما أخبره أحد

مخبري الشرطة أنه لم يعترف قط بجريمة سابقة كان قد أُدين بها، وأن المحقق لَفَّق الاعتراف، وكتب مارك جودسي: «على الرغم من أنني لا أعرف حتى يومنا هذا ما إذا كان المخبر يقول الحقيقة بشأن الاعتراف المزعوم أم لا، فأنا أعلم أنني نسفت ادعاءاته بسبب التنافر المعرفي، لقد كنسته تحت سجادة عقلية لأنه لم يتوافق مع معتقداتي حول النظام، فنحن نصدق واشياً عندما يعطينا معلومات تساعدنا في إرسال شخص ما إلى السجن مدى الحياة، ولكن عندما يتحدى معتقداتنا الأساسية حول النظام، فإنه يتم إنكار الادعاءات على الفور باعتبارها هراء من دون نظرة فاحصة»^{٥١}.

هذا هو بالضبط نوع مهارة التفكير التي يحتاج إلى اكتسابها جميع المشاركين في نظام العدالة الجنائية، إذ يجب أن يتعلموا البحث عن المشتبه به المحتمل إحصائياً (حبيب جيور) من دون إغلاق عقولهم أمام المشتبه به الأقل احتمالاً إحصائياً إذا كان هذا هو ما تشير إليه بعض الأدلة، وهم بحاجة إلى أن يتعلموا أنه حتى لو كانوا واثقين بقدرتهم على معرفة ما إذا كان المشتبه به يكذب أم لا فقد يكونون مخطئين، وعليهم أن يتعلموا كيف ولماذا يمكن حث الأبرياء على الاعتراف بجريمة لم يرتكبوها، وكيفية التمييز بين الاعترافات التي يرجَّح أن تكون صحيحة وتلك التي انتزعت بالإكراه^{٥٢}، وهم بحاجة إلى أن يتعلموا أن الطريقة الشائعة للتنميط -وهي العنصر الأساسي المفضل في مكتب التحقيقات الفيدرالي والبرامج التلفزيونية- تنطوي على مخاطر خطأ كبيرة بسبب التحيز التأكيدي، لأنه عندما يبدأ المحققون في البحث عن عناصر

جريمة تتطابق مع الخطوط العامة للمشتبه بهم، فإنهم يبدأون أيضًا في التفاوض عن العناصر غير المتطابقة، وباختصار، يحتاج المحققون إلى تعلم العثور على هدف آخر بمجرد أن يدركوا أنهم أخطأوا الهدف.

يمضي أستاذ القانون أندرو ماكلورج إلى أبعد من ذلك في تدريب الشرطة، فقد دعا منذ فترة طويلة إلى تطبيق مبادئ التنافر المعرفي لمنع المجندين الجدد شديدي التحفيز من اتخاذ تلك الخطوة الأولى لنزول الهرم في اتجاه غير شريف، والقطعة المركزية في خطته هي استدعاء مفهومهم الذاتي كرجال طيبين يحاربون الجريمة والعنف، ويقترح برنامجًا للتدريب على النزاهة في التعامل مع المعضلات الأخلاقية، حيث تُعَرَّس في الطلاب قيم قول الحقيقة وفعل الشيء الصحيح كجزء أساسي من هويتهم المهنية الناشئة (في معظم الولايات القضائية يحصل متدربو الشرطة على أمسية واحدة أو ساعتين في التعامل مع المشكلات الأخلاقية)، ولأن مثل هذه القيم يتم التغلب عليها بسرعة في العمل من خلال القواعد الأخلاقية المنافسة، مثل: «أنت لا تتخلى عن تعهدك بحماية ضابط زميل»؛ أو «الطريقة الوحيدة المؤكدة للحصول على إدانة - في العالم الحقيقي - هي التلاعب بالحقيقة»، ويقترح ماكلورج أن يكون المجندون الجدد في شراكة مع معلمين ذوي خبرة وأخلاقيين، وعلى طريقة رعاية منظمة مدمني الكحول المجهولون^(١)، سيساعدون المجندين الجدد في الحفاظ على التزامهم بالصدق، ويجادل بأن

(١) مدمنو الكحول المجهولون منظمة عالمية تساعد في علاج إدمان الكحول، تأسست في مدينة شيكاغو الأمريكية عام ١٩٣٥، يجتمع الأفراد المنتسبون لها دوريًا لدعم بعضهم بعضًا. (المترجم).

«الأمل الوحيد للحد بشكل كبير من كذب الشرطة هو اتباع نهج وقائي يهدف إلى منع رجال الشرطة الجيدين من التحول إلى أشرار»، وتقدم نظرية التنافر المعرفي «أداة قوية وغير مكلفة ولا تنضب لتحقيق هذا الهدف وهو المفهوم الذاتي لضابط الشرطة»^{٥٣}.

ولأنه لا يوجد أحد، بصرف النظر عن مدى تدريبه أو حسن نيته، محصن تمامًا ضد التحيز التأكيدي والنقاط المعرفية العمياء الخاصة به، فإن علماء الاجتماع البارزين الذين درسوا الإدانة الخاطئة يُجمعون على التوصية بضمانات مثل التسجيل الإلكتروني لجميع المقابلات، واعتبارًا من عام ٢٠١٩ تتطلب ست وعشرون ولاية فقط بالإضافة إلى مقاطعة كولومبيا من الشرطة تسجيل الاستجابات إلكترونياً في بعض أو كل جرائم الجنايات، رغم أن خمس ولايات فقط تنص على «تفضيل» التسجيل السمعي البصري^{٥٤}، ولطالما قاومت الشرطة والمدعون العامون هذا المطلب، خوفاً ربما من الكشف المحرج المولّد للتنافر الذي قد يخلقه.

برر رالف لاسر -أحد المحققين مع برادلي بيج- موقف الشرطة ضد مقاطع الفيديو على أساس أن التسجيل «يثبط» ويجعل «من الصعب الوصول إلى الحقيقة»^{٥٥}، وقال شاكيًا: لنفترض أن المقابلة استمرت لمدة عشر ساعات. سيجعل محامو الدفاع هيئة المحلفين تستمع إلى كل العشر ساعات بدلاً من مجرد اعتراف مدته خمس عشرة دقيقة، وستكون هيئة المحلفين مرتبكة ومُستحوذًا عليها، إلا أنه في قضية بيج استندت حجة المدعين العامين بشكل كبير إلى جزء مفقود

من المقابلة المسجلة صوتيًا، وقد اعترف رالف لاسر بأنه أوقف تشغيل المسجل قبل أن يقول الكلمات التي أقنعت بيج بالاعتراف، ولكن وفقًا لبيج فإن لاسر طلب منه -خلال هذا الجزء المفقود- أن يتخيل كيف كان يمكن أن يقتل صديقه. (هذه مناورة أخرى أوصى بها مبدعو تقنية ريد)، واعتقد بيج أنه يطلب منه بناء سيناريو وهمي لمساعدة الشرطة، وأنه قد دُهل عندما استخدمه لاسر كاعتراف شرعي، ولم تستمع هيئة المحلفين إلى السياق الكامل للسؤال الذي انتزع الاعتراف المزعوم.

في الواقع، أصبحت وكالات إنفاذ القانون في الولايات القضائية التي تسجل الاستجابات تفضّل هذه الممارسة، وقد فحص مركز الإدانات الخاطئة ٢٣٨ وكالة لإنفاذ القانون تسجل حاليًا جميع عمليات استجواب المشتبه بهم في الجنايات، ووجد أن جميع الضباط تقريبًا كانوا متحمسين، فمقاطع الفيديو التي يتم تصويرها بزاوية كاميرا تشمل كلاً من المحاور والشخص الذي يتم تصويره تقضي على مشكلة تغيير المشتبه بهم لمواقفهم، وتقع المحلفين بأن الاعتراف قد تم الحصول عليه بأمانة، وتسمح للخبراء المستقلين بتقييم التقنيات المستخدمة وتحديد ما إذا كان أيٌّ منها خادعًا أو قسريًا^{٥٦}.

تنفّذ كندا وبريطانيا العظمى هذه الإصلاحات وتضعان إجراءات أخرى لتقليل احتمالات الإدانات الخاطئة، وأحد البدائل لتقنية ريد القسرية هو نموذج (الإعداد والتخطيط، والمشاركة والتفسير، والمحاسبة، والاختتام، والتقييم) المعروف اختصارًا باسم نموذج بيس، الذي يُستخدم في جميع أنحاء المملكة المتحدة، ويتم تطوير

أشكال مختلفة منه في الولايات المتحدة، ولا يفترض مستخدمو نموذج بيس وما يشابهه من الوسائل أن المشتبه بهم مذنبون، والمقابلة ليست تصادمية بشكل صريح، ولا يُسمح للشرطة بالاعتماد على الخداع والكذب، ويُنظر إلى المقابلة على أنها وسيلة للحصول على المعلومات. يسأل القائم بإجراء المقابلة أسئلة مفتوحة في صياغات مختلفة، ويبحث عن القصة بأكملها وينظر في عديد من الاحتمالات. الافتراض هو أن المشتبه بهم الذين يكذبون يعانون من «عبء معرفي» ناتج عن محاولة تذكر تفاصيل زائفة يصعب الالتزام بها^{٥٧}.

وفي الولايات المتحدة، أدت عمليات التبرئة العديدة الناجمة عن اختبار الحمض النووي إلى إحداث تغييرات قانونية ببطء من أجل: تحسين الإشراف على مختبرات الجريمة، ومعايير أكثر صرامة لتحديد هوية شهود العيان، ومنح السجناء درجات (متفاوتة) من الوصول إلى أدلة الحمض النووي، وفي عدد قليل من الولايات إنشاء لجان للإسراع في نظر قضايا الإدانة الخاطئة وإيجاد سبل للانتصاف، وتتألف هذه اللجان دائماً تقريباً من مدعين عامين لم يكونوا هم أنفسهم مشاركين في القضايا الأصلية، وبالتالي ليس لديهم أي تنافر للحد منه، وعندما تولى كينيث طومسون منصب المدعي العام في بروكلين انزعج لاكتشاف أكثر من مائة ادعاء بإدانات خاطئة، وأنشأ على الفور وحدة لمراجعة الإدانات تضم عشرة مدعين عامين لم يفعلوا شيئاً سوى التركيز على تلك القضايا، وكذلك فعل كريج واتكينز، المدعي العام في دالاس، الذي أسس وحدة نزاهة الإدانة في عام ٢٠٠٧، وجرى توسيعها في عام

٢٠١٧، ومن بين إجراءاتها إجراء اختبارات منهجية لعينات الحمض الخلوي الصبغي التي أُغفلت في الإدانات، ومنذ ذلك الحين تمت تبرئة عشرات السجناء. كما أقرت تكساس مشروع قانون يُعرف باسم قانون العلوم التافهة، يسمح للمدعى عليه بتقديم أمر بالمثول أمام المحكمة على أساس أدلة علمية جديدة تشير إلى أن الأدلة التي استخدمت للإدانة كانت خاطئة أو مضللة أو مطبقة بشكل غير دقيق. وبالمثل، أقرت ولاية كاليفورنيا مشروع قانون يسمح للأشخاص المدانين بالظعن في شهادة الخبراء التي قدموها ضدهم في المحاكمة، إما لأن هؤلاء الخبراء أنكروا شهادتهم في وقت لاحق أو لأنهم اعتمدوا على أساليب أو نتائج تبين فيما بعد أنها خاطئة. وهذه الإصلاحات ضرورية وطال انتظارها.

ولكن وفقًا لباحثي القانون وعالمي الاجتماع ديورا ديفيس وريتشارد ليو، فإن تطبيق القانون الأمريكي لا يزال غارقًا في تقاليده، بما في ذلك الالتزام بإجراءات تقنية ريد والإجراءات المماثلة، مع الحفاظ على «الإنكار شبه المطلق» بأن هذه التقنيات يمكن أن تنتج اعترافات كاذبة وإدانات خاطئة^{٥٨}، وتتضمن الطبعتان الرابعة والخامسة من كتاب ريد المرجعي إيماءة متكبرة لمشكلة الاعترافات الكاذبة، التي من المفترض أن تطمئن القراء أن المؤلفين على دراية بالحالات التي صنعت الأخبار، إلا أنها مراجعة انتقائية وعلى مضض للأدلة وتحتوي على عديد من الأخطاء ولا تعترف بحجم المشكلة، ناهيك عن دور تقنية ريد في خلقها، وكما يقول ريتشارد ليو، فإن الكتاب يتظاهر بأنه حساس لمشكلة الاعترافات الكاذبة من دون تغيير أي شيء في الطريقة

الأساسية نفسها، والأشخاص الذين يذهبون إلى فصولهم التدريبية أفادوا أن المدربين بالكاد يذكرون أي شيء عن الاعترافات الكاذبة.

لاحظ اثنان من علماء الاجتماع الذين راجعوا البحث المتعلق بتقنية ريد أن «معظم المحققين أذكاء وذوو ضمير حي وملتزمون بالوصول إلى نتيجة عادلة»، إلا أنهم يجرون استجواباتهم وفقاً للتدريب الذي تلقوه، والذي كان دائماً تقريباً طريقة ريد التي «لا يعزز صرحها الواسع من العلوم الزائفة والمعلومات المضللة وخداع الذات والخداع الصريح أهداف نظام العدالة الجنائية، وكان قد أُعلن عنها في خمسينيات القرن العشرين كتحسن كبير على الأساليب البربرية التي استُبدلت بها، ولكن هذا التبرير لم يعد قابلاً للتطبيق منذ عقود»^{٥٩}، ويتفق مع هذا إريك شيرد، أحد علماء النفس المشاركين في خلق منهجية بيس، وقال لمراسل نيويورك دوجلاس ستار: «أعتقد أن تقنية ريد كانت بنت زمانها، وما تراه الآن هو من عمل مؤخرة الجيش للدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه»^{٦٠}.

إن عدم رغبة نظام العدالة الجنائية الأمريكي في الاعتراف بعدم العصمة والقابلية للخطأ يضاعف من الظلم الذي يخلقه، وعديد من الولايات لا تفعل شيئاً على الإطلاق للأشخاص الذين تمت تبرئتهم، ولا تقدم أي تعويض عن السنوات العديدة من الحياة الضائعة والأرباح المفقودة، بل هم لا يقدمون حتى اعتذاراً رسمياً، وبمنتهى القسوة فهم غالباً لا يشطبون سجل الأشخاص الذين تمت تبرئتهم، مما يجعل من الصعب عليهم الحصول على شقة سكنية أو وظيفة.

يمكننا أن نرى من وجهة نظر نظرية التنافر لماذا يعامل ضحايا الإدانات الخاطئة بقسوة تناسب تناسباً طردياً مع عدم مرونة الأنظمة، وإذا كنت تعلم أن الأخطاء أمر لا مفر منه فلن تتفاجأ عند حدوثها وسيكون لديك إجراءات طوارئ لمعالجتها، ولكن إذا رفضت الاعتراف لنفسك أو للعالم بأن الأخطاء تحدث، فستكون تبرئة أولئك الذين سُجنوا ظلماً دليلاً صارخاً ومهيناً على مدى خطئك، لذا اعتذر لهم، وأعطهم مالاً، ولا تكن سخيفاً، تقول إنهم أُفْرِج عنهم لاعتبارات تقنية، يا إلهي، الاعتبارات التقنية كانت الحمض النووي؟ حسناً، لا بد أنهم كانوا مذنبين بشيء آخر.

من آن لآخر يسمو رجل نزيه أو امرأة نزيهة فوق قوة الدفع المشتركة للتضحية بالحقيقة لخدمة التبرير الذاتي: فيشي ضابط شرطة بالفساد؛ أو يعيد محقق فتح قضية كان يبدو أنها حُلّت؛ أو يقر المدعي العام للمقاطعة بأنه أجهض العدالة. كان توماس فانيس المحامي بإنديانا مدعيًا عامًا لمدة ثلاثة عشر عامًا، وكتب: «لم أكن خجولاً حينئذٍ في السعي لتوقيع عقوبة الإعدام، لأنه عندما يكون المجرمون مذنبين فإنهم يستحقون أن يعاقبوا»^{٦١}، ولكن فانس تعلم أنه تم ارتكاب أخطاء وأنه أيضًا قد ارتكب أخطاء، وفي هذا قال علمت أن رجلاً يُدعى لاري مايز، كنت قد حاكمته وأدنته، قد قضى أكثر من ٢٠ عامًا بسبب اغتصاب لم يرتكبه. كيف نعرف؟ عن طريق اختبار الحمض النووي... وبعد عقدين من الزمان، عندما طلب إعادة اختبار الحمض النووي على مجموعة الأدوات المستعملة في الاغتصاب، قمت بالمساعدة في تعقب الأدلة

القديمة، مقتنعاً بأن الاختبارات الحالية من شأنها أن تضع حداً لادعائه القديم بالبراءة، ولكنه كان على حق وكنت مخطئاً.

لقد تفوقت الحقائق الثابتة على الرأي والاعتقاد كما ينبغي لها أن تفعل، وكان درساً واقعياً ولم يقلل تماماً أيّ من التبريرات التي يسهل الوصول إليها (كنت فقط أقوم بعملتي، أو كان المحلفون هم الذين أدانوه، أو لقد أيدت محكمة الاستئناف الإدانة) من الإحساس بالمسؤولية الأخلاقية - إن لم تكن القانونية - التي تصاحب إدانة رجل بري.^{٥٤}

٦. قاتل الحب: تبرير الذات في الزواج

«الحب... هو الإدراك الصعب للغاية بأن شيئاً آخر غير النفس حقيقي».

أيريس مردوخ، روائية

عندما تزوج وليام بتلر ييتس في عام ١٩١٧، كتب له والده رسالة تهنته دافئة وقال له: «أعتقد أنه سيساعدك في تطورك الشعري، فلا أحد يعرف حقاً الطبيعة البشرية للرجال وللنساء إذا لم يعيشوا في عبودية الزواج، أي الدراسة القسرية لمخلوق زميل»^١، حيث يضطر الشركاء المتزوجون إلى معرفة مزيد عن بعضهم أكثر مما توقعوا (أو ربما أرادوا) معرفته، ولا يوجد أي شخص آخر -ولا حتى أطفالنا أو آبائنا- نتعلم كثيراً عن عاداته الرائعة والمزعجة، وطرائق التعامل مع إحباطاته وأزماته، ورغباته الخاصة والعاطفية مثلما نعلم عن شركائنا، إلا أنه كما عرف جون بتلر ييتس، فإن الزواج يجبر الأزواج أيضاً على مواجهة أنفسهم، لمعرفة مزيد عن أنفسهم وكيف يتصرفون مع شريك حميم أكثر مما توقعوا (أو أرادوا) معرفته، ولا توجد علاقة أخرى تختبر

بعمق مدى استعدادنا لأن نكون مرنين ومتسامحين، وأن نتعلم ونتغير إذا استطعنا مقاومة جاذبية التبرير الذاتي.

لقد فهم بنجامين فرانكلين -صاحب نصيحة «أبق عينيك مفتوحتين على مصراعيهما قبل الزواج ونصف مغمضتين بعد ذلك»- قوة التنافر في العلاقات، إذ يبرر الأزواج أولاً قرارهم بأن يكونوا معاً ثم قرارهم بالاستمرار في البقاء معاً، وعندما تشتري منزلاً تبدأ في تقليل التنافر على الفور وتخبر أصدقاءك بالأشياء الرائعة التي تجبها فيه (منظر الأشجار، والمساحة، والنوافذ القديمة الأصلية) وتقلل في الأشياء الخاطئة به (منظر موقف السيارات، والمطبخ الضيق، والنوافذ القديمة المنفذة للتيارات الهوائية)، وفي هذه الحالة سيجعلك تبرير الذات تشعر بالسعادة تجاه منزلك الجديد الجميل، ولكن إذا أخبرك عالم جيولوجي قبل أن تقع في حبه، أن الجرف فوقك غير مستقر وقد ينهار في أي لحظة، فقد كنت سترحب بالمعلومات وستبتعد حزيناً ولكن ليس كسير القلب، ولكن بمجرد أن تقع في حب منزلك، وتنفق أكثر من إمكانياتك لشرائه حقاً، وتنتقل إليه مع قطتك غير الراغبة، فإنك تكون قد استثمرت -عاطفياً ومالياً- أكثر مما يمكنك أن تتركه بسهولة، وإذا أخبرك شخص -بعد أن تكون قد سكنت المنزل- أن الجرف فوقك غير مستقر، فإن نفس الدافع لتبرير قرارك قد يُيقّيك هناك لفترة طويلة جداً، والناس الذين يعيشون في منازل على طول الشاطئ في لاونشيتا، كاليفورنيا، في ظل المنحدرات التي عادة ما تسقط عليها في أثناء هطول الأمطار الشتوية الغزيرة، يعيشون في تنافر مستمر، وهو ما يحسمونه

بقولهم: «لن يحدث ذلك مرة أخرى»، وهو ما يسمح لهم بالبقاء حتى يحدث مرة أخرى.

لكن العلاقة مع منزل أبسط من العلاقة مع إنسان آخر، وذلك لسبب واحد هو أنها علاقة ذات اتجاه واحد فقط، فلا يمكن للمنزل أن يلومك لكونك مالكا سيئا أو لعدم إبقائه نظيفا، رغم أنه لا يمكن أن يمنحك دعاء لطيفا لظهورك بعد يوم شاق، ويعتبر الزواج أعظم قرار ثنائي الاتجاه في حياة معظم الناس، ويستثمر الأزواج بشكل كبير في إنجاحه، بكمية معتدلة من تقليل التنافر بعد الزفاف، بعينين نصف مغلقتين حيث يؤكد الشركاء الإيجابي ويتغاضون عن السلبي، مما يسمح للأشياء بالتناغم في وئام. لكن الآلية المماثلة تسمح لبعض الناس بالبقاء في زيجات تعد المعادل النفسي للاكونشيتا على شفا كارثة محدقة.

ما الذي يشترك فيه المتزوجون الجدد السعداء لحد الهذيان مع الأزواج غير السعداء الذين استمروا في العيش معًا في مراة أو تعب لسنوات عديدة؟ إنه عدم الرغبة في الاهتمام بالمعلومات المتنافرة، فكثير من المتزوجين حديثًا الذين يسعون للحصول على تأكيد بأنهم قد تزوجوا الشخص المثالي يتجاهلون أو يرفضون أي دليل قد يكون علامة تحذير من المتاعب أو الصراع في المستقبل: «إنه يتجهم ويعبس إذا تحدثت مع رجل آخر؛ كم هذا لطيف وهو يعني أنه يحبني!»، أو «إنها غير متكلفة ومرتاحة للغاية في الأمور المنزلية؛ كم هذا ساحر ويعني أنها ستجعلني أقل قهراً!!»، والأزواج التعماء الذين تحمل بعضهم لفترة طويلة قسوة بعض أو غيرتهم أو إذلالهم مشغولون أيضًا بتقليل

التنافر، ولتجنب مواجهة الاحتمال المدمر المتمثل في أنهم استثمروا كثيراً من الطاقة، وكثيراً من المناقشات في محاولة فاشلة لتحقيق حتى التعايش السلمي، فإنهم يقولون شيئاً مثل: «هذه هي حال كل الزوجات، ولا يمكن فعل أي شيء حيال ذلك على أي حال، وهناك ما يكفي من الأشياء الجيدة بخصوص هذا الأمر، ومن الأفضل أن تستمر في زواج صعب من أن تكون بمفردك».

تبرير الذات لا يهتم بما إذا كان يجني الفوائد أو يحدث الخراب، فهو يحفظ عديداً من الزوجات معاً (للافضل أو للأسوأ) ويمزق الأخرى (للافضل أو للأسوأ)، ويبدأ الأزواج بتفاؤل سعيد وعلى مر السنين سيتحرك البعض في اتجاه مزيد من التقارب والمودة، والبعض الآخر في اتجاه اتساع المسافات والعداء، ويجد بعض الأزواج في الزواج مصدراً للعزاء والفرح ومكاناً لتجديد الروح وعلاقة تسمح لهم بالازدهار كأفراد وكزوجين، ولكن بالنسبة إلى البعض الآخر يصبح الزواج مصدراً للمشاحنات والشقاق ومكاناً للركود وعلاقة تسحق فرديتهم وتبدد روابطهم، وهدفنا في هذا الفصل ليس الإيحاء بأن جميع العلاقات يمكن ويجب إنقاذها، ولكن بالأحرى إظهار كيف يساهم تبرير الذات في هاتين النتيجتين المختلفتين.

ينفصل بعض الأزواج بسبب الجهر الكارثي بالمشكلات، أو العنف المستمر الذي لم يعد بإمكان أحد الشركاء تحمله أو تجاهله، ولكن الغالبية العظمى من الأزواج الذين ينجرфон بعيداً يفعلون ذلك ببطء ومع مرور الوقت متبعين نمط كرة الثلج من اللوم وتبرير الذات، حيث

يركز كل شريك على ما يفعله الآخر بشكل خاطئ بينما يبرر تفضيلاته ومواقفه وطرائقه للقيام بالأشياء، ويجعل عناد كل جانب بدوره الجانب الآخر أكثر تصميمًا على عدم الترحيح، وقبل أن يدرك الزوجان ذلك، يكونان قد اتخذوا مواقف استقطابية حيث يشعر كل منهما بأنه على حق وصالح، وسيؤدي تبرير الذات بعد ذلك إلى تصلب قلوبهما ضد التماس المشاركة الوجدانية.

لتوضيح كيفية عمل هذه العملية، دعونا نفكر في زواج ديرا وفرانك المأخوذ من كتاب أندرو كريستنسن ونيل جاكوبسون الثاقب «الاختلافات القابلة للتوفيق»^٢، يستمتع معظم الناس بروايات نسختها/ نسخته عن الزواج (إلا عندما تكون خاصة بهم)، ويهزون أكتافهم ويستتبعون أن هناك جانبين لكل قصة، ولكننا نعتقد أن هناك ما هو أكثر من ذلك.

هذه هي رواية ديرا لمشكلاتهما الزوجية:

[فرانك] يسير الهوينى في الحياة، ويهتم دائمًا بالأعمال، وينشغل بإنجاز عمله ولكنه لا يُظهر كثيرًا من الإثارة أو الألم، ويقول إن أسلوبه يُظهر مدى استقراره العاطفي، وأنا أقول إنه يُظهر فقط أنه سلبي ويشعر بالملل، ومن نواحٍ كثيرة أنا عكس ذلك تمامًا: فرغم أنني أعاني من تقلبات الدهر، فإنني في معظم الأوقات أكون نشيطة ومتفائلة وعفوية، وبالطبع أشعر بالضيق والغضب والإحباط في بعض الأحيان، وفي هذا

يقول فرانك إن هذا النطاق من المشاعر يُظهر أنني غير ناضجة عاطفياً، وأن «عليّ أن أفعل كثيراً لأنمو»، ولكنني أعتقد أنه يُظهر فقط أنني إنسانة.

أتذكر حادثة واحدة تلخص الطريقة التي أرى بها فرانك، فقد خرجنا لتناول العشاء مع زوجين ساحرين انتقلا للتو إلى المدينة، ومع حلول المساء أصبحت أكثر وعياً بمدى روعة حياتهما، فقد بدوا في حالة حب حقيقية بعضهما مع بعض رغم أنهما تزوجا لفترة أطول منا، فمهما تحدث الرجل إلينا، فقد ظل دائماً على اتصال بزوجته: يلمسها، أو يتواصل معها بالعين، أو يُشركها في المحادثة، وكان يستخدم كلمة «نحن» كثيراً للإشارة إليهما، وجعلتني مشاهدتهما أدرك مدى ضالة تلامسنا أنا وفرانك، وأنا نادراً ما ينظر بعضنا إلى بعض، وكيف أننا نشترك بشكل منفصل في المحادثة، وعلى أي حال أعترف أنني كنت أحسد هذين الزوجين، إذ يبدو أن لديهما كل شيء: عائلة محبة، ومنزل جميل، وترفيه، ورفاهية، ويا له من تناقض بينهما وبيننا أنا وفرانك، حيث نكافح دوماً، وكلانا يعمل في وظيفة بدوام كامل في محاولة لتوفير المال، وأنا لا أمانع ذلك كثيراً إذا عملنا عليه معاً، ولكننا بعيدان جداً.

عندما وصلنا إلى المنزل بدأت في التعبير عن تلك المشاعر، وأردت إعادة تقييم حياتنا كوسيلة للتقارب، وربما لم نتمكن من أن نكون ثريين مثل هؤلاء الناس ولكن لم يكن هناك سبب يمنعنا من الحصول على التقارب والدفء الذي يتمتعون به، ولكن -كالعادة- لم يرغب فرانك

في التحدث عن ذلك، وعندما قال إنه متعب ويريد الذهاب إلى الفراش غضبت، وكانت ليلة الجمعة ومن ثم لم يكن على أيّ منا الاستيقاظ مبكرًا في اليوم التالي، إن الشيء الوحيد الذي يمنعنا من أن نكون معًا هو عناده، لقد جعلني أشعر بالجنون، وقد سئمت من الاستسلام لحاجته إلى النوم كلما طرحت قضية للمناقشة، وتساءلت لماذا لا يستطيع البقاء مستيقظًا من أجلي فقط في بعض الأحيان.

لم أدعه ينام، فعندما أطفأ الأنوار أعدتها، وعندما تدرج للذهاب إلى النوم واصلت الحديث، وعندما وضع وسادة على رأسه تحدثت بصوت أعلى، فقال لي إنني أتصرف كطفلة، فأخبرته أنه غير حساس، وتصاعدت الأمور بعدها وأصبحت قبيحة، لم يكن هناك عنف ولكن كثير من الكلمات، وأخيرًا ذهب فرانك إلى غرفة نوم الضيوف وأغلق الباب ونام، وفي صباح اليوم التالي كنا مُرهقين ومتباعدين، وقد انتقدني لكوني غير عقلانية للغاية، وهو ما كان صحيحًا على الأرجح، لأنني أكون غير عقلانية عندما أشعر باليأس، إلا أنني أعتقد أنه يستخدم هذا الاتهام كوسيلة لتبرير نفسه، إنه نوع من «إذا كنتِ غير عقلانية يمكنكني أن أتجاهل كل شكواكِ من دون أن يلومني أحد».

هذه هي رواية فرانك :

لا يبدو أن ديرا راضية أبدًا، فأنا لا أفعل ما يكفي أبدًا، ولا أعطي ما يكفي أبدًا، ولا أحبها أبدًا بما فيه الكفاية، ولا أشاركها أبدًا بما فيه الكفاية، وسمّها ما شئت فأنا لا أفعل ما يكفي لها، وفي بعض الأحيان تجعلني أعتقد أنني حقًا زوج سيئ، وبدأت أشعر كما لو أنني خذلتها

وخَيَّيت آمالها ولم أفِ بالتزاماتي كزوج محب وداعم، ولكنني بعد ذلك أعطيت نفسي جرعة من الواقع، فما الخطأ الذي فعلته؟ أنا إنسان جيد، وعادة ما يحبني الناس ويحترموني، أنا أشغل وظيفة ذات مسؤولية، وأنا لا أخونها أو أكذب عليها، وأنا لست سكيراً أو مقامرًا، وأنا جذاب إلى حد ما وعاشق حساس، وأنا حتى أجعلها تضحك كثيرًا، ومع ذلك لا أحصل منها على أوقية من التقدير، وأحصل فقط على شكاوى من أنني لا أفعل ما يكفي.

أنا لا تزعجني الأحداث مثل ديرا، التي تشبه مشاعرها لعبة قطار الموت الأفعواني في الملاهي وتكون أحيانًا لأعلى وأحيانًا لأسفل، وأنا لا أستطيع العيش بهذه الطريقة، فأسلوبي هو سرعة إبحار ثابتة لطيفة، ولكنني لا أهيئ ديرا الكونها ما هي عليه، فأنا في الأساس شخص متسامح، فالناس -بما في ذلك الأزواج- يُخلقون بأنواع مختلفة، وهم ليسوا مصمَّمين ليناسبوا احتياجاتك الخاصة، ولذلك فأنا لا أشعر بالإهانة من المضايقات، ولا أشعر أنني مضطر للحديث عن كل اختلاف أو بُغض، ولا أشعر أنه يجب استكشاف كل مجال خلاف محتمل بالتفصيل، أنا فقط أتجاهله، وعندما أُظهر هذا النوع من التسامح أتوقع من شريكتي أن تفعل الشيء نفسه لي، وعندما لا تفعل ذلك أشعر بالغضب، وعندما تنتقدني ديرا في كل تفصيلة لا تتناسب مع فكرتها عما هو صحيح، فأنا أبدي رد فعل قويًا، ويخفني هدوئي وأنفجر.

أتذكر القيادة إلى المنزل مع ديرا بعد قضاء ليلة في الخارج مع زوجين جذابين ومذهلين التقينا بهما للتو. في طريقي إلى المنزل كنت

أتساءل عن نوع الانطباع الذي تركته عليهما، فقد كنت متعباً في ذلك المساء ولم أكن في أفضل حالاتي، وأحياناً يمكنني أن أكون ذكياً ومضحكاً مع مجموعة صغيرة، ولكنني لم أكن كذلك في تلك الليلة، وربما كنت أحاول أكثر من اللازم، وفي بعض الأحيان يكون لدي معايير عالية لنفسني ولكنني أتنازل مع نفسي عندما لا أستطيع الوصول إليها.

قاطعت ديبرا تأملاتي بسؤال بدا بريئاً: «هل لاحظت مدى تناغم هذين الاثنين بعضهما مع بعض؟»، وأنا الآن أعرف ما وراء هذا النوع من الأسئلة أو على الأقل إلى أين سيقود هذا النوع من الأسئلة، إنه يقودنا دائماً إلينا وإليّ تحديداً، وفي النهاية يصبح القصد «نحن لسنا في تناغم بعضنا مع بعض»، وهو رمز لـ «أنت لست متناغماً معي». أخشى هذه المحادثات التي تجتر أخطاءنا كزوجين، لأن السؤال الحقيقي الذي لا يُذكر في المحادثات المتحضرة، ولكن يُذكر بصراحة في المحادثات غير المتحضرة، هو «ما مشكلة فرانك؟»، ولذلك تملصت من المشكلة في هذه المناسبة بالقول إنهما زوجان لطيفان.

لكن ديبرا ضغطت عليّ، وأصرت على تقييمهما مقارنة بنا، وكان لديهما المال والحميمية ولم يكن لدينا أي منهما، وربما لا يمكننا أن نكون ثريين ولكن على الأقل يمكننا أن نكون حميمين، فلماذا لا نكون حميمين؟ والمعنى: لماذا لا يمكن أن أكون حميمياً؟ وعندما عدنا إلى المنزل حاولت نزع فتيل التوتر بالقول إنني متعب واقتربت أن ناوي إلى الفراش، فقد كنت متعباً وآخر شيء كنت أريده هو إحدى هذه

المحادثات، ولكن ديبيرا كانت عنيدة وجادلت قائلة إنه لا يوجد سبب يمنعنا من السهر ومناقشة هذا الأمر، فشرعت في روتين استعادي للنوم، وأعطيتها الحد الأدنى من الردود، لأنها إذا لم تكن تحترم مشاعري فلماذا أحترم مشاعرها؟ لقد تحدثت معي بينما كنت أرتدي بيجامتي وأفرش أسناني، وهي حتى لم تتركني وحدي في الحمام، وأخيراً عندما دخلت السرير وأطفأت الضوء أعادت تشغيله، وحينما انقلبت كي أنام استمرت في الكلام، وقد تظن أنها ستفهم الرسالة عندما أضع الوسادة فوق رأسي ولكن لا، لقد شدتها بعيداً، وفي تلك اللحظة فقدت شعوري، وأخبرتها أنها طفلة مجنونة ولا أنذكر كل ما قلته، وأخيراً ذهبت إلى غرفة نوم الضيوف وأنا في حالة يأس وأغلقت الباب، كنت مستاءة لدرجة منعني من النوم على الفور، وفي الحقيقة لم أنم على الإطلاق، وفي الصباح كنت لا أزال غاضباً منها، فقلت لها إنها غير عقلانية، ولمرة واحدة لم يكن لديها كثير لتقوله.

ألم تنحز إلى أحد الجانبين بعد؟ هل تعتقد أن هذين الزوجين سيكونان على ما يرام إذا توقفت هي فحسب عن محاولة حمله على التحدث أو إذا توقف هو فحسب عن الاختباء تحت الوسادة، بالمعنى الحرفي والمجازي؟ وما مشكلتهما الرئيسية؟ أهي أنهما غير متوافقين مزاجياً، أم أن أحدهما لا يفهم الآخر، أم أنهما غاضبان؟

كل الأزواج لديهم اختلافات، وحتى التوائم المتطابقة لديها اختلافات، وبالنسبة إلى فرانك وديبرا فمثل معظم الأزواج، كانت الاختلافات هي بالضبط سبب وقوعهما في الحب، فقد كان يعتقد

أنها رائعة لأنها اجتماعية ومنفتحة وهي ترياق مثالي لتحفظه، أما هي فقد انجذبت إلى هدوئه وصعوبة استثارته في العواصف، إلا أن جميع الأزواج لديهم صراعات أيضًا، مهيجات صغيرة قد تكون مسلية للمراقبين ولكنها تستحق الحرب للمشاركين. هي تريد غسل الأطباق المتسخة على الفور، وهو يتركها تتراكم حتى ينظفها مرة واحدة فقط في اليوم أو الأسبوع، أو خلافات أكبر حول المال أو الجنس أو الأصهار أو أي من القضايا الأخرى التي تعد ولا تحصى، والاختلافات لا ينبغي أن تسبب تصدعات، ولكن بمجرد حدوث تصدع يفسره الزوجان على أنه نتيجة حتمية لخلافاتهما.

إضافة إلى ذلك فإن فرانك وديبرا يفهمان وضعهما بالفعل، فهما يتفقان على كل ما حدث ليلة انفجارهما الكبير: ما الذي أطلقه، وكيف تصرف كلاهما، وما يريده كل منهما من الآخر، كما يتفقان على أن مقارنة نفسيهما بالزوجين الجديدين جعلهما يشعران بالتعاسة والنقد الذاتي، ويتفقان على أنها أكثر تقلبًا وهو أكثر هدوءًا، وهذه شكوى جنسانية شائعة مثل عشبة الدمسيسة في الصيف، وهما واضحان بشأن ما يريدانه من العلاقة وما يشعران أنهما لا يحصلان عليه، وهما حتى جيدان جدًا -وربما أفضل من معظم الأزواج- في فهم وجهة نظر الشخص الآخر.

ولا يتدهور هذا الزواج لأن فرانك وديبرا يغضبان من بعضهما، فالأزواج الناجحون لديهم صراعات ويغضبون تمامًا كما يفعل الأزواج غير السعداء، ولكن الأزواج السعداء يعرفون كيف يديرون صراعاتهم،

وإذا كانت هناك مشكلة تزعمهم فإنهم يتحدثون عن هذه المشكلة ويصلحونها، أو يتركونها، أو يتعلمون التعايش معها^٣، ويتمزق شمل الأزواج غير السعداء أكثر بسبب المواجهات الغاضبة، وعندما يدخل فرانك ودييرا في شجار، فإنهما يتراجعان إلى مواقفهما المألوفة ويحضن بعضهما بعضًا، ويتوقف أحدهما عن الاستماع إلى الآخر، وإذا استمعا فإنهما لا يصغيان، وموقفهما هو: «نعم، نعم، أعرف كيف تشعر حيال هذا، ولكنني لن أغير لأنني على حق».

لإظهار ما نعتقد أنه المشكلة الأساسية لفرانك ودييرا، دعنا نعيد كتابة قصة رحلتهم إلى بيتهم. لنفترض أن فرانك توقع مخاوف دييرا ودواعي قلقها - وهو ما يعرفه جيدًا الآن - وأعرب عن إعجابه الصادق بقدرتها على التواصل مع الآخرين وسهولة التعامل معهم، ولنفترض أنه توقع أنها ستقارن زواجهما بشكل سلبي بعلاقة الزوجين الجذابة، فقال شيئًا مثل: «أتعلمين؟ لقد أدركت الليلة أنه على الرغم من أننا لا نعيش في الرفاهية التي يعيشانها، فإنني محظوظ جدًا لوجودك في حياتي»، ولنفترض أن فرانك اعترف صراحة لدييرا أن وجوده مع هذين الزوجين الجديدين جعله يشعر «بالإحباط» بشأن مشاركته في ذلك المساء، وهو ما كان سيثير قلقها وتعاطفها، ومن ناحيتها لنفترض أن دييرا قد أوقفت اجترار شفقتها على نفسها واهتمت بمزاج زوجها المتدني قائلةً شيئًا مثل: «عزيزي، لا يبدو أنك كنت بكامل هيئتك الليلة، هل تشعر أنك على ما يرام؟ هل حدث شيء لم تحبه بشأن هذين الزوجين؟ أم أنك تعبت للتو؟»، ولنفترض أنها أيضًا كانت صادقة في التعبير عما لا تحبه

في نفسها، مثل حسدها للزوجين بسبب ثرائهما، بدلاً من التعبير عما لا تحبه في فرانك، ولنفترض أنها وجَّهت انتباهها إلى الصفات التي تحبها في فرانك. حسنًا، حينما أفكر في الأمر أعتقد أنه محق في كونه «عاشقًا حساسًا».

لذلك فمن وجهة نظرنا، أن سوء الفهم والصراعات والاختلافات الشخصية وحتى المشاجرات الغاضبة لا تغتال الحب، ولكن تبرير الذات يفعل هذا، فقد كان من الممكن أن تنتهي أمسية فرانك وديبرا مع الزوجين الجديدين بشكل مختلف تمامًا لو لم يكن كلاهما مشغولاً جداً بتدوير تبريراتهما للذات وإلقاء اللوم على الآخر، وإذا كانا قد فكرا في مشاعر الطرف الآخر أولاً، فكل واحد منهما يفهم وجهة نظر الآخر، ولكن الحاجة إلى تبرير الذات تمنعهما من قبول موقف الطرف الآخر كموقف مشروع، ويحفز تبرير الذات كل واحد منهما على رؤية طريقته الخاصة باعتبارها الطريقة الأفضل، بل والطريقة الوحيدة المعقولة.

نحن لا نشير هنا إلى التنوعات المختلفة من تبرير الذات التي نميل جميعاً إلى استخدامها عندما نخطئ أو نختلف بشأن أمور تافهة نسبياً، مثل من ترك غطاء زجاجة صلصة السلطة أو نسي دفع فاتورة المياه أو من ذاكرته عن مشهد مفضل في فيلم قديم صحيحة، ففي هذه الظروف يحمينا تبرير الذات للحظات من الشعور بالحماسة أو عدم الكفاءة أو النسيان، ولكن النوع الذي يمكن أن يؤدي إلى تآكل الزواج يعكس جهداً أكثر جدية ليس لحماية ما فعلناه ولكن لحماية من نحن ويأتي في نسختين: «أنا على صواب وأنت مخطئ» و«حتى لو كنت مخطئاً

فأنا آسف ولكن أنا هكذا»، وفرانك وديرا في ورطة لأنهما بدأ في تبرير مفاهيمهما الذاتية الأساسية، والصفات المتعلقة بنفسيهما التي يقدرانها ولا يرغبان في تغييرها أو التي يعتقدان أنها متأصلة في طبيعتهما، وهما لا يقولان لبعضهما: «أنا على حق وأنت مخطئ بشأن تلك الذكرى»، ولكنهما يقولان: «أنا من النوع الصواب من الأشخاص وأنت من النوع الخطأ من الأشخاص، ولهذا لا يمكنك تقدير فضائلي، لدرجة أنك حتى تعتقد -بحماسة- أن بعض فضائلي هي عيوب».

وهكذا، يبرر فرانك نفسه من خلال رؤية أفعاله على أنها أفعال زوج جيد ومخلص وثابت -لأن هذه هي طبيعته- ولذا فهو يعتقد أن زواجهما سيكون على ما يرام إذا توقفت ديبرا عن مضايقته للتحدث، وإذا كانت ستغفر عيوبه كما يغفر هو عيوبها، ولا حظ لغته حينما يتساءل: «ما الخطأ الذي فعلته؟ أنا إنسان صالح»، ويبرر فرانك عدم رغبته في مناقشة الموضوعات الصعبة أو المؤلمة باسم «تسامحه» وقدرته على «تقبل الأمور»، ومن جانبها تعتقد ديبرا أن تعبيرها العاطفي «يظهر فقط أنني إنسانة» -وهذه هي طبيعتها- وأن زواجهما سيكون على ما يرام إذا لم يكن فرانك «سلبياً ويشعر بالملل»، وقد أصابت ديبرا عندما لاحظت أن فرانك يبرر تجاهل مطالبها بالتواصل من خلال إرجاع ذلك إلى طبيعتها غير العقلانية، ولكنها لا ترى أنها تفعل الشيء نفسه وأنها تبرر تجاهل رغبته في عدم التحدث من خلال إرجاع ذلك إلى طبيعته العنيدة.

كل زواج قصة، ومثل كل القصص فإنه يخضع لتصورات وذكريات المشاركين المشوهة التي تحافظ على السرد كما يراه كل طرف،

وفرانك ودييرا في نقطة قرار حاسمة بشأن هرم زواجهما والخطوات التي يتخذانها لحل التنافر بين «أنا أحب هذا الشخص» و«هذا الشخص يفعل بعض الأشياء التي تقودني إلى الجنون»، والتي ستعزز قصة حبهما أو تدمرها، وسيتعين على كل منهما أن يقرر كيفية الإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسية حول تلك الأشياء المجنونة التي يفعلها شريكه: هل هي بسبب عيب في الشخصية غير قابل للتغيير؟ هل يمكنني العيش مع هذه العيوب؟ هل هي أسباب للطلاق؟ هل يمكننا إيجاد حل وسط؟ هل يمكنني أن أتعلم شيئاً من شريكي رغم استحالة التفكير في ذلك، وربما أحسن من طريقتي الخاصة في فعل الأشياء؟ وسيتعين عليهما أن يقررا كيفية التفكير في طريقتهما الخاصة في القيام بالأشياء، وبالنظر إلى الكيفية التي عاشا بها مع نفسيهما طوال حياتهما، فإن «طريقتهما الخاصة» تبدو طبيعية ولا مفر منها، وتبرير الذات يمنع كل شريك من السؤال: هل يمكن أن أكون مخطئاً؟ هل يمكن أن أرتكب خطأ؟ هل يمكنني التغيير؟

مع تراكم مشكلات دييرا وفرانك، طوّر كل منهما نظرية ضمنية حول الطريقة التي يدمر بها الشخص الآخر الزواج، (تسمى هذه النظريات «ضمنية» لأن الناس غالباً ما يكونون غير مدركين أنهم يعتقدونها)، ونظرية ديبيراس الضمنية هي أن فرانك غير بارع اجتماعياً وسلبى، أما نظريته فهي أن دييرا غير آمنة ولا يمكنها قبول نفسها كما هي أو قبوله كما هو، والمشكلة هي أنه بمجرد أن يطوّر الناس نظرية ضمنية، يبدأ التحيز التأكيدي ويتوقفون عن رؤية الأدلة التي لا تناسب النظرية،

وكما لاحظ معالج فرانك وديبرا، فإن ديبرا تتجاهل الآن أو تقلل من شأن جميع الأوقات التي لم يكن فيها فرانك غير بارع اجتماعيًا وسليبيًا معها أو مع الآخرين؛ أي الأوقات التي كان فيها مضحكًا وساحرًا، والمرات العديدة التي بذل فيها قصارى جهده ليكون مفيدًا، ويتجاهل فرانك من ناحيته الآن أو يقلل من شأن الأدلة على الأمن النفسي لديبرا، مثل إصرارها وقدرتها على مواجهة خيبة الأمل، وكما لاحظ المعالج: «يعتقد كل منهما أن الآخر على خطأ»، وبالتالي يتذكران بشكل انتقائي أجزاء من حياتهما مع التركيز على تلك الأجزاء التي تدعم وجهات نظرهما الخاصة»^٤.

ترد نظريتنا الضمنية عن أسباب تصرفنا نحن والآخرين بالطريقة التي نتصرف بها في واحدة من نسختين. يمكننا أن نقول إن السبب في ذلك هو شيء ما في الموقف أو البيئة: «صرافة البنك خاطبتني من دون اهتمام لأنها أجهدت نفسها بالعمل اليوم؛ ولا يوجد عدد كافٍ من الصرافين للتعامل مع كل هذه الطوابير»، أو يمكننا أن نقول إن السبب في ذلك هو وجود خطأ ما في الشخص: «صرافة البنك خاطبتني من دون اهتمام لأنها وقحة بوضوح»، أما عندما نفسر سلوكنا فإن تبرير الذات يسمح لنا بتملق أنفسنا: فنحن نمُنح أنفسنا الفضل في أفعالنا الجيدة ولكن ندع الموقف يعفينا من الأفعال السيئة، وعندما نفعل شيئًا يؤذي شخصًا آخر، فنادرًا ما نقول: «لقد تصرفت بهذه الطريقة لأنني إنسان قاسٍ ومتحجر القلب»، ولكن نقول: «لقد استُفْزِزت وأي شخص آخر كان سيفعل ما فعلته»، أو «لم يكن لدي خيار»، أو «نعم، لقد قلت بعض

الأشياء الفظيعة، ولكن هذا لم يكن أنا لأنني كنت في حالة سُكر»، إلا أننا عندما نفعل شيئاً كريماً أو مفيداً أو شجاعاً، لا نقول إننا فعلناه لأننا استُفْزِنا أو لأننا ثملنا أو لأنه لم يكن لدينا خيار آخر أو لأن الرجل على الهاتف دفعنا إلى التبرع للأعمال الخيرية، فقد فعلنا ذلك لأننا كرماء ومنفتحون.

يمنح بعض الشركاء الناجحين لبعضهم نفس طرائق الغفران للنفس التي نمنحها لأنفسنا: فهم يغفرون أخطاء بعضهم باعتبارها ناتجة عن الموقف ولكنهم يمنحون لبعضهم الفضل في الأشياء المدروسة والمحبة التي يفعلونها، وإذا فعل أحد الشريكين شيئاً طائشاً أو كان نكيد المزاج، يميل الآخر إلى شطبه باعتباره نتيجة لأحداث ليس للشريك يد فيها: «إنه مسكين وواقع تحت ضغط كبير»؛ «أستطيع أن أفهم لماذا خاطبتني من دون اهتمام فهي تعيش مع آلام الظهر منذ أيام»، ولكن إذا فعل المرء شيئاً لطيفاً بشكل خاص فإن الطرف الآخر ينسب الفضل إلى الطبيعة الطيبة المتأصلة للشريك وشخصيته الحلوة: «لقد جلب لي حبيبي الزهور من دون سبب على الإطلاق»، وقد تقول الزوجة «إنه أعز رجل».

في حين أن الشركاء السعداء يمنحون بعضهم فائدة الشك، فإن الشركاء غير السعداء يفعلون العكس تماماً، فإذا فعل الشريك شيئاً لطيفاً يفسر ذلك بأنه بسبب صدفة مؤقتة أو مطالب ظرفية: «نعم، لقد أحضر لي الزهور ولكن ذلك فقط لأن جميع الرجال الآخرين في مكتبه كانوا يشترون الزهور لزوجاتهم»، وإذا فعل الشريك شيئاً طائشاً أو

مزعجًا، فذلك بسبب عيوب في شخصية الشريك: «لقد خاطبتي من دون اهتمام لأنها عاهرة»، ولا يقول فرانك إن ديبرا فعلت شيئًا مجنونًا، وتبعته في جميع أنحاء المنزل مطالبة إياه بالتحدث معها، ولم يقل إنها تصرفت بهذه الطريقة لأنها كانت تشعر بالإحباط لأنه لم يتحدث معها، ولكنه يقول إنها شخص مجنون، ولا تقول ديبرا إن فرانك تجنب التحدث بعد حفل العشاء لأنه كان مرهقًا ولم يرغب في أن تكون المواجهة آخر شيء يفعله في الليل، ولكنها تقول إنه شخص سلبى.

للنظريات الضمنية عواقب وخيمة لأنها تؤثر -من بين أمور أخرى- على كيفية مجادلة الأزواج وحتى على الغرض ذاته من الجدل، فإذا كان الزوجان يتجادلان من منطلق أن كلا منهما شخص جيد ارتكب شيئًا خاطئًا ولكنه قابل للإصلاح، أو فعل شيئًا فادحًا بسبب ضغوط الموقف اللحظية، فهناك أمل في التصحيح والوصول إلى حل وسط، ولكن -مرة أخرى- يعكس الأزواج غير السعداء هذه الفرضية، لأن كل شريك خبير في تبرير الذات، لذا يلقي كل منهما باللوم على عدم رغبة الطرف الآخر في التغيير بسبب عيوب في شخصيته، ولكنه يبرر عدم رغبته أو رغبتها في التغيير باعتبارها فضائل شخصية، وإذا كانوا لا يريدون الاعتراف بأنهم على خطأ أو أن يعدلوا عادة تزجج شريكهم أو تضايقهم، فإنهم يقولون: «لا يمكنني أن أفعل شيئًا حيال ذلك، فمن الطبيعي أن ترفع صوتك عندما تكون غاضبًا، وهذا ما أنا عليه الآن»، ويمكنك سماع تبرير الذات في هذه الكلمات لأنهم بالطبع يستطيعون أن يفعلوا شيئًا حيال ذلك، وهو يفعلون ذلك في كل مرة لا يرفعون فيها

أصواتهم مع ضابط شرطة، أو صاحب العمل، أو شخص يزن ٣٠٠ رطل (١٣٥ كجم) يزعجهم في الشارع.

إن الصائح الذي يحتج قائلاً: «هذا هو ما أنا عليه!»، يندر -مع ذلك- أن يميل إلى تمديد نفس مبرر التسامح مع الشريك، بل على العكس من ذلك يحتمل أن يحوله إلى إهانة مزعجة: «هكذا أنت تمامًا مثل والدتك»، وبشكل عام لا تشير الملاحظة إلى مهارات الخبز الرائعة لدى والدتك أو موهبتها في رقص التانجو، ولكنها تعني أنك مثل والدتك وراثيًا ولا يمكن إصلاحك؛ ولا يوجد شيء يمكنك القيام به حيال ذلك، وعندما يشعر الناس أنهم لا يستطيعون فعل أي شيء حيال ذلك فإنهم يشعرون بالظلم، كما لو كانوا يتعرضون للانتقاد لكونهم أقصر من اللازم أو لكونهم منمشين للغاية، وقد وجدت عالمة النفس الاجتماعي جون تانجني أن تعرضك للنقد بسبب هويتك وليس لما فعلته يثير شعورًا عميقًا بالخزي والعجز، ويجعل الشخص يريد أن يختبئ ويختفي^٦، ولأن الشخص المفضوح ليس لديه مكان يذهب إليه للهروب من الشعور بالمقفر بالإذلال، فقد وجدت جون تانجني أن الأزواج المفضوحين يميلون إلى الرد بغضب: «أنت تجعلني أشعر أنني فعلت شيئًا فظيئًا لأنني مستهجنة وغير كفؤة، وبما أنني لا أعتقد أنني مستهجنة وغير كفؤة، يجب أن تكون أنت مستهجنة إذا كنت تهينني بهذه الطريقة».

بحلول الوقت الذي يتصاعد فيه أسلوب الجدل بين الزوجين إلى إلحاق العار وإلقاء اللوم بعضهما على بعض، يتحول الغرض الأساسي

من مشاجراتهما، فهو لم يعد جهداً لحل مشكلة أو حتى لجعل الشخص الآخر يعدل سلوكه، ولكنه يصبح فقط للإيلام والإهانة والجرح، وهذا هو السبب في أن العار يؤدي إلى جهود شرسة ومتجددة لتبرير الذات، ورفض التسوية، والمشاعر الأكثر تدميراً التي يمكن أن تثيرها العلاقة وهي الازدراء، وقد وجدت عالمة النفس جولي جوتمان في دراستها الرائدة لأكثر من سبعمائة من الأزواج الذين تابعتهم على مدى سنوات أن الازدراء -النقد الممزوج بالسخرية والتنازع بالألقاب والتهكم- هو إحدى أقوى العلامات على أن العلاقة في حالة سقوط حر^٧، وقدمت جولي جوتمان هذا المثال:

فريد: هل التقطت ملابسني من التنظيف الجاف؟

إنجريد (بسخرية): «هل التقطت ملابسني من التنظيف الجاف؟».

التقطت ملابسك من التنظيف الجاف، ماذا تظني؟ خادمك؟

فريد: من غير المحتمل، فلو كنت خادمة على الأقل كنت ستعرفين

كيفية تنظيف الملابس.

هذه التبادلات المهينة تدمر العلاقة لأنها تدمر الشيء الوحيد الذي يهدف تبرير الذات إلى حمايته، وهو شعورنا بقيمة ذاتنا وبأننا محبوبون وبأننا أشخاص صالحون ومحترمون، ومن ثم فالازدراء هو مجاهرة أخيرة للشريك «أنا لا أقدرك حق قدرك»، ونحن نعتقد أن الازدراء هو منبئ بالطلاق ليس لأنه يتسبب في الرغبة في الانفصال ولكن لأنه يعكس مشاعر الانفصال النفسي بين الزوجين، ويظهر الازدراء فقط بعد سنوات من المشاحنات والمشاجرات التي تستمر في الحدوث -كما

هي الحال بالنسبة إلى فرانك وديبرا- في محاولة أخرى فاشلة لجعل الشخص الآخر يتصرف بشكل مختلف، وهو مؤشر على أن الشريك قد أقر بالهزيمة، معتقداً أنه «لا جدوى من الأمل في أن تتغيري أبداً، فأنت فقط مثل والدتك في نهاية الأمر»، ويعكس الغضب احتراق الأمل بإمكانية تصحيح المشكلة، ويترك رماد الاستياء والازدراء، فالازدراء هو خادم فقدان الأمل.

أيهما يحدث أولاً؟ تعاسة الزوجين مع بعضهما أم طريقتهما السلبية في التفكير في بعضهما؟ هل أنا غير راضٍ عنك بسبب عيوب شخصيتك، أم أن اعتقادي بأن لديك عيوباً في الشخصية (بدلاً من خصوصياتك التي يمكن التسامح معها أو الضغوط الخارجية) هو الذي يجعلني في النهاية غير سعيد معك؟ من الواضح أن الأمر يعمل في كلا الاتجاهين، ولكن نظراً لأن معظم الشركاء الجدد لا يبدأون حياتهم بمزاج من الشكوى واللوم، فقد تمكن علماء النفس من متابعة الأزواج بمرور الوقت لمعرفة ما الذي يضع بعضهم -ولكن ليس الآخرين- في دوامة هبوطية، وقد عرفوا أن الطرائق السلبية للتفكير واللوم عادة ما تأتي أولاً ولا علاقة لها بتكرار غضب الزوجين أو مشاعر الاكتئاب لدى الطرفين^٨، ويفكر بعض الشركاء السعداء وغير السعداء ببساطة بشكل مختلف في سلوك بعض، حتى عندما يستجيبون لمواقف وأفعال متطابقة.

لذا فإننا نعتقد أن تبرير الذات هو المتهم الرئيسي في قتل الزواج، إذ يحل كل شريك التنافر الناجم عن النزاعات والتهيج من خلال

شرح سلوك الزوج بطريقة معينة، وهذا التفسير -بدوره- يضعهم على الطريق الهابط أسفل الهرم، وأولئك الذين يسلكون طريق العار واللوم سيبدأون في النهاية في إعادة كتابة قصة زواجهم، وبينما يفعلون ذلك، فإنهم يسعون إلى الحصول على مزيد من الأدلة لتبرير وجهات نظرهم المتشائمة أو الاحتقارية المتزايدة تجاه بعضهم بعضاً، ويتحولون من تقليل الجوانب السلبية للزواج إلى المبالغة في تأكيدها، والبحث عن أي جزء من الأدلة الداعمة لتناسب قصتهم الجديدة، ومع تبلور القصة الجديدة، ومع تدريب الزوج والزوجة عليها على انفراد أو مع أصدقاء متعاطفين، يصبح بعض الشركاء عميماً عن الصفات الجيدة لبعض، وهي تلك التي كانت سبباً في وقوعهم في الحب في البداية.

وجدت جولي جوتمان أن نقطة التحول التي يبدأ عندها الزوجان في إعادة كتابة قصة حبهما هي عندما تنخفض «النسبة السحرية» إلى أقل من خمسة إلى واحد، إذ يتمتع الأزواج الناجحون بنسبة خمسة أضعاف التفاعلات الإيجابية (مثل تعبيرات الحب والمودة والدعابة) إلى السلبية (مثل التعبير عن الانزعاج والشكاوى)، ولا يهم إذا كان الزوجان متقلبين عاطفياً، أو يتشاجران ١١ مرة في اليوم، أو هادئين عاطفياً ويتشاجران مرة كل عشر سنوات، فالمهم هو النسبة، وقد وجدت جولي جوتمان أن «الأزواج المتقلبين قد يصيحون ويصرخون كثيراً، ولكنهم يقضون خمسة أضعاف هذا الوقت خلال زواجهما في الحب والتصالح، والأزواج الأكثر هدوءاً وإحجاماً قد لا يُظهرون قدراً كبيراً من العاطفة مثل الأنواع الأخرى، ولكنهم يُظهرون قدراً

أقل من النقد والاحتقار أيضًا وتظل النسبة ٥ إلى ١٩»، وعندما تكون النسبة خمسة إلى واحد أو أفضل، يتم بشكل عام تقليل أي تنافر ينشأ في اتجاه إيجابي، وقد ذكرت عالمة النفس الاجتماعية أيلالا باينز - في دراسة عن الإرهاق في الزواج - كيف أن امرأة متزوجة سعيدة أطلقت عليها اسم إلين قللت من التنافر الناجم عن فشل زوجها في إعطائها هدية عيد ميلاد، إذ قالت لها إلين: «كنت أتمنى لو أنه أعطاني شيئًا - أي شيء - وقد أخبرته بذلك، كما أخبرته بكل أفكاره ومشاعري، وبينما كنت أفعل ذلك كنت أقول لنفسه كم هو رائع أنه يمكنني التعبير علانية عن كل مشاعري حتى المشاعر السلبية... تلك المشاعر المتبقية والتي أصبحت في خبر كان»^{١٠}.

عندما تتحول نسبة المشاعر الإيجابية إلى السلبية نحو تلك المشاعر السلبية، فإن الأزواج يحلون التنافر الناجم عن نفس الأحداث بطريقة تزيد من اغتراب بعضهم عن بعض، وقد ذكرت أيلالا باينز كيف كان رد فعل امرأة متزوجة تعيسة تُدعى دونا على نفس المشكلة التي أزعجت إلين، وهي عدم حصولها على هدية عيد ميلاد من زوجها، ولكن في حين قررت إلين تقبل أن زوجها لن يصبح أبدًا بيل جيتس للعطاء العائلي، فإن دونا فسرت سلوك زوجها بشكل مختلف تمامًا: أحد الأشياء التي عززت قرارها بالطلاق كانت عيد ميلادي، وهو يوم رمزي بالنسبة إليّ، وكنت قد تلقيت مكالمات هاتفية في الساعة السادسة صباحًا من أوروبا من أحد أبناء عمومتي ليطمنني لي عيد ميلاد سعيدًا، وها هو شخص على بُعد أميال عديدة يتحمل المتاعب، بينما زوجي

كان يجلس بجواري يستمع ولم يتمنّ لي عيد ميلاد سعيداً... وأدركت فجأة أنه يوجد كل هؤلاء الناس الذين يحبونني، ويوجد أيضاً شخص لا يقدرني حق قدري، إنه لا يقدرني ولا يحبني، وإذا كان يقدرني ويحبني فلم يكن ليعاملني بالطريقة التي عاملني بها، بل كان سيود أن يفعل شيئاً مميزاً لي.

من الممكن أن يكون زوج دونا لا يحبها ويقدرها بكل معنى الكلمة، فليس لدينا جانبه من القصة حول هدية عيد الميلاد، فربما يكون قد حاول تقديم الهدايا لها لسنوات لكنها لم تحب أيّاً منها، ولكن من المفترض -على الرغم من ذلك- أن معظم الناس لا يقررون الطلاق لأنهم لم يحصلوا على هدية عيد ميلاد، ولأن دونا قررت أن سلوك زوجها ليس فقط غير قابل للتعديل ولكنه لا يطاق، فإنها الآن تفسر كل ما يفعله كدليل لا لبس فيه على أنه «لا يقدرني ولا يحبني»، وفي الواقع فإن دونا أخذت التحيز التأكيدي إلى أبعد مما يفعله معظم الأزواج، وقد أخبرت أياً لا باينز أنه عندما كان زوجها يجعلها تشعر بالاكئاب والضيق فإنها كانت تكتب ذلك في «كتاب الكراهية»، وقد أعطاه كتابها للكراهية كل الأدلة التي تحتاج إليها لتبرير قرارها بالطلاق.

عندما يصل الزوجان إلى هذه النقطة المنخفضة بيد أن في مراجعة ذكرياتهما أيضاً، ويصبح الحافز لكلا الجانبين ليس التخلص من الأشياء السلبية «التي أصبحت في خبر كان»، ولكن تشجيعها على الظهور للسطح، وتبدأ تشوهات الأحداث الماضية -أو فقدان الذاكرة الكامل- في تأكيد شكوك الزوجين في أن كلا منهما تزوج بشخص غريب تماماً،

وليس شخصاً جذاباً بشكل خاص، وقد عملت عالمة النفس الإكلينيكي جولي جوتمان مع زوجين غاضبين في أثناء علاجهما، وعندما سألتهما: «كيف التقيتما؟»، قالت الزوجة بازدراء: «في المدرسة حيث اعتقدت خطأ أنه ذكي»^{١١}، وفي هذا التشويه للذاكرة فإنها تعلن أنها لم تخطئ في اختياره، ولكنه هو من ارتكب الخطأ عندما خدعها بخصوص ذكائه.

لاحظت جولي جوتمان «أنه لا يوجد شيء يتنبأ بمستقبل الزواج بشكل دقيق مثل كيف يعيد الزوجان سرد ماضيهما»^{١٢}، وتبدأ إعادة كتابة التاريخ حتى قبل أن يدرك الزوجان أن الزواج في خطر، وقد أجرت جولي جوتمان وفريقها مقابلات متعمقة مع ستة وخمسين زوجاً وتمكنوا من المتابعة مع سبعة وأربعين منهم بعد ثلاث سنوات، وفي وقت المقابلة الأولى لم يكن أيٌّ من الأزواج يخطط للانفصال، إلا أن الباحثين تمكنوا من التنبؤ بدقة مائة بالمائة بالنسبة إلى الأزواج السبعة الذين طُلقوا، (من بين الأزواج الأربعين المتبقين توقع الباحثون أن سبعة وثلاثين منهم سيستمررون معاً وهو ما زال معدل دقة مذهلاً)، وخلال المقابلة الأولى بدأ هؤلاء الأزواج السبعة بالفعل في إعادة صياغة تاريخهم وتقديم قصة يائسة مع تأكيد التفاصيل المناسبة، وإخبار جولي جوتمان أنهم تزوجوا ليس لأنهم كانوا في حالة حب ولم يتمكنوا من تحمل بُعد بعضهم عن بعض ولكن لأن الزواج بدا «الخطوة التالية الطبيعية»، وكانت السنة الأولى - كما يتذكرها الأزواج المطلقون الآن - مليئة بالخذلان وخيبات الأمل، وقال أحد الأزواج الموشكين على الطلاق: «لقد سارت كثير من الأشياء بشكل خاطئ لكنني لا أتذكر ما كانت عليه»، ولكن الأزواج

السعداء أطلقوا على نفس الصعوبات «النقاط الصعبة» ورأوها بفخر كتحديات نجوا منها بروح الدعابة والمودة.

بفضل القوة التحريفية للذاكرة لتبرير قراراتنا، فإنه بحلول الوقت الذي يحدث فيه طلاق عديد من الأزواج لا يمكنهم تذكر سبب زواجهم، ويبدو الأمر كما لو أنهم خضعوا لعملية جراحة فصيّة غير جراحية استُخرجت فيها الذكريات السعيدة لكيفية شعور كل منهما تجاه الآخر، ولقد سمعنا مرارًا وتكرارًا الناس يقولون: «كنت أعرف في الأسبوع التالي للزفاف أنني ارتكبت خطأ فادحًا، ولكن لماذا أنجبت ثلاثة أطفال وبقينا معًا لمدة سبعة وعشرين عامًا؟ أو، لا أعرف. لقد شعرت بأنني ملزم على ما أعتقد»، ومن الواضح أن بعض الناس يتخذون قرار الانفصال نتيجة لوزن واضح للفوائد والمشكلات الحالية، ولكن بالنسبة إلى معظم الناس فهو قرار حافلٌ بالتحريفية التاريخية وبالحد من التنافر، ولكن كيف نعرف؟ لأنه حتى عندما تظل المشكلات كما هي تتغير المبررات بمجرد أن يقرر أحد الطرفين أو كلاهما الهجر، وما دام أن الأزواج يختارون البقاء في علاقة بعيدة عن مثلهم الأعلى فإنهم يقللون من التنافر بطرائق تدعم قرارهم: «إنه ليس بهذا السوء حقًا»، أو «معظم الزيجات أسوأ من زيجتي أو بالتأكيد ليست أفضل»، أو «لقد نسي عيد ميلادي ولكنه يفعل عديدًا من الأشياء الأخرى التي تُظهر لي أنه يحبني»، أو «لدينا مشكلات ولكنني بشكل عام أحبها»، ولكن عندما يبدأ أحد الشريكين أو كلاهما في التفكير في الطلاق، فإن جهودهما للحد من التنافر ستبرر الآن قرار الفراق: «هذا الزواج سيئ حقًا»، أو

«معظم الزيجات أفضل من زيجتي»، أو «لقد نسي عيد ميلادي وهذا يعني أنه لا يحبني»، والملاحظة القاسية التي قالها عديد من الأزواج المُفَارِقِينَ بعد عشرين أو ثلاثين عامًا هي: «لم أحبك قط»، وتتناسب قسوة تلك الكذبة الأخيرة مع حاجة الراوي إلى تبرير سلوكه، فالأزواج الذين يهجرّون الزواج لأسباب خارجية واضحة - كأن يكون الشريك مثلاً مسيئاً جسدياً أو عاطفياً - لن يشعروا بالحاجة إلى تبرير إضافي للذات، ولن يفعل ذلك الأزواج النادرون الذين ينفصلون في صداقة كاملة أو الذين يستعيدون في النهاية مشاعر الصداقة الدافئة بعد الألم الأوّلي للانفصال، فهم لا يشعرون بالحاجة الملحة إلى تشويه سمعة شريكهم السابق أو نسيان الأوقات الأكثر سعادة لأنهم قادرون على القول «لم ينجح الأمر»، أو «لقد تفرقت بنا السبل فحسب»، أو «كنا صغاراً جدّاً عندما تزوجنا ولم نكن نعرف أفضل»، ولكن عندما يكون الطلاق موجعاً وجسيمًا ومكلفًا - خاصة عندما يريد أحد الشريكين الانفصال والآخر لا يريد الانفصال - سيُشعر كلا الجانبين بمزيج من المشاعر المؤلمة، فبالإضافة إلى الغضب والكرب والأذى والحزن الذي يصاحب الطلاق تقريباً دائماً، سيُشعر هؤلاء الأزواج أيضاً بألم التنافر، وهذا التنافر - والطريقة التي يختار بها عديد من الناس حله - هو أحد الأسباب الرئيسية للانتقام بعد الطلاق.

إذا كنت أنت الشخص الذي يتعرض للهجر فقد تعاني من تنافر سحق الأنا المتمثل في «أنا شخص جيد وكنت شريكاً رائعاً»، و«شريكي يهجرني، فكيف يمكن أن يحدث هذا؟»، ويمكنك أن تستنتج أنك

لست شخصًا جيدًا كما كنت تعتقد أو أنك شخص جيد ولكنك كنت شريكًا سيئًا، إلا أن قليلًا منا يختار تقليل التنافر عن طريق غرس السهام في اعتدادنا بالنفس، فمن الأسهل بكثير تقليل التنافر عن طريق غرس السهام في الشريك -إذا جاز التعبير- من خلال استنتاج أن شريكك شخص صعب وأناني، وأنت لم تدرك ذلك تمامًا حتى الآن.

إذا كنت الشخص الذي يهجر فلديك أيضًا تنافر يجب تقليله لتبرير الألم الذي تسببه لشخص أحبيته ذات يوم، ولأنك شخص جيد والشخص الجيد لا يؤدي شخصًا آخر، فيجب أن يكون شريكك قد استحق نبذك، وربما أكثر مما تدرك، وغالبًا ما يشعر مراقبو الأزواج المطلقين بالحيرة مما يبدو وكأنه انتقام غير معقول من جانب الشخص الذي بدأ الانفصال، وما يلاحظونه هو الحد من التنافر في أثناء القتال، وقد قالت صديقة لنا وهي تأسف لطلاق ابنها: «أنا لا أفهم زوجة ابني، فقد تركت ابني من أجل رجل آخر يعشقها، ولكنها لن تتزوجه أو تعمل بدوام كامل، وذلك فقط حتى يضطر ابني إلى الاستمرار في دفع نفقتها، وقد اضطر ابني إلى قبول وظيفة لا يحبها لتحمل مطالبها، وبالنظر إلى أنها هي التي هجرته وأن لديها علاقة أخرى فإن الطريقة التي تعامل بها ابني تبدو قاسية وانتقامية بشكل لا يمكن تفسيره»، ولكن من وجهة نظر زوجة الابن فإن سلوكها تجاه زوجها السابق له ما يبرره، لأنه لو كان هذا الرجل الجيد لبقيت معه، أليس كذلك؟ ولكن نظرًا لأنه لم يكن شخصًا جيدًا بما يكفي كي يتولى وظيفة لا يحبها حتى تتمكن من العيش بالطريقة التي تريدها، فإنها سوف تجعله يفعل ذلك الآن. إنه يستحق هذا العقاب.

يرى وسطاء الطلاق -وأي شخص آخر يحاول أن يكون مفيداً للأصدقاء المتحاربين في آلام الطلاق- هذه العملية عن قرب، وقد وصف الوسيطان دونالد سابوسنيك وتشيب روز «ميل أحد الزوجين إلى تصوير الآخر في صورة مذمومة مثل «إنه ضعيف ومخمور عنيف» أو «إنها مُرائية وأنانية، وكاذبة بشكل مرضي ولا يمكن الوثوق بها على الإطلاق»، وهذه الأوصاف السلبية والمستقطبة بشكل مكثف التي يصنعها الأزواج المطلقون في صراعهما الشديد مع بعضهما تصبح متجسدة وغير قابلة للتغيير بمرور الوقت»^{١٣}، والسبب في ذلك هو أنه بمجرد أن يبدأ الزوجان في تقليل التنافر من خلال اتخاذ طريق الحفاظ على الأنا المتمثل في تشويه سمعة الشريك السابق، فإنهما يكونان بحاجة إلى الاستمرار في تبرير موقفهما، وهكذا يتقاتلان على أي شيء تافه «يستحقه أحد الأطراف»، «ولا يستحقه الطرف الآخر»، وينكران بشراسة أو يسيطران على مسائل الحضانة وحقوق زيارة الشريك السابق للأطفال لأنه شخص فظيع، ولا يتوقف أيٌّ من الطرفين في منتصف الصخب للنظر فيما إذا كانت فظاعة الشريك السابق قد تكون نتيجة للوضع الرهيب، ناهيك عن التفكير في أن فظاعة الشريك السابق قد تكون استجابة لسلوكهما الرهيب، وكل إجراء يتخذه أحد الشريكين يثير انتقاماً مبرراً ذاتياً من الآخر وهكذا يصبحان على مسار العداء المتبادل والمتصاعد، ويستخدم كل شريك -بعد أن حث الآخر على التصرف بشكل سيئ- هذا السلوك السيئ لتبرير انتقامه أو انتقامها ولحشد الدعم لصفات الشريك السابق «الشريرة» المتأصلة.

بحلول الوقت الذي يسعى فيه هؤلاء الأزواج إلى الوساطة، يكونون قد انزلقوا بعيدًا جدًا إلى أسفل الهرم، وقد أخبرنا دونالد سابوسنيك أنه في أكثر من أربعة آلاف وساطة حضانة قام بها «لم يكن لديَّ قط واحدة قال فيها أحد الوالدين: «كما تعلم، أعتقد مرة أخرى أنها يجب أن تحصل على الحضانة، لأنها حقًا الوالد الأفضل والأطفال أقرب إليها»، ولكنها تكون دائمًا مواجهة ثنائية حول: «لماذا أنا الوالد الأفضل والأكثر استحقاقًا»، ولا تُعطى نقطة اعتراف واحدة للوالد الآخر، وحتى عندما يجهرن بالاعتراف بأفعالهم الانتقامية فإنهم يبررون ذلك دائمًا: «لقد استحق ذلك بعد ما فعله من تفكيك لعائلتنا!»، والاتفاقات التي يتوصلون إليها هي دائمًا نوع من التسوية التي يعتبرها كل منهم على أنها «تخلت عن موقفي لأنني شعرت بالإكراه، أو لأنني تعبت من القتال، أو لأن أموالني للوساطة نفدت... على الرغم من أنني أعرف أنني «الوالد الأفضل»».

قد تقودنا نظرية التنافر إلى التنبؤ بأن الأشخاص الذين لديهم أكبر قدر من التناقض الأولي بشأن قرارهم بالطلاق -أو الذين يشعرون بأ أكبر قدر من الذنب بسبب قرارهم الأحادي- هم الذين لديهم أكبر قدر من الإلحاح لتبرير قرارهم بالهجر، وفي المقابل يشعر الشريك المَفْجُوع بالإلحاح يائس لتبرير أي انتقام كرد على معاملته بقسوة وظلم، وعندما يأتي كل طرف بذكريات مؤكدة وكل تلك الأمثلة الحديثة الرهيبة للسلوك السيئ للشريك السابق لدعم حساباتهم الجديدة، يتحول الشريك السابق إلى شرير تمامًا، وتبرير الذات هو المسار الذي يتحول

به التناقض الوجداني إلى يقين، والشعور بالذنب إلى غضب، وتصبح قصة الحب كتاب كراهية.

أخبرتنا زميلتنا ليونور تيفر - عالمة النفس الإكلينيكية - عن زوجين في أواخر الثلاثينيات من العمر تزوجا منذ عشر سنوات، ورأتهم في جلسات علاج، وهما لم يتمكنوا من اتخاذ قرار بشأن إنجاب الأطفال لأن كلا منهما أراد التأكد قبل إثارة القضية مع الآخر، ولم يتمكنوا من اتخاذ قرار بشأن كيفية تحقيق التوازن بين حياتها المهنية الصعبة وأنشطتهما معاً، لأن الزوجة شعرت بأن لديها مبررات للعمل بقدر ما تريد، ولم يتمكنوا من حل خلافاتهما حول شربه للكحوليات، لأنه شعر بأنه معذور في الشرب بقدر ما يريد، وكان لكل منهما علاقة غرامية وهو ما برآه بأنه رد فعل لما يفعله الآخر.

مع ذلك فإن مشكلاتهما العادية - وإن كانت صعبة - لم تكن هي التي حكمت على هذا الزواج، وإنما كانت تبريرات ذاتهما العنيدة، وفي هذا تقول ليونور تيفر: «إنهما لا يعرفان عماذا يتخيلان كي يكونا زوجين، فكل منهما يريد أن يفعل ما يشعر أنه يحق له القيام به، ولا يمكنهما مناقشة القضايا المهمة التي تؤثر عليهما كزوجين، وطالما ظل أحدهما غاضباً من الآخر، فلن يضطرا إلى مناقشة هذه الأمور، لأن المناقشة قد تتطلب منهما في الواقع تقديم تنازلات أو الأخذ في الاعتبار وجهة نظر الشريك، ولديهما صعوبة كبيرة مع التعاطف، فكل واحد منهما يشعر بالثقة الكاملة بأن سلوك الآخر أقل منطقية من سلوكه. لذلك يتطرقان إلى السخائم القديمة لتبرير موقفهما الحالي وعدم رغبتهما في التغيير أو الغفران».

في المقابل، اكتشف الأزواج الذين يكبرون معًا على مر السنين طريقة للعيش مع الحد الأدنى من تبرير الذات، وهي طريقة أخرى للقول إنهم قادرون على وضع التعاطف مع الشريك قبل الدفاع عن مساحتهم الخاصة، فالأزواج الناجحون والمستقرون قادرون على الاستماع إلى انتقادات ومخاوف واقتراحات بعضهم من دون دفاع، ومن وجهة نظرنا هم قادرون على التنازل عن حجة تبرير الذات؛ «هذا هو نوع الشخص الذي أنا عليه»، وهم يقللون من التنافر الناجم عن التهيج الصغير من خلال تجاهله، ويقللون من التنافر الناجم عن أخطائهم ومشكلاتهم الكبرى عن طريق حلها.

أجرينا مقابلات مع عديد من الأزواج الذين كانوا معًا لسنوات عديدة -وهو نوع الأزواج الذين أعجب بهم فرانك وديبرا- والذين لديهم طبقًا لأقوالهم زواج حميم وعاطفي بشكل غير عادي، ولم نسألهم: «ما سر زواجكم الطويل؟»، لأن الناس نادرًا ما يعرفون الإجابة، وسوف يقولون شيئًا عاديًا أو غير مفيد، مثل: «لم نذهب إلى الفراش غاضبين قط»، أو «نحن نتشارك حب الجولف». (يذهب كثير من الأزواج السعداء إلى الفراش غاضبين لأنهم يفضلون عدم الدخول في جدال عندما يكونون متعبين، وكثير من الأزواج السعداء لا يشاركون الهويات والاهتمامات)، وبدلًا من ذلك سألنا هؤلاء الأزواج كيف على مر السنين قللوا من التنافر بين «أنا أحب هذا الشخص»، و«هذا الشخص يفعل شيئًا يقودني إلى الجنون».

جاءت إحدى الإجابات المضيئة بشكل خاص من زوجين -سنسميهما تشارلي وماكسين- تزوجا منذ أكثر من أربعين عامًا، ومثل جميع الأزواج لديهما عديد من الاختلافات الصغيرة التي يمكن أن تندلع بسهولة في صورة غضب، ولكنهما أصبحا يقبلان معظمها كحقائق للحياة لا تستحق التذمر بشأنها، ويقول تشارلي: «أحب تناول العشاء في الخامسة، أما زوجتي فتحب أن تأكل في الثامنة، وقد توصلنا إلى حل وسط نأكل من الخامسة إلى الثامنة»، ولكن الشيء المهم في هذين الزوجين هو كيفية تعاملهما مع المشكلات الكبيرة، فعندما وقعا في الحب لأول مرة في أوائل العشرينيات من عمرهما، انجذب تشارلي إلى نوعية الصفاء في روح ماكسين التي وجدها لا تقاوم، وقال إنها كانت واحة في عالم مضطرب، أما هي فقد انجذبت إلى طاقته العاطفية التي نقلها إلى كل نشاط من التخطيط للعطلة المثالية إلى كتابة الجملة المثالية، ولكن النوعية العاطفية التي استمتعت بها فيه كانت مرتبطة بالحب والجنس والسفر والموسيقى والأفلام، وكانت مقلقة لها عندما كانت مرتبطة بالغضب، لأنه عندما يكون غاضبًا فإنه يصرخ ويضرب الطاولة وهو أمر لم يفعله أحد في عائلتها من قبل، وفي غضون بضعة أشهر من زواجهما أخبرته وعيناها مغرورقتان بالدموع أن غضبه يخيفها.

كان الدافع الأول لتشارلي هو تبرير نفسه، فهو لم يكن يعتقد أن رفع صوته سمة مرغوبة بالضبط، ولكنه رأى أنها كانت جزءًا من هويته وجانبًا من جوانب أصالته، وقال لها: «والدي كان يصرخ ويضرب الطاولات، وجدي كان يصرخ ويضرب الطاولات! هذا حق! لا أستطيع أن أفعل

أي شيء حيال ذلك، فهذا ما يفعله الرجال، هل تريدين أن أكون مثل هؤلاء الرجال الضعفاء الذين يتحدثون دائماً عن «مشاعرهم»؟، ولكنه بمجرد أن توقف عن الصراخ وفكر في كيفية تأثير سلوكه على ماكسين، أدرك أنه يمكنه بالفعل تعديل سلوكه، وبيطء وانتظام قلل من تواتر وشدة نوبات احتدامه، ولكن ماكسين أيضاً كان عليها أن تتغير، فكان عليها أن تتوقف عن تبرير اعتقادها بأن جميع أشكال الغضب خطيرة وسيئة، («في عائلتي لم يعبر أحد قط عن غضبه، لذلك هذه هي الطريقة الصحيحة الوحيدة التي يجب أن تكون عليها الأمور»)، وعندما فعلت ذلك أصبحت قادرة على تعلم التمييز بين مشاعر الغضب المشروعة والطرائق غير المقبولة للتعبير عنها مثل ضرب الطااولات، وفي هذا الصدد، الأساليب غير البناءة لعدم التعبير عنها مثل البكاء والتراجع، عاداتها «غير القابلة للتغيير».

على مر السنين، ظهرت مشكلة مختلفة تطورت ببطء، كما هي الحال بالنسبة إلى عديد من الأزواج الذين يقسمون المهام على أساس أولي يقوم على من منهما الأفضل فيها. كان الجانب السلبي لماكسين هو عدم الحزم والخوف من المواجهة، ولم تكن تحلم قط بالشكوى من وجبة سيئة أو بضائع معيبة، وهكذا كان على عاتق تشارلي دائماً إعادة إبريق القهوة الذي لم يعمل، أو الاتصال بخدمة العملاء للشكاوى، أو التعامل وجهاً لوجه مع المالك الذي لن يصلح السباكة، وكانت ماكسين تقول: «أنت أفضل مني بكثير في هذا»، ولأنه كان أفضل فقد كان يفعل ذلك، إلا أن تشارلي بمرور الوقت سئم من تحمل هذه المسؤولية

وأصبح ساخطاً على ما يراه الآن سلبية ماكسين، ويقول لنفسه: «لماذا أكون أنا دائماً الشخص الذي يتعامل مع هذه المواجهات غير السارة؟». كان في نقطة اختيار. كان بإمكانه أن يترك الأمر يمر قائلاً إن هذه هي طريقته التي جُبلت عليها، وأن يستمر في القيام بكل الأعمال البغيضة، ولكن بدلاً من ذلك، ارتأى تشارلي أنه ربما حان الوقت أن تتعلم ماكسين كيف تكون أكثر حزمًا، وهي مهارة ستكون مفيدة لها في عديد من السياقات وليس فقط في زواجهما، فأجابت ماكسين بقولها: «هذه هي الطريقة التي أنا عليها وقد عرفت ذلك عندما تزوجتني، علاوة على ذلك ليس من العدل تغيير القواعد بعد كل هذه السنوات»، ولكن عندما تحدثا أكثر أصبحت قادرة على سماع قلقه من دون السماح لصخب تبرير الذات باعتراض الطريق، وبمجرد حدوث ذلك أصبح بإمكانها التعاطف مع مشاعره وفهم سبب اعتقاده أن تقسيم العمل أصبح غير عادل، وأدركت أن خياراتها لم تكن محدودة كما افترضت دائماً، ومن ثم فقد التحقت بدورة تدريبية على تأكيد الذات، ومارست بجد ما تعلمته فيها، وتحسنت في الدفاع عن حقوقها، وسرعان ما كانت تستمتع بالرضا عن التعبير عن رأيها بطريقة عادةً ما تحقق نتائج، وأوضح تشارلي وماكسين أنه لم يتحول إلى حمل وأنها لم تتحول إلى أسد؛ فالشخصية والتاريخ وعلم الوراثة والمزاج يضعون قيوداً على مقدار ما يمكن لأي شخص أن يتغيره^{١٤}، ولكن كل واحد منهما تحرك، وفي هذا الزواج لم يعد الحزم والتعبير البناء عن الغضب مهارات مستقطبة له ولها.

في الزيجات الجيدة يمكن للمواجهة واختلاف الرأي والعادات المتضاربة وحتى المشاجرات الغاضبة أن تقرّب بين الزوجين من خلال مساعدة كل شريك على تعلم شيء جديد عن شريكه، ومن خلال إجبارهما على فحص افتراضاتهما حول قدراتهما أو قيودهما، رغم أنه ليس من السهل دائماً القيام بذلك، فالتخلي عن تبرير الذات الذي يغطي على أخطائنا، والذي يحمي رغباتنا في القيام بالأشياء بالطريقة التي نريدها، والذي يقلل من الأذى الذي نلحقه بمن نحبه، يمكن أن يكون محرّجاً ومؤلماً، فمن دون تبرير الذات قد نُترك واقفين عراة عاطفياً ومن دون حماية في بركة من الندم والخسائر، وبصرف النظر عن مدى الألم الذي يتركه التخلي عن تبرير الذات، فإن النتيجة تعلمنا شيئاً مهماً للغاية عن أنفسنا ويمكن أن تجلب سلام البصيرة وقبول الذات.

كتبت الكاتبة والناشطة النسوية فيفيان جورنيك، في سن الخامسة والستين، مقالاً صادقاً بشكل مبهر حول جهودها مدى الحياة لتحقيق التوازن بين العمل والحب وعيش حياة قائمة على مبادئ المساواة المثالية في كلا المجالين، وقالت: «لقد كتبت كثيراً عن العيش بمفردي لأنني لم أستطع معرفة سبب عيشي بمفردي»، ولسنوات كانت إجابتها وإجابة كثيرين في جيلها هي التحيز ضد المرأة: كان الرجال الأبويون يجبرون النساء القويات والمستقلات على الاختيار بين وظائفهن وعلاقاتهن العاطفية، وهذه الإجابة ليست خاطئة، فقد أغرق التحيز الجنسي عديداً من الزيجات وأطلق ثقباً في عدد لا يحصى من الزيجات الأخرى التي بالكاد تطفو، ولكن في النهاية أدركت فيفيان جورنيك أنها

لم تكن الإجابة الكاملة، وإذا نظرت إلى الوراء - من دون راحة تبريراتها الذاتية المألوفة - كانت ستستطيع رؤية دورها الخاص في تحديد مسار علاقاتها، «وأن كثيرًا من وحدتي كانت ذاتية، ولها علاقة بشخصيتي الغاضبة والمنقسمة ذاتيًا أكثر من التحيز ضد المرأة»^{١٥}.

وكتبت: «كانت الحقيقة أنني كنت وحيدة ليس بسبب سياساتي ولكن لأنني لم أكن أعرف كيف أعيش بطريقة لائقة مع إنسان آخر، فباسم المساواة عذبت كل رجل أحبني حتى تركني: لقد صرخت عليهم في أي شيء، ولم أتسامح في أي شيء، وأوقفتهم للمساءلة بطرائق أرهقت كلينا، وكان هناك - بالطبع - أكثر من ذرة من الحقيقة في كل ما قلته، ولكن تلك الذرات - مهما كانت كثيرة - لم يكن لها بالضرورة أن تصبح كومة الرمل التي سحقت الحياة بدافع الحب».

٧. الجروح والصدوع والحروب

«كلاهما غاضب وممتلئ بالغَيْظ،

في الغضب أصم مثل البحر، ومتسرع كالحرّيق».

- وليام شكسبير، مسرحية ريتشارد الثاني

بعد مُضي عام على اعترافه بعلاقة غرامية شعر جيم أنه لا يوجد تناقص في غضب كارين، وكانت كل محادثة تتحول في النهاية إلى هذه العلاقة، فقد راقبته مثل الصقر وعندما ضبّطت تحديقها كان تعبيرها مليئاً بالشك والألم، ألا يمكنها أن تدرك أنه كان مجرد خطأ صغير من جانبه؟ وهو لم يكن أول شخص على هذا الكوكب يرتكب مثل هذا الخطأ، وقد كان صادقاً واعترف بهذه العلاقة وقوياً بما يكفي لإنهائها، وقد اعتذر لها وأخبرها ألف مرة أنه يحبها ويريد لزواجهما أن يستمر، ألا تستطيع أن تفهم ذلك؟ ألا يمكنها التركيز فحسب على الأجزاء الجيدة من زواجهما والتغلب على هذه النكسة؟

وجدت كارين موقف جيم لا يُصدّق. بدا أنه يتوقع إطرأ لاعترافه بالعلاقة الغرامية وإنهائها، بدلاً من الانتقاد لإقامته علاقة غرامية بادی

ذي بدء، ألا يستطيع أن يفهم ذلك؟ ألا يمكنه التركيز فحسب على ألمها وضيقها والتوقف عن محاولة تبرير ذاته؟ كما أنه لم يعتذر قط، حسناً، لقد قال إنه آسف، ولكن ذلك كان مثيراً للشفقة، فلماذا لم يستطع أن يقدم لها اعتذاراً صادقاً صادراً من القلب؟ لم تكن بحاجة إلى أن يخرّ ساجداً، لقد أرادت منه أن يعرف كيف تشعر فحسب وأن يعوضها عن ذلك.

لكن جيم كان يجد صعوبة في القيام بالتعويضات التي أرادتها كارين بسبب غضبها الشديد، وهو ما جعله يشعر بالرغبة في الانتقام، وكانت الرسالة التي وصلته من غضبها هي: «لقد ارتكبت جريمة فظيعة»، و«أنت أقل من إنسان لفعل ما فعلته بي»، وكان آسفاً للغاية لأنه أذاها وأنه على استعداد للتخلي عن العالم كله إذا كان هذا سيجعلها فقط تشعر بتحسن، ولكنه لم يعتقد أنه ارتكب جريمة فظيعة أو أنه غير إنساني، وأنه لم يكن مستعداً لتقديم هذا النوع من الاعتذار المتذل الذي بدا أنها تريده، لذا بدلاً من ذلك حاول إقناعها بأن العلاقة لم تكن جادة وأن المرأة الأخرى لا تعني له كثيراً، إلا أن كارين فسرت محاولات جيم لشرح العلاقة على أنها محاولة لجرح مشاعرهما، وكانت الرسالة التي وصلتها من رد فعله هي: «لا يجب أن تكوني منزعجة جداً، فأنا لم أفعل أي شيء سيئ»، وجهوده لشرح نفسه جعلتها أكثر غضباً، وغضبها جعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إليه كي يتعاطف مع معاناتها ويستجيب لها^١.

فتنت المعركة الأخيرة في الحرب العائلية الفظيعة على حياة تيري شيافو وموتها ملايين الأمريكيين، فقد كان والدا تيري -روبرت وماري

شندلر - يقاتلان زوجها مايكل شيافو بشراسة للسيطرة على حياتها أو على ما تبقى منها، وكتب أحد المراسلين: «يكاد يكون من الصعب تصديق -بالنظر إلى المسافة التي تفصل بينهما الآن- أن زوج تيري شيافو ووالديها كانوا يتقاسمون ذات مرة منزلاً وحياة وهدفاً»، لكنه ليس على الإطلاق بعيداً عن التصديق لدارسي تبرير الذات، ففي بداية زواج تيري ومايكل وقف الزوجان ووالداها بالقرب من بعضهما في قمة الهرم، ودعا مايكل صهره بأبي وأبي، ودفعت عائلة شندلر إيجار سكن الزوجين في سنواتهما الأولى المتعثرة، وعندما عانت تيري شيافو من تلف شديد في المخ في عام ١٩٩٠ انتقلت عائلة شندلر للعيش مع ابنتهما وصهرهما لرعايتها بشكل مشترك، وهذا ما فعلوه لما يقرب من ثلاث سنوات، وبعد ذلك زُرعت جذور عديد من الانقسامات بسبب المال، ففي عام ١٩٩٣ فاز مايكل شيافو بقضية تعويض عن خطأ طبي ضد أحد أطباء تيري وحصل على ٧٥٠ ألف دولار لرعايتها، و ٣٠٠ ألف دولار لفقدان رفقة زوجته، وبعد شهر تنازع الزوج والوالدان على التعويض، وقال مايكل شيافو إن الأمر بدأ عندما سأل والد زوجته -روبرت- عن مقدار المال الذي سيحصل عليه من تسوية الخطأ الطبي، بينما قال آل شندلر إن المعركة تدور حول نوع العلاج الذي يجب أن تنفق عليه الأموال، فقد أراد الوالدان علاجاً مكثفاً وتجريبياً لابنتهما بينما أراد الزوج أن يقدم لها الرعاية الأساسية فقط.

كانت التسوية هي القشة الأولى حيث أجبرت الأبوين والزوج على اتخاذ قرار بشأن كيفية إنفاقها ومن يستحق المال، لأن كل جانب

شعر بشكل شرعي بأنه يحق له اتخاذ القرارات النهائية بشأن حياة تيري وموتها، ووفقاً لذلك منع مايكل شيافو لفترة وجيزة وصول عائلة شندلر إلى السجلات الطبية لزوجته، بينما حاولا لبعض الوقت إزالته من منصب الوصي عليها، مما أشعره بالإهانة بسبب ما اعتبره محاولة فظة من قبل والد زوجته للمطالبة ببعض أموال التسوية، أما الوالدان فقد شعرا بالإهانة مما اعتبراه دوافعه الأنانية للتخلص من زوجته^٢، وبحلول الوقت الذي شهدت فيه البلاد المواجهة الأخيرة الغاضبة لهذه العائلة، والتي ألهمت وسائل الإعلام والسياسيون الانتهازيون، فقد بدت مواقفهم المتعنتة المتبادلة غير عقلانية تماماً وغير قابلة للحل.

في يناير ١٩٧٩ هرب شاه إيران محمد رضا بهلوي من إيران بحثاً عن الأمان في مصر بعد أن واجه تمرّداً شعبياً متزايداً ضده، وبعد أسبوعين رحّبت البلاد بعودة زعيمها الأصولي الإسلامي الجديد آية الله روح الله الخميني، الذي أرسله الشاه إلى المنفى قبل أكثر من عقد من الزمان، وفي أكتوبر سمحت إدارة كارتر على مضض للشاه بالتوقف لفترة وجيزة في الولايات المتحدة لأسباب إنسانية لتلقي العلاج الطبي من مرض السرطان، وندد الخميني بالحكومة الأمريكية ووصفها بأنها «الشیطان الأكبر»، وحث الإيرانيين على التظاهر ضد «أعداء الإسلام»، الولايات المتحدة وإسرائيل، فاستجاب آلاف منهم لدعوته وتجمعوا خارج السفارة الأمريكية في طهران، وفي ٤ نوفمبر، استولى عدة مئات من الطلاب الإيرانيين على مبنى السفارة الرئيسي واحتجزوا معظم شاغليه، وبقي اثنان وخمسون منهم كرهائن لمدة ٤٤٤ يوماً، وطالب

الخاطفون بإعادة الشاه إلى إيران لمحاكمته، بالإضافة إلى إعادة مليارات الدولارات التي زعموا أن الشاه سرقها من الشعب الإيراني، وكانت أزمة الرهائن في إيران هي أزمة ٩ سبتمبر ٢٠٠١ (تدمير برج التجارة العالمية) لتلك الفترة، ووفقاً لأحد المؤرخين فقد حظيت بتغطية في التلفزيون والصحافة أكثر من أي حدث آخر منذ الحرب العالمية الثانية، وكان مذيع الأخبار تيد كوبل يبلغ الأمة يومياً بالأحداث غير المهمة في برنامج جديد يُعرض في وقت متأخر من الليل باسم «أمريكا رهينة»، والذي كان ذا شعبية كبيرة جداً لدرجة أنه عندما انتهت الأزمة استمر باسم «نايت لاين»، وكان الأمريكيون مثبتون لمتابعة القصة وهم يشعرون بالغضب من تصرفات الإيرانيين ومطالبهم، ويتساءلون إذا كانوا غاضبين من الشاه، فلماذا بحق الجحيم يغضبون منا؟

لقد تحدثنا حتى الآن عن حالات ارتُكبت فيها أخطاء بشكل واضح بسبب تشوهات الذاكرة والقناعات الخاطئة والممارسات العلاجية المضللة، ونتقل الآن إلى منطقة أكثر قسوة من الخيانات والتصدعات والأعمال العدائية العنيفة، وستراوح أمثلتنا من المشاجرات العائلية إلى الحروب الصليبية، ومن اللؤم الروتيني إلى التعذيب المنهجي، ومن الجنح في الزواج إلى تصعيد الحرب، وقد تختلف هذه الصراعات بين الأصدقاء وأبناء العم والبلدان اختلافاً عميقاً في السبب والشكل، ولكنها منسوجة معاً بخيط واحد عنيد من تبرير الذات، ونحن لا نقصد باسترجاع هذا الخيط المشترك التغاضي عن تعقيد النسيج أو الإيحاء بأن جميع الملابس متشابهة.

في بعض الأحيان يتفق الجانبان على من يقع اللوم كما فعل جيم وكارين، فلم يحاول جيم تحويل اللوم كما كان سيفعل من خلال الادعاء بأن كارين دفعته إلى إقامة علاقة غرامية من خلال كونها زوجة سيئة، وأحياناً يكون من المؤكد تماماً من هو الطرف المذنب حتى عندما يكون الطرف المذنب مشغولاً بإنكار ذنبه بسلسلة من الأعذار وتبريرات الذات، فلا يتحمل المستبعدون جزءاً من المسؤولية عن العبودية، والأطفال لا يحرضون مشتبهى الأطفال، والنساء لا يطلبن الاغتصاب، واليهود لم يجلبوا الهولوكوست إلى أنفسهم.

ومع ذلك، نريد أن نبدأ بمشكلة أكثر شيوعاً: المواقف العديدة التي لا يتضح فيها على من يقع اللوم، «من بدأ هذا؟»، أو حتى متى بدأ هذا؟ جميع العائلات لديها حكايات ترويها عن الإهانات والازدراءات والجروح التي لا تُغتفر والخلافات التي لا تنتهي: «هي لم تأتِ إلى حفل زفافي ولم ترسل حتى هدية»، و«لقد سرق ميراثي»، و«عندما كان أبي مريضاً، اختفى أخي تماماً وكان عليّ أن أعطني به»، وفي حالة التضارب لن يعترف أحد بأنه كذب أو سرق أو غش من دون استفزاز، لأن شخصاً سيئاً فقط سيفعل ذلك، مثلما قد يتخلى ابن لا قلب له عن أحد الوالدين المحتاجين، ولذلك يبرر كل جانب موقفه الخاص من خلال الادعاء بأن الجانب الآخر هو المسؤول، فكل منهما يرد ببساطة على الإساءة أو الاستفزاز كما يفعل أي شخص عاقل وأخلاقي. «نعم، لم آتِ إلى حفل زفافي، وأين كنت أنت قبل سبع سنوات عندما كنت أعاني من هذا الانفصال السيئ واختفيت؟». «بالتأكيد أخذت بعض المال

والممتلكات من ممتلكات والدينا، لكنها لم تكن سرقة، لقد بدأت أنت هذا قبل أربعين عامًا عندما ذهبت إلى الجامعة ولم أذهب أنا». «لقد كان أبي يُحبك أكثر مني على أي حال، وكان دائمًا شديد الانتقاد لي، ومن ثم من العدل أن تعتني به الآن».

في معظم حالات التضارب يتهم كل طرف الآخر بأنه بطبيعته أناني وعنيد ولئيم وعدواني، إلا أن الحاجة إلى تبرير الذات تتفوق على سمات الشخصية، ففي جميع الاحتمالات لم يكن آل شندلر ومايكل شيافو عنيدين أو غير عقلانيين بشكل مميز، ولكن كان سلوكهم العنيد وغير العقلاني فيما يتعلق ببعضهم نتيجة اثني عشر عامًا من القرارات (القتال أو التنازل عن هذا القرار؟ والمقاومة أو التسوية؟)، ومن تبريرات الذات اللاحقة والإجراءات الإضافية المصممة لتقليل التنافر والتناقض، وبمجرد أن وقعوا في شرك اختياراتهم لم يتمكنوا من إيجاد طريق العودة. فلتبرير قرارهما الأولي والمفهوم بإبقاء ابنتهما على قيد الحياة وجد والدا تيري نفسيهما بحاجة إلى تبرير قراراتهما التالية لإبقائها على قيد الحياة بأي ثمن، ولأن والدَي تيري كانا غير قادرين على قبول الدليل بأن مخها قد مات، فقد بررا أفعالهما باتهام مايكل بأنه زوج متحكم وزانٍ، وربما قاتل أراد أن تموت تيري لأنها أصبحت عبئًا عليه، ولتبرير قراره المفهوم بنفس القدر بترك زوجته تموت بشكل طبيعي فقد وجد مايكل نفسه أيضًا في مسار للعمل لم يستطع التراجع عنه، ولتبرير هذا المسار اتهم والدي تيري بأنهما انتهازيان ويتلاعبان بوسائل الإعلام التي كانت تحرمه من حقه في الوفاء بوعد لـتيري بأنه

لن يسمح لها بالعيش بهذه الطريقة، وكانت عائلة شندلر غاضبة من أن مايكل شيافو لا يستمع إليهم ولا يحترم معتقداتهم الدينية، وكان مايكل شيافو غاضباً لأن عائلة شندلر رفعت القضية في المحكمة وعرضتها على الجمهور، ومن ثم شعر كل جانب أن الآخر يتصرف بطريقة عدوانية، وشعر كل منهما بالخيانة العميقة من قبل الآخر، ولكن من بدأ المواجهة النهائية للسيطرة على موت تيري؟ فكل طرف يتهم الآخر، فما الذي جعلها صعبة الحل؟ إنه تبرير الذات.

عندما احتجز الطلاب الإيرانيون هؤلاء الأمريكيين كرهائن في عام ١٩٧٩ بدأ الحدث عملاً عدوانياً لا معنى له، وصاعقة حدثت على نحو غير متوقع أبداً بالنسبة إلى الأمريكيين، الذين رأوا أنهم تعرضوا للهجوم من دون استفزاز من قبل حفنة من الإيرانيين المجانين، ولكن بالنسبة إلى الإيرانيين كان الأمريكيون هم الذين بدأوا ذلك، لأن قوات الاستخبارات الأمريكية ساعدت في انقلاب عام ١٩٥٣ الذي أطاح بزعيمهم الكاريزمي المنتخب ديمقراطياً محمد مصدق ونصب الشاه، وفي غضون عقد من الزمان كان عديد من الإيرانيين يشعرون بالاستياء المتزايد من تراكم ثروة الشاه والتأثير الغربي للولايات المتحدة، وفي عام ١٩٦٣ أخذ الشاه انتفاضة أصولية إسلامية بقيادة الخميني وأرسل رجل الدين إلى المنفى، ومع تصاعد المعارضة لحكومة الشاه سمح لشرطته السرية -السافاك- بقمع المعارضين، مما أدى إلى تأجيج غضب أكبر.

متى بدأت أزمة الرهائن؟ عندما دعمت الولايات المتحدة الانقلاب ضد مصدق؟ عندما استمرت في تزويد الشاه بالسلاح؟ عندما غضت

الطرف عن الأعمال الوحشية التي ارتكبها السافاك؟ عندما أدخلت الشاه إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج الطبي؟ هل بدأت عندما نفى الشاه الخميني أم عندما رأى آية الله بعد عودته المظفرة فرصة لتعزيز سلطته من خلال تركيز إحباطات الأمة على أمريكا؟ هل بدأت خلال الاحتجاجات أمام السفارة عندما سمح الطلاب الإيرانيون لأنفسهم بأن يكونوا بياق سياسية للخميني؟ لقد اختار معظم الإيرانيين إجابات تبرر غضبهم من الولايات المتحدة، واختار معظم الأمريكيين إجابات تبرر غضبهم من إيران، وأقنع كل جانب نفسه بأنه الطرف المتضرر وبالتالي يحق له الانتقام. من بدأ أزمة الرهائن؟ كل جانب يتهم الجانب الآخر. وما الذي جعل الأزمة غير قابلة للحل؟ إنه تبرير الذات.

من بين جميع القصص التي يبينها الناس لتبرير حياتهم وحجهم وخسائرهم، فإن القصص التي ينسجونها لتفسير كونهم المحرضين أو المتلقين للظلم أو الأذى هي الأكثر إقناعًا ولها عواقب بعيدة المدى، وفي مثل هذه الحالات تتجاوز السمات المميزة لتبرير الذات الخصوم المحددين (العشاق، أو الآباء والأطفال، أو الأصدقاء، أو الجيران، أو الأمم) وخلافاتهم المحددة (الخيانة الجنسية، أو ميراث عائلي، أو خيانة ثقة، أو التعدي على ملكية، أو غزو عسكري)، وقد فعلنا جميعًا شيئًا جعل الآخرين غاضبين منا، كما أننا دُفَعنا جميعًا إلى الغضب بسبب ما فعله الآخرون بنا، وقد آذينا جميعًا - عن قصد أو عن غير قصد - شخصًا آخر سيعتبرنا إلى الأبد أشرارًا وخونة وأوغادًا، كما شعرنا جميعًا بلسعة كوننا الطرف المتلقي لعمل من أعمال الظلم، ونعالج جرحًا لا يبدو أنه

يندمل تمامًا، والشيء اللافت للنظر في تبرير الذات هو أنه يسمح لنا بالانتقال من أحد الأدوار إلى آخر والعودة مرة أخرى في غمضة عين من دون أن نطبق ما تعلمناه من ذلك الدور على الدور الآخر، فشعورنا بأننا ضحية للظلم في موضع ما لا يجعلنا أقل عرضة لظلم شخص آخر، ولا يجعلنا أكثر تعاطفًا مع الضحايا، ويبدو الأمر كما لو أن هناك جدارًا من الحجر بين هاتين المجموعتين من التجارب مما يعوق قدرتنا على رؤية الجانب الآخر.

أحد أسباب هذا الجدار الحجري هو أن الألم الذي نشعر به دائمًا ما يكون أكثر حدة من الألم الذي نُحدثه للآخرين، وحتى عندما يكون مقدار الألم الفعلي متطابقًا، وقد اتضح أن النكتة القديمة القائلة بأن الساق المكسورة للرجل الآخر إصابة تافهة بينما أظفارنا المكسورة إصابة خطيرة تصف بدقة شبكتنا العصبية، وقد قام أطباء أعصاب إنجليز بمُزاوجة بعض الأشخاص في تجربة ثأرية، حيث رُبط كل زوج بألية تمارس ضغطًا على أصابع السبابة، ووجّه المشاركون لتطبيق نفس القوة التي شعروا بها للتو على إصبع شريكهم، إلا أنهم لم يتمكنوا من فعل ذلك بشكل عادل، رغم أنهم حاولوا بجد، ففي كل مرة شعر فيها أحد الشركاء بالضغط كان ينتقم بقوة أكبر بكثير معتقدًا أنه كان يعطي ما شعر به، وخلص الباحثون إلى أن تصاعد الألم هو «منتج ثانوي طبيعي للمعالجة العصبية»^٣، ويساعد ذلك في تفسير السبب في أنه سرعان ما يجد صبيان يبدآن في تبادل اللكمات على الذراع كلعبة، نفسيهما في معركة غاضبة بالأيدي، كما يفسر لماذا تجد دولتان نفسيهما في دوامة انتقامية: «هم لم يأخذوا العين بالعين، بل

أخذوا العين بالسن، ويجب أن نكون متساوين، دعونا نأخذ ساقاً»، ويرر كل جانب ما يفعله على أنه مجرد تسوية للنتيجة.

أوضح عالم النفس الاجتماعي روي بومистер وزملاؤه كيف يعمل تبرير الذات بسلسلة لتقليل أي مشاعر سيئة لدينا كمحدثين للأذى ولتعظيم أي مشاعر قويمة لدينا كضحايا، فقد طلبوا من ثلاثة وستين شخصاً تقديم روايات عن السيرة الذاتية لـ «قصة الضحية» عندما غضبوا أو تعرضوا للأذى من قبل شخص آخر، ولـ «قصة الجاني» عندما أغضبوا شخصاً آخر، ولم يستخدموا مصطلح الجاني بمعناه الجنائي الشائع لوصف شخص مذنب بالفعل بارتكاب جريمة أو مخالفات أخرى، وفي هذا القسم لن نفعل ذلك أيضاً، بل سنستخدم الكلمة - كما يفعلون - لتعني أي شخص ارتكب عملاً أضر أو أساء إلى شخص آخر.

ومن كلا المنظورين، انطوت الروايات على السرد المطول المألوف عن الوعود والالتزامات التي لم يتم الوفاء بها، أو انتهاك القواعد أو الالتزامات أو الخيانة الجنسية أو خيانة الأسرار، أو المعاملة غير العادلة أو الأكاذيب، أو الصراعات على المال والممتلكات. لاحظ أن هذه لم تكن دراسة من نوعية هو قال/ هي قالت التي يقدمها مستشارو الزواج والوسطاء عندما يصفون قضاياهم، بل كانت - بدلاً من ذلك - دراسة من نوعية أنا قلت هذا وأنا قلت ذاك، حيث أبلغ الجميع عن تجربة الوجود على الجانبين، وأوضح الباحثون أن فائدة هذه الطريقة هي أنها «تستبعد التفسيرات التي تعامل الضحايا والجناة كأنواع مختلفة من الناس، وتوضح إجراءاتنا كيف يعرف الناس العاديون أنفسهم كضحايا

أو كجناة؛ أي كيف يبنون خطابهم لفهم تجاربهم في كل دور من هذه الأدوار»، ومرة أخرى، لا علاقة لاختلاف الشخصية بهذا الأمر، فمن الممكن أن يصبح الأشخاص اللطيفون والطيون - مثلهم في ذلك مثل الأشخاص السيئين - ضحايا أو جناة، وأن يبرروا أنفسهم وفقاً لذلك.

عندما بنى روايات «منطقية» فإننا نفعل ذلك بطريقة تخدم مصالحنا الذاتية، ويكون لدى الجناة الدافع إلى التقليل من مسؤوليتهم الأخلاقية، ويتم تحفيز الضحايا لتعظيم طهارتهم الأخلاقية، وعلى حسب أي جانب من الجدار نوجد فيه فإننا نقوم بشكل منهجي بتسوية ذكرياتنا وروايتنا للحدث لإنتاج أقصى قدر من التوافق بين ما حدث وكيف نرى أنفسنا، وقد أظهر الباحثون من خلال تحديد هذه التشوهات النظامية كيف لا يستوعب أحد الخصمين أفعال الآخر ويسيء فهمها.

يعتمد الجناة في رواياتهم على طرائق مختلفة للحد من التنافر الناجم عن إدراك أنهم ارتكبوا شيئاً خاطئاً، والأول - بطبيعة الحال - هو القول إنهم لم يرتكبوا أي خطأ على الإطلاق: «لقد كذبت عليه ولكن ذلك كان فقط لحماية مشاعره»، أو «نعم، لقد أخذت هذا السوار من أختي ولكنه على أي حال كان في الأصل ملكي»، ولم يعترف سوى عدد قليل من الجناة بأن سلوكهم كان غير أخلاقي أو مؤذياً أو خبيثاً عن عمد، وقال معظمهم إن سلوكهم المسيء كان مبرراً، وأضاف الباحثون بشكل معتدل أن بعضهم «كانوا مصرين تماماً على ذلك»، وأفاد معظم الجناة بأن ما فعلوه - على الأقل - بأثر رجعي - كان معقولاً، وأن أفعالهم ربما كانت مؤسفة، إلا أنها مفهومة بالنظر إلى الظروف.

أما الاستراتيجية الثانية فهي الاعتراف بالخطأ ولكن مع تبريره أو التقليل من شأنه. «أعلم أنه لم يكن يجب أن أقوم بهذه العلاقة العابرة، ولكن ما الضرر الذي أحدثته في عالم الأشياء العظيمة؟»، «ربما كان من الخطأ أخذ سوار أمي الألماسي عندما كانت مريضة، ولكنها كانت تريد مني الحصول عليه، وبالإضافة إلى ذلك فقد حصلت أخواتي على أكثر بكثير مما حصلت عليه»، وقد ادعى أكثر من ثلثي الجناة وجود ظروف خارجية أو مخففة لما فعلوه، مثل: «لقد تعرضت أيضًا للإيذاء الجنسي عندما كنت طفلًا»، أو «لقد كنت تحت ضغط كبير في الآونة الأخيرة»، ولكن الضحايا كانوا غير راغبين في منح الجناة هذه التفسيرات المتسامحة، وقال ما يقرب من نصف الجناة إنهم «كانوا غير قادرين» على تغيير مجرى الأحداث، أو إنهم تصرفوا باندفاع وبلا عقل، وحول آخرون المسؤولية إلى الضحية مؤكدين أنها قد استفزتهم أو أنها كانت مسؤولة جزئيًا.

الاستراتيجية الثالثة عندما يُضبط الجناة بشكل لا لبس فيه ولا يمكنهم إنكار المسؤولية أو التقليل من شأنها، هي الاعتراف بأنهم ارتكبوا شيئًا خاطئًا ثم محاولة التخلص من الحادث في أسرع وقت ممكن، وسواء قبلوا اللوم أم لم يتقبلوه فإن معظم الجناة المتحمسين للتخلص من مشاعرهم المتنافرة بالذنب، يضعون الحادث بين قوسين مع الوقت، وهم أكثر احتمالًا بكثير من الضحايا لأن يصفوا الحادث بأنه حادث معزول انتهى تمامًا الآن، ولم يكن يمثلهم، ولم يكن له عواقب سلبية دائمة، وبالتأكيد ليس له أي آثار على الحاضر، لدرجة أن كثيرين

رووا قصصاً بنهايات سعيدة وفّرت إحساساً مطمئناً بالخاتمة على غرار «كل شيء على ما يرام الآن ولم يكن هناك أي ضرر للعلاقة، وفي الواقع نحن اليوم أصدقاء حميمون».

من جانبهم، كان للضحايا وجهة نظر مختلفة إلى حد ما على مبررات الجناة، والتي يمكن تلخيصها على أنها «حقاً؟ لا ضرر؟ أصدقاء جيدون؟ قل هذا الغيري»، وقد يكون لدى الجناة الدافع لتجاوز الحادث بسرعة واختتامه، ولكن لدى الضحايا ذكريات طويلة، وقد يكون الحدث التافه المنسي بالنسبة إلى الأول مصدرًا للغضب مدى الحياة للأخير، وقد وصفت قصة واحدة فقط من قصص الضحايا الثلاث والستين الجاني بأنه كان له ما يبرره في التصرف كما فعل، ولكن لم يعتقد أحد من الضحايا أن أفعال الجناة «كان لا يمكن تلافيتها»، وبناء على ذلك أفاد معظم الضحايا عن عواقب سلبية دائمة للخلاف أو الشجار، وقال أكثر من نصفهم إن ذلك أضر بشدة بالعلاقة، وأفادوا باستمرار العداء وفقدان الثقة والمشاعر السلبية التي لم يتم حلها، أو حتى نهاية الصداقة السابقة والتي أهملوا إخبار الجاني بها على ما يبدو. هذا وبينما اعتقد الجناة أن سلوكهم كان منطقيًا في ذلك الوقت، فقد قال عديد من الضحايا إنهم لم يتمكنوا من فهم نيات الجناة، حتى بعد فترة طويلة من الحدث. «لماذا فعل ذلك؟»، «في ماذا كانت تفكر؟»، وعدم فهم دوافع الجناة هو جانب مركزي من هوية الضحية وقصتها، «هو لم يفعل هذا الشيء الفظيع فحسب، ولكنه لا يفهم حتى أنه كان شيئاً فظيلاً!»، أو «لماذا لا تعترف كم كانت لئيمة معي؟».

أحد الأسباب التي تجعله لا يفهم ولا يمكنها أن تعترف هو أن الجناة منشغلون بتبرير ما فعلوه، ولكن هناك سبباً آخر وهو أنهم لا يعرفون حقاً كيف تشعر الضحية، إذ يكظم عديد من الضحايا غضبهم في البداية، ويدأون جروحهم ويفكرون فيما يجب عليهم فعله، وهم يجترون آلامهم أو مظالمهم لأشهر وأحياناً لسنوات وأحياناً لعقود، وقد أخبرنا رجل نعرفه أنه بعد ثمانية عشر عاماً من الزواج أعلنت زوجته «فجأة في أثناء تناول الإفطار» أنها تريد الطلاق، وقال: «حاولت معرفة الخطأ الذي ارتكبته، وأخبرتني أنني أريد أن أصلح الأمر ولكن كان هناك ثمانية عشر عاماً من الغبار تحت السرير»، فقد فكرت تلك الزوجة لمدة ثمانية عشر عاماً، وفكر الإيرانيون لمدة ستة وعشرين عاماً، وبحلول الوقت الذي يعبر فيه عديد من الضحايا عن آلامهم وغضبهم -خاصة بسبب الأحداث التي اختتمها الجناة ونسوها- يشعر الجناة بالحيرة، ومن ثم فلا عجب أن معظمهم اعتقدوا أن غضب ضحاياهم كان رد فعل مبالغاً فيه، على الرغم من أن قلة من الضحايا شعروا بهذه الطريقة، فالضحايا يفكرون «رد فعل مبالغاً فيه؟ ولكنني فكرت في الأمر لعدة أشهر قبل أن أتكلم، وأنا أعتبر ذلك رد فعل ضعيفاً جداً!».

يبرر بعض الضحايا استمرار مشاعر الغضب وعدم رغبتهم في التخلي عنها بأن الغضب نفسه هو عقاب -أو طريقة لمعاقبة الجاني- حتى عندما يريد الجاني صنع السلام، أو يكون قد اختفى منذ فترة طويلة من المشهد أو مات، وقد أعطانا تشارلز ديكنز في رواية التوقعات العظيمة شخصية الآنسة هافيشام -التي لا يمكن نسيانها- التي بعد

أن هُجرت في يوم زفافها ضحت ببقية حياتها لتصبح ضحية محترقة، مرتدية رداء غضب مَنْ تعتقد أنها أقوم أخلاقًا من الآخرين وثوب زفافها المصفر، وأنشأت ربيبتها إستيلا كأداة للانتقام من الرجال، وعديد من الضحايا غير قادرين على حسم مشاعرهم لأنهم يستمرون في هرش قشرة الجرح، ويسألون أنفسهم مرارًا وتكرارًا: «كيف يمكن أن يحدث مثل هذا الشيء السيئ لشخص جيد مثلي؟»، وربما يكون هذا هو السؤال الأكثر إيلامًا الذي نواجهه في حياتنا، وهو السبب في عدد لا يحصى من الكتب التي تقدم نصائح روحية أو نفسية لمساعدة الضحايا على إيجاد خاتمة وتوافق.

وسواء كان جيم وكارين، أو مايكل شيافو وأصهاره، أو أزمة الرهائن في إيران، يمكن رؤية الفجوة بين الجناة والضحايا في الطريقة التي يروي بها كل جانب نفس القصة، فيكتب الجناة -سواء كانوا أفرادًا أو دولًا- نسخًا من التاريخ يتم فيها تبرير سلوكهم واستفزازهم من قبل الجانب الآخر، وأن سلوكهم كان معقولًا وبناءً، وإذا كانوا قد ارتكبوا أخطاء أو تهادوا فيها، فعلى الأقل تحول كل شيء إلى الأفضل على المدى الطويل، وكل شيء أصبح الآن في الماضي على أي حال، أما الضحايا فيميلون إلى كتابة روايات عن نفس التاريخ يصفون فيها أفعال الجاني بأنها تعسفية وعقيمة، أو أنها خبيثة ووحشية عن قصد، ومن ثم كان انتقامهم مناسبًا ومبررًا أخلاقيًا؛ ولم يتحول شيء فيها إلى الأفضل، بل في الواقع تحول كل شيء إلى الأسوأ وما زلنا مغتاظين مما حدث.

وهكذا يتعلم الأمريكيون الذين يعيشون في الشمال والغرب عن الحرب الأهلية كمسألة من التاريخ القديم أن: «قوات الاتحاد الشجاعة أجبرت الجنوب على التخلي عن مؤسسة العبودية القبيحة، ولقد هزمنا الخائن جيفرسون ديفيس وظلت البلاد موحدة. (سوف نسدل ستارًا فحسب على تواطؤنا كجناة ومحرضين على العبودية التي كانت في ذلك الوقت). ولكن معظم الجنوبيين البيض يروون قصة مختلفة حيث الحرب الأهلية ما زالت حية، تقول: «كانت قواتنا الكونفدرالية الشجاعة ضحايا للشماليين الجشعين والفجين الذين هزموا زعيمنا النبيل جيفرسون ديفيس، ودمروا مدننا وتقاليدنا وما زالوا يحاولون تدمير حقوق ولاياتنا، ولا يوجد شيء موحد يجمعنا، نحن الجنوبيين وأنتم الأمريكيين الملاعين، وسوف نستمر في رفع علمنا الكونفدرالي فهذا هو تاريخنا»، ربما تكون العبودية قد ذهبت مع الريح إلا أن الضغائن باقية، وهذا هو السبب في أن التاريخ يكتبه المنتصرون، ولكن الضحايا يكتبون المذكرات.

من بدأ هذا؟

واحدة من أكثر مخفضات التنافر شعبيةً وخلودًا ويمارسها الجميع من الأطفال الصغار إلى الطغاة هي: «من بدأ هذا هو الرجل الآخر»، فحتى هتلر قال إنهم من بدأوا ذلك، و«هم» هي الدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى التي أذلت ألمانيا بمعاهدة فرساي و«الحشرات» اليهودية التي كانت تقوض ألمانيا من الداخل، والمشكلة هي: إلى أي مدى تريد العودة

إلى الوراء لإظهار أن الرجل الآخر بدأها؟ وكما يوحي مثالنا الافتتاحي لأزمة الرهائن في إيران، فإن الضحايا لديهم ذكريات طويلة ويمكنهم استدعاء أحداث حقيقية أو متخيلة من الماضي القريب أو البعيد لتبرير رغبتهم في الانتقام الآن، فعبر قرون من الحرب بين المسلمين والمسيحيين -التي تغلي أحياناً وتفور أحياناً أخرى- من هم الجناة ومن هم الضحايا؟ لا توجد إجابة بسيطة، ولكن دعونا نفحص كيف برر كل جانب أفعاله.

بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ أعلن جورج بوش أنه سيشن حملة صليبية ضد الإرهاب، ورحب معظم الأمريكيين بهذا التشبيه، لأن في الغرب، الحملة الصليبية لها دلالات إيجابية ترتبط بالأخيار مثل الصليبيين، وهو الاسم الذي يطلق على الفرق الرياضية في كلية الصليب المقدس ومنها فريق كرة القدم، وباتمان وروبين، هم الصليبيون ذوو الأفعنة الذين يحاربون الأشرار، وقد بدأت الحروب الصليبية التاريخية الفعلية في الشرق الأوسط منذ أكثر من ألف عام وانتهت في أواخر القرن الثالث عشر، فهل يمكن أن يكون أي شيء أكثر انتهاءً من ذلك؟ ليس بالنسبة إلى معظم المسلمين الذين غضبوا وانزعجوا من استخدام بوش لهذا المصطلح، فبالنسبة إليهم خلقت الحروب الصليبية مشاعر الاضطهاد والظلم التي استمرت حتى وقتنا الحاضر، وقد حدثت الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٥ واستولى المسيحيون خلالها على القدس التي كان يسيطر عليها المسلمون، وذبحوا بلا رحمة جميع سكانها تقريباً، وتبدو كما لو كانت قد حدثت في الشهر الماضي، فهي حية في الذاكرة الجماعية.

لقد أعطت الحروب الصليبية ترخيصاً للمسيحيين الأوروبيين بذبح مئات الآلاف من «الكفار» المسلمين. (كما دُبح آلاف من اليهود في أثناء مسيرة الحجاج عبر أوروبا إلى القدس، وهذا هو السبب في أن بعض المؤرخين اليهود يطلقون على الحروب الصليبية «المحرقة الأولى»)، ومن وجهة النظر الحالية للغرب فإن الحروب الصليبية كانت مؤسفة، ولكنها -مثل كل الحروب- أنتجت فوائد متعددة المظاهر، فعلى سبيل المثال، فتحت الحروب الصليبية الباب أمام الاتفاقيات الثقافية والتجارية بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي، بينما ذهبت بعض الكتب إلى حد القول بأن المسيحيين كانوا يدافعون فقط عن أنفسهم ومصالحهم من الحروب المقدسة التي دفعت الغزو الإسلامي للبلدان المسيحية السابقة، ويقول غلاف كتاب روبرت سبنسر «الدليل غير الصحيح سياسياً للإسلام (والحروب الصليبية)» بجرأة: «كانت الحروب الصليبية صراعات دفاعية»، ومن ثم لم يكن المسيحيون هم الجناة الذين يعتقد كثير من المسلمين أنهم كذلك، بل كانوا هم الضحايا.

من هم الضحايا؟ يعتمد ذلك على عدد السنوات والعقود والقرون التي تأخذها في الاعتبار، فبحلول منتصف القرن العاشر -أي قبل أكثر من مائة عام من بدء الحروب الصليبية- كانت الجيوش العربية الإسلامية قد غزت نصف العالم المسيحي: مدينة القدس والبلدان التي تأسست فيها المسيحية لعدة قرون، بما في ذلك مصر وصقلية وإسبانيا وتركيا، وفي عام ١٠٩٥ دعا البابا أوربان الثاني الأرستقراطية الفرنسية إلى شن حرب مقدسة ضد جميع المسلمين، فمن شأن السعي لاستعادة

القدس أن يمنح المدن الأوروبية فرصة لتوسيع طرقها التجارية، وسينظم الأرستقراطية المحاربة حديثة الثراء ويحشد الفلاحين في قوة موحدة، وسيوحد العالم المسيحي الذي انقسم إلى قسمين، بيزنطي وروماني، وأكد البابا لقواته أن قتل المسلم يعد عملاً من أعمال تكفير الذنوب في المسيحية، ووعد البابا المقاتلين بأن أي شخص يُقتل في المعركة سيتخطى آلاف السنين من التعذيب في المطهر ويذهب مباشرة إلى الجنة، هل يبدو مألوفاً هذا الحافز لتوليد أناس مستعدين للاستشهاد من أجل قضيتك؟ إنه يحتوي على كل شيء عدا حور العين.

كانت الحملة الصليبية الأولى ناجحة بشكل كبير من الناحية الاقتصادية للمسيحيين الأوروبيين، وهو ما استفز المسلمين لتنظيم رد، وبحلول نهاية القرن الثاني عشر استعاد القائد المسلم صلاح الدين القدس، كما استعاد تقريباً كل دولة فاز بها الصليبيون، (وقّع صلاح الدين معاهدة سلام مع الملك ريتشارد الأول ملك إنجلترا عام ١١٩٢). لذا فإن الحروب الصليبية -رغم وحشيتها ودمويتها- سبقتها وأعقبها فتوحات إسلامية، فمن بدأ هذا؟

وبالمثل، فإن الصراع عسير العلاج بين الإسرائيليين والفلسطينيين له سلسلة من الأسباب الأصلية، ففي ١٢ يوليو ٢٠٠٦ اختطف مقاتلو حزب الله اثنين من جنود الاحتياط الإسرائيليين، هما إيهود جولدفاسر وإلداد ريحيف، وردت إسرائيل بإطلاق صواريخ على المناطق التي يسيطر عليها حزب الله في لبنان، مما أسفر عن مقتل عديد من المدنيين، وقد كتب المؤرخ تيموثي جارتون آش

-وهو يلاحظ الانتقام اللاحق لكلا الجانبين: «متى وأين بدأت هذه الحرب؟». هل بدأت في ١٢ يوليو أم قبل شهر عندما قتلت القذائف الإسرائيلية سبعة مدنيين فلسطينيين؟ أم في يناير السابق عندما فازت حماس في الانتخابات الفلسطينية؟ أم في عام ١٩٨٢ عندما غزت إسرائيل لبنان؟ أم في عام ١٩٧٩ مع انتصار الثورة الأصولية في إيران؟ أم في عام ١٩٤٨ مع إنشاء دولة إسرائيل؟ إجابة تيموثي جارتون آش على «ما الذي بدأ هذا؟» هي معاداة السامية الخبيثة الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي تضمنت المذابح الروسية، وهتاف الغوغاء الفرنسيين: «يسقط اليهود!» في أثناء محاكمة الكابتن ألفريد دريفوس، والهولوكوست، وكتب أن «الرفض الأوروبي الراديكالي» لليهود، أنتج القوى الدافعة للصهيونية والهجرة اليهودية إلى فلسطين، وإنشاء دولة إسرائيل: فحتى ونحن نتنقد الطريقة التي يقتل بها الجيش الإسرائيلي المدنيين اللبنانيين ومراقبي الأمم المتحدة باسم استعادة جولدفاسر... يجب أن نذكر أن كل هذا لم يكن ليحدث بالتأكيد لو لم يحاول بعض الأوروبيين -قبل بضعة عقود- إزالة أي شخص يُدعى جولدفاسر من أوروبا، إن لم يكن من على وجه الأرض^٥، وقد نقل جارتون آش تاريخ البداية إلى قرنين فقط، ولكن البعض الآخر سيعيدها إلى الوراثة بضعة آلاف من السنين.

بمجرد أن يلتزم الناس برأي حول «من بدأ هذا؟» -مهما كان الـ«هذا»، شجارًا عائليًا أو صراعًا دوليًا- يصبحون أقل قدرة على قبول

المعلومات التي تتعارض مع مواقفهم، فبمجرد أن يقرروا من هو الجاني ومن هي الضحية، فإن قدرتهم على التعاطف مع الجانب الآخر تضعف، بل وتنتهي، وتذكر عدد النقاشات التي شاركت فيها والتي تلاشت مع سؤال لا يمكن الإجابة عنه: «ولكن ماذا عن...؟»، فبمجرد أن تصف الفظائع التي ارتكبتها أحد الأطراف، سيحتج شخص ما: «ولكن ماذا عن الفظائع التي ارتكبتها الجانب الآخر؟».

يمكننا جميعاً أن نفهم سبب رغبة الضحايا في الانتقام، إلا أن الانتقام غالباً ما يجعل الجناة الأصليين يقللون من شدة وضرر أفعال جانبهم ويرتدون عباءة الضحية، وبالتالي يطلقون دورة من القمع والانتقام، وقد لاحظت المؤرخة باربرا توكمان أن «كل ثورة ناجحة ترتدي في الوقت المناسب أردية الطاغية الذي أطاحت به»، ولم لا؟ فالمنتصرون -الضحايا السابقون- يشعرون بأنهم محقون.

مرتكبو الشر

«كانت اللقطة الأولى التي رأيتها [من سجن أبي غريب]، للإخصائي تشارلز أ. جرانر والجندية ليندي آر إنجلاند وهما يرفعان الإبهام علامة على الموافقة أو القبول خلف كومة من ضحاياهما العراة، مزعجة للغاية، لدرجة أنني تصورت لبضع ثوانٍ أنها صورة مركبة (ممتبجة)... وكان هناك شيء مألوف حول عدم المبالاة المرحة هذه، وهو الانتصار -بلا خجل- في

إلحاق البؤس ببشر آخرين، ثم تذكرت أن آخر مرة رأيت فيها هذا الاقتران بين العناصر كانت في صور عمليات الإعدام خارج نطاق القانون»^٦.

- لوك سانتني، كاتب

«قد يكون من الصعب أحياناً تعريف الخير، ولكن للشّر رائحته الواضحة، وكل طفل يعرف معنى الألم، ولذلك في كل مرة نتعمد فيها إلحاق الأذى بآخر، فإننا نعرف ما نفعله. إننا نفعل الشر»^٧.

- عاموس عوز، روائي وناقد اجتماعي

هل اعتقد تشارلز جرانر وليندي إنجلاند أنهما «يفعلان الشر» بينما كانا يتعمدان إلحاق الألم والإذلال بسجنائهما العراقيين والضحك عليهم؟ لا، لم يعتقدوا ذلك، ولهذا السبب كان عاموس عوز مخطئاً، فهو لم يحسب قوة تبرير الذات: «نحن أناس طيبون، ولذلك إذا ألحقنا الألم عمداً بشخص آخر، فلا بد أن الآخر يستحق ذلك. لذلك نحن لا نفعل الشر بل على العكس تماماً، نحن نقوم بعمل جيد»، وفي الواقع فإن النسبة الصغيرة من الناس الذين لا يستطيعون أو لا يريدون تقليل التنافر بهذه الطريقة يدفعون ثمناً نفسياً كبيراً في الشعور بالذنب والكرب والقلق والكوابيس والليالي التي لا نوم فيها، كما سنناقش أكثر في الفصل التالي. إن ألم العيش مع الفظائع التي ارتكبتها ولكن لا يمكنك قبولها أخلاقياً هو ألم حارق، وهذا هو السبب في أن معظم الناس سوف يصلون إلى أي مبرر متاح لتخفيف التنافر.

إذا كان الأخيار يبررون الأشياء السيئة التي يفعلونها، فإن الأشرار يقنعون أنفسهم بأنهم الأخيار، فقد برر سلوبودان ميلوسيفيتش -«جزار البلقان»- في أثناء محاكمته التي استمرت أربع سنوات بتهمة ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية وإبادة جماعية، سياسته في التطهير العرقي التي أسفرت عن مقتل أكثر من مائتي ألف من الكروات ومسلمي البوسنة والألبان بأنه لم يكن مسؤولاً عن تلك الوفيات، وظل يكرر في محاكمته أن الصرب ضحايا للدعاية الإسلامية، فالحرب هي الحرب، وأنه كان يرد فقط على العدوان الذي ارتكبه ضد الصرب الأبرياء. أجرى ريكاردو أوريزيو مقابلات مع سبعة دكتاتوريين آخرين لا يرحمون، بما في ذلك عيدي أمين، وجان كلود «بيبي دو» دوفالييه، وميرا ماركوفيتش («الساحرة الحمراء»، زوجة ميلوسيفيتش)، وجان بيدل بوكاسا من جمهورية إفريقيا الوسطى (المعروف لشعبه باسم غول بيرينجو)، وادعى كل واحد منهم أن أي شيء فعلوه من تعذيب أو قتل خصومهم، ومنع الانتخابات الحرة، وتجويع مواطنيهم، ونهب ثروة أمتهم، وشن حروب الإبادة الجماعية، قد تم القيام به لصالح بلدهم، وقالوا إن البديل هو الاضطراب والفوضى وسفك الدماء، ونزحوا أنفسهم عن أن يكونوا طغاة، بل رأوا أنفسهم وطنيين يضحون بأنفسهم^٨، وكتب لويس ميناند: «إن درجة التنافر المعرفي التي ينطوي عليها كونك شخصاً يضطهد الناس بدافع حبك لهم يلخصها ملصق وضعه بيبي دو» دوفالييه في هايتي، وجاء فيه: «أود أن أقف أمام محكمة التاريخ بصفتي الشخص الذي أسس الديمقراطية في هايتي

بشكل لا رجعة فيه»، وتم التوقيع عليه «جان كلود دوفالبيه، رئيس مدى الحياة»^٩.

في الفصل السابق رأينا على نطاق أصغر كيف يبرر الأزواج المطلقون عادة الأذى الذي يلحقه بعضهم ببعض، باستخدام حسابات مرعبة لخداع الذات، بالزعم أن ضحايانا يستحقون ما حصلوا عليه، وأننا نكرههم أكثر مما كنا نكرههم قبل أن نؤذيهم، وهذا بدوره يجعلنا نلحق بهم مزيداً من الألم، وقد أكدت التجارب هذه الآلية عدة مرات، وفي إحدى التجارب التي أجراها كيث ديفيس وإدوارد جونز شاهد الطلاب طالباً آخر تتم مقابله، وبعد ذلك كان عليهم -بناءً على تعليمات من المُجربين- إبلاغ الطالب المستهدف بأنهم وجدوه ضحلاً وغير جدير بالثقة ومملاً، ونتيجة لإجراء هذا التقييم السيئ إلى حد ما، نجح المشاركون في إقناع أنفسهم بأن الضحية يستحق بالفعل انتقادهم، ووجدوه أقل جاذبية مما كان عليه قبل أن يؤذوا مشاعره، وحدث هذا التغيير في شعورهم رغم أنهم كانوا يعرفون أن الطالب الآخر لم يفعل شيئاً يستحق نقدهم وأنهم كانوا ببساطة يتبعون تعليمات المُجرب^{١٠}.

هل جميع الضحايا متشابهون في نظر الجاني؟ لا، فهم يختلفون في درجة عجزهم، ولنفترض مثلاً أنك جندي من مشاة البحرية واشتبكت في صراع بالأيدي مع جندي عدو مسلح، وقتلته، فهل ستشعر بكثير من التنافر؟ ربما لا. قد تكون التجربة غير سارة ولكنها لا تولّد تنافراً ولا تحتاج إلى مبرر إضافي: «لقد كان هو أو أنا... لقد قتلت عدواً... نحن في هذا للفوز... ليس لدي خيار هنا»، ولكن لنفترض الآن أنك

في مهمة لإلقاء قنابل حارقة على منزل قيل لك إنه يحتوي على قوات معادية، فتدمّر أنت وفريقك المكان ثم تكتشف أنك فجّرت منزلاً يسكنه رجال كبار السن وأطفال ونساء، وفي ظل هذه الظروف سيحاول معظم الجنود الحد من التنافر الذي يشعرون به حيال قتل المدنيين الأبرياء، وستكون الطريقة الرائدة هي تشويه سمعة ضحاياهم وتجريدتهم من إنسانيتهم: «الحمقى الأغبياء ما كان ينبغي أن يكونوا هناك... ربما كانوا يساعدون العدو... كل هؤلاء الناس حشرات وحمقى وأشباه للبشر»، أو كما قال الجنرال وليام ويستمورلاند الشهير عن العدد الكبير من الضحايا المدنيين خلال حرب فيتنام: «الشرق لا يضع نفس الثمن الباهظ على الحياة كما يفعل الغربي، فالحياة وفيرة، ومن ثم فهي رخيصة في الشرق»^{١١}.

لذلك تتنبأ نظرية التنافر بأنه عندما يكون الجنود مسلحين وقادرين على الرد، فإن الجناة سيشعرون بالحاجة إلى الحد من التنافر عن طريق التقليل من شأنهم أكثر مما يشعرون به عندما يكون ضحاياهم عاجزين، وفي تجربة أجرتها إلين بيرشايد وزملاؤها دُفع المشاركون إلى الاعتقاد بأنهم سيقدمون صدمة كهربائية مؤلمة لشخص آخر كجزء من اختبار التعلم، وقيل لنصفهم إنهم سيعكسون الأدوار في وقت لاحق، وبالتالي فإن الضحية ستكون في وضع يسمح لها بالانتقام، وكما كان متوقعًا كان المشاركون الوحيدون الذين شوّها سمعة ضحاياهم هم أولئك الذين اعتقدوا أن الضحايا عاجزون ولن يكونوا قادرين على الرد بالمثل^{١٢}، وكان هذا بالضبط هو وضع الأشخاص الذين شاركوا في تجربة طاعة

ستانلي ميلجرام عام ١٩٦٣، والموصوفة في الفصل الأول، فعدد من أولئك الذين أطاعوا أوامر المُجرب لإيصال ما اعتقدوا أنه كميات خطيرة من الصدمة للمتعلّم برروا أفعالهم بإلقاء اللوم على الضحية، وكما قال ستانلي ميلجرام نفسه: «يقلل عدد من الأشخاص بقسوة من قيمة الضحية نتيجة تصرفهم ضدها، وكانت تعليقات مثل: «لقد كان غيبًا وعنيديًا لدرجة أنه يستحق الصدمة» شائعة، فبمجرد أن تصرف هؤلاء الأشخاص ضد الضحية وجدوا أنه من الضروري النظر إليه على أنه فرد لا يستحق، ومن ثم فإن عقوبته حتمية بسبب أوجه القصور في الفكر والشخصية»^{١٣}.

إن الآثار المترتبة على هذه الدراسات مشؤومة، لأنها تُظهر أن الناس لا يقومون بأعمال وحشية ويخرجون منها سالمين، ولكن النجاح في تجريد الضحية من إنسانيتها يضمن تقريبًا استمرارًا أو حتى تصعيدًا للقسوة، فهو يُنشئ سلسلة لا نهاية لها من العنف الذي يتبعه تبرير الذات (في شكل تجريد الضحية من إنسانيتها وإلقاء اللوم عليها)، يلي هذا مزيد من العنف والتجريد من الإنسانية. اجمع بين الجناة الذين يبررون ذاتهم والضحايا الذين لا حول لهم ولا قوة، وسوف تكون لديك وصفة لتصعيد الوحشية، وهذه الوحشية لا تقتصر على المتوحشين؛ أي الساديين أو المرضى النفسيين، بل يمكن أن يرتكبها -وعادة ما يرتكبها- أفراد عاديون لديهم أطفال ومحبون، أشخاص «متحضرون» يستمتعون بالموسيقى والطعام ويمارسون الحب والنميمة مثل أي شخص آخر، وهذه واحدة من أكثر النتائج

توثيقاً في علم النفس الاجتماعي، ولكنها أيضاً الأكثر صعوبة في القبول بالنسبة إلى كثير من الناس بسبب التنافر الهائل الذي تنتجه: «ما القواسم المشتركة التي يمكن أن تكون بيني وبين مرتكبي جرائم القتل والتعذيب؟»، إنه لأمر مطمئن أكثر أن نصدق أنهم أشرار وأن نطوي صفحاتهم^{١٤}، ونحن لا نجرؤ على ترك بصيص من ضوء إنسانيتهم يمر من الباب، لأنه قد يجبرنا على مواجهة الحقيقة التي لا يمكن نسيانها لشخصية بوجو العظيمة لرسام الكاريكاتير والت كيللي، التي قالت مقولتها الشهيرة: «لقد التقينا بالعدو وهو نحن».

ومع ذلك، إذا كان يُنظر إلى الجناة باعتبارهم ينتمون إلينا، فإن عديداً من الناس سوف يقللون من التنافر من خلال الدفاع عنهم أو التقليل من خطورة أو عدم قانونية أفعالهم، أي شيء يجعل أفعالهم تبدو مختلفة اختلافاً جوهرياً عما يفعله العدو، فهم يفترضون أن الأشرار مثل عيدي أمين أو صدام حسين هم وحدهم الذين يعذبون أعداءهم، ولكن كما أظهر جون كونروي في كتابه «أفعال لا توصف لأناس عاديين»، فإنه ليس المحققون في البلدان غير الديمقراطية وحدهم هم الذين ينتهكون الحظر الذي تفرضه اتفاقيات جنيف على «الاعتداء على الحياة والسلامة البدنية، ولا سيما القتل بجميع أنواعه، والتشويه، والمعاملة القاسية، والتعذيب... [و] الاعتداء على الكرامة الشخصية، ولا سيما المعاملة المهينة والحاطة بالكرامة»، وقد وجد كونروي في تحقيقه في الحالات الموثقة لإساءة معاملة السجناء، أن كل مسؤول عسكري أو شرطي تقريباً قابله -سواء كان بريطانياً أو جنوب إفريقي أو إسرائيلياً-

أو أمريكيًا- برر ممارساته بالقول، في الواقع، «إن تعذيبنا لم يكن قَط شديدًا ومميّتا مثل تعذيبهم».

أخبرني بروس مور كينج [من جنوب إفريقيا] بأنه عندما كان يُجري عمليات التعذيب لم يهاجم قَط الأعضاء التناسلية، كما اعتاد الجلادون في أماكن أخرى أن يفعلوا... وأخبرني هوجو جارسيا أن الجلادين الأرجنتينيين كانوا أسوأ بكثير من نظرائهم في الأوروغواي، وأكد لي عُمري كوتشفا أن رجال كتيبة ناحال في إسرائيل لم يهبطوا قَط إلى مستوى الأمريكيين في فيتنام... وواسي البريطانيون أنفسهم بتبرير أن أساليبهم لم تكن شيئًا مقارنة بالمعاناة التي خلقها الجيش الجمهوري الإيرلندي، ويجادل الإسرائيليون بانتظام بأن أساليبهم تتضاءل بالمقارنة مع التعذيب الذي تستخدمه الدول العربية^{١٥}.

أما بالنسبة إلى الأمريكيين، فقد تسببت صور الجنود الأمريكيين وهم يهينون ويعذبون الإرهابيين المشتبه بهم في سجن أبي غريب في العراق في إثارة الاشمئزاز في جميع أنحاء العالم، وكشفت التحقيقات المحايدة التي أجراها الصليب الأحمر ومنظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش أن المحققين الأمريكيين وحلفاءهم كانوا يستخدمون الحرمان من النوم والعزلة المطولة والإيهاام بالغرق والإذلال الجنسي وتخفيض حرارة الجسم والضرب، وغيرها من الأساليب القاسية، ضد المشتبه في كونهم إرهابيين، ليس فقط في أبي غريب، ولكن أيضًا في خليج جواتانامو وفي «المواقع السوداء» في بلدان أخرى، وفي عام ٢٠١٤ أكد تقرير للجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ أن استخدام

وكالة الاستخبارات المركزية للتعذيب كان أكثر انتشارًا ووحشية مما كان يعتقد الكونجرس أو الجمهور^{١٦}.

كيف قلل مُنشئو سياسة وكالة المخابرات المركزية وأولئك الذين نفذوها من التنافر الناجم عن المعلومات التي تفيد بأن الولايات المتحدة كانت تنتهك بشكل منهجي اتفاقيات جنيف؟ الطريقة الأولى هي أن نقول إننا إذا فعلنا ذلك فهذا ليس تعذيبًا، وقد قال جورج دبليو بوش: «نحن لا نعذب، ولكننا نستخدم مجموعة بديلة من الإجراءات»، وكان رد ديك تشيني على تقرير مجلس الشيوخ لعام ٢٠١٤ - قبل أن يقرأه: «إنه مليء بالهراء». عندما أجرى تشاك تود مقابلة مع تشيني في برنامج واجه الصحافة، وطلب منه تود بإصرار تعريف التعذيب، فأجاب تشيني: «هناك تصور بوجود تكافؤ أخلاقي بين ما يفعله الإرهابيون وما نفعله، وهذا ليس صحيحًا على الإطلاق. كنا حريصين جدًا على ألا نصل إلى حد التعذيب، وقد رأى مجلس الشيوخ أنه من المناسب وصف تقريرهم بالتعذيب، ولكننا عملنا بجدية على ألا نصل إلى ما يتضمنه هذا التعريف».

ضغط عليه تود: «حسنًا، ما هذا التعريف إذن؟ أليس «الحقن الشرجي من دون دواعٍ طبية» تعذيبًا؟». أجاب تشيني بحدة: «لقد أخبرتك بما يفني بتعريف التعذيب، وهو ما فعله تسعة عشر رجلًا مسلحين بتذاكر الطيران وقواطع الصناديق لثلاثة آلاف أمريكي في ١١ سبتمبر ٢٠٠١». ولكن تود استمر في الضغط: «ماذا عن رياض النجار الذي كان مكبل اليدين من معصميه إلى قضيب علوي حتى لا يتمكن من

خفض ذراعيه لمدة اثنتين وعشرين ساعة في اليوم لمدة يومين متتاليين، بينما كان يرتدي حفاظات وحُرم من الوصول إلى المرحاض؟ ماذا عن أبي زبيدة الذي احتُجز لمدة أحد عشر يومًا وساعتين في صندوق بحجم التابوت كان عرضه ٢١ بوصة (٥٣ سم) وعمقه قدمان ونصف (٧٦ سم) وارتفاعه قدمان ونصف (٧٦ سم)؟ أليس تعذيبًا؟». فقال تشيني: «كانت تلك التقنيات المعتمدة». فسأل تود: «هل يزرع التقرير أي بذرة شك فيك رغم ذلك؟». فقال تشيني: «قطعًا لا»^{١٧}.

الطريقة الثانية لتقليل التنافر هي أن نقول إننا إذا عذبنا أي شخص فهذا مسوخ، فقال السناتور جيمس إنهوف من أو كلاهوما إن السجناء في أبي غريب يستحقون كل ما حدث لهم لأنهم «قتلة وإرهابيون ومتمردون، ومن المحتمل أن تكون أيدي عديد منهم ملطخة بالدماء الأمريكية»، ويبدو أنه لم يكن على علم بأن معظم السجناء قد أُلقي القبض عليهم لأسباب تعسفية أو جرائم بسيطة ولم توجه إليهم أي تهم رسمية قط، وبالفعل فقد قال عديد من ضباط المخابرات العسكرية للجنة الدولية للصليب الأحمر إن ما بين ٧٠ و ٩٠٪ من المعتقلين العراقيين اعتُقلوا عن طريق الخطأ^{١٨}.

المبرر الشائع للتعذيب هو ذريعة القنبلة الموقوتة، وكما قال كاتب العمود تشارلز كراو ثامر: «لقد زرع إرهابي قنبلة نووية في مدينة نيويورك، وسوف تنفجر بعد ساعة واحدة، وسيموت مليون شخص، ولكنك تقبض على الإرهابي الذي يعرف مكانها ولكنه لا يتحدث، والسؤال هو: إذا كان لديك أدنى اعتقاد بأن تعليق هذا الرجل من إبهامه

سيوفر لك المعلومات لإنقاذ مليون شخص، فهل يُسمح لك بذلك؟». يجب كراوثامر: «نعم، وليس فقط يُسمح لك بذلك، بل إنه واجب الأخلاقي»^{١٩}، فليس لديك الوقت للاتصال بالمسؤولين عن تنفيذ اتفاقيات جنيف وسؤالهم عما إذا كان الأمر على ما يرام، ومن ثم ستفعل كل ما في وسعك لجعل الإرهابي يخبرك بموقع القنبلة».

عندما يوضع الأمر على هذا النحو، فقد يضع معظم الأمريكيين مخاوفهم الأخلاقية جانباً ويقررون أن شخصاً واحداً يستحق التعذيب لإنقاذ مليون شخص، والمشكلة في هذا المنطق هي أن تبريره العملي لا يصمد، فالمشتبه بهم الذين يتعرضون للتعذيب سيقولون أي شيء، وكما قالت إحدى الافتتاحيات: «التعذيب طريقة فظيعة للقيام بالشيء نفسه الذي تستخدمه الإدارة لتبريره، وهو الحصول على معلومات دقيقة، وتُظهر قرون من الخبرة أن الناس سيخبرون معذبيهم بما يريدون سماعه، سواء كان ذلك بالاعتراف بممارسة السحر في مدينة سالم في ولاية ماساتشوستس، أو الاعتراف بالميول المضادة للثورة في روسيا السوفيتية، أو اختلاق قصص عن العراق والقاعدة»^{٢٠}، والواقع أن تقرير الاستخبارات في مجلس الشيوخ أكد أنه لم تثبت فائدة أي معلومات تم الحصول عليها من تعذيب المعتقلين في القبض على/ أو قتل أي إرهابي، بما في ذلك أسامة بن لادن، والأسوأ من ذلك أن ذريعة «إنقاذ الأرواح» تُستخدم حتى عندما لا توجد قنبلة موقوتة، ونفت وزيرة الخارجية السابقة كوندوليزا رايس استخدام أي تعذيب، وذلك خلال زيارة لألمانيا تعرضت فيها لوابل من الاحتجاجات من القادة

الأوروبيين حول استخدام الأمريكيين التعذيب ضد المشتبه في كونهم إرهابيين والمحتجزين في سجون سرية، وأضافت أن منتقديها يجب أن يدركوا أن استجواب هؤلاء المشتبه بهم قد أنتج معلومات «أوقفت هجمات إرهابية وأنقذت أرواحًا بريئة في أوروبا وكذلك في الولايات المتحدة»^{٢١}، وبدأت غير مهتمة بأن هذه الاستجوابات قد دمرت أيضًا أرواح أبرياء، واعترفت رايس بأن «أخطاء قد ارتكبت» عندما اختطفت الولايات المتحدة مواطنًا ألمانيًا بريئًا للاشتباه في تورطه في الإرهاب وعرضته لمعاملة قاسية ومهينة لمدة خمسة أشهر.

بمجرد تبرير التعذيب في حالة واحدة يصبح من الأسهل تبريره في حالات أخرى: «دعونا نعذب ليس فقط هذا الوغد الذي نحن على يقين تام من أنه يعرف مكان القبلة ولكن هذا الوغد الآخر الذي قد يعرف مكان القبلة، وكذلك ذلك الوغد الذي قد يكون لديه بعض المعلومات العامة التي يمكن أن تكون مفيدة في غضون خمس سنوات، وأيضًا هذا الرجل الآخر الذي قد يكون وغدًا فقط لسنا متأكدين»، وقد لاحظ وليام شولتز، مدير منظمة العفو الدولية، أنه وفقًا لمنظمات حقوق الإنسان الإسرائيلية والدولية والفلسطينية ذات المصداقية، استخدم الإسرائيليون أساليب استجواب من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٣ تشكّل تعذيبًا، وقال: «في حين أن استخدام أساليب التعذيب هذه كان مبررًا في الأصل على أساس العثور على «قنابل موقوتة»، فإنه أصبح أمرًا روتينيًا»^{٢٢}، ووصف رقيب في الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً التابعة للجيش الأمريكي كيف حدثت هذه العملية في معاملة المحتجزين العراقيين: لقد أطلقوا

علينا في معسكرنا لقب «المجانين القتلة»... عندما دخل [المحتجزون] كان الأمر أشبه بلعبة، فإلى أي مدى يمكنك أن تجعل هذا الرجل يستمر قبل أن يغمر عليه أو ينهار بين يديك، من أوضاع الإجهاد إلى إبقائهم مستيقظين لمدة يومين متتاليين، وحرمانهم من الطعام والماء، وأي شيء آخر... أخبرتنا الاستخبارات أن هؤلاء الرجال سيئون، ولكنهم كانوا مخطئين في بعض الأحيان^{٢٣}.

يقول الرقيب: «إنهم كانوا مخطئين في بعض الأحيان»، ومع ذلك عاملناهم جميعاً بنفس الطريقة.

ركز النقاش حول التعذيب بشكل صحيح على شرعيته وأخلاقياته وفائدته، وبصفتنا علماء نفس اجتماعي فإننا نود أن نضيف قلقاً إضافياً، وهو ما يفعله التعذيب بالجاني الفردي والمواطنين العاديين الذين يوافقون عليه، إذ يريد معظم الناس أن يصدقوا أن حكومتهم تعمل نيابة عنهم، وأنها تعرف ما تفعله، وأنها تفعل الشيء الصحيح، ولذلك إذا قررت الحكومة أن التعذيب ضروري في الحرب ضد الإرهاب، فإن معظم المواطنين -لتجنب التنافر- سيوافقون، ولكن هذه هي الطريقة التي يتدهور بها الضمير الأخلاقي للأمة بمرور الوقت، وبمجرد أن يتخذ الناس هذه الخطوة الصغيرة الأولى لنزول الهرم في اتجاه تبرير سوء المعاملة والتعذيب، فإنهم يكونون في طريقهم إلى تصلب قلوبهم وعقولهم بطرائق قد لا يمكن التراجع عنها أبداً، فالوطنية غير الناقدة من النوع الذي يقلل من التنافر الناجم عن المعلومات التي تفيد بأن

حكومتهم - وخاصة حزبهم السياسي - قد فعلت شيئاً غير أخلاقي وغير قانوني، تُيسر الانزلاق إلى أسفل الهرم.

لقد راقبنا هذا الانزلاق بحزن وجزع، ففي ديسمبر ٢٠١٤ - بعد ظهور تقرير استخبارات مجلس الشيوخ - وجد استطلاع وطني أجراه مركز بيو للأبحاث أن ٥١٪ من جميع الأمريكيين ما زالوا يوافقون على أن استخدام وكالة المخابرات المركزية للتعذيب «مبرر»، وأكثر من نصفهم ما زالوا يعتقدون خطأ أن أساليب الاستجواب التي تتبعها وكالة المخابرات المركزية ساعدت في منع هجمات إرهابية، وأظهرت استطلاعات الرأي أيضاً أن هذه القضية، مثل عديد من القضايا الأخرى التي وجد فيها الحزبان ذات مرة أرضية مشتركة، قد أصبحت مسألة حزبية: فقد قال ٧٦٪ من جميع الجمهوريين إن أساليب الاستجواب التي اتبعتها وكالة المخابرات المركزية بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ كانت مبررة، في حين أن ٣٧٪ فقط من الديمقراطيين رأوا ذلك^{٢٤}، ولكن التعذيب لم يكن دائماً قضية حزبية، فقد كان رونالد ريغان - رغم كل شيء - هو الذي وقّع على اتفاقية الأمم المتحدة لمناهضة التعذيب في عام ١٩٨٨، ولكن على الرغم من أن باراك أوباما حظر استخدام «تقنيات الاستجواب المعززة»، فقد غض الطرف عن سياسة سلفه، وقال: نجرؤ على القول «لقد عذبنا بعض الناس»، حيث خفف من قبح العمل باستخدام هذا المصطلح الشعبي «نجرؤ على القول»، وأيد جهود وكالة المخابرات المركزية لفرض رقابة على أجزاء من التقرير ورفض إخضاع أيٍّ من مرتكبي التعذيب أو السياسات التي سمحت بذلك للمحاسبة.

وكما يقول عالم السياسة داريوس رجالي: «من دون الاعتراف المتبادل بالأخطاء، وشكل من أشكال المساءلة، قد يكون من الصعب منع العودة إلى التعذيب مرة أخرى، فلا شيء يتنبأ بالسلوك المستقبلي مثل الإفلات من العقاب في الماضي»^{٢٥}، الإفلات من العقاب بدوره يثيب تبرير الذات، ليس فقط بالنسبة إلى الجناة ولكن أيضًا بالنسبة إلى الأمة التي تُبرئهم.

ومع ذلك، قاوم بعض السياسيين إغراء تبرير تصرفات وكالة المخابرات المركزية، وكان أحدهم، وهو السناتور الجمهوري جون ماكين، بليغاً بشكل خاص، حين قال: «في بعض الأحيان تكون الحقيقة حبة يصعب ابتلاعها، ولكن مع ذلك فمن حق الشعب الأمريكي الحصول عليها»، يجب أن يعرفوا متى تتجاهل سياساتنا الأمنية عمداً القيم التي تميز أمتنا، حتى تلك السياسات التي تتم في الخفاء، ويجب أن يكونوا قادرين على إصدار أحكام مستنيرة بشأن ما إذا كانت تلك السياسات والموظفون الذين يدعمونها محقين في التنازل عن قيمنا، وما إذا كانوا يخدمون خيراً أكبر، أو ما إذا كانوا - كما أعتقد - قد لطمخوا شرفنا الوطني، وألحقوا بنا كثيراً من الضرر وقليلًا من الخير العملي، وما هذه السياسات؟ وماذا كان الغرض منها؟ هل حققوا ذلك؟ هل جعلونا أكثر أماناً؟ أم أقل أماناً؟ أم أنها لم تُحدث فرقاً؟ وماذا أक्सبونا؟ وماذا كلفونا؟ إن الشعب الأمريكي يحتاج إلى إجابات عن هذه الأسئلة... لقد كان [استخدام التعذيب] مخزياً وغير ضروري... ولكن فشل التعذيب في تحقيق الغرض المقصود منه ليس السبب الرئيسي

لمعارضة استخدامه، فقد قلت في كثير من الأحيان -وسأظل أؤكد دائماً- إن هذا السؤال لا يتعلق بأعدائنا ولكنه يتعلق بنا، إنه يتعلق بمن كنا، ومن نحن، ومن نطمح أن نكون، إنه يتعلق بكيفية تقديم أنفسنا للعالم^{٢٦}.

الحقيقة والمصالحة

في نسختنا المفضلة من القصة البوذية القديمة، يعود عديد من الرهبان إلى ديرهم بعد رحلة حج طويلة عبر الجبال الشاهقة والوديان المنخفضة، احترموا خلالها قسمهم بالصمت خارج الدير، ولكنهم ذات يوم وصلوا إلى نهر هائج حيث تقف امرأة شابة جميلة، والتي اقتربت من الراهب الأكبر وقالت: «سامحني يا معلم، ولكن هل يمكن أن تحملني عبر النهر؟ فأنا لا أستطيع السباحة، وإذا بقيت هنا أو حاولت العبور بمفردي فسأهلك بالتأكيد»، فابتسم لها الراهب العجوز بحرارة وقال: «بالطبع سأساعدك»، ثم أخذها وحملها عبر النهر، وعلى الجانب الآخر وضعها برفق، فشكرته ورحلت، بينما واصل الرهبان رحلتهم الصامتة.

بعد خمسة أيام أخرى من السفر الشاق يصل الرهبان إلى ديرهم، وفي اللحظة التي يصلون فيها، يستديرون إلى الشيخ بغضب ويلومونه قائلين: «كيف تمكنت من فعل ذلك؟ لقد نقضت نذورك! فأنت لم تتحدث إلى تلك المرأة فقط، بل لمستها! وأنت لم تلمسها فقط، بل التقطتها!»، فيجيب الشيخ: «أنا حملتها عبر النهر فقط، أما أنتم فقد كنتم تحملونها لخمسـة أيام».

لقد حمل الرهبان المرأة في قلوبهم لعدة أيام، ويتحمل بعض الجناة والضحايا أعباء الشعور بالذنب والحزن والغضب والانتقام لسنوات، فما الذي يتطلبه الأمر لتخفيف هذه الأعباء؟ كل من حاول التدخل بين الأزواج أو الدول المتحاربة يعرف كم هو مؤلم أن يتخلى كلا الجانبين عن تبرير الذات، خاصة بعد سنوات من القتال، والدفاع عن موقفهما، والتحرك أسفل الهرم بعيداً عن التسوية والأرضية المشتركة، ولذلك يواجه الوسطاء والمفاوضون تحديين، هما: إقناع الجناة بالاعتراف بالضرر الذي تسببوا فيه والتكفير عنه، وإقناع الضحايا بالتخلي عن دافع الانتقام مع الاعتراف والتعاطف مع الضرر الذي عانوا منه.

وصف عالما النفس الإكلينيكي أندرو كريستنسن ونيل جاكوبسون في عملهما مع المتزوجين الذين جرح فيه أحد الشريكين الآخر بشدة أو خانه، ثلاث طرائق ممكنة للخروج من المأزق العاطفي، ففي الحالة الأولى يضع مرتكب الجريمة مشاعره جانباً من جانب واحد، ويدرك أن غضب الضحية يخفي معاناة هائلة، ويستجيب لتلك المعاناة بندم واعتذار حقيقيين، وفي الحالة الثانية يتخلى الضحية من تلقاء نفسه عن اتهاماته المتكررة والغاضبة - فقد تم توضيح موقفه بالفعل - ويعبر عن الألم بدلاً من الغضب، وهي استجابة قد تجعل الجاني يشعر بالتعاطف والاهتمام بدلاً من الدفاع، ويقول كريستنسن وجاكوبسون: «أيُّ من هذين الإجراءين يكون صعباً ومستحيلاً بالنسبة إلى كثير من الناس إذا ما تم اتخاذهما من جانب واحد»^{٢٧}، ويطرحان أن الطريقة الثالثة هي الأصعب ولكنها الأكثر أملاً في التوصل إلى حل طويل الأجل

للخلاف، وهي أن يتخلى الجانبان عن تبريراتها الذاتية ويتفقان على الخطوات التي يمكنهما اتخاذها معًا للمُضي قدمًا، فإذا كان الجاني وحده هو الذي يعتذر ويحاول التكفير، فقد لا يتم ذلك بأمانة أو بطريقة تهدئ من معاناة الضحية وتُنهيها، وإذا كانت الضحية وحدها هي التي تتخلى وتسامح فقد لا يكون لدى الجاني أي حافز للتغيير، ومن ثم فقد يستمر في التصرف بشكل غير عادل أو قاسٍ^{٢٨}.

كان كريستنسن وجاكوبسون يتحدثان عن شخصين في صراع، ولكن تحليلهما -في رأينا- ينطبق أيضًا على صراعات المجموعات، حيث لا تكون الطريقة الثالثة هي الطريقة الأفضل فحسب، بل هي أيضًا الطريقة الوحيدة، ففي جنوب إفريقيا كان من الممكن بسهولة أن تترك نهاية الفصل العنصري إرثًا من الغضب المبرر ذاتيًا من جانب البيض الذين دعموا الوضع الراهن والامتيازات التي منحها لهم، والغضب المبرر ذاتيًا من جانب السود الذين كانوا ضحاياه، ولكن تطلب الأمر شجاعة رجل أبيض هو فريدريك دي كليرك، ورجل أسود هو نيلسون مانديلا لتجنب حمام الدم الذي يعقب معظم الثورات، ولخلق الظروف التي جعلت من الممكن لبلدهم التحرك نحو الديمقراطية.

كان دي كليرك الذي انتُخب رئيسًا في عام ١٩٨٩ يعلم أن الثورة العنيفة حتمية، وكانت المعركة ضد الفصل العنصري تتصاعد. والجزاءات التي تفرضها بلدان أخرى تؤثر تأثيرًا كبيرًا على اقتصاد البلد، وأصبح أنصار المؤتمر الوطني الإفريقي المحظور عنيفين بشكل متزايد، وقتلوا وعذبوا الأشخاص الذين اعتقدوا أنهم يتعاونون مع نظام

البيض، وكان بإمكان دي كليرك تشديد الخناق من خلال وضع سياسات أكثر قمعية على أمل يائس في الحفاظ على سلطة البيض، ولكنه بدلاً من ذلك ألغى الحظر المفروض على حزب المؤتمر الوطني الإفريقي وأطلق سراح مانديلا من السجن الذي أمضى فيه سبعة وعشرين عامًا، ومن جانبه كان بإمكان مانديلا أن يسمح لغضبه بأن يستهلكه، وكان يمكنه الخروج من السجن بتصميم على الانتقام، وهو ما كان كثيرون سيجدونه شرعيًا تمامًا، ولكن بدلاً من ذلك تخلى عن الغضب من أجل الهدف الذي كرّس حياته من أجله، وقال مانديلا: «إذا كنت تريد صنع السلام مع عدوك، فعليك أن تعمل معه، ثم سيصبح شريكك»، وفي عام ١٩٩٣ تقاسم كلا الرجلين جائزة نوبل للسلام، وفي العام التالي انتُخب مانديلا رئيسًا لجنوب إفريقيا.

وكان أول قانون فعلي للديمقراطية الجديدة هو إنشاء لجنة الحقيقة والمصالحة، برئاسة رئيس الأساقفة ديزموند توتو، (كما أنشئت ثلاث لجان أخرى معنية بانتهاكات حقوق الإنسان والعفو والتعويض وإعادة التأهيل)، وكان هدف لجنة الحقيقة والمصالحة هو منح ضحايا الوحشية محفلاً يتم فيه الاستماع إلى رواياتهم والتحقق من صحتها، واستعادة كرامتهم وإحساسهم بالعدالة، والتعبير عن مآلهم أمام الجناة أنفسهم، وكان على الجناة -في مقابل العفو- أن يعترفوا بالضرر الذي ألحقوه بما في ذلك التعذيب والقتل، وشددت اللجنة على «الحاجة إلى التفهم وليس الانتقام، والحاجة إلى إزالة الضرر وليس الثأر، والحاجة إلى أوبونتو [الإنسانية تجاه الآخرين] وليس الإيذاء».

كانت أهداف لجنة الحقيقة والمصالحة ملهمة، وإن لم تُحترم بالكامل في الممارسة العملية، وأنتجت اللجنة تدمراً وسخرية واحتجاجات وغضباً، وكان عديد من ضحايا الفصل العنصري السود -مثل عائلة ستيفن بيكو الناشط الذي قُتل في السجن- غاضبين من أحكام العفو عن الجناة، ولم يعتذر عديد من الجناة البيض بأي شيء يشبه ولو من بعيد مشاعر الندم الحقيقية، ولم يكن عديد من مؤيدي الفصل العنصري البيض مهتمين بالاستماع إلى اعترافات أقرانهم الإذاعية، ولم تصبح جنوب إفريقيا جنة، فهي لا تزال تعاني من الفقر وارتفاع معدلات الجريمة، ومع ذلك فلم يحدث اندلاع العنف الذي كان متوقعاً، وعندما سافر عالم النفس سولومون شيميل إلى هناك وأجرى مقابلات مع أشخاص من مختلف الأطياف السياسية والثقافية من أجل كتابه عن ضحايا الظلم والفظائع، توقع أن يسمعهم يصفون غضبهم ورغبتهم في الانتقام، ولكن كما ذكر: «أكثر ما أثار إعجابي بشكل عام هو الافتقار الملحوظ إلى الحقد العلني والكرهية بين السود والبيض، والجهود المتضافرة لخلق مجتمع يسود فيه الانسجام العرقي والعدالة الاقتصادية»^{٢٩}.

إن التفاهم من دون انتقام والتعويض من دون ثأر لا يمكن تحقيقهما إلا إذا كنا على استعداد للتوقف عن تبرير موقفنا. بعد سنوات عديدة من حرب فيتنام عاد المخضرم وليام برويلز جونيور إلى فيتنام لمحاولة حسم مشاعره بخصوص الفظائع التي رآها هناك وتلك التي ارتكبها، وكما قال فقد ذهب لأنه أراد مقابلة أعدائه السابقين «كأشخاص وليس

كأفكار مجردة»، والتقى برويلز في قرية صغيرة كانت معسكرًا لمشاة البحرية بامرأة كانت مع الفيتكونج، وفي أثناء حديثهما أدرك أن زوجها قُتل في الوقت الذي كان فيه هو ورجاله يقومون بدوريات، فقال لها: «ربما قتلت أنا ورجالي زوجك»، فنظرت إليه بشتات وقالت: «لكن ذلك كان خلال الحرب، والحرب انتهت الآن والحياة تستمر»^{٣٠}، وفي وقت لاحق قَلَّب برويلز الرأي في زيارته العلاجية إلى فيتنام:

اعتدت أن أعاني من الكوابيس، ولكن منذ أن عدت من تلك الرحلة لم أعانِ من أي كوابيس، وربما يبدو هذا شخصيًا أكثر من اللازم كي يدعم أي استنتاجات أكبر، ولكنه يخبرني أنه لإنهاء الحرب، عليك العودة إلى نفس العلاقات الشخصية التي كنت ستقيمها مع الناس قبلها، فأنت تصنع السلام، ولا شيء ثابت في التاريخ.

٨. إطلاق العنان والاعتراف بارتكاب أخطاء

سافر رجل عدة أميال لاستشارة المعلم الأكثر حكمة في الأرض، وعندما وصل سأل الرجل العظيم: «أيها المعلم الحكيم، ما سر الحياة السعيدة؟».

قال المعلم: «بالتقدير الجيد».

فقال الرجل: «لكن أيها المعلم الحكيم كيف أصل إلى التقدير الجيد؟».

فقال المعلم: «بالتقدير السيئ».

بينما نتبع مسار تبرير الذات في مناطق الأسرة والذاكرة والعلاج والقانون والتحيز والصراع والحرب، يظهر لنا درسان أساسيان من نظرية التنافر، أولاً: تساعدنا القدرة على تقليل التنافر بطرائق لا حصر لها في الحفاظ على معتقداتنا وثقتنا وقراراتنا واحترامنا لذاتنا ورفاهيتنا، وثانياً: أن هذه القدرة يمكن أن تُدخلنا في مشكلة كبيرة، لأن الناس يتبعون مسارات عمل مدمرة للذات لحماية حكمة قراراتهم الأولية، وسوف يعاملون أولئك الذين سبق لهم إيذاؤهم بقسوة أكبر،

لأنهم يقنعون أنفسهم بأن ضحاياهم يستحقون ذلك، وسوف يتشبثون بإجراءات قديمة وأحياناً ضارة في عملهم، وسوف يدعمون الجلادين والطغاة الذين هم على الجانب الصحيح -أي جانبهم. قد يشعر الأشخاص غير الآمنين في معتقداتهم الدينية بدافع لإسكات ومضايقة أولئك الذين يختلفون معهم، لأن مجرد وجود هؤلاء الرافضين يثير تنافر الشك المؤلم.

ولكن هناك جانباً آخر للتنافر، وهو الألم الذي يشعر به الناس عندما لا يستطيعون السماح لتبرير الذات بمحو ذكرى الأضرار التي تسببوا فيها، والأخطاء التي ارتكبوها، والقرارات التي جاءت بنتائج عكسية، فهذا العجز عن إطلاق العنان لنفسهم يمكن أن يترك علامة لا تُمحى من الندم والشعور بالذنب، وفي الحالات القصوى يمكن أن يؤدي إلى اليأس أو الاكتئاب أو إدمان الكحول، ونسُمي هذه الأعراض في الجنود «اضطراب ما بعد الصدمة»، إذ «كيف يمكن لجندي أن يبرر لنفسه إزهاق روح في مواجهة العقوبات القوية ضد هذا الفعل، التي من المحتمل أن يكون قد تأثر بها في نشأته؟»، وقد سأل عالم النفس واين كلوج وزملاؤه في دراستهم لقدامى المحاربين في العراق: «هل يطرح صراعهم اللاحق مع الشعور بالذنب والحزن والتنافر المعرفي، توجيه اتهام أخلاقي للحرب؟»^١.

لاحظ الطبيب النفسي جوناثان شاي، الذي يقدم المشورة للجيش بشأن اضطرابات ما بعد الصدمة، أن بعض المحاربين القدامى يعانون من «ألم معنوي» مستمر بسبب عمليات القتل التي يشعرون أنها تنتهك

قواعدهم الأخلاقية، حتى ولو كان القتل جزءاً لا مفر منه في الحرب: «يحدث ذلك عندما تكون قد فعلت شيئاً في اللحظة التي أخبرك فيها رؤساؤك بأنه يجب عليك القيام به، وأنت تؤمن بصدق وشرف أنه كان يجب عليك القيام به، ولكنه مع ذلك ينتهك التزاماتك الأخلاقية، وهناك خط واضح بين جريمة القتل العمد وإزهاق الروح المشروع الذي يعني كل شيء بالنسبة إليهم... إنهم يكرهون أن يقتلوا شخصاً لم يكونوا بحاجة إلى قتله، وتكون بمثابة ندبة على الروح»^٢.

إن فن العيش مع التنافر يتعلق بالتعامل مع الندوب على الروح بقدر ما يتعلق بتجنبها، مثلما كان على أوديسيوس^(١) أن يقود سفينته بين وحوش البحر الأسطورية لهوميروس^(٢) وهما سيلا^(٣) التي تجسد المياه الضحلة الصخرية، وكاريبيديس^(٤) التي تجسد الدوامات في مضيق ميسينا، وكلاهما محفوف بالمخاطر للبحارة، ولذلك يجب أن نجد طريقاً بين سيلا (تبرير الذات الأعمى) من جانب وكاريبيديس

(١) أوديسيوس: هو ملك إيثاكا الأسطوري الذي ترك بلده كي يكون من قادة حرب طروادة، وصاحب فكرة الحصان الذي بواسطته انهزم الطرواديون. (المترجم).

(٢) هوميروس: شاعر ملحمي إغريقي أسطوري، يُعتقد أنه مؤلف الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة. (المترجم).

(٣) سيلا: حورية جميلة في الأساطير اليونانية وقع في حبها إله البحر جلاوكوس ولكنها لم تبادل له الحب، فذهب إلى الساحرة سيرسي طالباً المساعدة، فطلبت منه أن يحبها بدلاً من سيلا ولكنه رفض، ومن شدة الغضب حوّلت سيرسي سيلا إلى وحش بحري، نصفه امرأة ونصفه سمكة، تنمو من وسطها رؤوس كلاب. (المترجم).

(٤) كاريبيديس: هي وحش أسطوري من ملحمة الأوديسة التي كتبها الشاعر الإغريقي هوميروس إبان القرن ٨ قبل الميلاد، وهي من تمتص مياه البحر ثم تلفظها بقوة عاتية تجعل الاقتراب منها ضرراً من الانتحار. (المترجم).

(جلد الذات الذي لا يرحم) من ناحية أخرى، وهذا المسار الأوسط أكثر تعقيدًا من مجرد النجاة من دون عقاب فورًا وبدفاع سريع - «ماذا أيضًا كان يمكنني أن أفعل؟»، أو «إنه خطأ الرجل الآخر»، أو «كنت أتبع الأوامر فقط»، أو «لم أكن مخطئًا في النقطة الرئيسية، ولكن فقط في بعض التفاصيل»، أو «هل يمكننا وضع هذا وراءنا والعودة إلى العمل؟»، فهذا التكتيك لن يفلح معنا أو مع الآخرين، ومن المهم أن نخضع للمحاسبة بعض الوقت، وأن نعاني من بعض الألم والارتباك وعدم الراحة في طريقنا لفهم الخطأ الذي ارتكبناه، وعندها فقط يمكننا إدراك ما يتعين علينا القيام به لتصحيح الأمر.

ومن المؤكد أن هذه العملية كانت صعبة بالنسبة إلى ليندا روس، المعالجة النفسية التي مارست علاج الذاكرة المستعادة إلى أن أدركت مدى ضلالتها؛ وإلى جريس التي تسببت ذكرياتها الزائفة المستعادة في تمزيق عائلتها لسنوات؛ وبالنسبة إلى توماس فانيس، المدعي العام الذي علم أن الرجل الذي أدانته بالاغتصاب والذي أمضى عشرين عامًا في السجن كان بريئًا؛ وإلى فيفيان جورنيك التي اعترفت متأخرة بدورها في تاريخها من العلاقات الفاشلة؛ وإلى الأزواج والقادة السياسيين الذين تمكنوا في النهاية من التحرر من دوامات الغضب والانتقام، وهو بالتأكيد أكثر صعوبة بالنسبة إلى أولئك الذين كلفت أخطاؤهم المهنية الأصدقاء وزملاء العمل حياتهم.

كان واين هيل جونيور مديرَ تكامل الإطلاق في وكالة ناسا في عام ٢٠٠٣، عندما توفي سبعة رواد فضاء في انفجار مكوك الفضاء

كولومبيا، وفي رسالة بريد إلكتروني عامة إلى أعضاء برنامج مكوك الفضاء تحمل فيها هيل المسؤولية الكاملة عن الكارثة: «لقد أتيحت لي الفرصة والمعلومات وفشلت في الاستفادة منهما، ولا أعرف ماذا سيقول التحقيق أو المحكمة القانونية، ولكنني مدان في محكمة ضميري بالذنب في عدم منع كارثة كولومبيا، ويمكننا مناقشة التفاصيل: عدم الانتباه، أو عدم الكفاءة، أو التردد، أو عدم الاقتناع، أو عدم الفهم، نقص الإصرار، أو الكسل، ولكن خلاصة القول هي أنني فشلت في فهم ما قيل لي، وفشلت في أن أعبر عن رأيي علناً، ولذلك لا تبحثوا عما هو أبعد من هذا، فأنا مذنب بالسماح لكولومبيا بالتحطم»^٣.

يأخذنا هؤلاء الأفراد الشجعان مباشرة إلى قلب التنافر وسخريته الأعمق: العقل يريد أن يحمي نفسه من ألم التنافر بمُسكّن تبرير الذات، ولكن الروح تريد الاعتراف، فللحد من التنافر يضع معظمنا قدرًا هائلًا من الطاقة العقلية والجسدية لحماية أنفسنا ودعم احترامنا لذاتنا عندما يَضْعُف تحت إدراك أننا كنا أغبياء أو سذجًا أو مخطئين أو فاسدين أو بمعنى آخر بشرًا، ومع ذلك يكون كل هذا الاستثمار في الطاقة -في كثير من الأحيان- غير ضروري بشكل مدهش، فلا تزال ليندا روس طبيبة نفسية وهي أفضل مما كانت، ولا يزال توماس فانيس محاميًا ممارسًا وربما أصبح أكثر عمقًا في التفكير، واستعادت جريس والديها، ووجد وليام برويلز السلام، وتمت ترقية واين هيل إلى مدير برنامج مكوك الفضاء التابع لناسا في مركز جونسون للفضاء، وهو المنصب الذي شغله حتى تقاعده.

إن الحاجة إلى الحد من التنافر هي آلية عقلية عامة، ولكن -كما توضح هذه القصص- هذا لا يعني أننا محكوم علينا بأن نكون تحت سيطرتها، وقد لا يكون البشر حريصين على التغيير ولكن لدينا القدرة على التغيير، وحقيقة أن عديدًا من أوهامنا ونقاطنا العمياء التي نحتمي بها أنفسنا مدمجة في الطريقة التي يعمل بها المخ ليست مبررًا لعدم المحاولة، وهل المخ مصمم للدفاع عن معتقداتنا وقناعاتنا؟ حسن، يريدنا المخ أيضًا أن نخزن السكر، ولكن معظمنا يتعلم تناول الخضار، وهل المخ مصمم لجعلنا نشعل بالغضب عندما نعتقد أننا نتعرض للهجوم؟ حسن، ولكن معظمنا يتعلم العد إلى عشرة وإيجاد بدائل لضرب الرجل الآخر بهراوة. إن إدراك كيفية عمل التنافر في أنفسنا والآخرين يعطينا بعض الوسائل لتجاوز ما جُبلنا عليه، ويحمينا من أولئك الذين لا يستطيعون تجاوز ما جُبلوا عليه، أو ممن لا يريدون تجاوز ما جُبلوا عليه.

أخطاء ارتكبت بواسطتهم

هذان السيدان لم يستحقا ما حدث، ونحن مسؤولون.
أنا مسؤول.

- كيف جونسون، الرئيس التنفيذي لشركة ستاربكس، بعد القبض على رجلين أمريكيين من أصل إفريقي في أثناء انتظار صديق في ستاربكس

تخيل للحظة كيف ستشعر إذا قال شريكك أو طفلك البالغ أو والدك: «أريد أن أتحمل مسؤولية هذا الخطأ الذي ارتكبته، فقد كنا نتشاجر حول هذا الموضوع طوال الوقت والآن أدرك أنك كنت على

حق وأنني كنت مخطئاً»، أو إذا بدأ صاحب العمل اجتماعاً بالقول: «أريد أن أسمع كل اعتراض محتمل على هذا الاقتراح قبل أن نمضي قدماً فيه، وأن أعرف كل خطأ قد نرتكبه»، أو إذا سمعت النائب العام للمقاطعة يقول في مؤتمر صحفي: «لقد ارتكبت خطأ فظيماً وفشلت في إعادة فتح قضية أظهرت أدلة جديدة فيها أنني ومكتبي أرسلنا رجلاً بريئاً إلى السجن، وسوف أعذر عن ذلك وسيقوم هذا المكتب بالتعويض لكن هذا لا يكفي، ولكنني سأعيد أيضاً تقييم إجراءاتنا للحد من احتمال إدانة شخص بريء مرة أخرى».

كيف سيكون شعورك تجاه هؤلاء الناس؟ هل ستفقد احترامك لهم؟ من المحتمل أنهم إذا كانوا أصدقاء أو أقارب فإنك ستشعر بالارتياح والسعادة: «يا إلهي، اعترف هاري بالفعل بأنه ارتكب خطأ! يا له من رجل كريم!». أنت لست وحدك، ففي إحدى الدراسات طُلب من ٥٥٦ شخصاً قراءة سيناريو أصاب فيه راكب دراجة مسرع أحد المشاة، وطُلب منهم أن يتخيلوا أنهم الطرف المتضرر وسيتفاوضون على تسوية مع راكب الدراجة، وفي إحدى نسخ السيناريو لم يتلق المشاة أي اعتذار، وفي سيناريو آخر تلقوا اعتذاراً متعاطفاً («أنا آسف جداً لأنك أصبت، وآمل حقاً أن تشعر بتحسن قريباً»)؛ وفي سيناريو ثالث اعتذار مع قبول المسؤولية («أنا آسف جداً لأنك أصبت، لقد كان الحادث كله خطئي لأنني كنت أسير بسرعة كبيرة ولم أراقب إلى أين أنا ذاهب إلا بعد فوات الأوان»)، وقد قيّم المشاركون الذين حصلوا على اعتذار مع قبول المسؤولية راكب الدراجة بشكل أكثر إيجابية، وكانوا

أكثر ميلاً إلى مسامحة راكب الدراجة، وكانوا أكثر ميلاً إلى قبول تسوية معقولة٤.

إذا كان الشخص الذي يعترف بالأخطاء أو الأذى هو رجل أعمال أو زعيم سياسي، فمن المحتمل أن تشعر بالاطمئنان إلى أنك في أيدي شخص قادر بدرجة كافية على فعل الشيء الصحيح وهو التعلم من الشيء الخطأ، وكان جون كينيدي هو آخر رئيس أمريكي يخبر البلاد بأنه ارتكب خطأ كانت له عواقب وخيمة في عام ١٩٦١، وكان قد وثق بالادعاءات والتقارير الاستخباراتية الخاطئة لكبار مستشاريه العسكريين، الذين أكدوا له أنه بمجرد غزو الأمريكيين لكوبا في خليج الخنازير سينهض الشعب الكويتي فرحاً ويتغلب على كاسترو، وكان الغزو كارثة، ولكن كينيدي تعلم منه، فأعاد تنظيم نظامه الاستخباراتي وقرر أنه لن يقبل بعد الآن ادعاءات مستشاريه العسكريين من دون تمحيص، وهو تغيير ساعده على توجيه البلاد بنجاح خلال أزمة الصواريخ الكوبية اللاحقة، وبعد الفشل الذريع في خليج الخنازير قال كينيدي: «تعتزم هذه الإدارة أن تكون صريحة بشأن أخطائها لأنه كما قال رجل حكيم ذات مرة لا يصبح الخطأ غلطة حتى ترفض تصحيحه، ولا يمكن لأي إدارة أو دولة أن تنجح، ولا يمكن لأي جمهورية أن تحيا، من دون نقاش ومن دون نقد»، وقال إن المسؤولية النهائية عن فشل غزو خليج الخنازير كانت «مسؤوليتي وحدي». ونتيجة لهذا الاعتراف ارتفعت شعبية كينيدي.

من المؤكد أن هذه القصة تبدو وكأنها تاريخ قديم، أليس كذلك؟ فتخيل رئيسًا يعتذر ويكتسب الاحترام والإعجاب لقيامه بذلك! وقد وجد الباحث القانوني كاس سانشتاين في دراساته أنه بالنسبة إلى كثير من الناس اليوم فإن «الاعتذار للخاسرين»، ويمكن أن يأتي بنتائج عكسية، لأنك إذا كنت لا تحب أن يعتذر الشخص فسوف تأخذ كلماته كدليل على الضعف أو العجز^٥، وبالإضافة إلى ذلك، فنظرًا للمناخ الوطني الذي يجب أن يعترف فيه الجناة بارتكابهم أخطاء، والتعبير عن الندم، والتعهد بالتوبة وإلا سيفقدون وظائفهم، أو أدوارهم في عرض، أو وظائفهم الأكاديمية، فقد أصبحت الاعتذارات نفسها مستقطبة ومسيّسة، فمتى تكون الاعتذارات مهمة، ومتى لا تكون؟ وعن أي سلوك يجب أن تقدم؟ فكثير من الناس مستأثرون من الاعتذارات القسرية عن الأفعال التي يجدونها شخصيًا غير مرفوضة، مثلما يشعرون عند الفشل في الاعتذار عن سلوك يجدونه مستهجنًا.

مهما كان الخطأ أو الخطيئة أو الغلطة، فإن الاعتذار يفشل عندما يعرف المستمعون أن المتحدث يجب أن يقول شيئًا لطمأنة الجمهور ولكن البيان يبدو نمطيًا وإلزاميًا (وهو ما يحدث غالبًا، ففي النهاية لقد أنشأه وكيل صحفي أو شخص ما في الموارد البشرية). هذه علامة أكيدة على أن المتحدث لا يعتقد حقًا أن الاعتذار مُستحق ومبرر ذاتيًا، ولا يتأثر معظمنا عندما يقدم القادة شكل الاعتذار دون جوهره، قائلين بشكل أساسي: «لم أرتكب أي خطأ ولكنه حدث في مناويتي، ولذلك أعتقد أنني أتحمل المسؤولية»^٦، ولا نقتنع عندما يعتذر الرؤساء التنفيذيون

بالتلويح الغامض باليد، كما هي الحال في اعتذار آبل غير الاعتذاري عن أداء بطاريات آيفون، إذ قالت الشركة: «لقد سمعنا تعليقات من عملائنا حول الطريقة التي نتعامل بها مع أداء أجهزة آيفون ذات البطاريات القديمة وكيف تواصلنا بشأن هذه العملية، ونحن نعلم أن بعضكم يشعر أن آبل قد خذلته، لذا نعتذر»، وكما تساءلت ليزا ليوبولد -التي درست لغة الاعتذار- ما الذي كانوا يعتذرون عنه، أهي البطاريات ذات الأداء الضعيف، أم عملية الاتصال السيئة، أم مشاعر عملائهم؟^٧

عندما يكون هناك دليل لا جدال فيه على ارتكاب مخالفات، يتوق الجمهور إلى سماع السلطات تعترف بارتكاب الخطأ، من دون مراوغة أو أكاذيب، وأن يتبع هذا الجزء التالي: «وسأبذل قصارى جهدي لضمان عدم حدوث ذلك مرة أخرى»، وقد أفاد دانيال يانكيلوفيتش، الباحث المسحي الذي يحظى بتقدير كبير، أنه على الرغم من أن استطلاعات الرأي تجد أن الجمهور لديه عدم ثقة دائم بالمؤسسات الرئيسية في البلاد، فإن هذا الانتقاد يوجد تحته «جوع حقيقي» للصدق والنزاهة، ويريد الناس من المنظمات أن تعمل بشفافية، وأن تُظهر وجهًا إنسانيًا للعالم الخارجي، وأن ترقى إلى مستوى معايير السلوك المعلنة الخاصة بها، وأن تُظهر التزامًا تجاه المجتمع الأكبر^٨.

من الأمثلة على ذلك الجوع حركة نظام الرعاية الصحية لتشجيع الأطباء والمستشفيات على الاعتراف بأخطائهم وتصحيحها، وكان معظم الأطباء -تقليديًا- يصرون على رفض الاعتراف بأخطائهم في التشخيص أو الإجراءات أو العلاج على أسس مبررة ذاتيًا بأن

القيام بذلك من شأنه أن يشجّع دعاوى الأخطاء الطبية، ولكنهم كانوا مخطئين، فقد وجدت الدراسات التي أُجريت على المستشفيات في جميع أنحاء البلاد أنه في الواقع يكون احتمال مقاضاة المرضى للأطباء أقل أرجحية عندما يعترف الأطباء بالأخطاء ويعتذرون عنها، وعندما تُنفَّذ تغييرات تمنع تضرر المرضى في المستقبل بنفس الطريقة، وفي هذا يقول لوسيان ليب، وهو طبيب وأستاذ السياسة الصحية في كلية هارفارد للصحة العامة: «إن التأكد من أن ذلك لن يحدث مرة أخرى أمر مهم جدًا للمرضى، أكثر مما يبدو أن عديدًا من مقدمي الرعاية الصحية يقدرونه وهو يعطي معنى لمعاناة المرضى»^٩.

تبرير الذات الثاني الخاص بالأطباء لعدم كشف الأخطاء هو أن القيام بذلك من شأنه أن يخرق حالة العصمة والمعرفة، وهو ما يؤكدون أنه ضروري لامتنال مرضاهم وثقتهم بهم، ولكنهم مخطئون في هذا أيضًا، فصورة العصمة التي يحاول عديد من الأطباء أن يُشجّعوها غالبًا ما تأتي بنتائج عكسية، وتبدو كغطرسة وحتى قسوة قلب، ويتحسر المرضى وعائلاتهم قائلين: «لماذا لا يستطيعون فقط إخباري بالحقيقة والاعتذار؟»، وقد كتب الطبيب أتول جاواندي ببلاغة عن «مشكلة الغطرسة» التي تصيب عديدًا من الأطباء، وعدم قدرتهم على الاعتراف بأنهم لا يستطيعون علاج كل شيء، والتحدث مباشرة إلى المرضى وقبول محدوديتهم^{١٠}.

في الواقع، عندما يُنصح الأطباء الأكفاء بصدق وأمانة عن أخطائهم، يُنظر إليهم باستمرار على أنهم أكفاء ولكن أيضًا كبشر

قادرين على الخطأ. لخص ريتشارد فريدمان بشكل جميل صعوبات وفوائد الاعتراف بارتكاب خطأ، فبدأ قائلاً: «مثل كل طبيب، فقد ارتكبت كثيرًا من الأخطاء خلال مسيرتي، وفي إحدى الحالات، فشلت في توقع تفاعل دوائي يحتمل أن يكون خطيرًا، وانتهى الأمر بمريض في وحدة العناية المركزة وكاد أن يموت، وغني عن القول أنني شعرت بالذهول بشأن ما حدث، ولم أكن متأكدًا من الخطأ الذي حدث، ولكنني شعرت أنه كان خطئي، ولذلك اعتذرت للمريضة وعائلتها، الذين كانوا مهزوزين وغاضبين، ومن الطبيعي أن يلوموني ويلوموا المستشفى... لكن في النهاية قرروا أن هذا خطأ طبي مؤسف ولكنه «بريء» ولم يتخذوا أي إجراء قانوني»، وخلص فريدمان إلى أن الكشف عن القابلية للخطأ يضيف طابعًا إنسانيًا على الأطباء ويبني الثقة، «في النهاية سيغفر معظم المرضى لطبيهم خطأ الرأس، ولكن نادرًا ما يسمح أحدهم خطأ القلب»^{١١}.

متلقو الاعتراف الصادق بالخطأ ليسوا المستفيدين الوحيدين، فعندما نضطر نحن أنفسنا إلى مواجهة أخطائنا وتحمل المسؤولية عنها، يمكن أن تكون النتيجة تجربة مبهجة ومحررة، وقد أخبرنا المستشار الإداري بوب كاردون عن الوقت الذي قاد فيه ندوة في مؤتمر المجلس الوطني للجمعيات غير الهادفة للربح، وكانت الندوة بعنوان «أخطاء»، وحضرها عشرون من قادة الاتحادات على مستوى الولاية، وأخبرهم بوب كاردون أن القاعدة الأساسية الوحيدة للجلسة هي أن كل مشارك كان عليه أن يحكي عن خطأ ارتكبه كقائد وألا يحاول تنظيفه بالحديث

عن كيفية تصحيحه أو يتهرب من المسؤولية عنه، ولم يُسمح لهم بتبرير ما فعلوه، وقال لهم: «بعبارة أخرى، ابقوا مع الخطأ».

ومع تطور الحوار تكاثر حجم الأخطاء السيئة، وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى منتصف الطريق كان هؤلاء التنفيذيون يعترفون بالأخطاء الجسيمة، مثل الفشل في تقديم طلب للحصول على منحة في الوقت المحدد مما كلف مؤسستهم مئات آلاف الدولارات من الإيرادات الضائعة، وغالبًا ما كان المشاركون يشعرون بعدم الارتياح للتسكع مع الخطأ، ويحاولون سرد حكايات تعويضية عن النجاح أو عن التعافي من الخطأ، ولكنني طبقت القواعد الأساسية وقطعت محاولة حفظ ماء الوجه، وبعد نصف ساعة من الجلسة ملأ الضحك الغرفة، وكان ضحكًا هستيريًا للتخلص من عبء ثقل، وأصبح الأمر صახبًا لدرجة أن الحاضرين في الندوات الأخرى حضروا إلى جلستنا لمعرفة سبب الضحكة.

يسلط تمرين كاردون الضوء على مدى صعوبة قول «إنني قد أخطأت» من دون التذليل الوقائي لتبرير الذات، كأن تقول: «لقد أسقطت كرة روتينية في مباراة كرة القاعدة»، بدلًا من القول: «لقد أسقطت الكرة لأن الشمس كانت في عيني»، أو «لأن طائرًا طار بالجوار»، أو «لأن الريح كانت قوية»، أو «لأن أحد المعجبين وصفني بالأحمق»، وقد أخبرنا صديق عائد من يوم في مدرسة المرور أنه بينما كان المشاركون يتجولون في الغرفة، ويبلغون عن المخالفات التي جلبتهم إلى هناك، حدثت مصادفة معجزة: لم يخالف أي منهم القانون! فقد كان لديهم جميعًا مبررات للسرعة، أو لتجاهل علامة التوقف، أو اختراق الإشارة

الحمراء، أو الدوران للخلف بشكل غير قانوني. لقد شعر بالفزع وبالحيرة (والعجب) من سلسلة الأعذار الواهية لدرجة أنه عندما جاء دوره شعر بالخرج من الاستسلام لنفس الدافع، وقال: «لم أتوقف عند علامة قف، وكنت مخطئاً تماماً وقُبض عليّ»، فساد الصمت للحظة، ثم انفجرت الغرفة في هتافات لصدقه.

هناك كثير من الأسباب الوجيهة للاعتراف بالأخطاء، بدءاً من الحقيقة البسيطة المتمثلة في أنه على الأرجح سيتم اكتشافك على أي حال من قبل عائلتك أو شركتك أو زملائك أو أعدائك أو كاتب سيرتك الذاتية، ولكن هناك أسباباً أكثر إيجابية للاعتراف بارتكاب خطأ، كأن يحبك الآخرون أكثر، أو أن خطأك قد يلهم شخصاً آخر الحل، وسيدرك الأطفال أن الجميع يخطئون في بعض الأحيان وأن حتى البالغين يجب أن يقولوا: «أنا آسف»، وإذا كان بإمكانك الاعتراف بخطأ عندما يكون بحجم حبة الذرة، فسيكون إصلاحه أسهل مما لو انتظرت حتى يصبح بحجم شجرة ذات جذور عميقة وواسعة النطاق.

يمكن -في العمل- تصميم المؤسسات لمكافأة الاعتراف بالأخطاء كجزء من الثقافة التنظيمية بدلاً من جعلها غير مريحة أو محفوفة بالمخاطر من الناحية المهنية بالنسبة إلى الأشخاص لدرجة تمنعهم من الاعتراف بالخطأ، وهذا التصميم -بطبيعة الحال- يجب أن يأتي من أعلى، ويقدم المستشاران التنظيميان وارن بنيس وبيرت نانوس قصة عن الأسطورة توم واطسون الأب، مؤسس شركة آي بي إم ومصدر إلهامها التوجيهي لأكثر من أربعين عاماً، وكتبا: «شارك مسؤول تنفيذي

مبتدئ واعد في آي بي إم في مشروع محفوف بالمخاطر للشركة، وخسر أكثر من ١٠ ملايين دولار في المشروع وكانت كارثة، وعندما استدعى واطسون المدير التنفيذي متوتر الأعصاب إلى مكتبه، صرخ الشاب: «أعتقد أنك تريد استقالتي»، فقال واطسون: «لا يمكن أن تكون جادًا، لقد أنفقنا للتو ١٠ ملايين دولار لتعليمك!»^{١٢}.

توضح نظرية التنافر لماذا لا يمكننا الانتظار حتى يتحول الناس إلى توم واطسون أو يحدث لهم تغير أخلاقي، أو عمليات زرع الشخصية، أو تغييرات مفاجئة في المشاعر، أو رؤى جديدة من شأنها أن تجعلهم يجلسون معتدلين ويعترفون بالخطأ ويفعلون الشيء الصحيح. سيذلل معظم البشر والمؤسسات كل ما في وسعهم لتقليل التنافر بطرائق مواتية لهم وتسمح لهم بتبرير أخطائهم واستمرار الأعمال كالعادة، ولن يكونوا ممتنين للأدلة على أن أساليب استجوابهم قد وضعت أبرياء في السجن مدى الحياة، ولن يشكرونا على توضيح كيف أن دراستهم لبعض الأدوية الجديدة -التي ضحخوا الملايين في تطويرها- معيبة بشكل قاتل، وبصرف النظر عن مدى براعة أو لطف قيامنا بذلك، فحتى الأشخاص الذين يحبوننا كثيرًا لن يكونوا مستمتعين عندما نصصح أعز ذكرياتهم التي تخدمهم ذاتيًا... بالحقائق.

نظرًا لأن معظمنا لا يصصح نفسه تلقائيًا ولأن النقاط العمياء لدينا تمنعنا من معرفة متى نحتاج إلى ذلك، يجب أن تكون هناك إجراءات خارجية لتصحيح الأخطاء التي سببها البشر حتمًا، وتقليل فرص حدوث أخطاء في المستقبل، فقد أدت المتطلبات البسيطة بأن يلتزم

الأطباء والممرضات بمراجعة قوائم التدقيق المحددة للخطوات التي يجب اتباعها في الجراحة، وإجراءات غرفة الطوارئ، والرعاية اللاحقة، إلى تقليل معدلات الخطأ البشري والوفيات العادية، في المستشفيات بجميع أنحاء البلاد، بل وفي جميع أنحاء العالم^{١٣}، وقد رأينا في المجال القانوني أن التسجيل الإلكتروني الإلزامي لجميع مقابلات الطب الشرعي هو صحيح واضح وغير مكلف نسبياً للانحياز التأكدي، ويسهل تقييم أي تحيز أو إكراه يتسلل إليه لاحقاً من قبل مراقبين مستقلين، وكان هذا هو الدافع لتزويد ضباط الشرطة ومركباتهم بالكاميرات التي يمكن أن تساعد في حل النزاعات عندما يُتهم الضباط باستخدام القوة المفرطة، ومع ذلك فوجود كاميرات على كل سيارة وعمود إنارة وهاتف خلوي وضابط شرطة لن يحل المشكلة بالكامل، لأن «الإنسان يرى ما يؤمن به»، ويمكن للناس مشاهدة نفس مقاطع الفيديو لنفس الأحداث -مثل عشرات من عمليات قتل الشرطة للأمريكيين من أصل إفريقي التي حفزت حركة حياة السود مهمة- والخروج بوجهات نظر مختلفة تماماً لما رأوه وعلى من يقع اللوم، وقد شاهدنا وفاة إريك جارنر خنقاً في جزيرة ستاتن، الذي مات وهو يصيح «لا أستطيع التنفس»؛ وإطلاق النار على مايكل براون في فيرجسون بولاية ميسوري؛ وإطلاق النار على تامير رايس وهو صبي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يلوح بمسدس لعبة في حديقة كليفلاند؛ وإطلاق النار على فيلاندو كاستيل في سيارته والذي بثته صديقه على الهواء مباشرة، وقد اعتبر كثيرون هذه المشاهد أمثلة واضحة على وحشية الشرطة المفرطة وغير المبررة، بينما رأى آخرون أنه سلوك مقبول من الشرطة.

يجب ألا نقلق فقط بشأن التحيز المحتمل للشرطة، ولكن يجب أن نقلق أيضًا بشأن تحيز الادعاء، فعلى عكس الأطباء، الذين يمكن مقاضاتهم بسبب سوء الممارسة إذا بتروا الذراع الخطأ، يتمتع المدعون العامون عمومًا بالحصانة من الدعاوى المدنية ولا يخضعون لأي مراجعة قضائية تقريبًا، وتحدث معظم قراراتهم خارج نطاق التدقيق العام، لأن ٩٥٪ من القضايا التي تسلمها الشرطة إلى مكتب المدعي العام لا تصل أبدًا إلى هيئة محلفين، ولكن السلطة من دون مساءلة هي وصفة لكارثة في أي مجال، وفي نظام العدالة الجنائية يسمح هذا المزيج للأفراد وحتى لإدارات بأكملها بفعل أي شيء لتحقيق الفوز، مع تبرير الذات لتمهيد الطريق^{١٤}، (هذا هو السبب في أن مركز نزاهة النيابة العامة - المذكور في الفصل ٥ - هو خطوة مهمة في الاتجاه الصحيح)، وعندما يسعى المدعون العامون بنشاط إلى إطلاق سراح سجين يتبين أنه بريء (بدلاً من قبول أمر محكمة على مضض للقيام بذلك)، فعادة ما يكون ذلك لأنهم - مثل روبرت مورجتاو الذي أعاد فتح قضية عداءة ستترال بارك - لم يكونوا المدعين العامين الأصليين وبالتالي لا يحتاجون إلى تبرير الذات، ولهذا السبب يجب في كثير من الأحيان تمكين اللجان المستقلة من التحقيق في تهم الفساد في إدارة ما أو تحديد ما إذا كان ينبغي إعادة فتح قضية، ويجب ألا يكون لدى أعضائها أي تضارب في المصالح، ولا قرارات تبررها، ولا أصدقاء لحمايتهم، ولا تنافر للحد منه.

مع ذلك، فإن قلة من المنظمات ترحب بالإشراف والتصحيح الخارجيين، إلا أنه إذا كان أولئك الذين في السلطة يفضلون الحفاظ على النقاط العمياء بأي ثمن، يجب على مجالس المراجعة المحايدة تحسين رؤيتهم ضد إرادتهم إذا تطلب الأمر ذلك، وعلى المجالات العلمية والطبية التي تدرك وصمة البحث عندما يكون هناك تضارب في المصالح، وبعد أن خدعها عدد قليل من المستثمرين الذين زوّروا بياناتهم، أن تضع تدابير أقوى لتقليل فرص نشر الأبحاث المتحيزة أو الفاسدة أو الاحتيالية، ويدعو عديد من العلماء إلى مزيد من الشفافية في عملية المراجعة، وهو نفس الحل الذي يسعى إليه مصلحو نظام العدالة الجنائية، فالتصحيح النهائي للرؤية النفقية التي تصيبنا جميعاً معشر البشر هو مزيد من النور.

أخطاء ارتكبت بواسطتي

«يعتبر من غير الصحي في أمريكا أن نتذكر الأخطاء،
وعُصائباً أن نفكر فيها، وذهاناً أن نُسهب في الحديث
عنها».

- ليليان هيلمان، كاتبة مسرحية

تختلف لعبتنا الوطنية البيسبول عن المجتمع الذي أنتجها بطريقة
واحدة حاسمة: أنها تتبع أخطاءها، إذ يحتوي الجدول الخاص
بنتائج المباريات لكل لعبة بيسبول -من دوري البيسبول لطلاب ما

قبل الكليات إلى دوري البيسبول الرئيسي - على النقاط والضربات والأخطاء، والأخطاء غير المرغوب فيها، ولكن جميع المشجعين واللاعبين يفهمون أنه لا يمكن تجنبها، فالأخطاء متأصلة في لعبة البيسبول، كما هي في الطب والأعمال والعلوم والقانون والحب والحياة، ولكن قبل أن تتمكن من التعامل معها يجب أن نعترف أولاً بأننا من صنعها.

إذا كان التخلي عن تبرير الذات والاعتراف بالأخطاء مفيداً جداً للعقل والعلاقات، فلماذا لا يفعلهما كثير منا؟ وإذا كنا نمتن جداً للآخرين عندما يفعلونهما، فلماذا لا نفعلهما كثيراً؟ وفي معظم الأوقات لا نفعلهما لأننا - كما رأينا - لا ندرك حتى أننا بحاجة إليهما، فتبرير الذات يزمجر تلقائياً - تحت الضمير مباشرة - ويحمينا من الإدراك المتنافر بأننا ارتكبنا أي خطأ، «خطأ؟ أي خطأ؟ لم أرتكب خطأ... لقد قفزت الشجرة أمام سيارتي... وما الذي يجب أن أكون أسفاً بشأنه على أي حال؟ إنه ليس خطئي».

إذن ما الذي يفترض أن نفعله بالضبط في حياتنا اليومية؟ هل نستدعي مجلس مراجعة خارجياً من أبناء العمومة والأصهار للفصل في كل شجار عائلي؟ هل نصور فيديو لكل استجابات الآباء لأبنائهم المراهقين؟ نحن بمفردنا في علاقاتنا الخاصة، وهذا يستدعي بعض الوعي الذاتي، وبمجرد أن نفهم كيف ومتى نحتاج إلى تقليل التنافر، يمكننا أن نصبح أكثر انتباهاً بشأن العملية وغالباً ما نقضي عليها في مهدها، ونمسك بأنفسنا قبل أن ننزلق بعيداً جداً إلى أسفل الهرم، فمن

خلال النظر إلى أفعالنا بشكل نقدي ونزيه - كما لو كنا نراقب شخصاً آخر - تكون لدينا فرصة للخروج من دائرة الفعل، الذي يتبعه تبرير الذات، ويليه مزيد من العمل الملزم، ويمكننا أن نتعلم وضع مسافة صغيرة بين ما نشعر به وكيف نستجيب له، وإدراج لحظة من التفكير، والتفكير فيما إذا كنا نريد حقاً شراء هذا الزورق في يناير، وهل نريد حقاً التمسك برأي غير مؤيد بالحقائق.

وجد علماء الاجتماع أنه بمجرد أن يدرك الناس تحيزاتهم ويعرفون كيف تعمل، ويولونها اهتماماً واعياً؛ أي بمجرد أن يجلبوها إلى دائرة الوعي ويقولون: «ها أنت ذا أيها الوغد الصغير»، تكون لديهم قوة أكبر للسيطرة عليها، وتأمل التحيز الذي ناقشناه في الفصل الأول، الواقعية الساذجة: التحيز للاعتقاد بأننا نرى الأشياء بوضوح وبالتالي ليس لدينا تحيز، فهذا التحيز هو العائق الرئيسي أمام المفاوضات بين أي فردين أو مجموعتين في صراع ينظران إلى الأمور بشكل مختلف تماماً، وفي دراسة أجريت مع اليهود الإسرائيليين والفلسطينيين الإسرائيليين، كانت توعيتهم بالواقعية الساذجة وكيفية عملها كافية لإرشاد حتى المشاركين الأكثر تشدداً إلى رؤية التحيز في أنفسهم، ليصبحوا أكثر انفتاحاً على رؤية وجهة نظر الجانب الآخر^{١٥}، ونحن لسنا ساذجين وندرك أن الأمر سيتطلب أكثر من هذا التدخل المتواضع لحل الصراع في الشرق الأوسط، ولكن النقطة المهمة هي أن الناس قابلون للتعليم حول تحيزاتهم وحول التنافر أيضاً.

في عام ١٩٨٥ أُلقي رئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز في التنافر بسبب إجراء اتخذه حليفه وصديقه رونالد ريغان. كان بيريز غاضباً لأن ريغان قبل دعوة لزيارة دولة إلى مقبرة كولميشوه في بيتبورج بألمانيا، كرمز للمصالحة بين البلدين بعد الحرب، ونظراً لدفن تسعة وأربعين ضابطاً نازياً من قافن إس إس، وهي الجناح العسكري للحزب النازي بالمقبرة، وقد أثار الإعلان عن الزيارة المقترحة غضب الناجين من الهولوكوست وعديد من الآخرين، ومع ذلك، لم يتراجع ريغان عن قراره بزيارة المقبرة، وعندما سأل الصحفيون بيريز عن رأيه فيما فعله ريغان، لم يُدِن بيريز ريغان شخصياً ولم يقلل من خطورة الزيارة إلى بيتبورج، وبدلاً من ذلك، اتخذ بيريز مساراً ثالثاً وقال: «عندما يرتكب صديق خطأ، يظل الصديق صديقاً ويظل الخطأ خطأ»^{١٦}.

فكّر للحظة في فوائد القدرة على فصل الأفكار المتنافرة بوضوح كما فعل بيريز، إذ يمكن للناس أن يظلوا ملتزمين بحماس تجاه أمتهم ودينهم وحزبهم السياسي وعائلاتهم بينما يختلفون مع الإجراءات أو السياسات التي يجدونها غير مناسبة أو مضللة أو غير أخلاقية، ويُحافظ على الصداقات بدلاً من إنهاؤها في هفوة، لا تُرْفَض الأخطاء باعتبارها غير مهمة ولكن تُتَقَدَّ بشكل صحيح ويتحمل مرتكبوها المسؤولية، حتى ولو كان مرتكبوها أصدقاء، وقد تحدثت سارة سيلفرمان مباشرة في مقطع فيديو على يوتيوب عام ٢٠١٧، عن التنافر الذي شعرت به بسبب سوء السلوك الجنسي للويس سيكييلي (المعروف مهنيًا باسم لويس سي. كي)، صديقها العزيز منذ خمسة وعشرين عامًا، وبدأت بالقول: «أحتاج إلى

معالجة الفيل الذي يستمني في الغرفة، إن حركة أنا أيضًا^(١) طال انتظارها وكنا سنعرف أشياء سيئة عن الأشخاص الذين نُعجب بهم والأشخاص الذين نحبهم، «أنا أحب لويس ولكن لويس فعل هذه الأشياء السيئة، وكلتا العبارتين صحيحة، ولذلك ما زلت أسأل نفسي، هل يمكنك أن تحب شخصًا فعل أشياء سيئة؟ أنا غاضبة جدًا في الوقت نفسه بسبب النساء اللواتي ظلمهن، والثقافة التي مكّنته من فعل ذلك، وحزينة أيضًا لأنه صديقي»، وخلصت إلى أنه من المهم مسالة الناس عن أفعالهم، وأنه من الضروري أيضًا دعم ومساعدة الأصدقاء الذين نحبهم.

يمكن أن يساعدنا مسار بيريز الثالث أيضًا في الإبحار في المعضلة الأبديّة حول كيفية الرد على المعلومات التي تفيد بأن فنّانًا محبوبًا أو معجبًا به هو - أو كان - ابن لعاهرة، أو عنصري، أو معادٍ للسامية، أو كاره للمثليين، أو معتدٍ جنسيًا على الأطفال، أو متحرش جنسيًا، أو فرد حقير بشكل أو بآخر في الحياة الخاصة. وصف الفيلم الوثائقي لعام ٢٠١٩ «الرحيل عن نيفرلاند»^(٢) علاقات مايكل جاكسون المسيئة جنسيًا طويلة الأمد مع صبيين منذ كانا في سن السابعة والعاشرة، وقد دمر الفيلم وقسم فيلق جاكسون من المعجبين، فقلل أحد الجانبين من

(١) «أنا أيضًا» هو وسم (هاشاج) مؤلّف من كلمتين انتشر بصورة كبيرة وواسعة على وسائل التواصل الاجتماعي حول العالم خلال شهر أكتوبر من عام ٢٠١٧، لإدانة واستنكار الاعتداء والتحرش الجنسي، وذلك على خلفية فضيحة هارفي واينستين الجنسية التي وجهتها عشرات النساء لمنتج أفلام هوليوود البارز هارفي واينستين. (المترجم).

(٢) نيفرلاند هو اسم مزرعة أقيمت في سانتا باربرا بولاية كاليفورنيا، اشتهرت لكونها مسكن الفنان الأمريكي الراحل مايكل جاكسون منذ عام ١٩٨٨ حتى ٢٠٠٥. جاكسون سمى المزرعة باسم نيفرلاند وفقًا لجزيرة الخيال الموجودة في قصة بتر بان، وهو الصبي الذي لم يكبر. (المترجم).

التنافر من خلال إنكار الادعاءات، وتشويه سمعة الرجال الموثوقين الذين رووا قصصهم، والحفاظ على براءة جاكسون، وشراء الإعلانات، وانتقاد فيلم «إتش بي أو» بصوت عالٍ، وفي بعض الحالات تهديد المشاركين في إنتاجه، ورُفِعت دعوى قضائية بتهمة «تلطيخ ذاكرة جاكسون» ضد الرجال الذين زعموا أنهم تعرضوا للانتهاك الجنسي^{١٧}، وقلل الجانب الآخر من التنافر من خلال القسم بأنهم لن يستمعوا مرة أخرى إلى موسيقى جاكسون أو بمحاولة محو إرثه من ثقافة البوب، وسحب مسلسل عائلة سمبسون حلقة كانت فيها شخصية عبّر عنها جاكسون، وأزال شركة لوي فويتون للأزياء بعض القطع المستوحاة من مايكل جاكسون من مجموعتها.

كتبت أماندا بيتروسييتش، الناقدة الموسيقية والمعجبة المتحمسة بجاكسون: «من الصعب باعتراف الجميع أن نضع في اعتبارنا -في أثناء مشاهدة فيلم الرحيل عن نيفرلاند- فكرتين متناقضتين ولكنهما ضروريتان بنفس القدر: أنه يجب تصديق الضحايا، وأن المتهم بريء حتى تثبت إدانته، فالأول حاسم للغاية إذا أردنا حماية المحرومين من الانتهاكات الفظيعة للسلطة، ويظل الثاني جوهر نظام العدالة الجنائية الأمريكي، فهل يمكن أن تتعايش هاتان الفكرتان؟»^{١٨}.

حسنًا، من الأفضل أن يتعايشا معًا، ولكن فهم التنافر يوضح لماذا يكون هذا التعايش غالبًا صعبًا للغاية، وتتابع أماندا بيتروسييتش قائلة: «في الوقت الحالي يبدو الأمر كما لو كان عليهم أن يفعلوا ذلك، مما يعني أننا مطالبون أحيانًا باتخاذ خيارات شخصية حول كيفية قبولنا أو

رفضنا للمعلومات المتاحة لنا»، وهذا ما فعلته بالضبط كاتبة السيرة الذاتية مارجو جيفرسون في مقدمة محدثة لكتابها عن مايكل جاكسون، فقد كتبت: «لقد رأينا لفترة طويلة كيف يمكنه أن يكون ساحراً وكريمًا، والآن نرى أيضًا كيف كان مأكراً وأنانياً ومُسيطرًا عليه من الشياطين، ولا يمكننا محو ذلك أو إلغاء معرفته، ولا يسعنا إلا أن نقبله ونعترف بما يثيره فينا - من اليأس والحزن والغضب والرحمة - ونحاول تحويله إلى حكمة»^{١٩}.

عندما يكون التنافر ناتجًا عن شيء فعلناه نحن أنفسنا، فمن الأهمية بمكان أن نضع في اعتبارنا طريقة بيريز الثالثة وهي التعبير عن الإدراكين وإبقاؤهما منفصلين. «عندما أرتكب خطأ كشخص محترم وذكي، أظل شخصًا محترمًا وذكيًا ويظل الخطأ خطأ، والآن كيف يمكنني علاج ما فعلته؟ من خلال تحديد الإدراكين المتنافرين اللذين يسببان الضيق، ويمكننا في كثير من الأحيان إيجاد طريقة لحلها بشكل بناء أو نتعلم التعايش معهما - عندما لا نستطيع - إلى أن نحصل على مزيد من المعلومات.

عندما نسمع عن ادعاءات مثيرة في الأخبار - خاصة تلك التي تنطوي على الجنس - يمكننا مقاومة الدافع العاطفي للانطلاق في دعم غاضب للمدعي أو المتهم، وبدلاً من وضع القصة في إطار أيديولوجي، مثل: «الأطفال لا يكذبون أبداً»؛ أو «صدّق الناجين حتى لو لم يتذكروا شيئاً»؛ أو «جميع الرجال أعضاء الأخويات مغتصبون»، يمكننا أن نفعل شيئاً أصعب وأكثر راديكالية: ننتظر الأدلة، وإذا لم نتظر وبدلاً

من ذلك اتخذنا جانبًا باندفاع، فسيكون من الصعب قبول هذا الدليل لاحقًا إذا كان يشير إلى أننا كنا مخطئين، كما حدث في قضية ماكمارتن لمرحلة ما قبل المدرسة (حيث علمت الأمة لاحقًا أن الأطفال تعرضوا لضغوط للإبلاغ عن مزاعم سوء المعاملة بشكل متزايد)، أو قضية ديوك لأكروس (حيث علمت الأمة لاحقًا أن مزاعم راقصة متعرية بالاغتصاب ضد مجموعة من اللاعبين كانت كاذبة، واستبعد المدعي العام للمقاطعة بسبب سوء التصرف المهني للدعاء)، ويمكننا أن نحاول تحقيق التوازن بين التعاطف والشك، ومن ثم يمكننا أن نتعلم أن نتمسك باستنتاجاتنا برفق بحيث نتمكن من التخلي عنها إذا تطلبت العدالة منا ذلك.

إن إدراك أننا في حالة من التنافر يمكن أن يساعدنا أيضًا في اتخاذ خيارات أكثر حذقًا وذكاء ووعيًا بدلًا من السماح لآليات الحماية الذاتية التلقائية بحل عدم إحساسنا بالراحة لصالحنا، فلنفترض أن زميلتك العدوانية الكريهة قد قدمت للتو اقتراحًا مبتكرًا في اجتماع لفريق العمل، يمكنك أن تقول لنفسك: «حمقاء جاهلة مثلها لا يمكن أن تكون لديها فكرة جيدة عن أي شيء»، وترفض اقتراحها تمامًا لأنك تبغض المرأة كثيرًا (وأنت تعترف بذلك، وتنافس معها للحصول على رضا مديرك)، أو يمكنك أن تمنح نفسك مساحة للتنفس وتسأل نفسك: «هل يمكن أن تكون الفكرة ذكية؟ وكيف سأشعر حيالها إذا جاءت من حليفي في هذا المشروع؟»، وإذا كانت فكرة جيدة فقد تدعم اقتراح زميلتك في العمل حتى لو كنت لا تزال تبغضها كشخص، وتفصل بين

الرسالة والمرسل، وبهذه الطريقة قد نتعلم كيفية تغيير عقولنا قبل أن تجمد أمخاخنا الأفكار في أنماط متسقة.

لذلك فإن الإدراك الواعي بكيفية عمل التنافر هو الخطوة الأولى نحو التحكم في آثاره، إلا أنه لا يزال هناك عائقان نفسيان، الأول: هو الاعتقاد بأن الأخطاء هي دليل على عدم الكفاءة والغباء، والثاني: هو الاعتقاد بأن سمات شخصيتنا -بما في ذلك احترام الذات- مدمجة وغير قابلة للتغيير، وغالبًا ما يخشى الأشخاص الذين يحملون هاتين الفكرتين الاعتراف بالخطأ لأنهم يعتبرون هذا دليلًا على أنهم أغبياء، ولا يمكنهم فصل الخطأ عن هويتهم واحترامهم لذاتهم، ورغم أن معظم الأمريكيين يعرفون أنه من المفترض أن يقولوا «نحن نتعلم من أخطائنا»، فإنهم في أعماقهم لا يصدقون ولا للحظة، ويعتقدون أن ارتكاب الأخطاء يعني أنهم أغبياء، وهذا الاعتقاد هو بالضبط ما يمنعهم من التعلم من أخطائهم.

يتعرض نحو ربع السكان البالغين الأمريكيين للخداع من خلال عملية احتيال أو أخرى، وبعضها سخيف وبعضها خطير، مثل: «لقد فزت بسيارة مرسيدس جديدة وسنسلّمها لك بمجرد أن ترسل لنا الضريبة على هذا المبلغ أولاً»؛ أو «نقدم لك عملات ذهبية يمكنك شراءها بعشر قيمتها السوقية»؛ أو «هذا السرير المعجزة سيعالج جميع أمراضك من آلام الرأس إلى التهاب المفاصل»؛ أو «ابن أخيك أو حفيدك في ضائقة طبية شديدة في ميناء أجنبي ويحتاج إلى أموالك»، ويخسر الأمريكيون من جميع الأعمار ملايين الدولارات بسبب عمليات الاحتيال في التسويق عبر الهاتف، وإن كان كبار السن هم

الأكثر تضرراً حيث يخسرون عدة أضعاف من الأموال في أي عملية احتيال معينة مثلما يخسر الشباب.

يعرف المحتالون كل شيء عن التنافر وتبرير الذات. إنهم يعلمون أنه عندما يواجه الأشخاص الذين يعتقدون أنهم أذكاء وبارعون أدلة على أنهم أنفقوا آلاف الدولارات على عملية احتيال للاشتراك في المجلات (نعم، لا تزال هذه العمليات موجودة)، أو استُدرجوا إلى قصة حب مع روميو (أو جوليت) احتيالي ولكنه مُغرٍ عبر الإنترنت، فإن قليلاً منهم سيقبل من التنافر من خلال تقرير أنهم ليسوا أذكاء وبارعين، ولكن بدلاً من ذلك سوف يرر كثيرون إنفاق هذه الأموال من خلال إنفاق مزيد من الأموال لتعويض خسائرهم، وهذه الطريقة لحل التنافر تحمي احترامهم لذاتهم ولكنها تضمن فعلياً تزايد تعرضهم للخداع، فيقولون: «إذا اشتركت فقط في مزيد من المجلات، فسوف أفوز بالجائزة الكبرى»؛ أو «أعلم أنه من غير المحتمل أن نكون قد وقعنا في الحب عن طريق البريد الإلكتروني، ولكنني أرسل له أموالاً للمساعدة في إحضاره لأن هذا هو الشيء الحقيقي»؛ أو «هؤلاء الأشخاص اللطفاء عميقو التفكير الذين قدموا لي عرض الاستثمار لن يخدعوني أبداً، كما أنهم يعلنون على الراديو المسيحي»، وبعض كبار السن معرضون للحد من التنافر في هذا الاتجاه لأن عديداً منهم قلقون بالفعل من أنهم يفقدون كفاءتهم وكذلك أموالهم، وهم لا يريدون إعطاء أطفالهم الكبار أسباباً للسيطرة على حياتهم.

يساعدنا فهم كيفية عمل التنافر على إعادة التفكير في بلبلتنا،

كما أنها مهارة مفيدة لمساعدة الأصدقاء والأقارب على الخروج من مشكلاتهم، ففي كثير من الأحيان -منطلقين من أفضل النيات- نفعل ذات الشيء الذي يضمن جعل الأمور أسوأ، ونحن نرهب بالصراخ، أو نوبخ، أو نتنمر، أو نسترحم، أو نهدد، وقد جمع أنطوني براتكانيس، عالم النفس الاجتماعي الذي حقق في كيفية افتراس المحتالين لكبار السن، قصصًا مفجعة لأفراد الأسرة وهم يتوسلون إلى الأقارب الذين تعرضوا للاحتيال: «ألا يمكنك أن ترى أن الرجل لص وأن العرض ليس إلا عملية احتيال؟ أنت تتعرض للسرقة!»، «ومن المفارقات أن هذا الميل الطبيعي إلى التوبيخ قد يكون أحد أسوأ الأشياء التي يمكن أن يفعلها أحد أفراد العائلة أو أحد الأصدقاء»، ويقول أنطوني براتكانيس: «التوبيخ يجعل الضحية تشعر بمزيد من الدفاع وتدفعها أكثر إلى برائن المُحتال»، وأي شخص يفهم التنافر يعرف السبب، فالصراخ «بما تعتقده سيأتي بنتائج عكسية لأنه يعني يا فتى هل أنت غبي»، ومثل هذه الاتهامات تجعل الضحايا المحرجين بالفعل ينسحبون أكثر إلى أنفسهم ويلتزمون الصمت، ويرفضون إخبار أي شخص بما يفعلونه، وما يفعلونه هو استثمار مزيد من المال أو شراء مزيد من المجلات، لأن لديهم الآن حافزًا حقيقيًا لاستعادة مدخرات الأسرة، وإظهار أنهم ليسوا أغبياء أو مخرفين، وإثبات أن ما كانوا يفكرون فيه كان معقولاً^{٢٠}.

يقول أنطوني براتكانيس: ولذلك قبل أن يتراجع ضحية عملية الاحتيال عن الهاوية، يحتاج إلى الشعور بالاحترام والدعم، ويمكن للأقارب والأصدقاء المتعاونين تشجيع الشخص على التحدث عن

قيمه وكيف أثّرت هذه القيم على ما حدث في أثناء الاستماع بشكل غير نقدي، وبدلاً من أن تسأل بغضب: «كيف يمكن أن تكون قد استمعت إلى هذا اللص؟»، يمكنك أن تقول: «أخبرني ما الذي جذبك في هذا الرجل وجعلك تثق به؟»، ويستفيد المحتالون من أفضل صفات الناس كلطفهم وأدبهم ورغبتهم في الوفاء بالتزاماتهم أو الرد بالمثل على هدية أو مساعدة صديق، ويقول أنطوني براكنايس إن الشناء على الضحية لامتلاكها هذه القيم الجديرة بالاهتمام - حتى لو كانت قد ورطت الشخص في مشكلة في هذا الموقف بالذات - سيعوض مشاعر عدم الأمان وعدم الكفاءة.

إن الصلة بين الأخطاء والغباء متأصلة في الثقافة الأمريكية لدرجة أنه قد يكون من الصادم معرفة أنه أمر لا تشاركها فيه كل الثقافات، وفي سبعينيات القرن العشرين أصبح عالما النفس هارولد ستيفنسون وجيمس ستيجلر مهتمّين بفجوة الأداء في الرياضيات بين تلاميذ المدارس الآسيوية والأمريكية، فبحلول الصف الخامس، كانت الفصول اليابانية الحاصلة على أدنى درجة تتفوق على الفصول الأمريكية الحاصلة على أعلى درجة، ولمعرفة السبب أمضى هارولد ستيفنسون وجيمس ستيجلر العقد التالي في مقارنة الفصول الدراسية الابتدائية في الولايات المتحدة والصين واليابان، وتجلّى الأمر لهما عندما شاهدا صبيّاً يابانيّاً يكافح مع مهمة رسم مكعبات ثلاثية الأبعاد على السبورة، فقد استمر الصبي في ذلك لمدة خمس وأربعين دقيقة، وارتكب أخطاء متكررة، بينما أصبح ستيفنسون وستيجلر قلقين ومحرجين بشكل متزايد من

أجله، فإن الصبي نفسه لم يكن يشعر بالخجل على الإطلاق، وتساءل المراقبون الأمريكيون عن السبب في أن شعورهم من أجله أسوأ من شعوره نفسه، ويعمل ستيجلر: «إن ثقافتنا تفرض تكلفة نفسية كبيرة لارتكاب الخطأ، بينما في اليابان لا يبدو الأمر على هذا النحو، ففي اليابان تعد الأخطاء والزلات والارتباكات مجرد جزء طبيعي من عملية التعلم»^{٢١}، (أتقن الصبي المشكلة في النهاية، وسط هتافات زملائه في الفصل)، ووجد الباحثون أيضًا أن الآباء والمعلمين والأطفال الأمريكيين كانوا أكثر عرضة بكثير من نظرائهم اليابانيين والصينيين للاعتقاد بأن الرياضيات ملكة فطرية، فإذا كانت لديك فلن تضطر إلى العمل بجهد، وإذا لم تكن لديك فلا فائدة من المحاولة، بينما يعتبر معظم الآسيويين -في المقابل- أن النجاح في الرياضيات مثل الإنجاز في أي مجال آخر، يعتمد على المثابرة والعمل بجهد، وبالطبع سوف ترتكب أخطاء في أثناء تقدمك، ولكن هذه هي الطريقة التي تتعلم بها وتحسن.

إن ارتكاب الأخطاء أمر أساسي لتعليم العلماء والفنانين الناشئين من جميع الأنواع، ويجب أن تكون لديهم حرية إجراء التجارب، وتجربة هذه الفكرة والتخبط فيها، ثم تجربة فكرة أخرى وأخذ المخاطرة، والاستعداد للحصول على إجابة خاطئة، وأحد الأمثلة الكلاسيكية التي درّست ذات مرة لأطفال المدارس الأمريكية -ولا تزال موجودة في إصدارات مختلفة على عديد من المواقع الملهمة- هو رد توماس إديسون على مساعده (أو مراسل صحفي) حينما سأل إديسون عن إخفاقاته التجريبية العشرة آلاف في جهوده لصناعة أول مصباح متوهج،

فقد قال: «لم أفشل، ولكنني اكتشفت بنجاح عشرة آلاف عنصر لا يؤدون للنجاح»، ومع ذلك، فإن معظم الأطفال الأمريكيين محرومون من حرية اللعب أو الارتجال أو التجربة والخطأ بعشر طرائق، ناهيك عن عشرة آلاف، والتركيز على الاختبار المستمر -الذي نشأ عن الرغبة المعقولة في قياس وتوحيد إنجازات الأطفال- زاد من خوفهم من الفشل، ومن المهم بالتأكيد أن يتعلم الأطفال النجاح، ولكن من المهم بنفس القدر أن يتعلموا عدم الخوف من الفشل، فعندما يخشى الأطفال أو الكبار الفشل فإنهم يخشون المخاطرة، ولا يمكنهم تحمل أن يكونوا مخطئين.

تشير الأبحاث التي أجرتها عالمة النفس كارول دويك إلى أحد أسباب الاختلافات الثقافية التي لاحظها ستيفنسون وستيجلر، حيث يعتقد الأطفال الأمريكيون عادة أن ارتكاب الأخطاء ينعكس بشكل سيئ على قدراتهم المتأصلة، وفي تجارب دويك تمت الإشادة ببعض الأطفال لجهودهم في إتقان تحدٍّ جديد، بينما تمت الإشادة بالآخرين لذكائهم وقدرتهم («أنت خبير رياضيات بالفطرة يا جوني»)، وعديد من الأطفال الذين تمت الإشادة بجهودهم -حتى عندما لم يفهموها بشكل صحيح- كان أدائهم أفضل في النهاية وأحبوا ما تعلموه أكثر من الأطفال الذين تمت الإشادة بهم لقدراتهم الفطرية، كما كانوا أكثر عرضة للنظر في الأخطاء والنقد كمعلومات مفيدة من شأنها أن تساعد على التحسن، وفي المقابل كان الأطفال الذين امتدحوا على قدرتهم الطبيعية يهتمون أكثر بالكيفية التي تظهر بها كفاءتهم أكثر من

اهتمامهم بما كانوا يتعلمونه بالفعل^{٢٢}، ومن ثم فقد أصبحوا دفاعيين إذا لم يكن أداؤهم جيداً أو إذا ارتكبوا أخطاء، ووضعهم رد الفعل هذا في دورة هزيمة ذاتية: إذا لم يؤدوا بشكل جيد فلحل الخلاف الذي تلا ذلك («أنا ذكي ومع ذلك أفسدت الأمر»)، وفقدوا ببساطة الاهتمام بما كانوا يتعلمونه («يمكنني فعل ذلك إذا أردت، ولكنني لا أريد»).

إنه درس لجميع الأعمار: أهمية رؤية الأخطاء ليس باعتبارها إخفاقات شخصية يجب إنكارها أو تبريرها، ولكن باعتبارها جوانب حتمية من الحياة تساعدنا على تحسين عملنا، واتخاذ قرارات أفضل، وعلى أن نكبر ونتصرف بنضج، وفهم الكيفية التي يتوق بها العقل إلى الانسجام ورفضه المعلومات التي تشكك في معتقداتنا أو قراراتنا أو تفضيلاتنا لا يعلمنا فقط أن نكون منفتحين على احتمال الخطأ، ولكنه يساعدنا أيضاً على التخلي عن الحاجة إلى أن نكون على صواب، فالثقة صفة جيدة ومفيدة؛ ولا أحد منا يريد طبيباً يكون غارقاً في عدم اليقين إلى الأبد ولا يمكنه أن يقرر كيفية علاج مرضنا، ولكننا نريد طبيباً منفتح الذهن ومستعداً للتعلم، ولن يرغب معظمنا في العيش من دون عواطف أو قناعات تعطي لحياتنا معنى ولوناً وطاقة وأملًا، ولكن الحاجة التي لا تنتهي إلى أن نكون على حق تؤدي حتمًا إلى الاعتقاد بأننا أقوم أخلاقًا من الآخرين، وعندما تخلو الثقة بالنفس وقوة المعتقدات من التواضع يمكن للناس بسهولة تجاوز الخط الذي يفصل بين الثقة الصحية بالنفس والغطرسة، وفي هذا الكتاب التقينا بعدد من النماذج التي تجاوزت هذا الخط، مثل: الأطباء النفسيون الموقنون أنهم يستطيعون معرفة ما إذا

كانت الذاكرة المستعادة صحيحة أم لا؛ والأطباء والقضاة الذين يؤكّدون أنهم فوق تضارب المصالح؛ وضباط الشرطة الذين هم على يقين من أنهم يستطيعون معرفة ما إذا كان المشتبه به يكذب أم لا؛ ووكلاء النيابة الموقنون أنهم أدانوا الطرف المذنب؛ والأزواج والزوجات الموقنون أن تفسيرهم للأحداث هو التفسير الصحيح؛ والدول التي على يقين من أن نسختها من التاريخ هي النسخة الوحيدة.

سيكون علينا جميعاً أن نتخذ قرارات صعبة في بعض الأحيان في حياتنا، ولن تكون كلها صحيحة، ولن تنطوي كلها على حكمة، وبعضها يكون معقّداً، وبعواقب لم نكن نتوقعها قط، وإذا استطعنا مقاومة إغراء تبرير تصرفاتنا بطريقة جامدة ومفرطة في الثقة، يمكننا ترك الباب مفتوحاً للتعاطف وتقدير تعقيد الحياة، بما في ذلك احتمال أن ما يكون مناسباً لنا ربما لا يكون مناسباً للآخرين، وتقول امرأة سنسميها جانين: «أعرف كيف تبدو القرارات الصعبة، عندما قررت أن أترك زوجي بعد زواج استمر عشرين عاماً، كان هذا قراراً صائباً بالنسبة إلى إحدى بناتي التي قالت: «لماذا استغرقت كل هذا الوقت؟»، ولكنه كان كارثة بالنسبة إلى الأخرى، وظلت غاضبة مني لسنوات. لقد عملت بجد في ضميري وعقلي لحل هذا الصراع وتبرير ما فعلته، وكنت ألوم ابنتي على عدم قبولها أسبابي وفهمها، وبنهاية رياضتي العقلية كنت قد تحولت إلى الأم تيريزا وابنتي إلى شقية أنانية ناكرة للجميل، ولكن مع مرور الوقت لم أستطع الاستمرار في ذلك، واشتقت إليها وتذكرت حلاوتها وتفهمها، وأدركت أنها لم تكن شقية بل طفلة دمرها الطلاق، وأخيراً

جلست معها وأخبرتها أنه رغم أنني ما زلت مقتنعة بأن الطلاق كان القرار الصحيح بالنسبة إليّ، فإنني فهمت الآن مدى الضرر الذي لحق بها، وأخبرتها أنني مستعدة للاستماع إليها، فقالت: «أمي، دعينا نذهب إلى سترال بارك للنزهة والتحدث بالطريقة التي كنا نفعلها عندما كنت طفلة»، وفعلنا ذلك، وكانت تلك بداية مصالحتنا، وحاليًا عندما أشعر بالحماسة لأنني محقة بنسبة ١٠٠٪ بشأن قرار يشكك فيه الآخرون، فإنني أنظر إليه مرة أخرى، وهذا كل ما في الأمر».

لم يكن على جانين أن تعترف بأنها ارتكبت خطأ، فهي لم ترتكب خطأ فيما يتعلق بحياتها الخاصة، ولكنها اضطرت إلى التخلي عن حاجتها إلى الإصرار على أن قرارها كان القرار الصحيح بالنسبة إلى أطفالها، وكانت بحاجة إلى أن تتعاطف مع الابنة التي تضررت من طلاقها.

الفصل الأول (من المسرحية): الرحلة الشاقة إلى التعاطف

مع الذات

لا توجد فصول ثانية في حياة الأمريكيين.

- ف. سكوت فيتزجيرالد

بعد ظهر أحد الأيام، دخل إليوت في مناقشة حية مع صديقه ديفيد سوانجر الشاعر المتميز، حول هذا القول المأثور لسكوت فيتزجيرالد.

قال سوانجر: «هذا يعني أننا لا نحصل على فرص ثانية، فنحن لا نتعافى من الفشل المبكر وهذا هو السبب في أنه في كل مرة يعود فيها

سياسي أو رياضي أو شخصية عامة أخرى إلى الأضواء، يستخدم بعض المعلقين نجاح هذا الشخص لدحض الاقتباس».

قال إليوت: «ألا يذهب الأمريكيون إلى المسرح؟، فهناك ثلاثة فصول في المسرحية التقليدية، واقتباسه لا يتعلق بالفرص الثانية ولكنه أكثر إثارة للاهتمام من ذلك، وبالإضافة إلى ذلك فإن جاتسبي نفسه هو أفضل مثال في الأدب الأمريكي لرجل يعيد اختراع نفسه. ألا تعتقد أن إف سكوت فيتزجيرالد كان على علم بالعودة إلى الأضواء؟».

قال سوانجر: «حسنًا، هذا هو المعنى الشائع».

قال إليوت: «لكن في أي مسرحية كلاسيكية، الفصل الثاني هو المكان الذي تحدثم فيه الأحداث، وفي الحياة - كما في المسرحية - لا يمكنك القفز من الفصل الأول إلى الفصل الثالث، ونحن نتخطى الفصل الثاني على مسؤوليتنا، لأننا عندما نمر بهرج ومرج مواجهة شياطيننا (الأنانية، والفجور، والأفكار القاتلة، والخيارات الكارثية) فإننا عندما ندخل الفصل الثالث نكون قد تعلمنا شيئًا، وكان فيتزجيرالد يخبرنا أن الأمريكيين يميلون إلى تجاوز الفصل الثاني لأنهم لا يريدون أن يمروا بالألم الذي يتطلبه اكتشاف الذات».

عندما بدأ إليوت التدريس في عام ١٩٦٠، استخدم ملاحظة فيتزجيرالد لتوضيح نقطة نعتبرها، نحن الاثنين، الآن محور وجهات نظرنا حول العيش مع التنافر، فالفصل الأول هو الإعداد: المشكلة والصراع الذي يواجهه البطل، والفصل الثاني هو الصراع: حيث

يتصارع البطل مع الخيانات أو الخسائر أو الأخطار، والفصل الثالث هو الخلاص أو الحل: حيث يخرج البطل منتصرًا أو يسقط في الهزيمة^{٢٣}، واستخدم إليوت في محاضراته مسرحية موت بائع متجول^(١) باعتبارها المسرحية الأمريكية المثالية كي تجعل فيتزجيرالد يشير إلى أن الأمريكيين سيتخطون في أقرب وقت الجزء المتعلق بالنضال، حيث يمثل الحلم الأمريكي شقيق ويلي لومان الأكبر الشري بشكل مثير للإعجاب، وعم الأبناء بن وبيف وهابي.

ويلي [لأبنائه]: يا أولاد! يا أولاد! استمعوا لهذا، هذا هو عمكم بن، إنه رجل عظيم! أخبر أولادي كيف فعلت ذلك يا بن!

بن: لماذا، يا أولاد، عندما كنت في السابعة عشرة من عمري دخلت إلى الغابة وخرجت منها عندما كنت في الحادية والعشرين من عمري، وبعون الله أصبحت غنيًا؟!

ويلي [للأولاد]: هل ترون ما كنت أتحدث عنه؟ أعظم الأشياء يمكن أن تحدث!

كان إليوت يسأل طلابه: «ماذا حدث بحق الجحيم في الغابة؟ فهذا هو المكان الذي توجد فيه القصة! هذا هو الفصل الثاني! كيف فعل بن ذلك؟ كيف حل مشكلاته؟ كيف أصبح ثريًا؟ هل ساعد الناس؟ هل قتل أشخاصًا؟ هل كذب، أم سرق، أم غش؟ وماذا تعلم، وهل كان درسًا يمكنه الآن تقديمه لأبناء أخيه؟».

(١) مسرحية للكاتب المسرحي الشهير آرثر ميلر، المتوفى سنة ٢٠٠٥ والذي عُرف بمزجه للرمزية والواقعية في مسرحياته العديدة اجتماعية المنطلق. (المترجم).

عندما كنت أنا وإليوت نكتب الطبعة الأولى من هذا الكتاب اختلفنا حول ما إذا كان يجب مناقشة الجانب الآخر من التنافر، والمعاناة التي يخلقها في الأشخاص الذين لا يستطيعون أن يتسامحوا أو يغفروا لأنفسهم الأضرار التي تسببوا فيها أو القرارات السيئة التي اتخذوها، وقد عارض إليوت أن نتكلم كثيرًا عن مسامحة الذات بسبب قلقه من أن الناس سيفوتون نقطة الفصل الثاني، وقال: «لا أريد أن يختصر الناس العملية، فلا يكفي أن تقول «لقد فعلت شيئًا سيئًا ولن أفعل ذلك مرة أخرى، فمن المهم بالنسبة إليّ أن أسامح نفسي»، نعم، هذا مهم، ولكن الهدف ليس استخدام التعاطف مع الذات كضمانة لتغطية الجرح بدلًا من اتخاذ خطوات نشطة نحو شفائه، إذ يمكن للناس أن يمضوا في اعترافهم -سواء كان دينيًا أو علميًا- بأنهم فعلوا شيئًا سيئًا وأنهم آسفون عليه، ولكن ذلك لن يُحدث فرقًا كبيرًا إذا لم يفهموا ما كان عليه هذا الشيء السيئ ويفهموا أنهم لن يفعلوا ذلك مرة أخرى».

باختصار، هناك فرق كبير بين التعاطف السطحي مع الذات والتعاطف المكتسب مع الذات، وهذا التمييز مهم بشكل خاص في الوقت الحاضر لأنه في السنوات الأخيرة كانت هناك حركة متنامية في علم النفس الإيجابي تؤكد الفوائد العاطفية والمعرفية وحتى التحفيزية للتعاطف مع الذات، فمن يمكن أن ينتقد هذا المفهوم المتوهج؟ إلا أن الأمر أكثر تعقيدًا مما يبدو عليه للوهلة الأولى، ومن السهل الإفراط في تبسيطه إلى كلمة طنانة.

يجادل عالما النفس لورا كينج وجوشوا هيكس بأن النضج يعتمد على قدرة الشخص البالغ على مجابهة الأهداف الضائعة، أو الضياع المحتمل للذات، والاعتراف بالندم والأحزان على الطرق التي لم يسلكها أو الأحلام التي لم تتحقق، وكتبوا: «تمثل الذوات المحتملة الضائعة ذاكرة الشخص عن الذات التي كان سيتبعها «لو فقط»...»، لو لم يكن طفلي مصاباً بمتلازمة داون، أو لو كنت قادراً على إنجاب أطفال، أو لو لم يتركني شريكي بعد عشرين عاماً. إن التفكير في هذه التوقعات الضائعة يفرض تكاليف على السعادة، وفي مصطلحاتنا فإنه يولّد تناقضاً مؤلماً، ويضيف كينج وهيكس: «ولكن هذا العمل -أي التعبير عما كان يمكن أن يكون- قد تكون له فوائد من حيث تعقيد حساسية الشخص وربما معنى السعادة نفسها، إن وجود قيمة في الخسارة هو أكثر من مجرد فكرة مبتذلة، فرغم أن البحث عن الإيجابية في أي حدث سلبي قد يكون غريزة أمريكية غريبة، فإننا نجادل بأن النضال النشط المنعكس ذاتياً لرؤية الجانب المشرق هو عنصر أساسي للنضج»^{٢٤}، والنضج يعني بالضبط نضالاً نشطاً منعكساً ذاتياً لقبول التنافر الذي نشعر به تجاه الآمال التي لم ندركها، والفرص التي تركناها تضيع، والأخطاء التي ارتكبتها، والتحديات التي لم نتمكن من مواجهتها، وكلها غيرت حياتنا بطرائق لم نكن نتوقعها.

وللقيام بهذا، يجب أن نطبق على أنفسنا نفس التعاطف الذي نمنحه للآخرين، وقد وجد كينج وهيكس أن الأشخاص في عينتهما الذين لديهم أدنى مستوى من الرفاهية النفسية ينظرون إلى ذواتهم

السابقة على أنها «حمقاء» أو «مضللة» أو «غبية»، ولا يمكنهم رؤية أي فوائد أو مكاسب لفقدان أحلامهم، ولكن أولئك الذين يتمتعون بأعلى مستوى من الرفاهية النفسية فقد كانوا قادرين على اتخاذ ما وصفه الباحثان بأنه «منظور قاسٍ بشكل غير عادي لذواتهم السابقة»، فقد قالت إحدى النساء: «هل يجب أن أقول إنني كنت حمقاء؟ فلم يكن لديّ أي فكرة عن الحياة التي كنت أحلم بها»، ومع ذلك يمكنها الآن أن تنظر إلى تلك الذات المفقودة بتعاطف، وهي الذات التي يمكن أن تُعذر لسذاجتها، ويقول الباحثان إن البالغين الأكثر سعادة ونضجاً هم أولئك الذين يمكنهم استيعاب الخسائر في حياتهم وتحويلها إلى مصادر امتنان عميق ليس بالأفكار المبتذلة أو تعليقات بوليانا^(١)، ولكن من خلال اكتشاف الجوانب الإيجابية الحقيقية لحياتهم متعددة الأوجه. ولكن كيف يمكننا أن نغفر لأنفسنا أفعالاً نعتبرها لا تُغتفر؟ إن التسبب في وفاة شخص بريء هو أفذح خطأ يمكن أن يرتكبه إنسان، وكما قال جوناثان شاي فإنه يترك «ندبة على الروح»، ولنتأمل قصتي رجلين سعيًا لعلاج تلك الندبة بطرائق مختلفة.

عندما كان ريجي شو في التاسعة عشرة من عمره، كان يرسل رسائل نصية بينما كان يقود سيارته الرياضية ذات الدفع الرباعي إلى العمل، وبينما كان مشتتاً عبّر الخط الأصفر واصطدم بسيارة قادمة في الاتجاه الآخر، فخرجت السيارة عن السيطرة وتحطمت مما أسفر

(١) بوليانا: هي رواية نُشرت عام ١٩١٣ بقلم إيلانور بورتير والتي تعتبر الآن من كلاسيكيات أدب الأطفال، وأصبح اسم شخصية العنوان مرادفًا لشخص لديه نظرة متفائلة للغاية. (المترجم).

عن مقتل السائق الآخر وراكبه، وظل ريجي شو لمدة عامين -حتى حل موعد محاكمته بتهمة القتل بسبب الإهمال- ينفي أي ذنب، ثم استمع إلى شهادة العلماء الذين وصفوا سيكولوجية الإلهاء وكيف يستجيب المخ لطلب تقسيم الانتباه، وكيف تعزز الرسائل النصية هذا الطلب، وكيف يُضعف الإدراك الدقيق للخطر، أي باختصار -على حد تعبير أحد الخبراء- كيف يمكن للتكنولوجيا أن تسبب «الاختطاف العصبي»، وكلما تعرّف ريجي على العلم وواجه الأدلة الأخرى التي أدانته بشكل غير قابل للجدال -كما يقول مات ريشتل، الذي كتب كتابًا عن القضية: «تحول إلى متشدد ضد استخدام الهواتف الخلوية خلف عجلة القيادة»، وقد حُكم على ريجي بالسجن لفترة قصيرة وبأداء خدمة مجتمعية، إلا أن العقوبة التي فرضها على نفسه كانت أشد بكثير، ومنذ ذلك الحين كان ريجي يروي قصته لأي شخص سيستمع، بما في ذلك تلاميذ المدارس الثانوية والرياضيون وصانعو السياسات والمشرعون، وكان يبدأ حديثه بالقول: «أنا هنا لسبب واحد، وعليكم أن تنظروا إليّ يا رفاق... «لا أريد أن أكون ذلك الرجل»»، وقد قال المدعي العام الذي رفع القضية ضد ريجي لريشتل: «لم أر قط أي شخص يحاول إعادة اعتبار نفسه مثل ريجي شو. نقطة... نهاية القصة»، وأضاف القاضي: «لقد فعل كثيرًا لإحداث التغيير أكثر من أي شخص رأيته في حياتي»^{٢٥}.

بعض الناس لا يريدون أن تلتئم الندبة على الروح، فهم يرون ذلك كنذير بما فعلوه واحتجاج على اللا مبالة أو النسيان، وكان أحد أكثر الأمثلة المؤثرة التي واجهناها مقالًا بقلم إريك فير، الذي كان محققًا

متعاقدًا في العراق في عام ٢٠٠٤ في أبي غريب، فبعد عشر سنوات كان يُدرس مقررًا جامعيًا للكتابة وكتب: «منعني عنوان المقرر - كتابة الحرب - من الابتعاد كثيرًا عن الذكريات التي طاردتني على مدى العقد الماضي، لقد مارست التعذيب في أبي غريب الذي يهيمن على كل دقيقة من كل يوم بالنسبة إليّ»، ثم أظهر لطلابه الصور الأيقونية للمعتقلين المعذبين وقال: «عندما نظرت إلى وجوههم الشاحبة، أدركت أنه يمكنني السماح لنفسني بالإحساس بشعور قوي بالراحة، وأن أبا غريب سوف يتلاشى، وسوف تُنسى تجاوزاتي، ولكن فقط إذا سمحتُ بذلك».

ولكن إريك فير ليست لديه النية للسماح بذلك، فبعد اعترافه لقيادة التحقيقات الجنائية بالجيش الأمريكي، استمر في التحدث عن أفعاله لأي جمهور دعاه، «لقد قلت كل ما يمكن قوله، وليس من الصعب التظاهر بأن أفضل شيء أفعله هو أن أضع كل شيء ورائي^{٢٦}. وقفت أمام الفصل في ذلك اليوم آملًا في السماح للا مبالاة بتخفيف حقائق التاريخ المؤلمة، فلم أعد مضطرًا للقيام بدور المحقق السابق في أبي غريب، فقد كنت أستاذًا في جامعة ليهاي، ويمكنني تصحيح الأوراق وقول أشياء ذكية في الفصل، وكان بإمكان ابني ركوب الحافلة إلى المدرسة والتحدث إلى أصدقائه حول ما يفعله والده من أجل لقمة العيش، وكنت شخصًا يُفْتَخَر به، ولكنني لست كذلك، فقد كنت محققًا في أبي غريب ومارست التعذيب».

اختار فير عدم تقليل التنافر بشأن أفعاله في أبي غريب من خلال وضع كل شيء وراءه وتبرير ما فعله على أنه شيء كان عليه القيام به،

سواء بموجب الأوامر أو كجزء من وظيفته، ولكنه بدلاً من ذلك اختار أن يكون شاهداً للتاريخ على أشنع أجزاء النفس البشرية، وأراد تذكير طلابه بأن «هذا البلد ليس دائماً شيئاً يفخرون به»، وهو لا يريد أن ينسى ولا يريد أن يغفر لنفسه، فهذا هو اختياره الأخلاقي.

ومع ذلك، يبدو لنا أن إريك فير في منتصف الفصل الأول من مسرحيته الخاصة، ولا ينخرط في جلد ذاتي متكرر أو بلا هدف بل يتصارع مع شياطينه، ومن خلال الكشف عما فعله في أبي غريب لصف تلو الآخر من الطلاب، فإنه يشق طريقه إلى حل، لا يحتاج فيه إلى نسيان ما فعله ولكن الذاكرة فيه لا تهيمن على «كل دقيقة من كل يوم» من حياته، وتضيء كلماته الخاصة كيف يمكن أن يصل إلى هناك فهو يقول: «لقد مارست التعذيب»، ولا يقول: «أنا مُعذَّب»، وبهذه الطريقة يفصل سلوكه عن هويته، وهذه القدرة هي التي تسمح للناس في النهاية بالعيش مع السلوك الذي يدينونه الآن، وقد لا يكون ابنه فخوراً بما فعله والده في العراق، لكنه بالتأكيد يمكن أن يكون فخوراً بصدق والده الشجاع وتصميمه على التكفير عن الخطأ، بالبدء في تعليم عائلته وطلابه ومواطنيه الدرس الذي عانى من أجل تعلمه.

يمكننا جميعاً أن نحمل هذا الفهم إلى حياتنا الخاصة: الشيء الذي فعلناه يمكن فصله عن نحن، وعن نريد أن نكون، ولا يجب أن تكون ذواتنا الماضية برنامج عمل لذاتنا المستقبلية، والطريق إلى الإصلاح يبدأ بفهم أن من نحن يشمل ما فعلناه ولكنه يتخطاه أيضاً، ووسيلة تخطيه هي التعاطف مع الذات.

الوصول إلى التعاطف الحقيقي مع الذات هو عملية لا تحدث بين عشية وضحاها، وهذا لا يعني نسيان الضرر أو الخطأ، كما في «حسنًا، أنا في الأساس شخص جيد ولطيف، لذا سأعامل نفسي بلطف وأمضي قدمًا»، لا. فقد تكون شخصًا جيدًا ولطيفًا ولكنك شخص ارتكب فعلًا مؤذيًا للغاية، وهذا جزء منك ومن كينونتك الآن، ولكن لا يجب أن يكون كل ما أنت عليه، ولا يجب أن يُعرفك اللهم إلا إذا واصلت تبرير هذا الفعل بلا تفكير.

في الفصل السابق، ناقشنا رد فعل الأمة على اتهام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ لوكالة المخابرات المركزية بالوحشية والخداع في برنامجها لتقنيات «الاستجواب المعزز»، فبدلاً من المطالبة بالعمل الشاق لإصلاح وكالة المخابرات المركزية سارع عديد من أعضاء الكونجرس والسياسيين إلى القول: في الواقع، كان هذا هو الفصل الأول من المسرحية، وهذا ما فعلناه بعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١، إنه في ماضينا وما حدث قد حدث، ولا يمكن معالجة الأخطاء الآن، ونحن في الفصل الثالث من المسرحية. ولم يوضح أحد هذا الموقف أفضل من معلقة فوكس نيوز أندريا تانتاروس التي قالت: «الولايات المتحدة الأمريكية رائعة، ونحن رائعون، ولكننا أجرينا هذه المناقشة، واعتبرنا الأمر في حكم المنتهي بالنسبة إليها، والسبب في أنهم [أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ] أرادوا المناقشة ليس لإظهار مدى روعتنا، ولكن ليوضحوا لنا كيف أننا لسنا رائعين، وقدموا اعتذارًا عن شيء ما»^{٢٧}، (تزيح التعذيب باعتباره شيئًا ما)، والآن إذا فهمت أندريا

تانتاروس أن بلدها يحتاج إلى قضاء بعض الوقت في الفصل الأول من المسرحية، فسيكون ذلك رائعًا.

قد يكون التنافر مدمجًا فينا، ولكن لماذا نعتقد أن الأخطاء ليست كذلك، فقد قال الجنرال الكونفدرالي روبرت لي -بعد حمام الدم الكارثي لهجوم بيكيت في معركة جيتيسبيرج، حيث ذبح جنود الاتحاد أكثر من نصف رجاله البالغ عددهم ١٢٥٠٠: «كل هذا كان خطئي، فقد طلبت من رجالي أكثر مما كان ينبغي أن أطلب منهم»^{٢٨}، لقد كان روبرت لي جنرالًا عظيمًا ارتكب خطأ مأساويًا في التقدير، ولكن هذا الخطأ لم يجعله قائدًا عسكريًا غير كفؤ، وإذا كان روبرت لي قادرًا على تحمل المسؤولية عن فعل كلّف الآلاف من الأرواح، فمن المؤكد أن كل هؤلاء الأشخاص في مدرسة المرور يمكنهم الاعتراف بأنهم تجاوزوا إشارة المرور الحمراء.

هناك عدد قليل من أمثال روبرت لي في جيشنا الحديث، ولكن الفريق متقاعد دانيال بولجر -الذي قاد القوات في العراق وأفغانستان بين عامي ٢٠٠٥ و٢٠١٣- نشر اعترافًا رسميًا بالذنب جاء فيه: «بيد العدو، وبتحريضٍ من جهلي وخطرتي وحظوظ الحرب التي لا ترحم، فقد فقدت ثمانين رجلًا وامرأة كانوا تحت قيادتي، مع أكثر من ثلاثة أضعاف هذا العدد من الجرحى، وهذه الوفيات -كما قال روبرت لي في جيتيسبيرج- كلها نتيجة لخطئي؛ لم نكن كقادة عسكريين نعرف عدونا، لم نُثبِتْ قُط، ولم نركز جهودنا قُط، وأصبحنا جيدين أكثر من اللازم في جعل خصومنا الجدد أسرع مما كان يمكننا التعامل مع

الخصوم القدامى... وعملنا بجِد لإنجاز عمليْن لا عمل واحد، وهما
مِركتان طويلتان وغير حاسمتين لمكافحة تمردين لم تكن قواتنا مناسبة
لهما، ومرة تلو الأخرى، عندما رأيت أنا وزملائي القادة أن استراتيجياتنا
لم تكن ناجحة، فشلنا في إعادة النظر في افتراضاتنا الأساسية، وفشلنا
في فحص فهمنا المعيب لعدونا أو لأنفسنا... في النهاية، لم تستطع كل
الشجاعة والمهارة في العالم التغلب على الجهل والخطورة، وأنا كقائد
عسكري فهمت الأمر بشكل خاطئ، وقد فعلت ذلك بصحبة أقراني»^{٢٩}.

إن استعداد الفريق بولجر لمواجهة الحجم الهائل للكارثة التي
أطلقتها الولايات المتحدة في الشرق الأوسط أمر ملهم، ولكن مثلما
كانت حياة فيفيان جورنيك ستكون أكثر سعادة إلى حد كبير لو لم
تنتظر حتى سن الخامسة والستين من عمرها لترى دورها في علاقاتها
الفاشلة، فيحق لنا أن نتمنى لو أن الفريق بولجر وزملاء الضباط قد
تحدثوا في وقت أقرب، إذ يمكن تجنب تفاقم الكوارث إذا استطاع
قادتنا السياسيون والعسكريون أن يغيروا اتجاههم عندما يكون المسار
الذي يسلكونه متجهًا إلى الهاوية، ويترك الفريق بولجر حل خوض
«الحرب على الإرهاب» للجيل التالي من القادة العسكريين، وكما
يقول فإن الجيش الأمريكي «ألقى على نفسه نظرة غير مساومة» بعد
الإخفاقات في فيتنام، وكما كتب: «الأفكار الجيدة والسيئة، والدروس
المستفادة، والتي أعيد تعلمها، وتلك التي لم نتعلمها، تستحق كلها
تدقيقًا ومناقشة شاملين»، نعم، لقد فعلوا ولكنهم تأخروا وربما أكثر
من اللازم، ولا يمكننا الاستمرار في خوض حرب الماضي، ناهيك

عن الحرب التي خسرتها، وما نحتاج إليه هو فهم عميق ليس فقط لما حدث من أخطاء في ذلك الوقت، ولكن أيضًا لما يحدث بشكل خاطئ في الوقت الحالي، والأفضل أن نستعد لما يمكن أن يسير في اتجاه خاطئ من القرارات الحالية. نحن بحاجة إلى استراتيجية أيزنهاور.

في يونيو ١٩٤٤، كان على دوايت أيزنهاور -القائد الأعلى لقوات الحلفاء في أوروبا- اتخاذ قرار عسكري حاسم، وكان يعلم أن غزو نورماندي سيكون مكلفًا في ظل أفضل الظروف، وأن الظروف كانت بعيدة عن المثالية، وإذا فشل الغزو فإن آلافًا من القوات سيموتون في هذه المحاولة، وسوف يؤدي ذل الهزيمة إلى إضعاف معنويات الحلفاء وتشجيع قوى المحور، إلا أن أيزنهاور كان مستعدًا سابقًا لتحمل المسؤولية الكاملة عن العواقب الكارثية المحتملة لقراره بالمضي قدمًا، وكتب خطابًا قصيرًا كان يخطط لإطلاقه إذا فشل الغزو، وكان نصه كاملاً: فشلت عمليات إنزال قواتنا في منطقة شيربورج-هافر في الحصول على موطئ قدم مريضٍ وسُحِبَت القوات، وقد استند قرارى بالهجوم في هذا الزمان والمكان إلى أفضل المعلومات المتاحة، وفعلت القوات الجوية والبحرية كل ما يمكن أن تفعله الشجاعة والتفاني في أداء الواجب، وإذا كان هناك أي لوم أو خطأ في المحاولة، فأنا وحدي المسؤول عنه^{٣٠}.

أجرى أيزنهاور بعد كتابة هذه الملاحظة تغييرًا صغيرًا ولكنه حاسم، فقد شطب نهاية الجملة الأولى «وسُحِبَت القوات»، واستبدل بهذا البناء المبني للمجهول عبارة «وقد سَحِبَت القوات»، وهذه بلاغة يتردد صداها على مر العقود.

في التحليل النهائي، لا تعتمد شخصية الشعب ونزاهة الفرد على كونهما خاليتين من الأخطاء، إذ يعتمد ذلك على ما نفعله بعد ارتكاب الخطأ، وقد كتب الشاعر ستيفن ميتشل، في ترجمته الشعرية للفيلسوف الصيني لاو تزو تاو تي تشينج:

الشعب العظيم مثل الرجل العظيم:

عندما يرتكب خطأ، فهو يدركه، وبعد أن يدركه، يعترف به.

وبعد أن يعترف به، يُصحّحه.

وهو يعتبر أولئك الذين يشيرون إلى أخطائه أكرم معلميه.

٩. التنافر والديمقراطية والديماجوجي

«الرجل الذي يكذب على نفسه ويستمع إلى كذبه الخاصة يصل إلى حد أنه لا يستطيع تمييز الحقيقة في داخله أو في من حوله، ومن ثم يفقد كل احترام لنفسه وللآخرين، ولأنه فاقد الاحترام فإنه يتوقف عن الحب، ومن أجل شغل نفسه وإلهائها من دون حب، فإنه يفسح المجال للأهواء والملذات الخشنة ويغرق في بهيمية رذائله، وكل هذا نابع من الكذب المستمر على الآخرين وعلى نفسه».

- فيودور دوستويفسكي، الإخوة كارامازوف

٢٤ ديسمبر ٢٠١٩

عزيزنا القارئ، يمكن اعتبار هذا الفصل عملاً في طور التنفيذ، ففي الأصل قررنا أن نختم هذه الطبعة من كتابنا بفصل عن دونالد ترامب، لأنه لا يوجد تطبيق لنظرية التنافر أكثر أهمية من فهم كيف وسعت رئاسته ما يبدو أنه فجوة لا يمكن تجاوزها بين الأحزاب السياسية والأصدقاء

بل والأفراد من نفس العائلة، ولكن لسوء الحظ يستغرق الأمر شهوْرًا حتى تصبح المخطوطة المكتملة كتابًا، ولهذا السبب فبحلول الوقت الذي تقرأ فيه هذا الكتاب ستكون قد عرفت كثيرًا عن ترامب ومصيره أكثر مما نعرفه الآن في نهاية عام ٢٠١٩ (والذي قد يبدو وكأنه عمر مضى بالنسبة إليك).

لا توجد لدينا أي فكرة عما سيحدث لترامب، بالنظر إلى تقلب شخصيته وورثاسته، فقد أقر مجلس النواب المنقسم بشدة مادتين تتضمنان اتهامًا جنائيًا ضد ترامب، هما: إساءة استخدام سلطة منصبه من خلال الضغط على قوة أجنبية -أوكرانيا- للتدخل في انتخاباتنا من خلال إلقاء الأوساخ على منافسه السياسي جو بايدن؛ وعرقلة الكونجرس برفضه التعاون مع جلسات الاستماع والسماح للمساعدين الرئيسيين بالإدلاء بشهاداتهم، وفي جلسات لجنة الاستخبارات في مجلس النواب شهد السفراء ومسؤولو مجلس الأمن القومي وأعضاء وزارة الخارجية وقسم الخدمة الخارجية بأن ترامب فعل بالضبط ما اتُّهم بفعله وأن الجميع في دائرته الداخلية يعرفون ذلك، وكما تتنبأ نظرية التنافر المعرفي فقد وصف الجمهوريون -الذين عارضوا بالإجماع قرار المساءلة ولم يشككوا في الحقائق المقدمة- جلسات الاستماع بأنها مختلقة وأكذوبة.

اعتقد بعض أصدقائنا وزملائنا أننا مجانين لمحاولتنا كتابة أي شيء عن المشهد السياسي اليوم، لأن كل ما سنكتبه سيكون قديمًا بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة، وكما قال أحد المخلصين: «يمكن أن

يكون قد عُزل من منصبه، أو أُعيد انتخابه، أو هُزم، أو بدأ حرباً مع إيران، أو تسبب في حرب أهلية هنا، من يدري؟».

نحن لا ندري بالطبع، لكننا - كعلماء اجتماع - لدينا كثير لنقوله حول كيف تُلقَى دراسة حالة دونالد ترامب الضوء على قضية أكبر وهي ظاهرة ترامب، ففي عام ٢٠١٦ صوت له ثلاثة وستون مليون أمريكي - بعضهم بحماس كامل والبعض الآخر بعدم ثقة وشك، وكانوا جميعاً يأملون في أنه سيكون الرئيس الذي يلبي احتياجاتهم السياسية والاقتصادية والعاطفية، وأنه سيحتفظ بالمصانع دائرة وسيعقد صفقات مع دول أجنبية لصالح الاقتصاد، وأن حكومته من المهنيين ستكبح جماح تجاوزاته الشخصية، وظلت الغالبية العظمى من مؤيدي ترامب - بعد أن قطعوا هذا الالتزام الأولي تجاهه بأصواتهم - مخلصه له على الرغم من التنافر الناتج عن سلوكه الشنيع وغريب الأطوار على نحو متزايد، وسلسلة أكاذيبه، وخطابه التحريضي المثير للانقسام، ولذلك لن نركز في هذا الفصل فقط على ترامب ولكن أيضاً على أتباعه الذين لا يتزعزعون، وسوف نوضح لك كيف يمكن لتبريرات ذواتهم المتزايدة أن تؤدي إلى تآكل روح الأمة ومؤسساتها الأساسية، وكما تتنبأ نظرية التنافر أيضاً، فإن أقلية فقط من مؤيدي ترامب غيروا رأيهم بشأنه، ونعتقد أنه من الأهمية بمكان أن نفهم كيف ولماذا فعلوا ذلك، بالنظر إلى التكاليف الشخصية والمهنية والنفسية التي دفعها كثيرون منهم.

دعنا نبدأ بقصة من التاريخ قد تكون بمثابة مثل لعصرنا، وهي قصة رجل محترم في الأساس وافق -بنية حسنة- على تأييد التجاوزات السياسية لزعيم قوي من أجل تحقيق الغايات الإنسانية التي سعى إليها، فكيف يمكن لهذا القرار أن يسير في اتجاه خاطئ؟ ولكنه فعل من خلال التنازل خطوة واحدة في كل مرة.

يعرف معظم الناس عن البابا بيوس الثاني عشر وتعاونه مع النازيين خلال الحرب العالمية الثانية، ويعرف عدد أقل عن سلفه البابا بيوس الحادي عشر -الذي انتُخب بابا في عام ١٩٢٢- وعلاقته مع بينيتو موسوليني الذي أصبح رئيسًا لوزراء إيطاليا في نفس العام، ولم يكن لدى بيوس الحادي عشر وموسوليني كثير من القواسم المشتركة بخلاف معاداة السامية الكاثوليكية الإيطالية واسعة الانتشار، والتقيا مرة واحدة فقط في السنوات السبع عشرة بين انتخاب البابا ووفاته، ولم يكن موسوليني صديقًا للكنيسة الكاثوليكية، فعندما كان شابًا كان يُطلق عليه أكل الكهنة، وفيما بعد هاجمت فرقه الفاشية الكهنة بانتظام وأرهبت أعضاء مجموعات العمل الكاثوليكي، وهي شبكة من نوادي الشباب الدينية، ومنذ إنشاء إيطاليا كدولة قومية في عام ١٨٦١، أكدت البلاد القيم الليبرالية والعلمانية، وخشي البابا أن يواصل موسوليني هجماته على الكنيسة، ومع ذلك لم يكن بيوس الحادي عشر فاشيًا، ففي عام ١٩٢٦ فرض حظرًا على المشاركة الكاثوليكية في منظمة العمل الفرنسية اليمينية الفاشية بقيادة أبرز مُعادي السامية في فرنسا.

يفصل ديفيد كيرتزر التكتيكات التي انتصر بها موسوليني على الكنيسة في كتابه الحائز جائزة بوليتزر للتاريخ المعنون البابا وموسوليني^١، كان موسوليني يعرف أن موافقة الفاتيكان ستلعب دوراً رئيسياً في إضفاء الشرعية على نظامه الفاشي العنيف، ومن ثم بدأ بمجرد أن أصبح رئيساً للوزراء في جذب البابا بشكل منهجي إلى جانبه، ففي أول خطاب له أمام برلمانته الجديد، تعهد ببناء دولة كاثوليكية تليق بأمة كاثوليكية وطلب مساعدة الله، وهو أمر لم يفعله أي زعيم منذ تأسيس الدولة، وكان بيوس الحادي عشر مطمئناً بعض الشيء لكنه كان لم يزل قلقاً، وكتب كيرتزر: «إذا كان بإمكان البابا التأكد من أن موسوليني سيعمل على استعادة نفوذ الكنيسة في إيطاليا، فلن يميل إلى أن يأخذ ضده ماضيه المناهض لرجال الدين... ورغم أنه لم يكن تحت أي وهم أن موسوليني شخصياً يعتنق القيم الكاثوليكية أو يهتم بأي شيء آخر غير تعظيم ذاته، فإنه كان على استعداد للنظر في صفقة براجماتية إذا اقتنع بأن موسوليني سيفي بوعوده»^٢، وكانت هذه هي الخطوة الأولى.

شرع موسوليني في إثبات أنه كاثوليكي جيد، فأمر مجلس وزرائه بالركوع للصلاة على مذبح الجندي المجهول في روما، وعمد أطفاله وزوجته (التي كانت تحترق الكنيسة الكاثوليكية)، ودفع ثمن إعادة تأهيل الكنائس التي تضررت في الحرب العالمية الأولى، وفرض وضع الصليبان في المحاكم والمستشفيات والفصول الدراسية. وجعل -وهو أكل الكهنة السابق- إهانة الكهنة جريمة، وأصدر مرسوماً يقضي بأن جميع المدارس الابتدائية يجب أن تدرس الدين الكاثوليكي، وتكيف

مع حرب البابا على «الهرطقة» فحظر الكتب البروتستانتية وسيرة سيزار بورجيا والمجلات التي وجدها الفاتيكان مسيئة، كما أكد موسوليني لبيوس الحادي عشر أنه لن يفعل شيئاً لليهود لم تفعله الكنيسة بالفعل، وهكذا فإن البابا الذي سعد بتحقيق الغايات الدينية التي أرادها الفاتيكان، كبت أي مخاوف بشأن وسائل موسوليني الفاشية لتأكيد السلطة، وكانت هذه هي الخطوة الثانية ووقع البابا بيوس الحادي عشر في الفخ.

استمر موسوليني طوال الوقت وبشكل غير رسمي في تأييد العنف الذي يرتكبه أنصاره ضد مجموعات العمل الكاثوليكي، وكانت هذه المجموعات الشبابية عزيزة على قلب بيوس الحادي عشر لأنه رآها -كما يقول كيرتزر- «قوات قاعدية لإعادة تنصير المجتمع الإيطالي»، وكان البابا غاضباً من هذا العنف إلا أن موسوليني «أثبت براعته في استخدام العنف لصالحه وأقنع البابا بأنه الرجل الوحيد في إيطاليا الذي يمكنه إبقاء المشاغبين تحت السيطرة»^٣، ولكن نادراً ما تم القبض على الجناة، ناهيك عن معاقبتهم.

في عام ١٩٢٩ وقّع الفاتيكان والدولة الإيطالية اتفاقيات رسمية، وكان بيوس الحادي عشر سعيداً لأن الاتفاقيات حددت -من بين منح أخرى للكنيسة- أن الديانة الكاثوليكية هي «الديانة الوحيدة للدولة»، وكان موسوليني سعيداً لأن الاتفاقيات أسكتت أي كاثوليك كانوا يعتقدون أو يأملون أن البابا سيعارض النظام الفاشي، وكان موسوليني يفتقر الآن إلى أي معارضة قوية وتضخم شغفه بالتملق، ولم يمض وقت طويل حتى طُلب من تلاميذ المدارس الدعاء له -الدوتشي- وأن

يقدموا حياتهم له بدلاً من الله، وهو فعلٌ هرطقة حقيقي من وجهة نظر الكنيسة، ولكن البابا لم يحتج، واستُدعي الكهنة والأساقفة من جميع أنحاء البلاد للاحتفال بسياسة موسوليني الزراعية، وخوفاً من الإساءة إليه سارعوا بالذهاب وساروا عبر روما لوضع أكاليل الزهور، ليس على الأضرحة الكاثوليكية ولكن على الأنصاب الفاشية، وطُلب من الكهنة أن يهتفوا عند دخول موسوليني في حفل عام وأن يصلوا من أجل أن تحل عليه البركات، وفي عام ١٩٣٥ حث موسوليني بيوس الحادي عشر على مباركة غزوه للحبشة (إثيوبيا الآن) لارتكاب أعمال إبادة جماعية من خلال تسميتها «الحرب المقدسة»، وتم إرسال مائة ألف جندي إيطالي إلى المعركة كإلهاء عن مشكلات إيطاليا الاقتصادية.

طوال ثلاثينيات القرن العشرين، كافح البابا لتبرير الفوائد التي كانت تحصل عليها الكنيسة من موسوليني على الرغم من قلقه المتزايد بشأن صعود النازية وعدائها القاسي للسامية، فلم يكن البابا قلقاً بشأن «التهديد اليهودي» في إيطاليا، وكان أكثر قلقاً بشأن التهديد النازي في أوروبا، ولمنع البابا من التحدث ضد معاداة السامية أقنعه موسوليني بأن النسخة الإيطالية كانت مختلفة عن النسخة النازية، وقال موسوليني -إلى جانب ذلك- إنه لن يعامل اليهود بوحشية أكثر مما عاملتهم الكنيسة نفسها، وبناء على ذلك بدأ البابا يميز بين «الفاشية الجيدة»، التي اعترفت بحقوق الكنيسة، و«الفاشية السيئة» التي لم تعترف بها، وقد كتب كيرتزر أنه في عام ١٩٣٧ تفاخر موسوليني أمام وزير الخارجية الألماني بمدى سهولة التلاعب بالكنيسة، ونصح الألمان

بأن يسمحوا فقط بالتعليم الديني في المدارس، وسرعان ما سيصطف الفاتيكان، وصحيح أنه كانت هناك مشكلة صغيرة مع مجموعات العمل الكاثوليكية ولكن كل ما تطلبه الأمر هو تقديم «خدمات صغيرة لكبار رجال الدين»، مثل منحهم بعض الامتيازات الضريبية وتذاكر سكك حديدية مجانية.

بحلول منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، لم يعد البابا قادرًا على العيش مع التوازن غير المستقر بين الوسائل والغايات التي خلقها لنفسه. وكما قال بيتر آيزنر -مؤلف كتاب الحملة الصليبية الأخيرة للبابا- «أدرك البابا أن الدور على اليهود اليوم، وبعد ذلك سيكون الكاثوليك، وفي النهاية سيكون العالم كله، وكان بإمكانه أن يرى في الأخبار اليومية أن النازيين لن يتوقفوا عند أقل من الهيمنة على العالم»^٤، واستجلب بيوس الحادي عشر دعم أحد اليسوعيين الأمريكيين الذي كتب عن العنصرية، وطلب منه صياغة منشور بابوي يدين علناً هتلر وموسوليني وهدفهما المتمثل في إبادة جميع اليهود، وصلى البابا وهو على فراش الموت كي يعيش بضعة أيام أخرى حتى يتمكن من إلقاء خطاب برسالة مسيحية حقيقية -إذا جاز التعبير، وهي: في النهاية «جميع الشعوب، وجميع الأمم، وجميع الأعراق، يتحدون جميعًا في نفس الدم الذي يربطهم بشكل مشترك بالعائلة البشرية العظيمة»، سوف يوحدتهم الإيمان، كما خطط البابا لإدانة «حظر الزواج بين الآريين وغير الآريين»، ولكن الألوان كان قد فات، لأنه توفي في اليوم التالي من دون إلقاء الخطاب.

أمر خليفته أوجينيو باتشيلي -الذي أصبح بعد وقت قصير البابا بيوس الثاني عشر- سكرتير البابا بجمع جميع الملاحظات المتعلقة بالخطاب، وأمر مطبعة الفاتيكان التي كان لديها النص جاهزاً للتوزيع بإتلاف كل النسخ، وهو ما فعلته المطبعة، مؤكدة لباتشيلي أنه «لم يبقَ حرف واحد»^(١)، وتحدث البابا الجديد -كما أبلغ السفير البابوي موسوليني: «بتعاطف كبير مع الفاشية وبإعجاب صادق بالدوتشي»، وعلى الفور تقريباً رفع بيوس الثاني عشر الحظر المفروض على انضمام الكاثوليك إلى الحركة الفرنسية^(٢).

في سردنا لقصة البابا بيوس الحادي عشر لم نكن ننوي الإيحاء بأن دونالد ترامب هو بينيتو موسوليني، ولكن الرجلين يشتركان في شيء واحد مهم؛ إنهما يُظهران جميع الخصائص الكلاسيكية للديماجوجي، بدءاً من هوس العظمة والحاجة الجامحة إلى التمجيد، وكلاهما تودد إلى خصومه الطبيعيين بالتملق والمكافآت وبعض الرشاوى لتحقيق أهدافه، وقدم كلاهما نفسه على أنه الزعيم الوحيد الذي يمكنه حل مشكلات الأمة، فقد قال ترامب عند قبول ترشيح حزبه: «لا أحد يعرف النظام أفضل مني، ولهذا السبب يمكنني وحدي إصلاحه»، ويزدهر

(١) بعد عشرين عاماً من وفاة البابا بيوس الثاني عشر، أفرج البابا يوحنا الثالث والعشرون عن مقتطفات من الخطاب وحذف مقاطع تنتقد النظام الفاشي، ولم يُنشر النص الكامل حتى عام ٢٠٠٦.

(٢) الحركة الفرنسية (بالفرنسية: Action française): حركة سياسية فرنسية يمينية متطرفة مناصرة للملكية. كما أُطلق الاسم على المجلة التي تصدرها الحركة، وتراجعت سمعتها شيئاً فشيئاً مع صعود نجم الفاشية وتصدّع علاقات الحركة مع الكنيسة الكاثوليكية، وخلال الحرب العالمية الثانية دعمت الحركة الفرنسية نظام فيشي والمارشال فيليب بيتان. (المترجم).

الديماجوجيون وينجحون بفضل منطق وتبرير ذات أولئك المستعدين لتنحية اعتراضاتهم الأخلاقية جانبًا في مقابل تحقيق مكاسب سياسية، وقبل كل شيء يستغل الديماجوجيون تحيزات العامة وجهلهم، فيثيرون الغضب والكراهية على حساب الحجة المنطقية.

يعرف الأمريكيون جيدًا أكثر الديماجوجيين فتكًا في القرن العشرين على الصعيد العالمي، مثل هتلر وستالين وموسوليني، ولكننا أيضًا تحملنا لفترة طويلة نصيبنا من الأمثلة المحلية، ويجادل المؤرخ روبرت داليك بأن الديماجوجيين في الأمريكتين، ولا سيما حاكم لويزيانا هيوي لونج في ثلاثينيات القرن العشرين، وعضو مجلس الشيوخ عن ولاية ويسكونسن جوزيف مكارثي في خمسينيات القرن العشرين، وحاكم ألاباما جورج والاس في ستينيات القرن العشرين: «يمكن النظر إليهم على أنهم أسلاف صعود ترامب إلى السلطة السياسية»^٥، ولكن لم يصل أي من هؤلاء الرجال إلى رئاسة الولايات المتحدة.

إن الديماجوجيين -بحكم تعريفهم- يحتاجون إلى جماهير مُجِبَّة، وهم يخلقونها باستخدام الأسلوب الخالد المتمثل في إثارة الخوف، وقد عرض ترامب في خطاب ترشيحه، في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري، سلسلة من الأشياء التي يجب الخوف منها: جرائم العنف، والمهاجرون الخارجون على القانون، و«الرجال والنساء والأطفال الذين يُذبحون بوحشية» على يد الإرهابيين، وارتفاع معدل الجريمة (كذب، فالجريمة على الصعيد الوطني في تراجع منذ عقود)، و«الخراب والدمار» اللذان يصيبان مدننا، وقال: «لديَّ رسالة لكم

جميعاً، إن الجريمة والعنف اللذين يصيبان أمتنا اليوم سينتهيان قريباً،
وابتداءً من العشرين من يناير ٢٠١٧، سيُستعاد الأمان»، كيف سيفعل
ذلك وحده؟ وقال: «لقد زرت عمال المصانع المُسرحين والمجتمعات
التي سحقتها صفقاتنا التجارية الرهيبة وغير العادلة، وهؤلاء هم الرجال
والنساء المنسيون في بلدنا، الأشخاص الذين يعملون بجهد ولكن لم
يعد لديهم صوت، وأنا صوتكم!».

عادة ما يزدهر الديماغوجيون من خلال زرع الانقسام بين
المواطنين والتحريض على كبش الفداء والعنف، ولم يحرض أي
رئيس أمريكي قبل ترامب على التفكير في «نحن» ضد «هم» إلى هذه
الدرجة المتطرفة، ناهيك عن التأييد الضمني للعنف من قبل «نحن»
ضد «هم»، وهو يشير إلى الصحافة الحرة -وهي حجر الأساس
للديمقراطية- على أنها «عدوة للشعب»، الأمر الذي دفع بعض مؤيديه
-الذين على ما يبدو ظنوه مضحكاً- إلى ارتداء قمصان مكتوب عليها
جبل مشنقة، وشجرة، وصحفي، ومطلوب بعض الاحتشاد، ويضاف
إلى ذلك هجومه المستمر ضد المهاجرين ووصفهم بـ«البلطجية»
و«الحيوانات» الذين «يغزون» بلادنا، وقال في تجمع حاشد في فلوريدا
في مايو ٢٠١٩: «كيف يمكنك إيقاف هؤلاء الناس؟ لا يمكنك ذلك»،
فصاح شخص ما في الحشد قائلاً: «أطلقوا النار عليهم»، فهتف آلاف
المشاهدين مؤيدين، فابتسم ترامب ومازح الجمهور قائلاً: «فقط في
بلدة بانهاندل (بتكساس) يمكنك أن تفلت بهذا القول»، وبعد شهرين

قتل عنصري أبيض عشرين شخصاً في مدينة إل باسو في تكساس لوقف «غزو المهاجرين من أمريكا اللاتينية لتكساس»^٦.

يمكن القول إن انتخاب ديماجوجي للبيت الأبيض كان أكبر تهديد داخلي لديموقراطيتنا منذ الحرب الأهلية، ويتطلب تبرير سلوك ترامب تشويهات أكثر بكثير من دعم حرب العراق الكارثية لجورج بوش، فعلى الرغم من أنه لا يمكن لأحد أن يتنبأ بنتيجة هذه الديماجوجية بالذات، فإن التاريخ يعطينا فكرة جيدة عما يحدث لأمة تقع تحت سيطرة سلطة مثلها، وهي أنه لا ينجم عنها شيء جيد، وصعود أي ديماجوجي لا يحدث أبداً بين عشية وضحاها، ولا يحدث أبداً نتيجة جولة انتخابية واحدة، بل يحدث ذلك بسبب التحول البطيء في المعتقدات والقيم التي تتبع كل قرار يبرر الذات يتخذه المواطنون، وهم يأخذون خطوة واحدة في كل مرة.

هرم الاختيار... مرة أخرى

كانت الاستعارة الهادية لهذا الكتاب هي هرم الاختيار، فبمجرد أن يتخذ الناس قراراً - سواء كان منطقياً أو متهوراً - فإنهم سيغيرون مواقفهم لتتوافق مع هذا الاختيار ويبدأون في تقليل أو رفض أي معلومات تشير إلى أنهم اختاروا الخيار الخاطئ، وفي السياسة عادة ما يسمح الناس لهويتهم الحزبية باتخاذ القرارات نيابة عنهم، وهذا هو السبب في أن معظم الناخبين يشعرون بقليل من التنافر في دعم المرشح الذي يرأس حزبهم، «أنا جمهوري [أو ديمقراطي] وهذا هو ما أنا عليه وهذا من

أصوت له»، ولكن ماذا يحدث عندما يحمل هذا المرشح معتقدات أو يتصرف بطرائق كانت لتشكّل لعنة لهؤلاء الناخبين؟

يُحكى أنّه في سالف الزمان كان الجمهوريون مناهضين بشدة للشيوعية واعتبروا الاتحاد السوفيتي السابق «إمبراطورية الشر» (مصطلح رونالد ريجان)، وأن روسيا عدو أيديولوجي للرأسمالية، وأنهم لن يتحملوا أي نقد «يساري راديكالي» لمكتب التحقيقات الفيدرالي أو وكالة المخابرات المركزية، فكيف تسامح عديد من الجمهوريين مع صداقة حميمة لرئيس أمريكي مع فلاديمير بوتين؟ ولماذا عجزوا عن إبداء الغضب إزاء الأدلة التي تشير إلى تدخل روسيا في الانتخابات الرئاسية الأمريكية؟ كيف يمكنهم التحول من تأييد شعار الحرب الباردة «أن تكون ميتاً أفضل من أن تكون أحمر»، إلى الشعار «أن تكون ميتاً أفضل من أن تكون ديمقراطياً»؟ وكيف نسي كثيرون أن ريتشارد نيكسون هو الذي وقّع على قانون الهواء النظيف وقرروا دعم حزب يريد تفكيك جميع أشكال الحماية البيئية؟ كيف جلس كثيرون صامتين بينما كان الديماغوجيون يزأرون؟

بحلول وقت الانتخابات الرئاسية في عام ٢٠١٦، كان لدى المواطنين الأمريكيين كثير من المعلومات حول دونالد ترامب: وعده بالسيطرة على جحافل المغتصبين المكسيكيين وغيرهم من المجرمين الذين كانوا يغمرون البلاد بشكل غير قانوني، وإهاناته الموجهة إلى الأقليات العرقية والمعوقين والنساء، وادعاؤه زوراً أن لديه مشكلات في القدم من أجل تجنب تجنيده خلال حرب فيتنام، وتاريخه الطويل

في رفض دفع أجور المقاولين مقابل عملهم لديه، وإفلاساته ورفضه إعلان إقراراته الضريبية (كذب وادعى أنه لم يستطع لأنه كان يخضع للتدقيق، وهو ما قالت مصلحة الضرائب إنه هراء)، وتاريخه الممتد لعقود من التمييز ضد الأمريكيين من أصل إفريقي الذين عملوا لديه أو حاولوا استئجار شقق في مبانيه، والعلاقات خارج نطاق الزواج التي أنهت زيجاته، والاتهامات بسوء السلوك الجنسي من قبل عديد من النساء، وتعليقه المبتذل لبيلي بوش مقدم برنامج أكسيس هوليوود بأنه «عندما تكون نجمًا يمكنك فعل أي شيء [مع النساء]، يمكنك أن تمسكهن من فروجهن»، وأي واحدة من هذه الحقائق كانت ستقضي على فرص المرشح، ولكن ترامب ازدهر مما أثار دهشته الواضحة وقال: «يمكنني أن أفق في منتصف الجادة الخامسة وأطلق النار على شخص ما ولن أخسر أي ناخبين، إنه لأمر مدهش»، ولكنه بالطبع ليس مدهشًا لأي شخص يفهم التنافر المعرفي.

يشعر معظم الأشخاص الذين يُضبطون وهم يكذبون أو يخطئون أو يرقصون نفاقًا بالتنافر الحاد ويُحفَزون للخروج منه بموجة من تبريرات الذات، ولكن ترامب كان دائمًا يبدو رابط الجأش وذلك لأنه لا يشعر بأي تنافر عندما يُضبط، لأن الشعور بالتنافر يتطلب القدرة على الشعور بالخجل والشعور بالذنب والتعاطف والندم، وهو يفتقر إلى هذه القدرة، فالمبررات الوحيدة التي يشعر أنه بحاجة إلى تقديمها هي الادعاءات بأنه يستطيع فعل أي شيء يريد لأنه «عبقري مستقر للغاية»، وأنه يعرف أكثر من أي شخص آخر عن كل شيء، وهو لا يمكنه أبدًا أن

يتعلم من أخطائه لأنه أقنع نفسه بأنه لا يرتكب أبدًا أي أخطاء، ومن ثم فهو يقطع التنافر عند الممر ولا يسمح له أبدًا بالدخول إلى عقله، وهو المحتال المثالي الذي يُعتبر الكذب بالنسبة إليه طبيعة ثانية، إنه فقط ما يفعله، وإذا صدّقه الأغبياء فهذه مشكلتهم^٧.

لذا تخيل أنك في عام ٢٠١٦، وأنت جمهوري مدى الحياة أو ديمقراطي لا يستطيع تحمل هيلاري كلينتون، في مواجهة مرشح لا يشبه أي مرشح نجح في الوصول إلى أعلى منصب في البلاد، وأنت في قمة الهرم تواجه قرارًا، فأَي المرشحين ستختار؟ هل ستفعل ما قاله أحد المعجبين بترامب: «صوّت له بحماس لأنه يتحدث من القلب ويقول رأيه بصراحة»، وما يقوله هو ما تشعر به؟ أو صوّت له لأنك -كجمهوري مدى الحياة- تعلم أنه سيتبع أجندة الجمهوريين، (حتى لو جاء مع بعض العيوب التي كنت ستكرهاها في ديمقراطي)؟ أو صوّت له، رغم أنك تكرهين ابتذاله وعلاقاته الجنسية وتحيزاته يشاركك موقفك من قضية أنت متحمسة لها، مثل الإجهاض أو الهجرة أو إسرائيل؟ أو سُدْ أنفك وصوّت له -مهما كان ولاؤك للحزب- لأنه على الأقل ليس «هيلاري الملتوية»، وهو مصطلح كانت حملة ترامب تكرر في الخطب وإعلانات فيسبوك منذ شهور^(١)؟ أو صوّت له لأنك -بصراحة- تشعر بالغضب والخوف من كل التغييرات التي تراها من حولك، بما في ذلك الجماعات العرقية غير المألوفة التي تكتسب

(١) أظهر أحد الإعلانات اثنين من الأصفاد كحرفي o في عبارة crooked Hillary أي هيلاري الملتوية، وبالطبع شعرَ ترامب بالزهو من الهتافات المتكررة «اجبسها» في اجتماعاته.

أرضية سياسية وتسبب تدهور الأوضاع في مسقط رأسك؟ أو لا تصوت على الإطلاق؟

من الصعب غالبًا تذكر أنه طوال الانتخابات التمهيدية لعام ٢٠١٦، فضّل غالبية الناخبين الجمهوريين أيًا من المرشحين السبعة عشر الآخرين الذين كانوا يأملون في تسميتهم. (في الجولة الأولى من الانتخابات التمهيدية - على سبيل المثال - أيد نحو ثلث الناخبين فقط ترامب، وفضّل ثلثا الناخبين المرشحين الآخرين)^٨، ولم يكن هناك قط «مصوت نمطي لترامب»، وعلى الرغم من أنه بدا كذلك لاحقًا لعديد من المراقبين، فقد اختلف المصوّتون لترامب حول مجموعة متنوعة من القضايا، بما في ذلك الضرائب والاستحقاقات والهجرة والعنصر وزواج المثليين والمساواة بين الجنسين وغيرها من القضايا الاجتماعية، وكان كثيرون منهم قد صوّتوا سابقًا لصالح باراك أوباما، وعلى الرغم من شكوك الجمهوريين ومشاعرهم المتنوعة تجاه ترامب قبل الانتخابات، فإن دعمهم لترامب بعد انتخابه نما وندارًا ما تذبذب. اعتبارًا من منتصف عام ٢٠١٩، فقد وافق ما يقرب من ٩٠٪ من الجمهوريين على أداء ترامب في منصبه، وذلك على الرغم من أن ٦٥٪ قالوا أيضًا إنهم يعتبرون سلوكه «غير رئاسي».

كيف يرر الشخص دعمه لرئيس سلوكه غير رئاسي؟ سهل، إذا كنت محايدًا بالنسبة إليه، فعلى الأرجح أنك ستنضم إلى جانبه الآن، لأنك في النهاية قد صوّت له، وإذا كنت قد صوّت له، فأنت تريد أن يكون صوتك متسقًا مع مشاعرك نحوه الآن، بيد أن صهرك يستمر في

إخبارك أن انتخابه كان كارثة ويسألك عما كنت تفكر حين انتخبته. وبفضل التحيزات المعرفية التي تضمن أن يرى الناس ما يريدون رؤيته ويسعون إلى تأكيد ما يؤمنون به بالفعل، فأنت الآن -بعد الانتخابات- متحمس للتركيز على ما يعجبك فيه ورفض ما لا يعجبك، وأنت تتابع بشكل أكثر انتظامًا شون هانيتي^(١) الذي يؤكد لك أنك فعلت الشيء الصحيح. علاوة على ذلك، فأنت لم تفكر كثيرًا في زوج أختك على أي حال، وبهذه الطريقة يمكنك تقليل أي شعور بعدم الراحة لكونك ربما تكون قد اتخذت القرار الخاطئ.

لنبدأ إذن بالمؤيدين الذين شعروا في الأصل بتنافر كبير بشأن التصويت له، لكنهم فعلوا ذلك على أي حال، ثم وجدوا أنفسهم يعملون بجد لتبرير هذا القرار، (ودعونا لا ننسى المبررات الذاتية لـ ٤٨٪ من الناخبين المؤهلين الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء الإدلاء بأصواتهم، أو أولئك الذين قالوا: «صوتي لن يُحدث فرقًا»، أو «لقد سئمت من التصويت لأهون الشرين»)، فالديماجوجيون يأتون ويذهبون ولكن تبرير الذات يستمر إلى الأبد.

(١) شون هانيتي: إعلامي وكاتب ومعلق سياسي محافظ أمريكي، ويقدم برنامج عرض شون هانيتي الذي يُعرض على الراديو الوطني في الولايات المتحدة وهو مع الليبرالية المحافظة. (المترجم).

النزول من الهرم: «الديمقراطيون أسوأ»

بعد فترة وجيزة من إعلان ترامب ترشحه للرئاسة، حاولت حركة «لن يكون ترامب مطلقاً» - بقيادة ميت رومني وغيره من الجمهوريين البارزين - إحباط ترشيحه بقوة، وعندما أصبح من الواضح أنهم فشلوا وأن ترامب سيكون مرشح الحزب، نزل البعض من الهرم ولا سيما كاتب العمود المحافظ البارز جورج ويل، الذي ترك على الفور المعسكر الجمهوري رسمياً، وقال ويل: «هذا ليس حزبي»، مضيفاً أنه سيكون من الآن فصاعداً غير منتسب، ونصح زملاءه المحافظين: «تأكدوا من خسارته».

تردد آري فلايشر - وهو جمهوري آخر وكان السكرتير الصحفي السابق لجورج دبليو بوش - حول ما يجب القيام به، ففي البداية أعلن: «هناك كثير مما لا يعجبني في دونالد ترامب، لكنني سأصوت لترامب على حساب هيلاري»، ومع استمرار الحملة، غيّر رأيه وكتب في مقال افتتاحي في صحيفة واشنطن بوست قبل أسبوعين من الانتخابات أن ترامب «انحرف بتهور عن مساره، فهاجم قاضياً أمريكياً بسبب تراثه المكسيكي، وانتقد عائلة بطل حرب، وشكك في شرعية الانتخابات، وخلافاً لذلك فقد أثار تساؤلات حول أحكامه وقراراته»^٩، وفي النهاية قرر فلايشر ترك بطاقة الاقتراع فارغة.

الغالبية العظمى من الجمهوريين -حتى أكثر خصوم ترامب صخبًا- لم يسيروا على خطى هذه الأمثلة في ترك الحزب أو عدم التصويت، فمن المفهوم أن ينتقد كل الساسة تقريبًا خصومهم في الانتخابات التمهيدية -أحيانًا بقسوة وأحيانًا بذوق- لكنهم في النهاية يدعمون مرشح الحزب، إلا أن معظم خصوم ترامب الجمهوريين كانوا صريحين بشكل غير عادي في عدائهم الشخصي له وفي خوفهم على حزبهم وعلى البلاد، فقد قال تيد كروز -الذي كان هدفًا لوابل من الإهانات السيئة بشكل خاص من ترامب (كان قد غرد بأن زوجة كروز قبيحة بشكل غير معقول، وأن والد كروز متورط في اغتيال جون كينيدي): «نحن بحاجة إلى قائد أعلى للقوات المسلحة، وليس مغردًا أعلى على تويتر، وأنا لا أعرف أي شخص سيكون مرتاحًا لشخص يتصرف بهذه الطريقة عندما تكون إصبعه على الزر، أعني أننا عرضة للاستيقاظ في الصباح لنجد دونالد -إذا كان رئيسًا- وقد ضرب الدنمارك بالقنابل الذرية»، وأضاف أنه لن يؤيد ترامب أبدًا لأن «التاريخ لا يتساهل مع الرجل الذي يحمل سترة موسوليني»^{١٠}.

لم يكن هذا شيئًا مقارنة بتعليقات ليندسي جراهام عليه قبل الانتخابات: «هل تعلم كيف تجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى؟ قل لدونالد ترامب أن يذهب إلى الجحيم»، وأضاف أنه متعصب ديني وعنصري كاره للأجانب وهو لا يمثل حزبي، ولا يمثل القيم التي يقاتل من أجلها الرجال والنساء الذين يرتدون الزي العسكري... ولا أعتقد أن لديه أدنى فكرة عن أي شيء، وهو يحاول فقط رفع أرقامه والحصول

على أكبر رد فعل ممكن، وهو يساعد عدو هذه الأمة. ويُمكن الإسلام الراديكالي، وإذا كان يعرف أي شيء عن العالم على الإطلاق، فسيعرف أن معظم المسلمين يرفضون الأيديولوجية [المتطرفة] ^{١١}.

لكن كم كان سقوطهم كبيراً! فبحلول انتخابات التجديد النصفي لعام ٢٠١٨، لم يكن من الممكن أن يكون لدى ترامب مؤيدون متملقون أكثر من كروز وجراهام، فكروز لم يكن على استعداد فقط لحمل سترة موسوليني ولكن أيضاً لإعطاء مرديها عناقاً حاراً قوياً، كما فعل بالضبط في تجمع انتخابي لترامب في تكساس، أما جراهام -الرجل الذي وصف ترامب بأنه «مجنون»، و«محتال»، و«أحمق تماماً»، و«عنصري، وكاره للأجانب، ومتعصب ديني»- ينكر بحلول عام ٢٠١٩ أن ترامب كان عنصرياً أو أن هتاف أنصاره: «أعد [إلهان عمر] إلى بلدها» كان هتافاً عنصرياً، وإلى جانب ذلك قال في برنامج فوكس والأصدقاء إن عضوات الكونجرس هؤلاء «شيوعيات» يكرهن أمريكا، فكيف وصل كروز وجراهام وآلاف من السياسيين الجمهوريين وقادة الرأي الآخرين إلى هذه النقطة؟

جميع الرؤساء يكذبون ويتلاعبون ويتصنعون -أو على الأقل يلعبون بسرعة وبشكل فضفاض مع الحقيقة- وكلهم يكرهون الاعتراف بالأخطاء والخداع، ولم يكتب جون كينيدي لمحات من الشجاعة، وهو كتاب نال كثيراً من الإعجاب وحصل على جائزة بوليتزر، بل كتب معظمه كاتب خطباته تيد سورنسن، وقال ريتشارد نيكسون للأمة: «أنا لست محتالاً»، على الرغم من أنه كان كذلك، وقال

بيل كلينتون: «لم أمارس الجنس مع تلك المرأة»، على الرغم من أنه فعل ذلك، وكذب رونالد ريجان عندما ادعى أن إدارته لم ترتب سرًا بيعًا غير قانوني للأسلحة إلى إيران واستخدمت الأموال لتمويل الكونترا في نيكاراغوا، وقال باراك أوباما الذي رُوِّج لقانون الرعاية الميسرة في عام ٢٠١٣ للشعب: «إذا كنت تحب خطة الرعاية الصحية الخاصة بك، يمكنك الاحتفاظ بها»، وهو بيان وصفته بوليتيفاكت. كوم^(١) بأنه كذبة العام، ويميل الأشخاص الذين يسمعون هذه الأكاذيب -بفضل تقليل التنافر- إلى تقليل أهمية أو تبرير تلك الأكاذيب التي يقولها سياسيوهم باعتبارها تافهة أو مفهومة أو يمكن تبريرها.

لكن أصبح من الواضح منذ اليوم الأول لرئاسة ترامب أن أكاذيب الحماية الذاتية لأسلافه ستتضاءل مقارنة بأكاذيبه، بدءًا من الأعداد المتضخمة من الأشخاص الذين ادعى أنهم كانوا في حفل تنصيبه، وليس من قبيل المصادفة أنه في عام ٢٠١٦ -وهو العام الذي انتُخب فيه دونالد ترامب- حددت قواميس أكسفورد مصطلح ما بعد الحقيقة كمصطلح العام، والذي عرفته بأنه: «يتعلق أو يشير إلى الظروف التي تكون فيها الحقائق الموضوعية أقل تأثيرًا في تشكيل الرأي العام من مناشدة العاطفة والاعتقاد الشخصي»، وهو تكتيك آخر للديماجوجية بدأت إدارة ترامب في تنفيذه على الفور، فبعد تنصيب ترامب في عام ٢٠١٧ قالت مستشارته كيليان كونواي في برنامج قابل الصحافة إن

(١) موقع لتدقيق الحقائق يُقيّم دقة ادعاءات المسؤولين المنتخبين وغيرهم على مقياس الحقيقة الخاص به. (المترجم).

السكرتير الصحفي شون سبايسر لم يكذب على الصحافة في ذلك اليوم، ولكنه استدعى ببساطة «حقائق بديلة»، وهو تصريح أثار ضحكاً واسع الانتشار، ونشر أحد المعلقين على الإنترنت: «أنا لا أخون ولكن لديّ صديقة بديلة»، وقال آخر: «كان عليّ أن أتأكد مرة أخرى من أن هذه لم تكن مسرحية هزلية تبث في ساترداي نايت لايف»^(١).

لكن التندر العام أعقبته درجة كبيرة من الرعب عندما اتضح أنها لم تكن تمزح^(٢)، فقد يكون مصطلح الحقائق البديلة مثيراً للسخرية ولكنه خطير، وخاصة عندما يُستخدم لتبرير إنكار الإدارة للاحتباس الحراري العالمي، والأضرار البيئية للفحم والمبيدات الحشرية، وغيرها من المكتشفات العلمية الراسخة، وتستمر الحقائق البديلة -حتى عندما يدحضها بشكل سليم خبراء موثوقون- لأنها لزجة؛ أي أن كل تكرار للباطل يجعله مألوفاً أكثر ولهذا أكثر تصديقاً^(٣)، وكل الديماغوجيين يعرفون ذلك.

على الرغم من أن عديداً من النقاد قد عقدوا مقارنة بين الحقائق البديلة لترامب وتقنية الدعاية التي أطلق عليها هتلر -في كتاب كفاحي-

(١) برنامج كوميدي تلفزيوني أمريكي مباشر، يذاع في وقت متأخر من الليل، ويتضمن سخرية سياسية وعروضاً متنوعة. (المترجم).

(٢) كان جورج كونواي زوج كيليان المحافظ، يغرد باستمرار عن اشمزازة من سلوك ترامب وأكاذيبه «المرضية»، ومن الواضح أن هذين الزوجين يعملان بجد لحل أي تناقض ناتج عن اختلاف وجهات نظرهما، فقالت كيليان إن التزامها تجاه ترامب هو عمل «نسوي»، لأن أي ناشطة نسوية لن توافق على تخليها عن وظيفتها بسبب معتقدات زوجها، بينما قال جورج في أحد البرامج الحوارية إن زواجه لا يختلف عن زيجات أخرى لا حصر لها في واشنطن يختلف فيها الأزواج.

«الكذبة الكبيرة» (بمعنى كذبة ضخمة لدرجة أن لا أحد يصدق أن أي شخص «يمكن أن تكون لديه الوقاحة لتشويه الحقيقة بشكل سيئ السمعة هكذا»)، ونعتقد أن المؤرخ زاخاري جوناثان جاكوبسون كان قد أعرب عن قلق جوهرى بنفس القدر وكتب: «ما يجب أن نخشاه اليوم ليس الكذبة الكبرى بل وفرة الأكاذيب الصغيرة: مزيج يومي يُعد ولا يُحصى من الأكاذيب الموصوفة ليس للإقناع ببعض نقاط التفرد ولكن للتشويش، ولتشيت الانتباه، وللتكدير، وللإغراق، فاستراتيجية الباطل اليوم لا تعطينا فكرة واحدة لتنظيم أفكارنا ولكن تعطينا آلافاً من الأكاذيب المتضاربة لإرباكنا»^{١٣}.

بالنسبة إلى الجمهوريين الذين شعروا بأي عدم ارتياح في التصويت لصالح ترامب، فقد كان هناك دليل جعل تنافهم المعرفي أسوأ: المظاهرات اليومية بأن ترامب يكذب بسهولة كما يتنفس، وأنه غير قادر تمامًا على الاعتراف بأنه مخطئ، ففي ١٦ يوليو ٢٠١٨ وقف ترامب إلى جانب فلاديمير بوتين في مؤتمر صحفي في هلسنكي، وانحاز إلى بوتين وشكك في استنتاج جماعة استخباراته بأن روسيا تدخلت في انتخابات ٢٠١٦، وقال ترامب: «سأقول هذا، لا أرى أي سبب يجعلها تفعل هذا، وكان الرئيس بوتين قويًا وبلغًا للغاية في إنكاره اليوم»، وغضب مسؤولو الاستخبارات الأمريكية وأعضاء من كلا الحزبين، بمن فيهم السناتور جون ماكين، والخبير الاستراتيجي الجمهوري نيوت جينجريتش، وبعض مديعي فوكس نيوز، ووصف البعض سلوكه بالخيانة، وفي البيت الأبيض في اليوم التالي حاول

ترامب التراجع، وقال إنه يثق تمامًا بوكالات الاستخبارات الأمريكية، وأنه يقبل «استنتاج جماعة استخباراتنا بأن تدخل روسيا في انتخابات ٢٠١٦ قد حدث» (على الرغم من أنه لم يستطع منع نفسه من إضافة أنه «يمكن أن يكون أشخاصًا آخرين أيضًا، لأنه يوجد كثير من الناس هناك»)، ولم يكن منزعًا من حقيقة أنه قبل أقل من أربع وعشرين ساعة قال العكس تمامًا، «كنت أعتقد أنه سيكون واضحًا ولكنني أود أن أوضح فقط في حالة عدم وضوحه، ففي جملة رئيسية في ملاحظاتي قلت كلمة «سيفعل» بدلًا من «لن يفعل»»، وقال مازحًا هذا نفي مزدوج... كان يقصد أن يقول: «لا أرى أي سبب يمنع أن تكون روسيا»... أعتقد أن هذا ربما يوضح الأمور بشكل جيد»، لا، لم يوضح الأمور، لأن السياق الذي أدلى فيه ترامب بتصريحاته الأولية كان لا لبس فيه، ولا يمكن أن يكون زلة لسان، وحتى أكثر المدافعين المتحمسين هزوا رؤوسهم في فزع من هذه المحاولة العرجاء للحصول على تفسير.

يكذب ترامب بشأن الأمور التافهة بنفس القدر من الأهمية، وذلك -مرة أخرى- لأنه ببساطة لا يمكن أن يكون مخطئًا، ففي مارس ٢٠١٩ في أثناء اجتماع مائدة مستديرة لمديري الأعمال، أشار ترامب إلى الرئيس التنفيذي لشركة آبل تيم كوك باسم «تيم أبل». كان الأمر مضحكًا وغير مهم، ولكن ترامب لم يستطع ترك الأمر، وفي غضون أيام قليلة كان يدعي أنه لم يقل ذلك قط، وغرد ترامب: «لقد أشرت بسرعة إلى تيم + آبل باسم تيم/ آبل كطريقة سهلة لتوفير الوقت والكلمات»،

وفي وقت لاحق أخبر مجموعة من المتبرعين أنه قال بالفعل «تيم كوك، آبل» بسرعة كبيرة، ولهذا السبب لم يسمع أحد كلمة كوك^{١٤}.

ذكرت صحيفة واشنطن بوست أنه بحلول ١٩ أبريل ٢٠١٩ تجاوز ترامب علامة العشرة آلاف كذبة، وشرعت الصحيفة في سرد كل واحدة منها، ولكن هذا العدد -الذي تضخم بسبب غضب ترامب من تحقيق المقاضاة الجنائية- ارتفع إلى ١٣٥٤١٣ بحلول ١٧ ديسمبر... وظل العد مستمرًا^{١٥}، وصنّف موقع بوليتيفاكت. كوم ٦٩٪ من تصريحات ترامب على أنها «خاطئة في الغالب أو أسوأ»، و١٧٪ فقط على أنها «صحيحة في الغالب»، ويكذب ترامب عندما يغير رأيه مدعيًا أنه لم يغير رأيه، ويخلق الأمور، على سبيل المثال من خلال الادعاء بأن طاقة الرياح غير ناجحة، وأن توربينات الرياح «تقتل كل النور» وتسبب السرطان، وأنه ذهب إلى نقطة الانفجار بعد وقت قصير من عملية ١١ سبتمبر الإرهابية وأرسل مئات الرجال للمساعدة في جهود الإنقاذ (لم يفعل)، وهو يكرر الادعاءات التي يعرف أنها خاطئة (على سبيل المثال: أن باراك أوباما لم يولد في الولايات المتحدة وأن عضوة الكونجرس الديمقراطية إلهان عمر تزوجت شقيقها)، فهو يخترع قصصًا لتأجيج قاعدته، كما هي الحال عندما ادعى أن الديمقراطيين يؤيدون وأد الأطفال من خلال السماح للأطباء «بإعدام» الأطفال حديثي الولادة^(١)، وهو ينكر أفعاله حتى عندما يكون هناك دليل واضح مسجل على الفيديو على أنه فعل ما

(١) قال في تجمع حاشد في جرين باي- ويسكونسن، ٢٨ أبريل ٢٠١٩: «يولد الطفل، وتجتمع الأم مع الطبيب ويعتنيان بالطفل ويلفانه بشكل جميل، ثم يقرر الطبيب والأم ما إذا كانا سيعدمان الطفل أم لا».

ينكره^{١٦}، لقد تلاعب بخريطة طقس رسمية باستخدام قلم مؤشر شاربي -وهي بالمناسبة جريمة فيدرالية- لجعلها تبدو وكأن إعصار دوريان سيضرب ألاباما، في محاولة خرقاء لتغطية ادعائه الخاطيء بأنه سيصل إلى هذا الحد غربًا.

إذا كنت من مؤيدي ترامب، فكيف يمكنك تقليل التنافر عندما تواجه أدلة رؤسائك على الأكاذيب المقلقة والفاحشة والحمقاء؟ أنت تقلل من أهميتها لأن «جميع الرؤساء يكذبون»، أو تجدها مضحكة، أو تنكر القضية برمتها، هل يكذب؟ قال ستيوارت فارني، مضيف شبكة فوكس بيزنس، لا تكن سخيًا، هو لم يكذب قط على الشعب الأمريكي، هو فقط «يبالغ ويلف ويدور»^{١٧}.

ربما يكون بعض المؤيدين قد خففوا من تنافرهم قبل الانتخابات من خلال التأكيد لأنفسهم أن سلوكه غير المنتظم سيخضع لسيطرة موظفي البيت الأبيض الأكفاء وأعضاء مجلس الوزراء، وإذا كان الأمر كذلك، فقد تبدد هذا الأمل بسبب الفوضى التي تلت ذلك في إدارة ترامب، ففي غضون عامين، أفاد معهد بروكينجز، أن معدل دوران كبار الموظفين بلغ ٤٣٪، وبدأ موقع بيزنس إنسايدر في الاحتفاظ بسجل مستمر لجميع الأشخاص رفيعي المستوى الذين تم فصلهم أو الذين «استقالوا»^(١)، وقد كتبت ستيفاني دينينج في مجلة فوربس -والتي لا

(١) أنطوني سكاراموتشي يحمل الرقم القياسي لأقصر تثبيت وظيفي، وعلى الرغم من الإطاحة به بعد أحد عشر يومًا فقط من عمله كمدير للاتصالات في البيت الأبيض، ظل مؤيدًا مخلصًا لترامب لمدة عامين آخرين قبل أن يعلن في مقال افتتاحي أنه قد اكتفى أخيرًا.

تعد مجلة يسارية- أن «معدل الدوران المرتفع هو إشارة إلى التعفن والانحلال داخل أي منظمة»^{١٨}.

علاوة على ذلك، في حين أنه ليس من غير المعتاد أن يختلف السياسيون مع رئيس في حزبهم أو حتى يقولون أشياء سلبية عنه، فإن النقد اللاذع الموجه ضد ترامب فريد من نوعه في التاريخ الأمريكي -وقد جاء من موظفيه وأصدقائه وحلفائه وأعضاء دائرته الداخلية، بما في ذلك وزير خارجيته ووزير دفاعه. مستشاره للأمن القومي، ورئيس ديوانه^{١٩}، فقد وصفاه بأنه «متحيز جنسيًا للغاية»، و«مثل طفل يبلغ من العمر ١١ عامًا»، و«غير لائق أخلاقياً وغير مقيد بالحقيقة»، و«هو ليس شخصًا بقدر ما هو مجموعة من السمات الرهيبة»، و«غبي جدًا»، وشخص «يمتص ويتغوط» (هذا الوصف من رئيس فوكس نيوز السابق روجر آيلز)، «ليس فقط مجنوناً ولكنه غبي أيضاً» و«أحمق».

وهكذا واجه أعضاء حكومة ترامب أو موظفوه أو حزبه السياسي أو العالم الاجتماعي تنافراً كبيراً عندما أدركوا أن زعيمهم كانت لديه بلا شك عوائق كبيرة تتعلق بالشخصية والمهام المعرفية والكفاءة^{٢٠}، وكانت خيارات الحد من هذا التنافر واضحة: البقاء أو الرحيل، ويمكنك أن تدعم ترامب وتحصل على مكافأة استمرار الهيئة والقوة والأهمية الوطنية المحتملة لوظيفتك رفيعة المستوى؛ أو أن تعارضه وتدفع ثمن تحمل غضب ترامب، أو النفي أو فقدان مقعدك في الكونجرس، وقد تقاعد البعض -ربما العالقون بين الضمير والناخبين- من السياسة في وقت مبكر، واستمر البعض لكنهم حافظوا على قدراتهم النقدية

ونزاهتهم سليمة -حتى عندما اعتقدوا مثل ريكس تيلرسون أن ترامب كان «معتوهاً سخيّاً»- من باب الشواغل الأخلاقية والوطنية.

ومن هنا جاء المقال الغريب لعام ٢٠١٨ في صحيفة نيويورك تايمز بعنوان: «أنا جزء من المقاومة داخل إدارة ترامب» حيث حاول المؤلف المجهول طمأنة البلاد بأن عديداً من المعينين من قبل ترامب قد تعهدوا بفعل ما في وسعهم «للحفاظ على مؤسساتنا الديمقراطية مع إحباط دوافع السيد ترامب المضللة حتى يخرج من منصبه، فأصل المشكلة هو لا أخلاقية الرئيس، وأي شخص يعمل معه يعرف أنه لا يركز على أي مبادئ أولية واضحة توجه عملية صنع القرار»^{٢١}، وبعبارة أخرى تحتاج البلاد إلى معرفة أن هناك عددًا قليلاً من البالغين في الغرفة وأن شخصاً ما في البيت الأبيض سوف يشغل المكابح.

الانزلاق أسفل الهرم: «لقد أكل روحك»

بحلول عام ٢٠١٩ أصبح من الواضح أنه لا توجد فرامل، فأَي شخص تجرأ على الجدل مع قرارات ترامب ونزواته -ناهيك عن انتقاده أو الاختلاف معه أو لفت انتباهه إلى خطأ ارتكبه أو حاول السيطرة على «دوافعه المضللة»- عُزل من منصبه بسبب ما اعتبره ترامب عدم ولاء، والنظر إلى الاختلاف على أنه عدم ولاء هو سمة مميزة أخرى للديماغوجيين والدكتاتوريين والقادة عنيفي الشخصية. في الواقع، بعد أن نشر المحقق الخاص روبرت مولر تقريره الذي يحدد إحدى عشرة واقعة حاول فيها ترامب أو إدارته فصل المحقق

الخاص أو الحد من نطاق تحقيقه أو التدخل فيه، بدأ المراقبون داخل البيت الأبيض وخارجه في مقارنة ترامب بزعيم عصابة المافيا الذي يعتبر الولاء بالنسبة إليه هو القيمة النهائية، فعلى سبيل المثال، يذكر التقرير أنه في ١٧ يونيو ٢٠١٧، استدعى ترامب دون ماكجان مستشار البيت الأبيض، وأمره بممارسة ضغوط على رود روسنشتاين نائب المدعي العام، وقال ترامب: «اتصل برود وأخبره أن [روبرت] مولر لديه تناقضات ولا يمكن أن يكون المحقق الخاص، ومولر يجب أن يرحل... اتصل بي مرة أخرى عندما تفعل ذلك»، ومن المتوقع أن يفعل التابعون ما يلزم «لإصلاح» مشكلات الرئيس، وهذا ما فعله مايكل كوهين وكان سبباً في دخوله السجن، حيث دفع لستورمي دانايلز ١٣٠ ألف دولار رشوة مقابل الصمت قبل الانتخابات مباشرة للحفاظ على علاقتهما الهادئة (انتهاك لقوانين تمويل الحملات الفيدرالية)، وحث باليمين بشأن الدفع في محاولة لحماية الرئيس، ومن المتوقع أن يعرقل «المصلحون» العدالة، وأن يكذبوا، ويدفعوا للشركاء الجنسيين الذين قد يثيرون المشكلات، ويخالفون القانون بناء على أوامر رئيسهم.

قال كورت باردिला، المتحدث الرسمي السابق وكبير مستشاري لجنة الرقابة والإصلاح الحكومي في مجلس النواب، إن «[ترامب] يتصرف مثل رئيس عصابة نيو جيرسي الذي لا يهتم بمطالبة الناس من حوله بسلوك غير أخلاقي أو صعب قانونياً، فالحقيقة والدقة لا تؤثران في أسلوب تفكيره على الإطلاق، ومطالب الولاء والإخلاص تشبه تلك التي في شبكة جريمة منظمة، وبدلاً من عائلة جون جوتي المافياوي، فإن

عائلة ترامب وجنوده هم الأعضاء الجمهوريون في الكونجرس الذين يحمونه»^{٢٢}، وما جرائم توقيع جندي المافيا؟ أن تكون واثياً وتنقلب على رئيسك، وقد وصف ترامب السيد جون دين كاشف أسرار الرئيس نيكسون بأنه «واشٍ»، لأنه قال الحقيقة حول جرائم ووترجيت والتستر عليها، لكن ترامب كانت لديه كراهية خاصة تجاه المنقلبين.

بعد أن عمل ترامب طوال حياته المهنية مع شخصيات تنتمي إلى المافيا، فقد قال على قناة فوكس نيوز: «أعرف كل شيء عن الانقلاب، فمنذ ثلاثين أو أربعين عامًا كنت أشاهد المنقلبين، حيث يكون كل شيء رائعًا، ثم يقضون عشر سنوات في السجن وينقلبون على من هو في المستوى الأعلى منهم مباشرة، أو في أعلى مستوى يمكنهم أن يصلوا إليه»، ولكن الانقلاب كان لفترة طويلة محور إجراءات إنفاذ القانون، لأنه يمكن المدعين العامين من الوصول إلى الجناة النهائيين: إذا قبضت على قاتل بدليل دامغ لا يقبل الشك، فأنت تريد القاتل ولكنك تريد -أكثر من ذلك- أن تعرف من أمر بالقتل، وبالتالي تهدف هذه الطريقة إلى جعل المجرمين من المستوى الأدنى يقولون الحقيقة عن رؤسائهم، ولكن ما وجهة نظر ترامب في هذه الاستراتيجية الأساسية للقانون والنظام؟ قال ترامب على قناة فوكس نيوز: «إن الانقلاب أمر غير مشرف وهو غير عادل لدرجة أنه يجب حظره تقريبًا»^{٢٣}.

إذا كان الانقلاب عدم ولاء، فإن الإبلاغ عن المخالفات -وفقًا لترامب- هو خيانة، ففي ١٢ أغسطس ٢٠١٩ قدم ضابط استخبارات في وكالة المخابرات المركزية شكوى رسمية بشأن سلوك الرئيس،

وهي شكوى أطلقت تحقيقاً في اتهامات جنائية في مجلس النواب، وقد جاء فيها: «في سياق واجباتي الرسمية، تلقيت معلومات من عديد من المسؤولين الحكوميين الأمريكيين بأن رئيس الولايات المتحدة يستخدم سلطة منصبه لطلب التدخل من دولة أجنبية في الانتخابات الأمريكية لعام ٢٠٢٠، ويشمل هذا التدخل -ضمن أمور أخرى- الضغط على دولة أجنبية للتحقيق مع أحد المنافسين السياسيين المحليين الرئيسيين للرئيس، والسيد رودولف جولياني المحامي الشخصي للرئيس شخصية محورية في هذا الجهد، ويبدو أن المدعي العام وليام بار متورط أيضاً».

واتهم ترامب ضابط المخابرات هذا وغيره ممن دعموا الشكوى بأنهم جواسيس وخونة، وقال ترامب: «أريد أن أعرف من هو الشخص الذي أعطى المعلومات للواشي لأنه قريب من أن يكون جاسوساً، أنتم تعرفون ما كنا نفعله في الأيام الخوالي عندما كنا أذكاء مع الجواسيس والخونة، أليس كذلك؟ لقد اعتدنا أن نتعامل معهم بشكل مختلف قليلاً عما نفعله الآن»، وهو ما يعني بوضوح الإعدام، وبالطبع لا يمكنه قطع رؤوس المعارضين و«الخونة» أو اغتيالهم كما يفعل بوتين وكيم جونج أون، ولكن يمكنه إرسال رسائل مشفرة أو موحية إلى أنصاره السياسيين لحشد الدعم، كما هي الحال مع تغريدته أنه إذا عُزل من منصبه فسيكون هناك «صدع في هذه الأمة يشبه الحرب الأهلية»، واتهم النائب آدم شيف رئيس لجنة الاستخبارات بمجلس النواب، للتحقيق في موضوع أوكرانيا، بالخيانة لمجرد إعادة صياغة نص تلك المكالمة الهاتفية وقال إنه يجب اعتقال شيف، وعندما غرد السناتور ميت رومني

قائلاً: «بكل المظاهر، فإن نداء الرئيس الوقح وغير المسبوق للصين وأوكرانيا للتحقيق مع جو بايدن خاطئ ومروع»، غرد ترامب أن رومني «شخص مغرور» ودعا إلى عزله (على الرغم من حقيقة أنه لا يمكن عزل أعضاء مجلس الشيوخ).

كيف استجاب أنصار ترامب في البداية لشكوى ضابط وكالة المخابرات المركزية من أن الرئيس طلب من زعيم أجنبي أن يقدم له معروفًا وأن يرمي ببعض الأوساخ على خصمه جو بايدن؟ وكيف استجابوا بعد ذلك للشهادات التأكيدية لشهود من ذوي الضمير الحي والمطلعين في أثناء جلسات استماع استمرت لأسبوعين في مجلس النواب؟ لقد أصدر عدد قليل -مثل ميت رومني- إدانات كاملة، وأقر آخرون بتردد بأن سلوك ترامب كان «مقلقًا» أو «غير مناسب»، إلا أن معظمهم ظلوا صامتين أو ردّدوا بغباء حديث البيت الأبيض عن المؤامرات والخدع ومطاردة الساحرات، وكانوا قد بذلوا كثيرًا من الجهد العقلي لتبرير كل تلك الأشياء الغريبة السابقة التي فعلها ترامب، فما هو السبب الآخر؟ كان رد ليندسي جراهام الأول هو: «من الجنون عزل أي رئيس بسبب مكالمات هاتفية مثل هذه»، ومع ذلك فإن جراهام يجب أن يعرف جيدًا أن أسباب المساءلة تشمل طلب مساعدة أجنبية في الانتخابات، وعرقلة العدالة، وتهريب الشهود، وانتهاك القانون الذي يضمن خصوصية وسلامة المبلغين عن المخالفات.

من المتصور أن ليندسي جراهام وتيد كروز يتمسكان سرًا بوجهات نظرهما الأصلية عن ترامب، ولكن معظم السياسيين المحترفين يتعلمون

خفق مشاعرهم الشخصية كي يُعاد انتخابهم ومن أجل الولاء الحزبي، ولكننا نشك بقوة في أن يكونا قد وجدا طريقة لتبرير هذا التحول -حتى لو كان ذلك فقط للحصول على نوم جيد ليلاً- وذلك بسبب الفجوة غير العادية بين مشاعرهم قبل الانتخابات واستسلامهم بعد الانتخابات، فمثلاً آري فلايشر الذي فضّل ترامب في البداية، ثم عارضه، ثم انتهى به الأمر بعدم التصويت، أصبح الآن مؤيداً متحمساً لترامب، وكثيراً ما يذهب إلى فوكس نيوز وسي إن إن لمهاجمة منتقدي ترامب، فكيف يبرر تغيير قلبه؟ يتم هذا في الأساس بالقول إن «الديمقراطيين أسوأ»، وكما قال لإسحاق شوتينر من مجلة نيويورك ركر: «عندما أضيف دونالد ترامب -بقدر ما يمكن أن يكون مسيئاً وبقدر ما يمكن أن يكون غير مناسب- وأدمجه مع إنجازاته السياسية، وأقارنه بالديمقراطيين وتصريحاتهم وسياساتهم واندفاعهم نحو أقصى اليسار، سأختار دونالد ترامب في أي يوم»^{٢٤}.

بالنسبة إلى المؤيدين الذين يهتمون فقط بقضية واحدة -مثل تعيين قضاة محافظين في المحكمة العليا، أو الحصول على تخفيضات ضريبية، أو دعم إسرائيل- فإن إنجاز ترامب في هذه القضية هو كل ما يهم، فعندما سُئل متبرع جمهوري في مجلس إدارة الائتلاف اليهودي الجمهوري عن التوترات المثيرة للانقسام التي أثارها ترامب بين اليهود الأمريكيين الذين انتقدوا سياسات بنيامين نتنياهو المتشددة، قال: «يا إلهي، عندما أنظر إلى ما فعله لإسرائيل فلن أعترض على أي شيء»^{٢٥}، وماذا عن العدد المتزايد من جرائم الكراهية المعادية

للسامية في أمريكا التي سهلها خطاب ترامب وتعليقاته مثل ادعائه بوجود «أشخاص طبيين» بين أولئك الذين حضروا مسيرة شارلوتسفيل^(١) الذين كانوا يهتفون: «اليهود لن يحلوا محلنا»؟ لا يوجد تنافر هنا: فلا يمكن أن يكون ترامب معاديًا للسامية، لأن زوج ابنته يهودي.

وهكذا، في غضون ثلاث سنوات من انتخاب ترامب، انزلق معظم الجمهوريين إلى أسفل هرم ضخم لتبرير الذات، وكما صرح بيتر وينر معربًا عن أسفه بأن الحزب الجمهوري أصبح «حزب دونالد ترامب حتى النخاع»^{٢٦}، ورصد تيم ألبرتا، كبير مراسلي صحيفة بوليتيكو ومؤلف كتاب المذبحة الأمريكية، تفاصيل استسلام عديد من معارضي ترامب الذين اعتبروا أنفسهم ذات مرة متشددين ولن يؤيدوا ترامب أبدًا، ولكن معظمهم انزلقوا إلى أسفل الهرم في اتجاه «ترامب دائمًا» بعد أن أسكتوا أي تدمير ضميري حول أخلاقه ومزاجه المتقلب وأكاذيبه ونزواته، ربما من خلال القول لأنفسهم: «إنه في النهاية ليس سيئًا للغاية، فبحق الجحيم لقد عيّن اثنين من المحافظين في المحكمة العليا، وعيّن عشرات المحافظين في المحاكم الأدنى، وأعطانا تخفيضًا ضريبيًا هائلًا، وهو يدمر تلك اللوائح البيئية اللعينة التي خنقت الأعمال، ولكن إطلاق النار الجماعي فظيع بالطبع، ونتمنى أن يخفف من حدة خطابه، ولكن إذا لم يفعل ذلك فقد يكون ديماجوجيًا، ولكنه الديماجوجي الخاص بنا».

(١) مسيرة مؤيدة لسيادة البيض حدثت في شارلوتسفيل بفيرجينيا، من ١١ أغسطس إلى ١٢ أغسطس، عام ٢٠١٧. كان المتظاهرون أعضاء من اليمين المتطرف وشملت أشخاصًا يتبعون اليمين البديل، والكونفدرالية الجديدة، والفاشيين الجدد، والقوميين البيض، والنازيين الجدد، وكوكلوكس كلان، وميليشيات مختلفة. (المترجم).

عندما قضت المحكمة العليا بأنه لن يُسمح لترامب وإدارته بطرح سؤال حول المواطنة في تعداد عام ٢٠٢٠، أكد المدعي العام وليام بار -في فعالية عامة في روز جاردن- لترامب أن القضية برمتها كانت مجرد مسألة «لوجستية» تتعلق بالتوقيت، وصدق له لموافقته بشجاعة على الالتزام بقرار المحكمة، ومعلنًا: «تهانينا مرة أخرى، سيدي الرئيس»، تهانينا على ماذا؟ لقبول قرار المحكمة العليا، وهو ما يلتزم به جميع الرؤساء بموجب الدستور؟ تهانينا لعدم الانخراط في سورة غضب أخرى؟

يعد وليام بار نفسه مثالا على الرجل الذي انزلق إلى أسفل الهرم من دون عثرة، وانتقل من كونه محاميا محترما إلى أن يصبح المدعي العام للأمة إلى التحول إلى المحامي الشخصي المتملق لترامب، الذي يسافر حول العالم لحث الحكومات الأجنبية على قبول إنكار فلاديمير بوتين للمسؤولية عن التدخل في الانتخابات، وبحلول الوقت الذي انضم فيه أعضاء الإدارة (=الحكومة) إلى بار في أسفل الهرم، فما احتمال أن يغير أي منهم رأيه، ويتساءل عن زلات الرئيس في الأحكام، ويحاول العودة إلى القمة؟ انتبه إلى سؤال ستيفاني دينينج الحزين في عمودها في مجلة فوربس، في إشارة إلى عديد من المعينين من قبل ترامب الذين قفزوا من السفينة (طوعية أو غير ذلك)، وكتبت: «من وجهة نظر المواطنين فإن السلوك والفظاظة والفوضى المرادفة للإدارة ستبرر بالتأكيد نوعاً من الاعتراف بالندم على الانضمام إليها في المقام الأول، ولكن لم يحدث هذا بوضوح، فلماذا لا يعترف أي شخص بأنه كان مخطئاً؟»^{٢٧}.

لماذا؟ لأنه بحلول الوقت الذي تكون فيه في أسفل الهرم، فإن الاعتراف بأنك كنت مخطئاً يعني الاعتراف بأنك ضحيت بحُكمك الأفضل من أجل مصلحتك الشخصية المباشرة أو أنك -الشخص متوقد الذهن، والذكي سياسياً، وذو الخبرة المهنية- فشلت في السيطرة على رئيسك الحساس للنقد أو تقييده أو حتى التأثير عليه، وهذا يعني أن كل تبريراتك السابقة كانت... خاطئة، وبفضل الحد من التنافر فإن عديداً من الموالين لترامب -حتى أولئك الذين تمت إقالتهم- سوف يقنعون أنفسهم بأن أجندة الجمهوريين، وهذا التخفيض الضريبي الذي وضع كثيراً من الدولارات في جيوبهم، يستحق الثمن الضئيل المتمثل في إغداق بعض المجاملات عليه وغيض الطرف عن جرائمه. تهانينا لكم حقاً.

بالنسبة إلى أولئك الذين يقعون في أسفل الهرم، فإن المبرر النهائي للحد من التنافر هو -بالطبع- أن الغاية تبرر الوسيلة، وقد لاحظ العالم السياسي جريج وينر أن «معظم المدافعين المتشددین عن ترامب قد جرفوا منذ فترة طويلة جميع [الشكاوى ضده] بعيداً، مع التأكيد البسيط على أنه يجب أن يؤخذ على محمل الجد، وليس «حرفياً» لأنه يعطيهم السياسات التي يريدونها، وهذا يخدم الصالح الوطني الأكبر أو أجندتهم الدينية، وتعرّف جريج وينر على أمر أكثر تعقيداً من تبرير الذات وهو أن ترامب لم يكن بإمكانه تحقيق أجندته السياسية من دون الكذب والابتذال والسلوك غير المشروع، ومن ثم فقد عزز كل ذلك فعاليته، وهذا هو ما أسماه جريج وينر مغالطة «ما بعد ترامب»، وهي شكل

من أشكال المنطق الخاطيء «ما بعد ذلك حدث بسبب هذا»، والمثال الكلاسيكي له هو افتراض أن صياح الديك يسبب شروق الشمس لأن الحدث الثاني يتبع الأول، وفي نسخة المغالطة التي يتبناها المدافعون عن ترامب، ينتهك السيد ترامب المعايير العرفية للسلوك الرئاسي ثم يقدم السياسات المرغوبة، وبالتالي فإن الافتراض هو أن الانتهاكات أنتجت السياسات»^{٢٨}.

وما الخطأ في فكرة أن «الغاية تبرر الوسيلة»؟ وقد لجأ رؤساء كل الأحزاب -بما في ذلك فرانكلين روزفلت الذي اضطر إلى التعامل مع الكساد الأعظم والحرب العالمية الثانية- إلى هذا العذر التلقائي، ويجادل جريج وينر أنه عندما تنطوي «الوسائل» على سحق معايير وقواعد وعادات وتقاليد الديمقراطية، فإن هذا هو الإرث الذي سوف يبقى وليس السياسات اللحظية التي تبررها الوسائل، وكلما كانت الوسائل أكثر فظاعة وغير أخلاقية، اضطر مؤيدو ترامب إلى تبريرها على أنها ضرورية لتحقيق أهدافه وأجندته السياسية، وهذا المنطق الزائف يشير غضب جريج وينر، ورد عليه بأنه لا يوجد شيء حققه ترامب كانت فظاظته و«سلوكه غير الرئاسي» لا غنى عنهما له أو حتى مفيدين.

قد تتذكر من الفصل ١ كيف وصف جيب ستيوارت ماجرودر -وهو مشارك نشط في فضيحة ووترجيت- خطوات تبرير الذات التي قاده إلى القاع ليغرق في مستنقع الفساد والجريمة في إدارة نيكسون، وفي مايو ٢٠١٩ وصف جيمس كومي نفس الهبوط لأولئك الذين في إدارة ترامب، موضحاً سبب صعوبة العودة نحو قمة الهرم، وقد أُقيل

جيمس كومي -المدير السابق لمكتب التحقيقات الفيدرالي ومؤلف كتاب ولاء أعلى: الحقيقة والأكاذيب والقيادة- من قبل دونالد ترامب بسبب فشله في التصريح علناً بأن ترامب لم يكن قيد التحقيق بتهمة التواطؤ مع الروس خلال انتخابات ٢٠١٦، وبدأ كومي بالتساؤل كيف يمكن أن ينتهي الأمر بـ«محامٍ لامع وبارع» مثل بار -بالإضافة إلى شخصيات بارزة أخرى في فلك ترامب- إلى تحويل امتناع المدير السابق لمكتب التحقيقات الفيدرالي عن التصريح «بعدم التواطؤ» إلى اتهام مكتب التحقيقات الفيدرالي «بالتجسس» على الرئيس، وتساءل كومي كيف يمكن لبار -الذي يدلي بشهادته أمام اللجنة القضائية في مجلس الشيوخ- أن يقلل من أهمية محاولة ترامب إقالة روبرت مولر قبل أن يكمل تقريره^{٢٩}؟ إنه التنازل خطوة واحدة في كل مرة.

أولاً، تجلس صامتاً بينما يكذب، ويقدم تأكيدات زائفة، ويخلق «شبكة من الواقع البديل» التي لا تجادل فيها أنت وشركاؤك، ويتم سحبك إلى «دائرة صامته من الموافقة»، فلا تتحدى تفاخره بأنه كان لديه أكبر حشد تنصيب في التاريخ، وتتعاطف عندما يتذمر من أنه عُومل بشكل غير عادل للغاية من قبل الصحافة.

ثانياً، توافق على طلبه المتكبر بأن تمدحه علناً وأن تقسم على ولائك له في اجتماعات مجلس الوزراء والأماكن العامة الأخرى، وقد كتب جيمس كومي: «أنت تفعل ما يفعله الجميع حول الطاولة، وتتحدث عن مدى روعة القائد وكم هو شرف لك أن ترتبط به».

ثالثاً، تصمت بينما يهاجم ترامب القيم التي تعتز بها والمؤسسات

التي تعهدت بحمايتها، أنت صامت لأنه ماذا يمكن أن تقول؟ فهو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وأنت منزعج من «سلوكه الشائن»، ولكنك تبقى لأنك تشعر أن هناك حاجة إليك لحماية تلك القيم والمؤسسات، أنت مهم جدًا لدرجة أنك لا يمكن أن تكفَّ عن العمل.

واختتم جيمس كومي قائلاً: لا يمكنك قول هذا بصوت عالٍ -ربما ليس حتى لعائلتك- ولكن في وقت الطوارئ مع أمة يقودها شخص غير أخلاقي على الإطلاق، ستكون هذه مساهمتك وتضحيتك الشخصية من أجل أمريكا، فأنت أذكى من دونالد ترامب وأنت تمارس لعبة طويلة الأمد من أجل بلدك، لذا يمكنك أن تنجح حيث فشل قادة أقل شأنًا وطُردوا بتغريدة، وبالطبع كي تبقى، يجب أن يُنظر إليك على أنك في فريقه، ولذلك تقدم مزيدًا من التنازلات، فتستخدم لغته، وتمدح قيادته، وتروج لالتزامه بالقيم، وبعدها تضيع، لأنه قد أكل روحك.

الهبوط في القاعدة : «لقد رأينا قلبه»

بطبيعة الحال، لم يكن الموالون المتشددون لترامب على الحياد قط، فقد صوتوا لصالحه على وجه التحديد للأسباب التي تسببت في التنافر لكثيرين آخرين، وبالنسبة إليهم، تم تضخيم التحيز التأكيدي من خلال مكبرات صوت فوكس نيوز، التي حوّلت رذائله بشكل روتيني إلى فضائل، بل ووفّرت تبريرات سابقة التعبئة للمخلصين للحزب كي يرددوها مرارًا وتكرارًا: «إنه ليس سياسيًا»، أو «إنه خشن من الخارج»، أو «لديه نيات حسنة»؛ و«إنه ليس مستقيمًا سياسيًا»، وتبرير الذات

الكلاسيكي الذي يقلل من الأدلة، مثلما قالت امرأة في تجمع حاشد: «لديه عيوب، ولكن ألا توجد لدينا جميعاً عيوب؟».

هل يتصرف بشكل غير رئاسي؟ ولكن كما يقولون فالتصرف بشكل غير رئاسي ليس مهماً، وفي الحقيقة كان هذا هو السبب في أننا صوّتنا له، وقالت امرأة في تجمع لنساء من أجل ترامب في ولاية بنسلفانيا لصحيفة فيلادلفيا إنكوايرر: «إنه يأخذنا إلى حيث نريد، وهو ليس سياسياً، ويتمتع بالشجاعة، ولا يخشى أن يقول ما يفكر فيه، وما يقوله هو ما يفكر فيه بقيتنا»^{٣٠}، وفي تجمع آخر في ساوث كارولينا قالت ممرضة متقاعدّة تبلغ من العمر أربعة وستين عاماً: «كل ما يقوله هو ما أشعر به، وأنا أعرف هذا الرئيس، وقد حضرت حفل تنصيبه، وحضرت تجمعاته الحاشدة الأخرى، وأنفق مع كل ما يقوله، وهو يتحدث نيابة عني، وقد يكون خشناً بعض الشيء من الخارج لكنه ليس سياسياً».

هل يقول بعض الأشياء المخرجة في تغريداته اليومية التي تسخر من أي شخص لا يرضيه، من روزي أودونيل وبيت ميدلر إلى الدبلوماسيين ورؤساء الدول؟ بالتأكيد، لكن هذا لا يدعو للانزعاج، وقالت امرأة في تجمع حاشد لترامب: «الجميع يغردون بأشياء مجنونة، كلنا نفعل ذلك! لماذا تشير أصابع الاتهام إليه؟» (هل لأنه الرئيس؟)^{٣١}.

هل يغضب أو يثور عندما يشعر أنه أهين أو انتقد؟ قال رجل يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عاماً: «إنه لا يكون دائماً الأفضل في التعامل مع عواطفه، فهو رجل عاطفي وانفعالي للغاية، ولكنني أحب سياساته وأعتقد أن لديه نيات حسنة».

هل هو عنصري؟ بالطبع لا، هكذا أجاب مؤيد شاب آخر عندما سُئِلَ عن شيطنة ترامب لأربع عضوات ديمقراطيات من الأقلية في الكونجرس. «إنه يوضح وجهة نظره ويعبر عن رأيه، وهذا مهم فلا يوجد عدد كافٍ من الناس الذين يقولون ذلك في الوقت الحاضر، فالجميع على صواب سياسياً، ولا يمكنك أن تُخرج منهم ما تريد. أنا أحب ذلك في الشخص».

وماذا عن سلوكه الطائش، وسرعة تغيير أعضاء الإدارة، وتحقيق مولر، وجلسات المساءلة، وتعليقات موظفيه حول مدى حماقته؟ وقد لاحظنا أن مؤيدي ترامب داخل الإدارة والحزب يدركون تمامًا هذه المعلومات غير المريحة، ولكنهم يميلون إلى التقليل منها بالقول - كما قال آري فلايشر - إن الديمقراطيين أسوأ، ولكن أنصار ترامب الأكثر ولاء يتجاهلون أي احتمال لأثر ضئيل للتنافر من خلال الادعاء البسيط أن المعلومات غير المرحب بها كلها أخبار مزيفة، فتحقيق مولر في فساد انتخابات ٢٠١٦ هو مجرد حيلة من قبل الديمقراطيين لمنع رجلنا من القيام بعمله، وفي الحقيقة - كما تتنبأ نظرية التنافر - كلما كان النقد أقوى وأكثر إقناعاً، كانت الحاجة إلى تجاهله أقوى وأكثر رسوخاً، وكما قالت وكيلة عقارات تبلغ من العمر تسعة وستين عامًا لأحد المراسلين إن منتقدي ترامب «يرمونهم بالقاذورات طوال اليوم وكل يوم»، ثم أضافت - عن غير قصد - محققة الخطوة الأخيرة في الحد من التنافر: «وهذا يجعلنا نرغب في دعمه أكثر»^{٣٢}.

عندما وعد ترامب جمهوره في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري بأنه سيكون صوت «الرجال والنساء المنسيين في بلدنا»، سمع كثيرون وعدًا بإبقاء المصانع مفتوحة وتنفيذ الأجندة المحافظة، إلا أن أقلية كبيرة سمعت شيئاً آخر: رجل يعدهم بتهدة مخاوفهم بشأن المخاطر والتغيرات الحقيقية والمتخيلة في العالم، وقد قال فني معالجة نفسية متقاعد يبلغ من العمر تسعة وستين عامًا لأحد المراسلين إنه «يريد حماية هذا البلد، ويريد الحفاظ عليه آمنًا، ويريد إبقائه خاليًا من الغزاة ومن البيوت المتنقلة وكل شيء آخر يحدث، فهو يفهم سبب غضبنا ويريد إصلاحه»^{٣٣}.

درست عالمة السياسة أشلي جاردينا -مؤلفة كتاب «سياسات الهوية البيضاء»- هذا الغضب ووجدت أن كثيرًا منه ينبع من التصور الخاطئ بأن البيض يحصلون على حصة منخفضة بشكل غير متناسب من موارد الأمة، وعلمت أشلي جاردينا أن عديدًا من الناخبين البيض يدعمون ترامب لأنهم يفكرون: «اسمعوا، ترامب موجود من أجل مجموعتي، وسوف يساعد البيض، وهو رئيس البيض»^{٣٤}، علاوة على ذلك، ونظرًا للقوة العاطفية لحاجتهم إلى الاعتقاد بأنه «رئيس للبيض»، فلن يهتموا كثيرًا بما إذا كان سيفي بوعوده الخاصة، فهم يشعرون بأنهم أصبحوا مُمثلين ومفهومين أخيرًا. إنه صوتنا.

وهو صوتهم خاصة عندما يتعلق الأمر بالهوية الدينية، وإذا كان هناك من سيشعرون بالتنافر بشأن دعمهم لدونالد ترامب، فهم الناخبون الذين تعتبر قناعاتهم الدينية أساسية لمفاهيمهم الذاتية، فكلما تعاظم

التنافر الناجم عن الفجوة بين مثل هذا الاعتقاد الأساسي ودعم السياسي الذي ينتهك تقريبًا كل عنصر أخلاقي ومعنوي في هذا الاعتقاد، تعاضمت الحاجة إما إلى التنصل من السياسي أو تبرير سلوكه، وكان الخيار أكثر وضوحًا بالنسبة إلى المسيحيين الإنجيليين البيض، الذين شكّلوا ٢٦٪ من الناخبين في عام ٢٠١٦: ٨١٪ منهم صوّتوا لصالح ترامب، وظلّوا ثابتين في دعمهم حتى بعد مكالمته الهاتفية المصيرية مع الرئيس الأوكراني التي أطلقت تحقيق العزل من الرئاسة، وقال غالبية الإنجيليين والجمهوريين الذين يشاهدون قناة فوكس نيوز في استطلاع للرأي إنه لا يوجد شيء يمكن أن يفعله ترامب يفقده دعمهم، وإنه لم يفعل شيئًا «أضر بكرامة الرئاسة»^{٣٥}. كيف يحافظون على هذا الاقتناع؟

قبل أن يصبح دونالد ترامب المرشح الجمهوري للرئاسة، كتبت واندا ألجير، التي تصف نفسها بأنها «قسيصة تنبؤية»، عمودًا -في المجلة المسيحية المحافظة كاريزما نيوز (شعارها: «حيث يلتقي الإيمان والسياسة»)- بعنوان: «نحن بحاجة إلى مخافة الرب في قادتنا»، وكتبت: «هناك دعاء واحد تحتاج إليه هذه الأمة الآن أكثر من أي وقت مضى، وهو أن تسيطر مخافة الرب على قلوب وعقول أولئك الذين يشغلون مناصب عامة وكذلك أولئك الذين يصوّتون»، وعددت ست عشرة صفة -مستقاة كلها من الكتاب المقدس- يجب أن تكون واضحة في جميع القادة «الذين تتجه قلوبهم حقًا نحو الله»، بما في ذلك:

• أن يكونوا منفتحين على مشورات الآخرين.

• أن يكونوا قابلين للتعليم.

- أَلَّا يُظْهِرُوا أَيَّ تَحِيْزٍ، وَلَا يَأْخُذُونَ رِشَاوَى.
- أَلَّا يَعْتَبِرُوا أَنْفُسَهُمْ أَفْضَلَ مِنْ أَيِّ شَخْصٍ آخَرَ.
- أَنْ تَمْتَلِئَ أَفْوَاهُهُمْ بِالْكَلِمَاتِ الطَّيِّبَةِ.
- أَنْ يَكْرَهُوا كُلَّ أَشْكَالِ الشَّرِّ.
- أَنْ يَعْمَلُوا بِحِكْمَةٍ وَتَوَاضَعٍ.
- أَنْ يَكُونَ بَيْتُهُمْ مَرْتَبًا بِتَقْوَى الرَّبِّ.
- أَنْ يَمْشُوا فِي طَاعَةِ وَصَايَا اللَّهِ.
- أَلَّا يَتْرَكُوا الْخَطِيئَةَ تَحْكَمَهُمْ.
- أَلَّا يَخَافُوا مِنْ إِنْسَانٍ، بَلْ يَسِيرُوا فِي ظِلِّ مَخَافَةِ الرَّبِّ.
- أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ وَالْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ.

ما الذي يجب أن يفعله المسيحي الجيد بالتناظر الناتج عن معرفة أن ترامب ليس بأي حال من الأحوال «قابلاً للتعليم» أو «منفتحاً على مشورة الآخرين»، وأنه يأخذ رشاوى في شكل صفقات تفيد ممتلكات ترامب، وأنه نادراً ما يعمل «بحكمة وتواضع»، وأنه نادراً ما يقول «كلاماً طيباً»، وبالكاد يحافظ على بيته (الأبيض) مرتباً، وهو بعيد عن التواضع وعن عدم اعتبار نفسه «أفضل من أي شخص آخر»، فهو يكرر من دون قيود أنه يرى نفسه أفضل وأذكى من أي شخص آخر! وقال: «لا أحد يحترم النساء أكثر مني»، و«لا أحد يقرأ الكتاب المقدس أكثر مني»، و«لا يوجد أحد فعل كثيراً من أجل المساواة كما فعلت»، و«لا أحد يعرف عن الضرائب أكثر مني، وربما في تاريخ العالم»، و«لم يكن أحد

أكثر نجاحًا مني»^{٣٦}، وأعلن نفسه «المختار»، ورجلاً «ذا حكمة عظيمة لا مثيل لها»؟!!

ها أنت ذا -مسيحي متدين- في قمة الهرم، وهذا الرجل ترامب يمكن اعتباره بالكاد رجلاً ذا شخصية أخلاقية قوية، وله هذا التاريخ المزعج من الخيانة الزوجية والابتذال تجاه النساء، ومع ذلك كنت غاضباً من بيل كليتون لما هو أقل من ذلك بكثير، ولم يُظهر ترامب أي تاريخ من الالتزام بالإيمان المسيحي -ناهيك عن الإيمان به- على الرغم من كل قراءات الكتاب المقدس التي يدعي أنه قام بها، فهل ستقول: «من المؤكد أن ترامب لا يرقى إلى مستوى متطلباتنا لقائد تقي، ولذلك من الأفضل أن نبحث في مكان آخر»؟ على الأرجح سوف تسلك طريق الحد من التنافر الذي فعلته واندا ألجير، فبعد مراقبة ترامب وهو يعمل لمدة عامين أدركت واندا ألجير في النهاية أن القائد الجيد ليس مجبراً على أن يكون تقياً، وقررت أنها ستكون إضافة لطيفة إذا كان تقياً، ولكن هذا لا يهم ولم يكن مهماً قط (على ما يبدو أنها نسيت أنه قبل الانتخابات كان الأمر مهماً جداً بالنسبة إليها)، وكتبت في عام ٢٠١٩ أن السؤال الوحيد الذي يجب أن يطرحه الناس هو ما إذا كان ترامب قائداً جيداً: «بالنسبة إلى أولئك القادة -بمن فيهم الرئيس- الذين قد لا يتناسب سلوكهم أو أسلوبهم مع نهجنا المنشود كمسيحيين، يمكننا أن ننظر إلى المؤهلات الأساسية في الكتاب المقدس لتحديد قدرتهم على الحكم بشكل جيد، وعلى عكس قادة الكنيسة الذين يجب أن يتخذوا المسيح نموذجاً لقيادة القطيع، فإن قادة الحكومة المدنية

مدعوون للحكم بيدٍ قوية لضمان السلامة والحماية والحرية للجميع».

وما «المؤهلات الأساسية في الكتاب المقدس» التي تصنع القائد الصالح؟ (رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ١٣: ١-٦)، و(رسالة بطرس الرسول الأولى ٢: ١٣-١٤)، وصفت نوع القائد الذي نحتاج إليه:

- خادم الله لخير الناس.
- مرعب للسلوك السيئ، وحامل للسيف.
- المنتقم الذي ينفذ غضب الله على الظالم.
- خادم الله المداوم على تحصيل الضرائب من الشعب.
- المرسل من الله لمعاقبة أولئك الذين يفعلون الشر وللثناء على أولئك الذين يفعلون الخير^{٣٧}.

هذه القائمة أكثر ترامبية بالتأكيد، خاصة جزء حمل السيف وجزء الانتقام والجزاء الضريبي، على الرغم من أننا نتجاهل الآيات التي تُظهر أن يسوع اهتم بفرض ضرائب على الأغنياء لصالح الفقراء، وليس العكس (مرقس ١٠: ٢١، ٢٥؛ والأمثال ١٩: ١٧)، وقد كتبت واندا ألجير: «هذه الأوصاف لكيفية استخدام الله للقادة المدنيين لا تتضمن أي مؤشرات على ضرورة الأخلاق الشخصية أو التقوى، وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون مرغوبًا فيه فإنه ليس مطلوبًا، ويجب أن نستمر في الصلاة من أجل أن يكون لجميع مسؤولينا المنتخبين لقاء حقيقي وعلاقة شخصية مع يسوع المسيح، ولكن دعونا لا نستبعد أولئك الذين

لم يسمعوا بعد النداء، أو ما زالوا في الرحلة إذا كانوا كقادة مدنيين يحققون فعلاً مقاصد الله، فإن أفعالهم ستحدث بصوت أعلى من كلماتهم، وإنجازاتهم ستفوق نقاط ضعفهم الشخصية».

الترجمة: «نحن نحب سياساته ومواقفه لدرجة أننا سنتخلى عن قيمنا الأخلاقية لدعمه والتغاضي عن خطاياه العديدة مع الاحتفاظ بإيماننا بأننا مسيحيون صالحون وطيبون وعطوفون ومتدينون»، ويتطلب تحقيق هذا التوازن بعض التكتيك الذهني المناور، فالتنافر بين القيم المسيحية وسلوك ترامب كبير جداً لدرجة أن أنصاره الإنجيليين يجب أن يعملوا بجد لتقليل الانتقادات الموجهة إليه - خاصة كما قالت ألجير - من كل هؤلاء «الليبراليين اليساريين الذين يعارضون الحرية الدينية والقيم المحافظة والمستمرين في البحث عن وسيلة لاستبعاد رئيسنا الحالي، وسواء كانت تعليقاته السلبية على تويتر أو أساليبه غير التقليدية في الحكم، فإن خصومه يبحثون عن أي شيء يشير إلى أنه لا يصلح لحكم الأمة».

لقد خلص هؤلاء الإنجيليون إلى أنه لا شيء من هذا النقد مهم على أي حال، لأن الغاية تبرر الوسيلة، وقد أرسل الله ترامب ليعطينا الغايات التي نريدها، ليس فقط من خلال وضع القضاة المحافظين في المحاكم ولكن أيضاً من خلال دعم الجامعات والمنظمات المسيحية التي تعترض على زواج المثليين أو منع الحمل، والسماح للجماعات الدينية بالتححرر من قوانين مكافحة التمييز، ونقل السفارة الأمريكية في إسرائيل إلى القدس، وستكون الغاية النهائية هي أن يعيد ترامب

الولايات المتحدة إلى ما يعتقدون أنها كانت عليه، وما ينبغي أن تكون عليه: أمة مسيحية بيضاء، وللقيام بذلك سيمنع هجمات هؤلاء الأشخاص الملونين، وغير المسيحيين، وغير المغايرين جنسيًا، والأجانب الذين يغزون بلدنا (حتى لو كان هؤلاء الأجانب قد وُلدوا في نيويورك أو سينسيناتي)، وكما قال جون فيا - مؤلف كتاب صدقني: الطريق الإنجيلي إلى دونالد ترامب - فإن الإنجيليين «سوف يشيخون بوجوههم عن الطيش الأخلاقي من أجل وضع أجندتهم السياسية في مكانها الصحيح».

أين رأينا من قبل في التاريخ هذه المقايضة؟ اسألوا البابا بيوس الحادي عشر.

أحد الذين أشاحوا بوجوههم بالتأكيد هو مايك بومبيو، وهو مسيحي إنجيلي أصبح وزيرًا للخارجية بعد أن أقال ترامب ريكس تيلرسون، فقبل الانتخابات كان أحد الأميين المحافظين الذين يعتبرون القوة الأمريكية ضرورية للاستقرار العالمي، وكان معارضًا صريحًا لسياسات ترامب «أمريكا أولاً»، ومع ذلك عندما عُرضت عليه وظيفة تتطلب منه التضحية بآرائه السياسية - بل وآرائه الدينية - قبل ذلك في لمح البصر، موضحًا أن وظيفة وزير الخارجية هي خدمة الرئيس والقيام بكل ما يطلبه الرئيس منه، وقد أوضح مسؤول سابق في البيت الأبيض إن بومبيو كان «من بين أكثر الأشخاص المتملقين والمتدللين حول ترامب»، وبشكل أكثر صراحة، قال سفير أمريكي سابق: «إنه مثل صاروخ متقفٌ للحرارة يبحث عن مؤخرة ترامب»، ولكن كيف يبرر

بومبيو هذا السلوك؟ لقد رفع الله ترامب - كما فعل مع الملكة أستير، التي أنقذت شعبها- إلى هذا المنصب الرفيع، ولهذا يجب علينا طاعة الله وترامب^{٣٨} حتى لو كان ذلك يعني انتهاك قسم المنصب وعرقلة طلبات الكونجرس للحصول على معلومات تتعلق بتحقيقات عزل الرئيس.

ومع ذلك، هناك واحدة من الوصايا العشر التي لا يمكن حتى للإنجيليين التسامح في انتهاكها من قبل ترامب، إنها ليست الزنا -بالطبع- وليست تحريم شهادة الزور، رغم أن الرجل أدلى بأكثر من خمسة عشر ألف بيان كاذب أو مضلل في السنوات الثلاث الأولى من رئاسته، وهي ليست الطمع في ممتلكات جارك أيضًا، فهذا مجرد عمل تجاري جيد، ولكن الهدف صعب المنال كان هذا: «لَا تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِكَ بَاطِلًا، لِأَنَّ الرَّبَّ لَا يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلًا» (سفر الخروج ٢٠: ٧)، وهكذا، عندما مازح ترامب عن «طواحين الهواء لعنها الله» في أثناء حديثه مع الجمهوريين في مجلس النواب حول سياسة الطاقة، أثار غضب عديد من مؤيديه الإنجيليين، فقال القس روبرت جيفريس -وهو إنجيلي يقدم المشورة لترامب وهو أحد أشد مؤيديه: «أنا بالتأكيد لا أنغاضى عن نطق اسم الرب عبثًا، فهناك وصية كاملة مكرسة لحظر ذلك، وأعتقد أنه من المهيّن للغاية استخدام اسم الرب عبثًا، ويمكنني أن أتسامح مع كل شيء آخر تقريبًا، باستثناء ذلك»^{٣٩}، ناهيك عن بقية «الوصايا العشر» الأخرى التي يستهزئ بها ترامب يوميًا.

في واحد من أكثر أشكال الحد من التنافر تطرفاً، لا يبررون -عديد من مؤيدي ترامب الإنجيليين- أو يقللون من شأن زنا ترامب وخداعه، بل يأخذونه كدليل على أنهم كانوا على حق طوال الوقت في دعمه، لأنه كلما كان -في الواقع- أكثر ابتذالاً، حقق مهمته الإلهية المفترضة. ومن هنا رأينا أحد الملصقات الصادمة: دونالد ملكي / هو الإله المختار؛ أي إنه حرفياً الله أو على الأقل أرسله الله ليخلصنا، ولا يرى الإنجيليون تأييدهم لترامب نفاقاً، ناهيك عن أن يكون هرطقة، فيقول جون فيا: «إنهم يعتقدون أن الله قد استخدم ترامب للحظة كهذه، فهم يؤمنون بأن الله يستخدم أشخاصاً فاسدين، وهناك أمثلة في الكتاب المقدس على ذلك ولذلك سوف يستدعون هذه الآيات»، ففي نهاية الأمر يعمل الله بطرائق غامضة، ولا توجد طرائق أكثر غموضاً من طرائق دونالد ترامب، فلديه سلسلة طويلة من الخطايا الجنسية والمالية! حسناً، إن الله يحب الخطاة، وترامب في «رحلة» إلى المسيح، وقد يستغرق بعض الوقت للوصول إلى هناك، ولكننا مسيحيون، ومن ثم نحن مستعدون للتسامح مع عدد قليل من الخطاة -ما داموا هم الخطاة الذين يخلصوننا، ويقول جون فيا إن بعض الإنجيليين يذهبون إلى أبعد من ذلك، مدعين أن ترامب قد مر بالفعل بصحة روحية وأن أيامه (ولياليه) من الفساد أصبحت في الماضي البعيد، وقالت المتقاعدة نانسي ألين، المعمدانية من ولاية كارولينا الشمالية التي كتبت مؤيدة انتخاب رئيس الشعب دونالد ترامب: «لقد تغير دونالد ترامب، وأنا أعتقد ذلك من كل قلبي، لقد تغير ولم يعد لديه أي فضائح أخرى، وهو ليس مثاليًا الآن، ولكن

لا يوجد شخص مثالي، ونحن نعلم أن هناك تغييرًا في قلبه، وهو يحترم معتقداتنا وقيمنا، وأعتقد أن لديه بعض المعتقدات والقيم نفسها».

في مؤتمر لتحالف الإيمان والحرية عام ٢٠١٩، قال رالف ريد، رئيس التحالف للحشد المبتهج: «لقد كان لدينا بعض القادة العظام، ولكن لم يكن هناك أي شخص دافع عنا وقاتل من أجلنا وأحببناه أكثر من دونالد ترامب، وقد رأينا قلبه وفيه كل ما وعد به وأكثر»^{٤٠}.

في صدى لتفاخر موسوليني لوزير الخارجية الألماني حول مدى سهولة الفوز بتأييد الفاتيكان، أشار ترامب متحدثًا إلى مشرعي الحزب الجمهوري إلى «هؤلاء الإنجيليين اللعناء» بينما كان يتسم ويهز رأسه، وكما كتب تيم ألبرتا في كتاب المذبحة الأمريكية، كان في ذهن ترامب أنه «سيمنحهم السياسات وإمكانية الوصول إلى السلطة التي يتوقون إليها، وفي المقابل سيقفون وراءه بلا تردد».

وقف الانزلاق:

«انظروا، هذا أكبر من السياسة السائدة اليوم»

لقد كلفني ولائي للسيد ترامب كل شيء: سعادة عائلتي، وصدقاتي، ورخصتي القانونية، وشركتي، ومعيشتي، وشرفي، وسمعتي، وقريبًا حريتي، وأدعو الله ألا ترتكب البلاد نفس الأخطاء التي ارتكبتها.

- مايكل كوهين، المحامي الشخصي السابق لدونالد ترامب ومتواطئ، بعد الحكم عليه بالسجن لمدة ثلاث سنوات.

لم يكن مايكل كوهين مُرتل قداس، ولم يكن لديه كثير من القواسم المشتركة مع جيب ستيفارت ماجرودر، الذي كان من شبه المؤكد أن «بوصلته الأخلاقية» ستتخطم بسبب عديد من تعاملات مايكل كوهين المهنية المهلهلة على مدى حياته قبل وبعد ارتباطه بدونالد ترامب، ولكن عندما قُبض على مايكل كوهين ورأى ما كلفه ولاؤه الأعمى قرر الاعتراف وتحمل المسؤولية، فقد تهرب من الضرائب ولكنه لم يستطع التهرب من عواقب الولاء الذي لا جدال فيه لرجل محتال.

كانت الغاية تبرر الوسيلة بالنسبة إلى الجزء الأكبر من حياة مايكل كوهين إلى أن لم يصبح هذا ممكناً، وهذا خيار يتعين على كثير منا اتخاذه في حياتنا، سواء كانت الغايات التي نسعى إليها صغيرة أو كبيرة، شخصية أو سياسية، وغالباً ما يتعين علينا تحديد ما إذا كانت الغاية المحددة التي نهتم بها - خاصة الغايات الصالحة مثل العدالة في حالات سوء المعاملة، أو إنهاء التحرش الجنسي في مكان العمل، أو تحقيق إصلاح سياسي معين - أكثر أهمية مما نقوم به للوصول إليها، فماذا نقول إذا كان علينا أن نعقد بعض التحالفات البغيضة للوصول إلى ذلك الهدف؟ ماذا لو أُلقي عدد قليل من الأبرياء تحت الحافلة؟ بالتأكيد تعلم البابا بيوس الحادي عشر الجواب: عاجلاً أم آجلاً، من المحتمل أن نُلقَى أنفسنا تحت تلك الحافلة... أو أن الحافلة سوف تنحرف عن الطريق مع كل من فيها.

طوال هذا الكتاب رأينا لماذا يخرج معظم الناس عندما يواجهون التنافر بين طموحاتهم وأخلاقهم من هرم الاختيار في اتجاه الطموح،

مدفوعين بالراحة ودعم الأقران والأمن الوظيفي والمكافآت الأخرى، ويتلعون شكوهم ويسمحون لتبرير الذات بإراحة ضمائرهم، وقد أنهينا معظم الفصول بقصة شخص سلك الطريق الأصعب، وبالنسبة إلينا لا تكشف هذه القصص عن الشجاعة الفردية فحسب، بل تكشف أيضاً عن الشبكة القوية التي ينسجها الحد من التنافر كي نستمر في الخط.

ولنتأمل مرة أخرى مسار النزول من الهرم الذي بدأ مع مجموعة الجمهوريين الراضين لترامب، وهي مجموعة تجمعت قبل انتخابات عام ٢٠١٦، وبعضهم -مثل جورج ويل- ظل مصرّاً على الرفض، فبالنسبة إليه «أبدًا تعني أبدًا»، ولكن معظمهم -كما رأينا- أصبحوا في النهاية مؤيدين وانزلقوا إلى القاع مع الإذعان الكامل للإدارة، بينما نكص آخرون على أعقابهم وأوقفوا انزلاقهم عندما وصلوا أخيراً إلى نقطة الانفصال، وهي النقطة التي لم يعد بإمكانهم فيها تبرير ولائهم المستمر.

بالنسبة إلى ماكس بوت، فقد كانت خيبة الأمل في حزبه «مؤلمة وطويلة، وفي الواقع كانت وجودية» وقد جادل -في كتابه الصادر عام ٢٠١٨ بعنوان تأكل النزعة المحافظة- بأن الوقت قد حان للحزب الجمهوري كي يدفع «ثمن احتضانه للقومية البيضاء واللا معرفية»، وكتب أنه لكي يحدث هذا «يجب حرق الحزب الجمهوري -بشكله الحالي- عن آخره»^{٤١}.

بالنسبة إلى جيم ماتيس، وزير الدفاع السابق، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي إعلان ترامب المفاجئ في نهاية عام ٢٠١٨ أنه سيسحب القوات الأمريكية من سوريا، الذين كانوا يقاتلون تنظيم الدولة

الإسلامية (داعش)، وكانت هذه الخطوة تعني التخلي عن الأكراد حلفاء أمريكا وإعطاء تركيا وروسيا مكسباً سياسياً كانوا يريدونه، وكان جيم ماتيس -الذي يؤمن بشدة بالتحالفات- يعلم أن الانسحاب من سوريا سيهدد أمن القوات الأمريكية في أماكن أخرى من المنطقة، فضلاً عن إغضب الأكراد والحلفاء الآخرين في التحالف المناهض لداعش، الذين سيشعرون بالخيانة، وحث جيم ماتيس ترامب على إعادة النظر في قراره، لكن ترامب ظل عنيداً، وكان جيم ماتيس على استعداد للبقاء لمدة شهرين آخرين لتقليل الاضطراب في الوزارة، إلا أن ترامب -الذي لا يستطيع تحمل المعارضة حتى لمدة أسبوع- طرده بعد بضعة أيام^(١).

بالنسبة إلى وليام كريستول -أحد المحافظين الجدد المؤثرين- كانت عدم رغبة الحزب الجمهوري في محاسبة ترامب على النتائج الواردة في تقرير مولر لعام ٢٠١٩ إلى الكونجرس هي السبب المباشر، فشكّل هو وغيره من المنظمين ذوي التفكير المماثل مجموعة «جمهوريون من أجل سيادة القانون»، وقال أحد المتحدثين باسم المجموعة لمجلة نيوزويك: «يحتاج الجميع، سواء الجمهوريون أو الديموقراطيون -ولكن بشكل خاص الجمهوريون- إلى التصعيد،

(١) عدّل ترامب هذا الموقف بمجرد رحيل ماتيس، حيث ترك بضع مئات من الجنود في مكانهم، إلا أنه سحب جميع القوات الأمريكية برعونة في أكتوبر من عام ٢٠١٩، ومن دون استشارة خبراءه العسكريين في البنتاجون، وتحققت نبوءة ماتيس بالكارثة على الفور، ولم يكن التخلي عن الأكراد خيانة غير أخلاقية لحليف رئيسي في الحرب ضد داعش فحسب، بل كان عملاً له تداعيات عسكرية وسياسية مدمرة، وحتى أنصار ترامب الجمهوريين الأقوياء كانوا غاضبين، وانضم ثلثا الجمهوريين في مجلس النواب إلى الديموقراطيين في الموافقة على قرار يعارض قرار ترامب.

والقول: لحظة، هذا أكبر من السياسة اليومية، فهو يتعلق بمؤسساتنا الديمقراطية، وإذا لم ندافع عنها فسوف يؤثر هذا على بلدنا لعقود قادمة، ولا يزال الرئيس ترامب مصرًا على عدم الاعتراف بأن هذا قد حدث وأنه خطأ وسخيف وخطير، لذا ينبغي على الجمهوريين التوقف عن تشجيع هذا السلوك».

بالنسبة إلى جاستن إيماش -أول عضو جمهوري في الكونجرس يدعو إلى عزل ترامب- كانت قراءة تقرير مولر هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فأعلن إيماش في ٤ يوليو ٢٠١٩ أنه يعلن استقلاله وأنه سترك الحزب الجمهوري.

بالنسبة إلى كاتب العمود المحافظ بيتر وينر -الذي عمل في ظل ثلاثة رؤساء جمهوريين- فإن النضال من أجل «موازنة كفتي الميزان، إنجازات [ترامب] المحافظة (كما هي الحال مع المحاكم) مقابل الضرر الذي تسبب فيه والطرائق التي غير بها الحزب الجمهوري والبلاد»^{٤٢}، قد حل نفسه أخيرًا: فالضرر يفوق بكثير الإنجازات. وكتب: «لقد أظهر ترامب نفسه كاذبًا مريضًا منخرطًا في هجوم شامل على الحقائق الموضوعية -الواقع والحقيقة- وهي المفاهيم التي يعتمد عليها الحكم الذاتي، كما أن الرئيس قاسٍ ويجرّد خصومه من إنسانيتهم، وهو متقلب وغير مستقر عاطفيًا، ويستمتع بتقسيم الأمريكيين على أسس عرقية وإثنية، وهو يصطدم بقواعد السلوك مثلما يصطدم سائق مخمور بحواجز الحماية، وهو فاسد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه».

ونحن لا نقلل من مدى الصعوبة التي يواجهها أي شخص في التخلص من انتماؤه السياسي الذي يعتبر -على حد تعبير ماكس بوت^(١)- «وجوديًا» ويحدد قيم المرء ومفهومه الذاتي ونظرته إلى العالم، ومع ذلك، فرغم أخلاقية هؤلاء الجمهوريين، فإن رفضهم لترامب لم يهدد سبل رزقهم، أما بالنسبة إلى الآخرين فقد كان الانسحاب من القطيع أكثر صعوبة وأعلى سعرًا.

شين كليبورن قس إنجيلي يبشر بالإنجيل، ويصادق السجناء المحكوم عليهم بالإعدام، ويصنع ملابسهم بنفسه، ويعيش بين الفقراء، ولكن عندما جاء إلى لينشبورج -فيرجينيا- في عام ٢٠١٨ للتبشير في اجتماع للصحة المسيحية في جامعة ليبرتي التابعة لجيري فالويل^(٢)، أرسل له رئيس الشرطة تحذيرًا: إذا وطئت قدمه الجامعة، فسَيُقْبَضُ عليه بتهمة التعدي على ممتلكات الغير وهي جريمة عقوبتها قد تصل إلى السجن لمدة اثني عشر شهرًا وغرامة قدرها خمسمائة وخمسة وعشرون دولارًا، فما الذي كان شين كليبورن يخطط للقيام به وأثار مثل هذا الرد غير المسيحي؟ أراد كليبورن ومجموعة صغيرة، لكن صاخبة من الإنجيليين الليبراليين، الذهاب «إلى حيث تعيش المسيحية السامة»، معلنين اعتراضاتهم الأخلاقية واللاهوتية على دعم الأغلبية الإنجيلية

(١) مؤلف أمريكي، وكاتب افتتاحية، ومحاضر، ومؤرخ عسكري. عمل ككاتب ومحرر لمجلة كريستيان ساينس مونيتور ثم في صحيفة وول ستريت جورنال. (المترجم).

(٢) جيري فالويل: قس أمريكي مسيحي أصولي. وُلد في مدينة لينشبرج بولاية فيرجينيا، وأسس كنيسة توماس رود المعمدانية في لينشبرج، وكذلك جامعة ليبرتي، كما أسس منظمة الأغلبية الأخلاقية، وكانت لديه آراء متشددة في مواضيع مثل المثلية والإجهاض والعلمانية، كما كانت لديه مواقف مؤيدة لدولة إسرائيل ومعادية للإسلام، توفي في ١٥ مايو ٢٠١٧. (المترجم).

لدونالد ترامب، وأنهم غاضبون من أن كنيستهم تؤيد برنامج ترامب لترحيل المهاجرين، وتأجيج التوتر العنصري، والحد من المساعدة للفقراء، وتمرير تخفيض ضريبي للأغنياء، وقد حث كليبورن الجماهير التي حضرت خطبه قائلاً: «هناك إنجيل آخر في بلادنا الآن، وهو إنجيل ترامب، وهو لا يشبه إنجيل يسوع»، وقد ردد بن هاو -الذي نشأ في أسرة إنجيلية متشددة- هذا الشعور في كتابه «الأغلبية غير الأخلاقية: لماذا اختار الإنجيليون السلطة السياسية على القيم المسيحية»، وكتب: «نحن بحاجة إلى الاعتراف بأخطائنا وتغيير ثقافتنا المسيحية الفرعية، إذا أردنا أن يكون أولئك الذين ينظرون حاليًا إلى الإنجيليين على أنهم منافقون غير مقنعين، منفتحين على الاستماع إلينا مرة أخرى»، ولكن حتى الآن، لم يُظهر المسيحيون حرصًا على الارتقاء إلى مستوى هذا التحدي؛ ويبدو أنهم أكثر استعدادًا للتخلي عن مبادئهم لصالح دونالد ترامب من استعدادهم للعمل لكسب ثقة الجمهور المحبط^{٤٣}، ولم يرحب الإنجيليون المؤسسون بهؤلاء المنشقين، فلينشبورج هي مدينة الشركة حيث تعد جامعة لبرتي أكبر جهة توظيف، ولا أحد يريد تجاوز جيري فالويل الابن، وعندما ذهبت المراسلة لوري جودستين إلى لينشبورج لمقابلة القساوسة المحليين، قال معظم أولئك الذين دعموا المنشقين إنهم رغم ذلك سيظلون صامتين خوفًا من استياء رعاياهم والمخاطرة بوظائفهم، وقال لها أحد القساوسة: «الجميع خائفون، فهذه لغة قوية والجميع منتبهون تمامًا للطريقة التي يتحدثون بها وكيف يقدمون الحقيقة، فمن الصعب قول الحقيقة في سياق مثل لينشبورج»^{٤٤}.

ماريا كافري، عالمة المناخ التي عملت في مديرية الإشراف على الموارد الطبيعية والعلوم في مصلحة المتنزهات الوطنية، فقدت وظيفتها في نهاية المطاف لرفضها إخفاء الحقائق -الحقائق الواقعية، وليس الحقائق البديلة- التي تفسر أزمة تغير المناخ، وقد كتبت: «حاول كبار مسؤولي مصلحة المتنزهات الوطنية مرارًا وتكرارًا -وبقوة في كثير من الأحيان- إجباري على حذف الإشارات إلى الأسباب البشرية لأزمة المناخ، ولم يكن هذا تعديلًا تحريريًا عاديًا، ولكنه كان إنكارًا لعلم المناخ، وقد هددوا بإجراء عمليات الحذف من دون موافقتي إذا لم أوافق، أو نشر التقرير من دون تسمية المؤلف الرئيسي، أو عدم نشره بالكامل، وكان كل واحد من هذه الخيارات مدمرًا لمسيرتي المهنية وللنزاهة العلمية، ولكنني وقفت بثبات»^{٤٥}، ونجحت ماريا كافري في البداية في إيصال الكلمة إلى وسائل الإعلام وأعضاء الكونجرس، ونُشر تقريرها كما كتبه، إلا أن كبار المسؤولين في مصلحة المتنزهات الوطنية استمروا في الانتقام منها من خلال تخفيض أجرها، وتخفيض مستواها الوظيفي، وفي نهاية المطاف رفضوا تجديد تمويل المشاريع التي أنشأتها وكانت تعمل عليها، فنصحها زملاؤها بالاستقالة والتطوع، وهو ما فعلته، ولكن رُفض طلبها للعمل كمتطوعة.

لقد بذلت ماريا كافري قصارى جهدها وطُردت، ولكن معظمهم يمتنعون عن الكلام، ويجلسون القُرُفصاء ويحاولون القيام بعملهم بأفضل ما يمكنهم حتى يأتي الوقت الذي لا يستطيعون فيه العيش مع أنفسهم لفترة أطول، وقد وجد تشاك بارك -وهو موظف في وزارة

الخارجية الأمريكية، وابن لمهاجرين من كوريا الجنوبية - نفسه في حالة مستمرة من التنافر، «يكافح لكي يشرح للشعوب الأجنبية التناقضات الصارخة في الداخل»، وقد كتب في مقال افتتاحي أنه في كل يوم يجد صعوبة أكبر في رفض التأشيرات بناءً على أولويات الإدارة، وسرد النقاط التي تتحدث عنها الإدارة حول أمن الحدود، ودعم المعينين من قبل ترامب الذين دفعوا «أجندته السامة» في جميع أنحاء العالم، وفي مواجهة تنافره، أوضح عناصره المتضاربة: بصفته موظفًا في وزارة الخارجية، كان ملزمًا بأداء العمل «بما يرضي رئيس الولايات المتحدة» واتباع ما «يرضي» الإدارة وإلا فعليه أن يستقيل، وقال: «لقد تركت الامتيازات المهنية تُسكت ضميري، وسمحت للسكن المجاني، والعد التنازلي للحصول على معاش تقاعدي، وهيبة تمثيل دولة قوية في الخارج، أن تصرف انتباهي عن المثل التي بدت واضحة جدًا بالنسبة إليّ ذات يوم، وأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك بعد الآن، فابني المولود في إل باسو - نفس المدينة التي قُتل فيها ٢٢ شخصًا على يد مسلح ردد «بيانه» المزعوم نفس اللغة التحريضية لرئيسنا - قد بلغ ٧ سنوات هذا الشهر، ولم يعد بإمكانني أن أبرر له - أو لنفسي - تواطؤي مع تصرفات هذه الإدارة، ولهذا السبب اخترت الاستقالة»^{٤٦}.

وبالنسبة إلى البعض، مثل أول مُبلغ عن المخالفات في وكالة المخابرات المركزية والذي اتهم دونالد ترامب رسميًا بارتكاب مخالفات، فإن المخاطر المترتبة على حل التنافر بالانحياز إلى المبادئ والوطنية تكون أعلى، ويعرف علماء الاجتماع الذين درسوا

سيكولوجية الإبلاغ عن المخالفات مدى خطورة هذا الإجراء، وبينما يقول الأمريكيون إنهم يقدّرون شجاعة هؤلاء الموظفين النادرين الذين ينبهون الجمهور إلى انتهاكات السلامة والجرائم والسلوك غير الأخلاقي من جانب أصحاب العمل، فإن معظم المبلغين عن المخالفات ينتهي بهم الأمر إلى دفع ثمن باهظ، وغالبًا ما يخسرون وظائفهم وعائلاتهم وأصدقاءهم وأمنهم، ومع العلم بذلك، بالإضافة إلى معرفة مزاعم ترامب التي تولّد الخوف بأن المبلغين عن المخالفات يرتكبون «خيانة»، تصرف ضابط المخابرات الذي لم يذكر اسمه (حتى كتابة هذه السطور)، والذي اختار تقديم شكوى رسمية، على الرغم من أنه تم ضمن الإجراءات المنصوص عليها، بشجاعة هائلة.

وكذلك فعلت سفيرة الولايات المتحدة في أوكرانيا، المخلوعة ماري يوفانوفيتش -وهي من الخبراء المتمرسين في وزارة الخارجية لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا وخدمت في عهد ستة رؤساء جمهوريين وديمقراطيين- التي تحدثت أمر الإدارة بعدم المثل أمام لجنة إجراءات عزل الرئيس بمجلس النواب، وعلى الرغم من أن رؤساءها أخبروها أنها «لم ترتكب أي خطأ» -بل على العكس من ذلك، فقد أثبتت معرفتها وخبرتها بأوكرانيا أنها لا تقدر بثمن- فقد أراد دونالد ترامب إزاحتها لأن سياستها لمكافحة الفساد كانت تعرقل جهود المحامي الشخصي للرئيس رودولف جوليانى واثنين من شركائه في محاولة العثور على معلومات مسيئة لبايدن، (وُجّه الاتهام إلى الاثنين في وقت لاحق بانتهاك تمويل الحملات الانتخابية -من بين تهم أخرى-

وألقي القبض عليهما في أثناء صعودهما على متن رحلة دولية وهما يحملان تذاكر ذهاب فقط)، وقالت إن هؤلاء الرجال نقلوا ما أسمته «الأكاذيب السخيفة» عنها، كما قالت في بيانها أمام الكونجرس: «على الرغم من أنني أفهم أنني أدت عملي طبقاً لرغبة الرئيس، فإنني لا أصدق أن حكومة الولايات المتحدة اختارت عزل سفير بناءً على - ما أستطيع أن أقول إنه - ادعاءات كاذبة لا أساس لها من الصحة من قبل أشخاص لديهم دوافع مشكوك فيها بشكل واضح»، وحذرت من أن وزارة الخارجية «أصبحت مجوفة من الداخل»، ولن يأتي الضرر فقط من خلال الاستقالات الحتمية والمستمرة، وفقدان عديد من الموظفين العموميين الأكثر ولاءً وموهبة في هذه الأمة، ولكن سيأتي أيضاً عندما يواجه هؤلاء الدبلوماسيون الذين يبذلون قصارى جهدهم لتمثيل أمتنا شركاء في الخارج يتساءلون عما إذا كان السفير يتحدث حقاً نيابة عن الرئيس ويمكن الاعتماد عليه كشريك موثوق به، كما سيأتي الضرر عندما تتغلب المصالح الخاصة على الدبلوماسيين المحترفين لتحقيق مكاسب خاصة بهم وليس للمصالح العام^{٤٧}.

لقد فُتحت بوابات الفيضان، وسرعان ما أدلى موظفون حكوميون آخرون متميزون وذوو خبرة بشهاداتهم أمام لجنة الاستخبارات في مجلس النواب وأكدوا روايتها، وفعلوا هذا واحداً تلو الآخر بدافع من شعورهم بالواجب على حد قولهم.

لقد كان هذا كتابًا عن مدى صعوبة الاعتراف بأخطائنا والأهمية الحاسمة للقيام بذلك إذا كنا نأمل على الإطلاق في التعلم والتحسين، لقد ارتكب ملايين المواطنين خطأ فادحًا في انتخاب دونالد ترامب ثم دعمه، وبمجرد رحيله عن المشهد فإن تشوهات الذاكرة التي تتسامح مع الذات ستدفع عديدًا من مؤيديه السابقين إلى القول: «لم أصوّت له قط على أي حال»، أو «لطالما كانت لديّ شكوك بشأنه»، وعديد من خصومه السابقين سوف يتنفسون الصعداء ويقولون: «الحمد لله أن الأمر انتهى»، ولكن لا يمكننا أبدًا أن نشعر بالرضا عن النفس مرة أخرى، وعلينا جميعًا أن نقف ونتساءل: ماذا تعلمنا؟

لقد تعلمنا مدى هشاشة الديمقراطية، ومدى سهولة التذرع بالخوف والغضب للتلاعب بالجمهور، وتعلمنا أهمية التصويت، حتى لو كان ذلك يعني اختيار مرشح نعتبره أهون الشرين، وليس تفضيلنا المثالي الأصيل الأول، وتعلمنا أن الديمقراطية لا تقوم على قوانينها ومؤسساتها فحسب، بل أيضًا على معاييرها وقيمها، وعلى توافق آراء المواطنين على أن تلك المعايير والقيم تستحق التمسك بها، وتعلمنا أن مراعاة قواعد الكياسة واللياقة والدبلوماسية ليست علامة على ضعف الأمة بل هي علامة على قوتها.

لقد كسر دونالد ترامب قواعد ومعايير الديمقراطية بغطرسة صارخة، ولكن الليبراليين والمحافظين على حد سواء لاحظوا أنه بذلك أجبرنا على الانتباه إلى ضعف أمتنا وتحديد نوع البلد الذي نريد أن نكونه، فمن اليسار كتب ديفيد ريمنيك -محرر مجلة نيويورك ركر:

«من المحتمل تمامًا أن يكون دونالد ترامب، الذي كان شخصية مدمرة على الساحة العامة، قد قدم على الأقل خدمة غير مقصودة للبلاد من خلال توضيح بعض أعماق عيوبنا والمخاطر التي تلوح في الأفق في ضوءه البشع الفريد»^{٤٨}، ومن اليمين كتب الجنرال جيم ماتيس -وزير الدفاع السابق لترامب- أن: «جميع الأمريكيين بحاجة إلى إدراك أن ديمقراطيتنا هي تجربة يمكن أن تنتكس، ونعلم جميعًا أننا أفضل من سياستنا الحالية، وأنه يجب ألا يُسمح للقبلية بتدمير تجربتنا»^{٤٩}.

في التحليل النهائي، لن يجد الجمهوريون والديمقراطيون والمستقلون -الذين يخشون عواقب ما فعله ترامب بالنسيج الأخلاقي لبلدنا- الطريق إلى الأمام واضحًا أو سهلاً، فقد سئم الناس من الجدل مع أصهارهم -وكثير منهم متعبون- ولكن هناك كثيرًا على المحك للإعراض عن المشاركة، ومن خلال فهم الآليات التي تُبقي الناس متشبثين بمبرراتهم الأولية للقرار، يمكن للمواطنين -ببصيرة واستعداد للاعتراف بالخطأ- إعادة بلدنا إلى المسار الصحيح. إن دونالد ترامب لا يتعلم من أخطائه، ولكننا لا نزال نأمل أن نستطيع أمتنا التعلم من أخطائها.

شكر وتقدير

لقد قررنا تسلسل القيام بتأليف هذا الكتاب من خلال رمي عملة معدنية في الهواء؛ وكان هذا التعاون المتوازن، ومع ذلك، فمن البداية إلى النهاية، كان كل واحد منا يعتقد اعتقادًا راسخًا أنه يعمل مع المؤلف المشارك الأكثر موهبة، ولهذا نريد في البداية أن يشكر بعضنا بعضًا لجعل هذا المشروع مشروعًا للتشجيع والتعلم المتبادلين والمرح.

لقد استفاد كتابنا من القراءات المتأنية والنقدية من قبل زملاء متخصصين في مجالات الذاكرة والقانون وعلاج الأزواج والأعمال التجارية والأبحاث والممارسة السريرية، ونود بشكل خاص أن نشكر الزملاء التاليين على تقييمهم الدقيق للفصول في مجالات خبرتهم، وعلى الاقتراحات العديدة الممتازة التي قدموها لنا: أندرو كريستنسن، وديورا ديفيس، وجيرالد دافيسون، وماريان جاري، وصامويل جروس، وبروس هاي، وبراد هيل، وريتشارد ليو، وسكوت ليلينفيلد، وإليزابيث لوفتوس، وأندرو مكلورج، وديفون بولاشيك، ودونالد سابوسنك، وليونور تيفر، بالإضافة إلى هؤلاء فإننا نقدر التعليقات والأفكار والقصص والأبحاث والمعلومات الأخرى التي قدمها جي جي كوهن،

وجوزيف دي ريفيرا، ورالف هابر، وروبرت كاردون، وسول كاسين،
وبيرت نانوس، ودييرا بول، وأنطوني براتكانيس، وهولي ستوكينج،
ومايكل زاجور، ونتوجه بالشكر أيضًا إلى ديورا كادي وكاريل ماكولي
على مساعدتهما التحريرية.

لقد كان المحررون وفريق الإنتاج لدينا رائعين دائمًا، وفي الطبعة
الأصلية شكرنا جين إيساي، المحررة المكلفة لدينا التي غدت قصصها
وأفكارها هذا الكتاب، والتي ظلت داعمة ومستشارة قوية للمراجعات
اللاحقة، والمحررة المشرفة جينا جونسون، ومدير التحرير ديفيد هوج،
ومارجريت جونز، على التحرير الاستثنائي وتدقيق الحقائق، أما بالنسبة
إلى الطبعة المحدثة، فقد أضفنا شكرنا وتقديرنا لمدير التحرير كين
كاربنتر، ومصمم الكتاب كريستوفر مويسان، وجريتا سييلي، وكريسي
كوربيسكي، ومحررنا المباشر تيم مودي، ومحررة النسخ الشامل والبارع
تريسي رو التي خلقت قدرًا معيّنًا من التنافر فينا من خلال اكتشاف أخطاء
أكثر مما كان ينبغي أن نرتكبها، والحمد لله أنها لم تشعر بالملل منا،
وكانت على استعداد لمرافقتنا في هذا الإصدار الأخير بدقة ملاحظاتها
المعتادة، وملاحظاتها الساخرة، واقتراحاتها المفيدة.

بالنسبة إلى هذه الطبعة نود أيضًا أن نعرب عن امتناننا لمديرة
التحرير نيكول أنجيلورو، لمنحنا الفرصة لتحديث هذا الكتاب للتعامل
مع القضايا المهمة في عصرنا، ولكبيرة محرري الإنتاج ليزا جلوفر
لرعايتها الصبورة والدقيقة للكتاب من خلال برنامج إنتاج مضغوط،
وإميلي سنايدر لمطابقة تصميم الكتاب بشكل خلاق مع تحديثه،

ومايكل دودينج للتعامل بخبرة مع تسويق كتابنا لقراء متنوعين، ولبقية فريق الإنتاج الممتاز في مارينر بوكس.

ترغب كارول في الاحتفاء بذكرى رونان أوكيسي على حبه ودعمه خلال سنواتهما العديدة معاً؛ ويعرب إليوت بالطبع عن حبه وشكره لفيرا أرونسون، وقد ارتكبنا أخطاء في حياتنا، لكن ليس من بينها اختيار شريك الحياة.

- كارول تافريس وإليوت أرونسون

الملاحظات^(١)

قبل أن نصبح كُتَّابًا بوقت طويل كنا قراءً، وكثيرًا ما وجدنا كقراء الملاحظات بمثابة تدخُّل غير مرحب به في تدفق القصة، فعادة ما يكون من المؤلم أن تلجأ دائمًا إلى الجزء الخلفي من الكتاب لمعرفة مصدر المؤلف لبعض الأفكار أو النتائج البحثية المقنعة (أو المنافية للعقل)، ولكن في كثير من الأحيان كانت هناك حلولى -تعليق شخصي، أو استطراد مثير للاهتمام، أو قصة جيدة، وقد استمتعنا بتجميع هذه الملاحظات، واستغلال الفرصة للإشارة إلى النقاط التي ذكرناها في فصول الكتاب وفي بعض الأحيان توسيعها، ويوجد هنا بعض الحلولى أيضًا.

(١) يحتوي هذا الجزء على ملاحظات الكاتبين في فصول الكتاب المختلفة والتي تضمنت استطرادًا في عرض بعض الأفكار أو توسيعها، كما يحتوي أيضًا على المراجع المستخدمة كمصادر لبعض الأفكار أو الاقتباسات، وكان من المهم ترجمة كل ما ورد في هذا الجزء باعتباره مكملًا لما ورد في الكتاب، باستثناء المراجع التي تقرر الإبقاء عليها كما هي فلا معنى أو فائدة لترجمتها. (المترجم).

مقدمة

١. كتبت صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٦: «وكالات التجسس تقول إن حرب العراق تزيد من خطر الإرهاب»، ونشر التعليق على كُتَّاب الأعمدة المحافظين من قبل أحدهم -ماكس بوت- في صحيفة لوس أنجلوس تايمز بتاريخ ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٦ بعنوان «لا مجال للشك في المكتب البيضاوي»، وللحصول على سرد تفصيلي لادعاءات جورج بوش للجمهور بشأن الحرب في العراق، انظر:

Frank Rich, The Greatest Story Ever Sold: The Decline and Fall of Truth from 9/11 to Katrina (New York: Penguin, 2006).

وقد أقر بوش في خطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه في يناير ٢٠٠٧، بأنه «حيثما ارتُكبت أخطاء» في بعض التكتيكات المستخدمة في إدارة الحرب فإنه كان مسؤولاً عنها، ولكنه أكد أنه لن تكون هناك تغييرات كبيرة في الاستراتيجية، بل على العكس فإنه سيزيد عدد القوات ويستثمر مزيداً من الأموال في الحرب، وقد رسم كبار أعضاء إدارة بوش -في مذكراتهم- صورة لبوش ودائرته الداخلية كأشخاص يدفعهم اليقين و«تفكير القطيع»، وجرى تجاهل أي شخص قدم حقائق غير مرحب بها أو خُفضت رتبته أو فصل من عمله، انظر على سبيل المثال كُتب:

Dead Certain: The Presidency of George W Bush (New York: Free Press, 2007);

Jack Goldsmith, The Terror Presidency: Law and Judgment Inside the Bush Administration (New York: W. W. Norton, 2007);

Michael J. Mazarr, Leaf of Faith: Hubris, Negligence, and Americans Greatest Foreign Policy Tragedy (New York: PublicAffairs, 2019).

وكتب مايكل مزار أنه في غضون يوم واحد من أحداث ١١ سبتمبر، كان قرار الإطاحة بصدام حسين «موقعاً عليه ومحفوظاً».

٢. يقدم مشروع الرئاسة الأمريكية^(١) (عبر الإنترنت)، قائمة طويلة من أمثلة موثقة لكل حالة من حالات التي قال فيها الرؤساء الأمريكيون إن «أخطاء ارتُكِت»، وقد قال بيل كلينتون إن «أخطاء ارتُكِت» في السعي للحصول على مساهمات في الحملة الانتخابية للديمقراطيين ومازح في وقت لاحق حول شعبية هذه العبارة وتركيبها المبني للمجهول في عشاء المراسلين الصحفيين للبيت الأبيض، ومن بين جميع الرؤساء، استخدم ريتشارد نيكسون ورونالد ريغان العبارة أكثر من غيرهما، فاستخدمها الأول لتقليل الأعمال غير القانونية لفضيحة ووترجيت، واستخدمها الأخير لتقليل الأعمال غير القانونية لفضيحة إيران كونترا، انظر أيضًا مقال تشارلز باكستر البليغ:

“Dysfunctional Narratives, or: ‘Mistakes Were Made,’” in Charles Baxter, *Burning Down the House: Essays on Fiction* (Saint Paul, MN: Graywolf Press, 1997).

3. Gordon Marino, «Before Teaching Ethics, Stop Kidding Yourself» *Chronicle of Higher Education* (February 20, 2004): B5.

٤. حول التحيز الذي يخدم الذات في الذاكرة (ودراسة الأعمال المنزلية على وجه الخصوص)، انظر:

Michael Ross and Fiore Sicoly, «Egocentric Biases in Availability and Attribution» *Journal of Personality and Social Psychology* 37 (1979): 322—36.

وانظر أيضًا:

Suzanne C. Thompson and Harold H. Kelley, «Judgments of Responsibility for Activities in Close Relationships,» *Journal of Personality and Social Psychology* 41 (1981): 469-77.

5. John Dean, interview by Barbara Cady, *Playboy*, January 1975, 78.

6. Robert A. Caro, *Master of the Senate: The Years of Lyndon Johnson* (New York: Knopf, 2002), 886.

7. Katherine S. Mangan, «A Brush with a New Life,» *Chronicle of Higher Education* (April 2005): A28-A30.

(١) www.presidency.ucsb.edu/ws/index.php

8. Sherwin Nuland, *The Doctors' Plague: Germs, Childbed Fever, and the Strange Story of Ignác Semmelweis* (New York: Norton, 2003).
9. Ferdinand Lundberg and Marynia F. Farnham, *Modern Woman: The Lost Sex* (New York: Harper and Brothers, 1947), 11,120.
10. Edward Humes, *Mean Justice* (New York: Pocket Books, 1999).

١ - التناظر المعرفي: محرك تبرير الذات

1. Press releases from Neal Chase, representing the religious group Baha'is Under the Provisions of the Covenant, in «The End Is Nearish,” Harper's, February 1995, 22, 24.
2. Leon Festinger, Henry W. Riecken, and Stanley Schachter, *When Prophecy Fails* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1956).
3. O. Fotuhi et al., «Patterns of Cognitive Dissonance-Reducing Beliefs Among Smokers: A Longitudinal Analysis from the International Tobacco Control (ITC) Four Country Survey” *Tobacco Control: An International Journal* 22 (2013): 52-58; and F. Naughton, H. Eborall, and S. Sutton, «Dissonance and Disengagement in Pregnant Smokers,” *Journal of Smoking Cessation* 8 (2012): 24-32.
4. Leon Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957). See also Leon Festinger and Elliot Aronson, «Arousal and Reduction of Dissonance in Social Contexts,” in *Group Dynamics*, eds. D. Cartwright and Z. Zander (New York: Harper and Row, 1960—61); and Eddie Harmon-Jones and Judson Mills, eds., *Cognitive Dissonance: Progress on a Pivotal Theory in Social Psychology* (Washington, DC: American Psychological Association, 1999).
5. Elliot Aronson and Judson Mills, «The Effect of Severity of Initiation on Liking for a Group” *Journal of Abnormal and Social Psychology* 59 (1959): 177-81.
6. Elarold Gerard and Grover Mathewson, «The Effects of Severity of

- Initiation on Liking for a Group: A Replication» *Journal of Experimental Social Psychology* 2 (1966): 278-87.
7. Dimitris Xygalatas et al., «Extreme Rituals Promote Prosociality,” *Psychological Science* 24 (2013): 1602-5.
 8. Many cognitive psychologists and other scientists have written about the confirmation bias. See Thomas Kida, *Don’t Believe Everything You Think* (Amherst, NY: Prometheus Press, 2006), and Raymond S. Nickerson, «Confirmation Bias: A Ubiquitous Phenomenon in Many Guises,” *Review of General Psychology* 2 (1998): 175-220.
 9. Claudia Fritz et al., «Soloist Evaluations of Six Old Italian and Six New Violins,” *Proceedings of the National Academy of Sciences* 111 (2014): 7224–29, doi: 10.1073/pnas.1323367111.
 10. Adrian Cho, «Million-Dollar Strads Fall to Modern Violins in Blind ‘Sound Check,’” *ScienceMag.org*, May 9, 2017.
 11. I.cnnny Bruce, *How to Talk Dirty and Influence People* (Chicago: Playboy Press, 1966), 232—33.
 12. Steven Kull, director of the Program on International Policy Attitudes (PIPA) at the University of Maryland, commenting on the results of the PIPA/Knowledge Networks poll «Many Americans Unaware WMD Have Not Been Found,” June 14, 2003.
 13. Gary C. Jacobson, «Perception, Memory, and Partisan Polarization on the Iraq War,” *Political Science Quarterly* 125 (Spring 2010): 1-26. See also his paper «Referendum: The 2006 Midterm Congressional Elections,” *Political Science Quarterly* 122 (Spring 2007): 1-24.
 14. Drew Westen et al., «The Neural Basis of Motivated Reasoning: An fMRI Study of Emotional Constraints on Political Judgment During the U.S. Presidential Election of 2004” *Journal of Cognitive Neuroscience* 18 (2006): 1947—58.

١٥. بالنسبة إلى القراء المهتمين بعلم أعصاب التنافر، يمكن أيضًا الرجوع إلى:

Eddie Harmon-Jones, Cindy Harmon-Jones, and David M. Amodio,

«A Neuroscientific Perspective on Dissonance, Guided by the Action-Based Model,” in *Cognitive Consistency: A Fundamental Principle in Social Cognition*, eds. B. Gawronski and R. Strack (New York: Guilford, 2011), 47-65; and S. Kitayama et al., «Neural Mechanisms of Dissonance: An fMRI Investigation of Choice Justification,” *Neuroimage* 69 (1015): 106-11.

16. Charles Lord, Lee Ross, and Mark Lepper, «Biased Assimilation and Attitude Polarization: The Effects of Prior Theories on Subsequently Considered Evidence” *Journal of Personality and Social Psychology* 37 (1979): 1098—1109.
17. Brendan Nyhan and Jason Reifler, «When Corrections Fail: The Persistence of Political Misperceptions,” *Political Behavior* 31 (1010): 303-30; Stephan Lewandowsky et al., «Misinformation and Its Correction: Continued Influence and Successful Debiasing,” *Psychological Science in the Public Interest* 13 (2012): 106-31.
18. Doris Kearns Goodwin, *No Ordinary Time* (New York: Simon and Schuster, 1994), 311. (Emphasis in original.)

١٩. في واحدة من أوائل براهين الحد من التنافر التالي لاتخاذ القرار، تظاهر جاك بريم بأنه باحث تسويق، وعرض على مجموعة من النساء ثمانية أجهزة مختلفة (آلة تحميص خبز، وآلة صنع القهوة، وشواية شطائر، وما شابه) وطلب منهن تقييم كل عنصر من حيث المرغوبية، ثم أخبر بريم كل امرأة أنه يمكنها الحصول على أحد الأجهزة كهدية، وأعطاهما الاختيار بين اثنين من المنتجات التي صنفتهما على أنها مرغوبة بنفس القدر، وبعد أن اختارت واحدة لفها وأعطاهما لها، وفي وقت لاحق قيّمت النساء الأجهزة مرة أخرى، وفي هذه المرة رفعن تصنيفهن للجهاز الذي اخترته وخفضن تصنيفهن للجهاز الذي رفضته، ارجع إلى:

Jack Brehm, «Postdecision Changes in the Desirability of Alternatives,” *Journal of Abnormal and Social Psychology* 51 (1956): 384-89.

20. Robert E. Knox and James A. Inkster, «Postdecision Dissonance at Post Time,” *Journal of Personality and Social Psychology* 8 (1968): 319-

23. There have been many replications of the finding that the more permanent and less revocable the decision, the stronger the need to reduce dissonance. See Lottie Bullens et al., «Reversible Decisions: The Grass Isn't Merely Greener on the Other Side; It's Also Very Brown Over Here» *Journal of Experimental Social Psychology* 49 (2013): 1093-99.
21. Katherine S. Mangan, «A Brush with a New Life,” *Chronicle of Higher Education* (April 2005): A28-A30.
22. Brad J. Bushman, «Does Venting Anger Feed or Extinguish the Flame? Catharsis, Rumination, Distraction, Anger, and Aggressive Responding,” *Personality and Social Psychology Bulletin* 28 (2002): 724-31; Brad J. Bushman et al., «Chewing on It Can Chew You Up: Effects of Rumination on Triggered Displaced Aggression» *Journal of Personality and Social Psychology* 88 (2002): 969-83. The history of research disputing the assumption of catharsis is summarized in Carol Tavris, *Anger: The Misunderstood Emotion* (New York: Simon and Schuster, 1989).
23. Michael Kahn's original study was «The Physiology of Catharsis,” *Journal of Personality and Social Psychology* 3 (1966): 78-98. For another early classic, see Leonard Berkowitz, James A. Green, and Jacqueline R. Macaulay, «Hostility Catharsis as the Reduction of Emotional Tension” *Psychiatry* 25 (1962): 23-31.
24. Jon Jecker and David Landy, «Liking a Person as a Function of Doing Him a Favor” *Human Relations* 22 (1969): 371-78.
25. Nadia Chernyak and Tamar Kushnir, «Giving Preschoolers Choice Increases Sharing Behavior” *Psychological Science* 24 (2013): 1971—79.
26. Benjamin Franklin, *The Autobiography of Benjamin Franklin* (New York: Touchstone, 2004), 83-84.

27. Ruth Thibodeau and Elliot Aronson, «Taking a Closer Look: Reasserting the Role of the Self-Concept in Dissonance Theory” Personality and Social Psychology Bulletin 18 (1992): 591-602.

28. Jonathon D. Brown, «Understanding the Better than Average Effect: Motives (Still) Matter,” Personality and Social Psychology Bulletin 38 (2012): 209-19. Brown showed in a series of experiments that the «I’m better than average” effect increases after a person experiences a threat to his or her self-worth.

٢٩. هناك أدبيات بحثية كبيرة وحيوية حول التحيز لخدمة الذات، والميل إلى تصديق أفضل ما في أنفسنا وشرح الأسوأ، وهو تحيز ثابت بشكل ملحوظ في الإدراك البشري رغم وجود اختلافات مثيرة للاهتمام عبر الثقافات والأعمار والأجناس. انظر:

Amy Mezulis et al., «Is There a Universal Positivity Bias in Attributions? A Meta-Analytic Review of Individual, Developmental, and Cultural Differences in the Self-Serving Attributional Bias”, Psychological Bulletin 130 (2004): 711-47; and Keith E. Stanovich et al., «Myside Bias, Rational Thinking, and Intelligence,” Psychological Science 22 (2013): 259-64.

30. Philip E. Tetlock, Expert Political Judgment: How Good Is It? How Can We Know? (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005).

الصورة هي نفسها في علم النفس الإكلينيكي، فهناك أدبيات علمية واسعة الانتشار تُظهر أن المقاييس السلوكية والإحصائية وغيرها من المقاييس الموضوعية للسلوك تتفوق باستمرار على رؤية الخبراء وتنبؤاتهم وتشخيصاتهم السريرية. انظر أيضًا:

Robin Dawes, David Faust, and Paul E. Meehl, «Clinical Versus Actuarial Judgment,” Science 243 (1989): 1668-74; W. M. Grove and Paul E. Meehl, «Comparative Efficiency of Formal (Mechanical, Algorithmic) and Informal (Subjective, Impressionistic) Prediction Procedures: The Clinical/ Statistical Controversy”, Psychology, Public

Policy, and Law 2 (1996): 293-323; and Daniel Kahneman, «The Surety of Fools,” New York Times Magazine, October 23, 2011.

31. Josh Barro, «The Upshot: Sticking to Their Story: Inflation Hawks’ Views Are Independent of Actual Monetary Outcomes”, New York Times, October 2, 2014.

32. Elliot Aronson and J. Merrill Carlsmith, «Performance Expectancy as a Determinant of Actual Performance”, Journal of Abnormal and Social Psychology 65 (1962): 178-82. See also William B. Swann Jr., «To Be Adored or to Be Known? The Interplay of Self-Enhancement and Self-Verification,” in Motivation and Cognition, eds. R. M. Sorrentino and E. T. Higgins (New York: Guilford, 1990); and William B. Swann Jr., J. Gregory Hixon, and Chris de la Ronde, «Embracing the Bitter ‘Truth: Negative Self-Concepts and Marital Commitment,” Psychological Science 3 (1992): 118-21.

٣٣. نحن لا نخمن هنا مكتوفي الأيدي، ففي تجربة كلاسيكية أُجريت قبل نصف قرن قاس عالم النفس الاجتماعي جودسون ميلز مواقف أطفال الصف السادس تجاه الغش، ثم جعلهم يشاركون في امتحان تنافسي مع تقديم جوائز للفائزين، ورتب الموقف بحيث يكاد يكون من المستحيل على الطفل الفوز من دون غش وأيضاً بحيث يعتقد الأطفال أنه يمكنهم الغش من دون أن يُكتشفوا (إلا أنه كان يراقبهم بسرية)، ومن ثم غشّ نحو نصف الأطفال والنصف الآخر لم يفعل، وفي اليوم التالي سأل ميلز الأطفال مرة أخرى عن شعورهم حيال الغش، فوجد أن الأطفال الذين غشوا أصبحوا أكثر تساهلاً تجاه الغش، وأولئك الذين قاوموا الإغراء تبنا موقفاً أكثر تشدداً. انظر:

Judson Mills, «Changes in Moral Attitudes Following Temptation,” Journal of Personality 26 (1958): 517-31.

34. Vivian Yee, «Elite School Students Describe the How and Why of Cheating”, New York Times, September 26, 2012; Jenna Wortham, «The Unrepentant Boodegger”, New York Times, September 27, 2014.

35. Jeb Stuart Magruder, *An American Life: One Mans Road to Watergate* (New York: Atheneum, 1974), 4, 7.

36. Ibid., 194-95.114-15-

٣٧. عدد المشاركين الإجمالي هو تقدير مستنير من عالم النفس توماس بلاس، الذي كتب على نطاق واسع عن تجربة ميلجرام الأصلية وعديد من الدراسات اللاحقة، وقد شارك قرابة ثمانمائة شخص في تجارب ميلجرام الخاصة، أما البقية فقد كانت نسخًا مماثلة أو أشكالًا مختلفة من النموذج الأساسي على مدى خمسة وعشرين عامًا.

38. The original study is described in Stanley Milgram, «Behavioral Study of Obedience” *Journal of Abnormal and Social Psychology* 67 (1963): 371-78. Milgram reported his study in greater detail and with additional supporting research, including many replications, in his subsequent book, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper and Row, 1974).

٣٩. وُصفت الدراسة الأصلية في مقالة:

Stanley Milgram, «Behavioral Study of Obedience” *Journal of Abnormal and Social Psychology* 67 (1963): 371-78.

وأبلغ ميلجرام عن دراسته بمزيد من التفصيل ومع أبحاث داعمة إضافية، بما في ذلك عديد من النسخ المتماثلة، في كتابه اللاحق:

Obedience to Authority: An Experimental View (New York: Harper and Row, 1974).

40. William Safire, «Aesop’s Fabled Fox”, *New York Times*, December 29, 2003.

٢- الغرور والإجحاف... وغيرهما من البقع العمياء

1. James Bruggers, «Brain Damage Blamed on Solvent Use,” *Louisville Courier-Journal*, May 13, 2001; James Bruggers, «Researchers’ Ties to CSX Raise Concerns,” *Courier-Journal*, October 20, 2001; Carol Tavis, «The High Cost of Skepticism,” *Skeptical Inquirer* (July/August, 2002):

42-44; Stanley Berent, «Response to ‘The High Cost of Skepticism,’”
Skeptical Inquirer (November/December 2002), 61, 63, 64-65.

في ١٢ فبراير ٢٠٠٣، كتب مكتب حماية البحوث البشرية إلى نائب الرئيس للأبحاث في جامعة ميتشيجان مشيرًا إلى أن مجلس المراجعة المؤسسية بالجامعة -الذي كان يرأسه ستانلي بيرنت- قد «فشل في توثيق المعايير المحددة للتنازل عن الموافقة المستنيرة» لأبحاث بيرنت وأبرز، كما وُصفت حالة CSX وترتيباتها مع ستانلي بيرنت وجيمس ألبرز وتضارب المصالح بينهما بعمق في مقالة:

Sheldon Krinsky, *Science in the Private Interest* (Lanham, MD: Rowman and Littlefield, 2003), 152-53.

2. Joyce Ehrlinger, Thomas Gilovich, and Lee Ross, «Peering into the Bias Blind Spot: People’s Assessments of Bias in Themselves and Others,” *Personality and Social Psychology Bulletin* 31 (2005): 680-92; Emily Pronin, Daniel Y. Lin, and Lee Ross, «The Bias Blind Spot: Perceptions of Bias in Self versus Others” *Personality and Social Psychology Bulletin* 28 (2002): 369-81.

تسمح لنا نقاطنا العمياء أيضًا برؤية أنفسنا على أننا أكثر ذكاء وكفاءة من معظم الناس، وهذا هو السبب في أننا جميعًا نشعر أننا فوق المتوسط، انظر:

David Dunning et al., «Why People Fail to Recognize Their Own Incompetence” *Current Directions in Psychological Science* 12 (2003): 83-87, and Joyce Ehrlinger et al., «Why the Unskilled Are Unaware: Further Explorations of (Absent) Self-Insight Among the Incompetent” *Organizational Behavior and Human Decision Processes* 105 (2008): 98-121.

3. Quoted in Eric Jaffe, «Peace in the Middle East May Be Impossible: Lee D. Ross on Naive Realism and Conflict Resolution,” *American Psychological Society Observer* 17 (2004): 9-11.
4. Geoffrey L. Cohen, «Party over Policy: The Dominating Impact of Group Influence on Political Beliefs,” *Journal of Personality and Social Psychology* 85 (2003): 808-22.

انظر أيضًا:

Donald Green, Bradley Palmquist, and Eric Schickler, *Partisan Hearts and Minds: Political Parties and the Social Identities of Voters* (New Haven, CT: Yale University Press, 2002).

يوضح هذا الكتاب كيف أنه بمجرد أن يشكّل الناس هوية سياسية -عادة في مرحلة البلوغ- فإن الهوية نيابة عنهم؛ أي أن معظم الناس لا يختارون حزبًا لأنه يعكس وجهات نظرهم، بل بمجرد اختيارهم للحزب تصبح سياساته هي وجهات نظرهم.

5. Lee Epstein, Christopher M. Parker, and Jeffrey A. Segal, «Do Justices Defend the Speech They Hate?» paper presented at the 2013 annual meeting of the American Political Science Association, <http://ssrn.com/abstract=2300572>.

6. Emily Pronin, Thomas Gilovich, and Lee Ross, «Objectivity in the Eye of the Beholder: Divergent Perceptions of Bias in Self versus Others» *Psychological Review* 111 (2004): 781-99.

٧. عندما يكون الامتياز بسبب المولد أو بسبب نصيب آخر من الحظ بدلًا من الجدارة، فإن عديدًا من حائزيه سوف يبررون ذلك على أنه مكتسب، وقد درس كان جون جوست وزملاؤه عمليات تبرير النظام، وهو حافز سيكولوجي للدفاع عن الوضع الراهن وتبريره. انظر، على سبيل المثال:

John Jost and Orsolya Hunyady, «Antecedents and Consequences of System-Justifying Ideologies,” *Current Directions in Psychological Science* 14 (2005): 260-65.

وإحدى هذه الأيديولوجيات التي تبرر النظام هي أن الفقراء قد يكونون فقراء لكنهم أكثر سعادة وصدقًا من الأغنياء، انظر:

Aaron C. Kay and John T. Jost, «Complementary Justice: Effects of 'Poor but Happy' and 'Poor but Honest' Stereotype Exemplars on System Justification and Implicit Activation of the Justice Motive”, *Journal of Personality and Social Psychology* 85 (2003): 823-37.

انظر أيضًا:

Stephanie M. Wildman, ed., *Privilege Revealed: How Invisible Preference Undermines America* (New York: New York University Press, 1996).

8. D. Michael Risinger and Jeffrey L. Loop, «Three Card Monte, Monty Hall, Modus Operandi and ‘Offender Profiling’: Some Lessons of Modern Cognitive Science for the Law of Evidence” Cardozo Law Review 24 (November 2002): 193.
9. Dorothy Samuels, «Tripping Up on Trips: Judges Love Junkets as Much as Tom DeLay Does” New York Times, January 20, 2006.
10. Melody Petersen, «A Conversation with Sheldon Krimsky: Uncoupling Campus and Company” New York Times, September 23, 2003. Krimsky also recounted the Jonas Salk remark.
11. Krimsky, Science in the Private Interest; Sheila Slaughter and Larry L. Leslie, Academic Capitalism (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1997); Derek Bok, Universities in the Marketplace: The Commercialization of Higher Education (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2003); Marcia Angell, The Truth about the Drug Companies (New York: Random House, 2004); and Jerome P. Kassirer, On the Take: How Medicine’s Complicity with Big Business Can Endanger Your Health (New York: Oxford University Press, 2005).
12. National Institutes of Health Care Management Research and Educational Foundation, «Changing Patterns of Pharmaceutical Innovation,” cited in Jason Dana and George Loewenstein, «A Social Science Perspective on Gifts to Physicians from Industry» Journal of the American Medical Association 290 (2003): 252-55.
١٣. فاز الصحفي الاستقصائي ديفيد ويلمان بجائزة بوليتزر عن سلسلته حول تضارب المصالح في جلب أدوية جديدة إلى السوق، وشملت المقاليتين التاليتين:
 «Scientists Who Judged Pill Safety Received Fees,” Los Angeles Times, October 29, 1999; and «The New FDA: How a New Policy Led to Seven Deadly Drugs”, Los Angeles Times, December 20, 2000.
14. Nicholas S. Downing et al., «Postmarket Safety Events among Novel Therapeutics Approved by the US Food and Drug Administration between 2001 and 2010» Journal of the American Medical Association

317 (2017): 1854-63.

15. Daniel C. Murrie et al., «Are Forensic Experts Biased by the Side That Retained Them?» *Psychological Science* 24 (2013): 1889-97.
16. Dan Fagin and Marianne Lavelle, *Toxic Deception* (Secaucus, NJ: Carol Publishing, 1996).
17. Richard A. Davidson, «Source of Funding and Outcome of Clinical Trials» *Journal of General Internal Medicine* 1 (May/June 1986): 155-58.
18. Lise L. Kjaergard and Bodil Als-Nielsen, «Association Between Competing Interests and Authors' Conclusions: Epidemiological Study of Randomised Clinical Trials Published In BMJ» *British Medical Journal* 325 (August 3, 1002): 149-51. See also Krinsky, *Science in the Private Interest*, chapter 9, for a review of these and similar studies.
19. t9. Alex Berenson et al., «Dangerous Data: Despite Warnings, Drug Giant Took Long Path to Vioxx Recall», *New York Times*, November 14, 1004.
20. Richard Horton, «The Lessons of MMR», *Lancet* 363 (2004): 747-49.
21. Andrew J. Wakefield, Peter Harvey, and John Linnell, «MMR- Responding to Retraction», *Lancet* 363 (2004): 1327-28.

٢٢. اثنان من أفضل الكتب حول هذا الموضوع، هما:

Paul Offit, *Deadly Choices: How the Anti-Vaccine Movement Threatens Us All* (New York: Basic Books, 2006), and Seth Mnookin, *The Panic Virus: The True Story Behind the Vaccine-Autism Controversy* (New York: Simon and Schuster, 2012).

وقد استخدم التيميروسال (تهجئة مختلفة تيميروسول وتيميرسيرول) بشكل شائع منذ ثلاثينيات القرن العشرين كمادة حافظة في اللقاحات وعديد من المنتجات المنزلية مثل مستحضرات التجميل وقطرات العين، ويؤكد مناهضو التطعيم أن الزئبق الموجود في هذه المادة الحافظة له تأثيرات سامة تسبب التوحد وأمراضًا

أخرى، إلا أن حججهم استندت إلى حد كبير على الحكايات والمخاوف المبالغ فيها والادعاءات غير المدعومة والأبحاث المضادة للقاحات التي أجراها مارك جير، وديفيد جير وهو رئيس شركة متخصصة في التقاضي نيابة عن المطالبين المزعومين بإصابات اللقاح، أما بالنسبة إلى البحث، ففي دراسة أجريت على جميع الأطفال المولودين في الدنمارك بين عامي ١٩٩١ و١٩٩٨ (أكثر من نصف مليون)، كان معدل الإصابة بالتوحد لدى الأطفال الذين تم تطعيمهم في الواقع أقل قليلاً منه في الأطفال غير الملقحين، انظر:

Kreesten M. Madsen et al., «A Population- Based Study of Measles, Mumps, and Rubella Vaccination and Autism,” New England Journal of Medicine 347 (2002): 1477-82.

وعلاوة على ذلك، وبعد إزالة اللقاحات المحتوية على الشيميروسال من السوق في الدنمارك، لم يحدث انخفاض لاحق في حالات الإصابة بالتوحد، انظر:

Kreesten M. Madsen et al., «Thimerosal and the Occurrence of Autism: Negative Ecological Evidence from Danish Population-Based Data,” Pediatrics in (2005): 604-6.

See also L. Smeeth et al., «MMR Vaccination and Pervasive Developmental Disorders: A Case-Control Study,” Lancet 364 (2004): 963-69.

مراجعة جيدة أخرى للقضايا والدراسات موجودة في:

Nick Paumgarten, «The Message of Measles,” New Yorker, September 2, 2019.

23. Willem G. van Panhuis et al., «Contagious Diseases in the United States from 1888 to the Present « New England Journal of Medicine 369 (November 28, 2013): 2152-58; Paul A. Offit, Do You Believe in Magic? The Sense and Nonsense of Alternative Medicine (New York: HarperCollins, 2013), 139.

24. Brendan Nyhan et al., «Effective Messages in Vaccine Promotion: A Randomized Trial”, Pediatrics, March 3, 2014, doi:10.1542/peds.2013-2365.

في دراستهم للأشخاص الذين لن يحصلوا على لقاحات الإنفلونزا اعتقاد خاطئ

بأن التطعيم يمكن أن يصيبهم بالإنفلونزا، انظر:

Brendan Nyhan and Jason Reifler, «Does Correcting Myths about the Flu Vaccine Work? An Experimental Evaluation of the Effects of Corrective Information», Vaccine 33 (2015): 459-64.

25. <http://www.prnewswire.com/news-releases/statement-from-dr-andrew-wakefield-no-fraud-no-hoax-no-profit-motive-113454389.html>.

26. Clyde Haberman, «A Discredited Vaccine Study's Continuing Impact on Public Health», New York Times, February 1, 2015.

27. Dana and Loewenstein, «A Social Science Perspective on Gifts to Physicians from Industry.»

28. Eric G. Campbell et al, «Physician Professionalism and Changes in Physician-Industry Relationships from 2004 to 2009», Archives of Internal Medicine 170 (November 8, 2010): 1820-26.

٢٩. أنشأ قانون الرعاية ميسورة التكلفة موقع المدفوعات المفتوحة، الذي أُطلق على الإنترنت في ١ أكتوبر ٢٠١٤، حيث يمكن للمستهلكين معرفة مقدار الأموال التي يتلقاها إخصائيو الرعاية الصحية من شركات الأدوية، وكذلك معرفة ما إذا كان أطباؤهم قد يكون لديهم تضارب في المصالح، انظر تقارير تشارلز أورنستيم في موقع:

ProPublica, http://www.propublica.org/article/our-first-dive-into-the-new-openpaymentsystem?utm_source=et&utm_medium=email&utm_campaign=dailynewsletter.

وكشف تقريره اللاحق في ٦ أكتوبر ٢٠١٤ أن قاعدة بيانات المدفوعات المفتوحة لمدفوعات الصناعة قد قللت من تقدير المبلغ بنحو مليار دولار.

30. Robert B. Cialdini, Influence: The Psychology of Persuasion, rev. ed. (New York: William Morrow, 1993).

31. Carl Elliott, «The Drug Pushers», Atlantic Monthly, April 2006, 82-93.

32. Carl Elliott, «Pharma Buys a Conscience» American Prospect 12 (September 24, 2001), www.prospect.org/print/V12/17/elliott-c.html.

33. C. Neil Macrae, Alan B. Milne, and Galen V. Bodenhausen, «Stereotypes as Energy-Saving Devices: A Peek Inside the Cognitive Toolbox»,

- Journal of Personality and Social Psychology 66 (1994): 37-47.
34. Marilynn B. Brewer, «Social Identity, Distinctiveness, and In-Group Homogeneity» Social Cognition II (1993): 150-64.
 35. Charles W. Perdue et al., «Us and Them: Social Categorization and the Process of Inter- Group Bias I Journal of Personality and Social Psychology 59 (1990): 475-86.
 36. Henri Tajfel et al., «Social Categorization and Intergroup Behaviour», European Journal of Social Psychology 1 (1971): 149-78.
 37. Nick Haslam et al., «More Human Than You: Attributing Humanness to Self and Other s» Journal of Personality and Social Psychology 89 (2005): 937-50.
 38. Gordon Allport, The Nature of Prejudice (Reading, MA: Addison-Wesley, 1979), 13-14.
 39. Jeffrey W. Sherman et al., «Prejudice and Stereotype Maintenance Processes: Attention, Attribution, and Individuation», Journal of Personality and Social Psychology 89 (2005): 607-22.
 40. Aaron Panofsky and Joan Donovan, «Genetic Ancestry Testing Among White Nationalists: From Identity Repair to Citizen Science», Social Studies of Science, July 2, 2019, <https://doi.org/10.1177/0306312719861434>.
 41. Christian S. Crandall and Amy Eshelman, «A Justification-Suppression Model of the Expression and Experience of Prejudice», Psychological Bulletin 119 (1003): 425. See also Benoit Monin and Dale T. Miller, «Moral Credentials and the Expression of Prejudice», Journal of Personality and Social Psychology 81 (2001): 33-43.

أثبتت تجاربهم أنه عندما شعر الناس أن مؤهلاتهم الأخلاقية كأفراد غير متحيزين لم تكن موضع نزاع -عندما أتاحت لهم الفرصة للاختلاف مع التصريحات الجنسية الصارخة- شعروا أنهم مبررون أكثر في تصويتهم اللاحق لتوظيف رجل لوظيفة

ذكورية نمطية.

٤٢. للاطلاع على التجربة بين الأعراق انظر:

Ronald W. Rogers and Steven Prentice-Dunn, «Deindividuation and Anger-Mediated Interracial Aggression: Unmasking Regressive Racism» Journal of Personality and Social Psychology 4 (1981): 63-73.

بالنسبة إلى الكنديين الناطقين بالإنجليزية والفرنسية، انظر:

James R. Meindl and Melvin J. Lerner, «Exacerbation of Extreme Responses to an Out-Group,» Journal of Personality and Social Psychology 47 (1985): 71-84.

حول دراسات السلوك تجاه اليهود والرجال المثليين، انظر:

Steven Fein and Steven J. Spencer, «Prejudice as Self-Image Maintenance: Affirming the Self through Derogating Others? Journal of Personality and Social Psychology 73 (1997): 31-44.

43. Paul Jacobs, Saul Landau, and Eve Pell, To Serve the Devil, vol. 2, Colonials and Sojourners (New York: Vintage Books, 1971), 81.

44. Albert Speer, Inside the Third Reich: Memoirs (New York: Simon and Schuster, 1970), 291.

45. Doris Kearns Goodwin, Team of Rivals: The Political Genius of Abraham Lincoln (New York: Simon and Schuster, 2005).

46. Magruder, An American Life, 348.

٣- الذاكرة، مؤرخ تبرير الذات

1. George Plimpton, Truman Capote (New York: Doubleday, 1997), 306.

اعتمدنا على نسخة فيدال من هذه القصة على أساس أنه لم يكن لديه قُط أي ندم من الحديث عن أي من الموضوعين - السياسة أو ازدواجية الميول الجنسية - وبالتالي لم يكن لديه أي دافع لتشويه الحدث في ذاكرته.

2. Anthony G. Greenwald, «The Totalitarian Ego: Fabrication and Revision of Personal History», American Psychologist 35 (1980): 603-18.

3. Edward Jones and Rika Kohler, «The Effects of Plausibility on the Learning of Controversial Statements», *Journal of Abnormal and Social Psychology* 57 (1959): 315-20.
4. Michael Ross, «Relation of Implicit Theories to the Construction of Personal Histories», *Psychological Review* 96 (1989): 341-57; Anne E. Wilson and Michael Ross, «From Chump to Champ: People's Appraisals of Their Earlier and Present Selves», *Journal of Personality and Social Psychology* 80 (2001): 572-84; and Michael Ross and Anne E. Wilson, «Autobiographical Memory and Conceptions of Self: Getting Better All the Time», *Current Directions in Psychological Science* 12 (2003): 66-69.
5. E. S. Parker, L. Cahill, and J. L. McGaugh, «A Case of Unusual Autobiographical Remembering», *Neurocase* 12, no. 1 (February 2006): 35-49-
6. Marcia K. Johnson, Shahin Hashtroudi, and D. Stephen Lindsay, «Source Monitoring», *Psychological Bulletin* 114 (1993): 3-28; Karen J. Mitchell and Marcia K. Johnson, «Source Monitoring: Attributing Mental Experiences», in *The Oxford Handbook of Memory*, eds. E. Tulving and F.I.M. Craik (New York: Oxford University Press, 2000).
7. Mary McCarthy, *Memories of a Catholic Girlhood* (San Diego: Harcourt, Brace, 1957), 80-83.
8. Barbara Tversky and Elizabeth J. Marsh, «Biased Retellings of Events Yield Biased Memories», *Cognitive Psychology* 40 (2000): 1-38; see also Elizabeth J. Marsh and Barbara Tversky, «Spinning the Stories of Our Lives», *Applied Cognitive Psychology* 18 (2004): 491-503.
9. Brooke C. Feeney and Jude Cassidy, «Reconstructive Memory Related to Adolescent-Parent Conflict Interactions: The Influence of Attachment-Related Representations on Immediate Perceptions and Changes in Perceptions Over Time» *Journal of Personality and Social Psychology*

85 (2003): 945-55.

10. Daniel Offer et al., «The Altering of Reported Experiences», *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry* 39 (2000) 735—42. Several of the authors also wrote a book on this study. See Daniel Offer, Marjorie Kaiz Offer, and Eric Ostrov, *Regular Guys: 34 Years Beyond Adolescence* (New York: Kluwer Academic/Plenum, 2004).

١١. حول «الذكريات الخاطئة» عن الجنس، انظر:

Maryanne Garry et al., «Examining Memory for Heterosexual College Students' Sexual Experiences Using an Electronic Mail Diary» *Health Psychology* 21 (2002): 629-34.

حول المبالغة في الإفادة عن التصويت، انظر:

R. P. Abelson, Elizabeth D. Loftus, and Anthony G. Greenwald, «Attempts to Improve the Accuracy of Self-Reports of Voting» in *Questions About Questions: Inquiries into the Cognitive Bases of Surveys*, ed. J.M. Tanur (New York: Russell Sage, 1992). See also Robert F. Belli et al., «Reducing Vote Overreporting in Surveys: Social Desirability, Memory Failure, and Source Monitoring» *Public Opinion Quarterly* 63 (1999): 90—108.

حول سوء تذكر التبرع بالمال، انظر:

Christopher D. B. Burt and Jennifer S. Popple, «Memorial Distortions in Donation Data» *Journal of Social Psychology* 138 (1998): 724-33.

كما شُوِّهت ذكريات طلاب الجامعات عن درجاتهم في المدرسة الثانوية في اتجاه

موجب، انظر:

Harry P. Bahrick, Lynda K. Hall, and Stephanie A. Berger, «Accuracy and Distortion in Memory for High School Grades», *Psychological Science* 7 (1996): 265-71.

12. J. Guillermo Villalobos, Deborah Davis, and Richard A. Leo, «His Story, Her Story: Sexual Miscommunication, Motivated Remembering, and Intoxication as Pathways to Honest False Testimony Regarding Sexual Consent», in R. Burnett, ed., *Vilified: Wrongful Allegations*

of Sexual and Child Abuse (Oxford: Oxford University Press, 2016); Deborah Davis and Elizabeth F. Loftus, «Remembering Disputed Sexual Encounters», *Journal of Criminal Law and Criminology* 105 (2016): 811- 51.

13. Lisa K. Libby and Richard P. Eibach, «Looking Back in Time: Self-Concept Change Affects Visual Perspective in Autobiographical Memory», *Journal of Personality and Social Psychology* 82 (2002): 167-79. See also Lisa K. Libby, Richard P. Eibach, and Thomas Gilovich, «Here's Looking at Me: The Effect of Memory Perspective on Assessments of Personal Change» *Journal of Personality and Social Psychology* 88 (2005): 50—62.

كلما كانت ذكرياتنا أكثر اتساقاً مع أنفسنا الحالية، زادت إمكانية الوصول إليها،
انظر:

Michael Ross, «Relation of Implicit Theories to the Construction of Personal Histories» *Psychological Review* 96 (1989): 341-57.

14. Michael Conway and Michael Ross, «Getting What You Want by Revising What You Had» *Journal of Personality and Social Psychology* 47 (1984): 738—48.

تتخذ تشوهات الذاكرة عديداً من المسارات المختلفة، ولكن معظمها في خدمة الحفاظ على مفاهيمنا الذاتية ومشاعرنا تجاه أنفسنا كأشخاص جيدين وأكفاء. ١٥. أظهرت آن ويلسون ومايكل روس كيف تساعدنا تحيزات الذاكرة المبررة للذات على التحرك نفسياً -على حد تعبيرهما- من «الأبله إلى البطل»، ونحن ننأى بأنفسنا عن تجسيداتنا السابقة «الأكثر بلاهة» إذا كان القيام بذلك يسمح لنا بالشعور بالتحسن بشأن مقدار نمونا وعلما ونضجنا، ولكننا نشعر بأننا قريبون من الذوات السابقة التي اعتقدنا أنها أبطال، في كلتا الحالتين لا يمكننا أن نخسر، انظر: Wilson and Ross, «From Chump to Champ».

١٦. النص الكامل للشظايا، جنباً إلى جنب مع القصة الحقيقية لحياة ويلكوميرسكي، موجود في:

Stefan Maechler, *The Wilkomirski Affair: A Study in Biographical*

Truth, trans. John E. Woods (New York: Schocken, 2001).

يناقش ميشلر الطرائق التي استند بها ويلكوميرسكي إلى رواية كوسينسكي، وللحصول على تحقيق آخر عن حياة ويلكوميرسكي والقضايا الثقافية للذكريات الحقيقية والمتخيلة، انظر:

Blake Eskin, *A Life in Pieces: The Making and Unmaking of Benjamin Wilkomirski* (New York: W. W. Norton, 2002).

١٧. قصة ويل أندروز موجودة في:

Susan Clancy, *Abducted: How People Come to Believe They Were Kidnapped by Aliens* (Cambridge, M A: Harvard University Press, 2005).

حول سيكولوجية الإيمان بالاختطاف الأجنبي، انظر أيضًا:

Donald P. Spence, «Abduction Tales as Metaphors», *Psychological Inquiry* 7 (1996): 177-79.

يفسر دونالد سبنس ذكريات الاختطاف على أنها استعارات لها وظيفتان نفسيتان قويتان: فهي تلخص مجموعة من المخاوف والهموم الطليقة التي تنتشر على نطاق واسع في المناخ السياسي والثقافي اليوم وليس لها علاج جاهز أو سهل، ومن خلال توفير هوية مشتركة للمؤمنين فإنها تقلل من مشاعر المؤمنين بالاغتراب والعجز. 18. Maechler, *The Wilkomirski Affair*, 173.

١٩. المصدر السابق، ص ٢٧.

٢٠. المصدر السابق، ص ٧١. يفسر ويلكوميرسكي إصابته بمتلازمة تملل الساقين من خلال سرد قصة مرعبة: أنه عندما كان في مايدانيك، تعلم أن يُبقي ساقيه متحركتين في أثناء نومه وإلا «كانت الفئران ستقضمهما»، ولكن وفقًا لتوماس كرانز -رئيس قسم الأبحاث في متحف مايدانيك- كان هناك قمل وبراغيث في المخيم، ولكن ليس الفئران (على عكس المعسكرات الأخرى، مثل بيركيناو). انظر المرجع نفسه، الصفحة ١٦٩.

٢١. حول الفوائد الجسدية والنفسية للكتابة عن الأسرار والصدمات التي لم يُكشف عنها سابقًا، انظر:

James W. Pennebaker, *Opening Up* (New York: William Morrow,

1990).

٢٢. حول تضخم الخيال، انظر:

Elizabeth F. Loftus, «Memories of Things Unseen», Current Directions in Psychological Science 13 (2004): 145-47, and Loftus, «Imagining the Past», Psychologist 14 (2001): 584-87; Maryanne Garry et al., «Imagination Inflation: Imagining a Childhood Event Inflates Confidence That It Occurred» Psychonomic Bulletin and Review 3 (1996): 208-14; Giuliana Mazzoni and Amina Memon, «Imagination Can Create False Autobiographical Memories» Psychological Science 14 (2003): 186-88.

عن الأحلام، انظر:

Giuliana Mazzoni et al, «Changing Beliefs and Memories through Dream Interpretation» Applied Cognitive Psychology 2 (1999): 125-44.

23. Brian Gonsalves et al, «Neural Evidence that Vivid Imagining Can Lead to False Remembering,» Psychological Science 15 (2004): 655-60.

وجد الباحثون أن عملية التخيل البصري لشيء شائع تولّد نشاطاً دماغياً في مناطق القشرة الدماغية، مما قد يؤدي إلى ذكريات خاطئة لتلك الأشياء المتخيلة.

24. Mazzoni, «Imagination Can Create False Autobiographical Memories».

٢٥. يسمى هذا التأثير «تضخم التفسير»، انظر:

Stefanie J. Sharman, Charles G. Manning, and Maryanne Garry, «Explain This: Explaining Childhood Events Inflates Confidence for Those Events,» Applied Cognitive Psychology 19 (2005): 67-74.

يقوم أطفال ما قبل الكلام بعمل بالمعادل البصري لما يفعله الكبار، إذ يرسمون صورة لحدث غير قابل للتصديق على الإطلاق، مثل إقامة حفلة شاي في منطاد الهواء الساخن أو السباحة في قاع المحيط مع حوريات البحر، وبعد رسم هذه الصور فغالبا ما يستوردونها إلى ذاكرتهم. بعد أسبوع، وهم أكثر احتمالا بكثير من الأطفال الذين لم يرسموا الصور أن يقولوا: نعم، هذا الحدث الخيالي حدث بالفعل. انظر:

Deryn Strange, Maryanne Garry, and Rachel Sutherland, «Drawing Out

- Children's False Memories," *Applied Cognitive Psychology* 17 (1003): 607-19.
26. Maechler, *The Wilkomirski Affair*, 104.
27. *Ibid.*, 100, 97 (emphasis ours).
28. Richard J. McNally, *Remembering Trauma* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), 233.
29. Michael Shermer, «Abducted», *Scientific American* (February 2005): 33.
30. Clancy, *Abducted*, 51.
31. *Ibid.*, 33, 34.
٣٢. أوضحت جوليانا مازوني وزملاؤها في مختبرهم كيف يمكن للناس أن ينظروا إلى حدث مستحيل (يشهدون تلبسًا شيطانيًا عندما كانوا أطفالًا) كذاكرة معقولة، وكانت إحدى الخطوات في العملية هي القراءة عن التلبس الشيطاني في مقاطع تقول إنها أكثر شيوعًا مما يدركه معظم الناس، مصحوبة بشهادات. انظر:
- Giuliana Mazzoni, Elizabeth F. Loftus, and Irving Kirsch, «Changing Beliefs About Implausible Autobiographical Events: A Little Plausibility Goes a Long Way» *Journal of Experimental Psychology: Applied* 7 (2001): 51-59.
33. Clancy, *Abducted*, 143, 2.
34. *Ibid.*, 50.
35. Richard McNally, personal communication with the authors.
36. Richard J. McNally et al., «Psychophysiologic Responding During Script-Driven Imagery in People Reporting Abduction by Space Aliens», *Psychological Science* 5 (2004): 493-97. See also Clancy, *Abducted*, and McNally, *Remembering Trauma*, for reviews of this and related research.

٣٧. من المثير للاهتمام أن السير الذاتية التي كانت ذات يوم أمثلة ملهمة لنضال الشخص للتغلب على العنصرية أو العنف أو الإعاقة أو النفي أو الفقر تبدو اليوم قديمة جدًا،

إذ يسعى كُتَّاب المذكرات المعاصرون إلى التفوق بعضهم على بعض في التفاصيل المروعة لحياتهم، وللحصول على مقال بليغ حول هذا الموضوع، انظر:

Francine Prose, «Outrageous Misfortune», her review of Jeannette Walls's *The Glass Castle: A Memoir* for the New York Times Book Review, March 15, 1005.

تبدأ فرانسيس بروز قائلة: «المذكرات هي حكاياتنا الخيالية الحديثة، فالخرافات المروعة للأخوين جريم أُعيد تخيلها من منظور الطفل المحظوظ الذي هرب -رغم كل الصعاب- من مصير تقطيعه وطهيته وتقديمه للعائلة لتناول العشاء».

38. Ellen Bass and Laura Davis, *The Courage to Heal: A Guide for Women Survivors of Child Sexual Abuse* (New York: Harper and Row, 1988), 173.

39. For the best full account of this story, see Moira Johnston, *Spectral Evidence: The Ramona Case: Incest, Memory, and Truth on Trial in Napa Valley* (Boston: Houghton Mifflin, 1997).

40. Mary Karr, «His So-Called Life», *New York Times*, January 15, 2006.

٤- النِّيَّاتُ الحسنة والعلم السيئ:

الدائرة المغلقة للحكم السريري

١. سَرَدَ قصة جريس لنا عالم النفس جوزيف دي ريفيرا، الذي أجرى مقابلة معها ومع آخرين في بحثه حول سيكولوجية التراجع. انظر:

Joseph de Rivera, «The Construction of False Memory Syndrome: The Experience of Retractors» *Psychological Inquiry* 8 (1997): 271-92; and Joseph de Rivera, «Understanding Persons Who Repudiate Memories Recovered in Therapy» *Professional Psychology: Research and Practice* 31 (2000): 378-86.

٢. لا يزال التاريخ الأكثر شمولاً لوباء الذاكرة المستعادة هو كتاب:

Mark Pendergrast, *Victims of Memory*, 2nd ed. (Hinesburg, VT: Upper Access Press, 1996; revised and expanded for a HarperCollins British

edition, 1996). See also Richard J. Ofshe and Ethan Whtters, Making Monsters: Fake Memory, Psychotherapy, and Sexual Hysteria (New York: Scribner's, 1994); Elizabeth Loftus and Katherine Ketcham, The Myth of Repressed Memory (New York: St. Martin's Press, 1994); and Frederick Crews, ed., Unauthorized Freud: Doubters Confront a Legend (New York: Viking, 1998).

للحصول على دراسة سوسيولوجية ممتازة عن الأوبئة الهستيرية والذعر الأخلاقي، انظر:

Philip Jenkins, Intimate Enemies: Moral Panics in Contemporary Great Britain (Hawthorne, NY: Aldine de Gruyter, 1991).

المرأة التي ادعت أن والدها تحرش بها من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين -لورا ب- رفعت دعوى قضائية ضد والدها -جويل هانجرفورد- في ولاية نيو هامبشاير في عام ١٩٩٥، وخسرتها.

٣. لتحليلات صعود وسقوط اضطراب الشخصية المتعددة، انظر أيضًا:

Joan Acocella, Creating Hysteria: Women and Multiple Personality Disorder (San Francisco: Jossey-Bass, 1999).

حول التنويم المغناطيسي والوسائل الأخرى لخلق ذكريات كاذبة عن الاختطاف واضطراب الشخصية المتعددة وإساءة معاملة الأطفال، انظر:

Nicholas P. Spanos, Multiple Identities and False Memories: A Sociocognitive Perspective (Washington, DC: American Psychological Association, 1996).

4. Judith Levine, «Bernard Baran, RIP» Seven Days, September 13, 2014.

كرجل مثلي ومدان بالتحرش بالأطفال في السجن، عانى باران من واحد وعشرين عامًا من العنف قبل إطلاق سراحه في إعادة المحاكمة، وفي عام ٢٠١٤ -بعد ثماني سنوات من إطلاق سراحه- توفي بسبب تمدد الأوعية الدموية.

٥. ثلاثة من أفضل الكتب عن فضائح الرعاية النهارية وادعاءات الطوائف واسعة النطاق التي تروج لطقوس الاعتداء الجنسي الشيطاني هي:

Debbie Nathan and Michael Snedeker, Satan's Silence: Ritual Abuse and the Making of a Modern American Witch Hunt (New York: Basic Books, 199s); Stephen J. Ceci and Maggie Bruck Jeopardy in the

Courtroom: A Scientific Analysis of Childrens Testimony (Washington, DC: American Psychological Association, 199s); and, a superb and detailed account of the McMartin case, Richard Beck, We Believe the Children: A Moral Panic in the 1980s (New York: Public Affairs, 2015).

كانت دوروثي رابينوفيتش، كاتبة الافتتاحية في صحيفة وول ستريت جورنال، أول من شكك علناً في إدانة كيلى مايكلز وتسببت في إعادة فتح قضيتها. انظر:

Rabinowitz, No Crueler Tyrannies: Accusation, False Witness, and Other Terrors of Our Times (New York: Free Press, 2003).

٦. في عام ٢٠٠٥، أدانت هيئة محلفين في بوسطن كاهناً سابقاً يبلغ من العمر أربعة وسبعين عاماً، بول شانلي، بالتحرش الجنسي ببول بوسا البالغ من العمر سبعة وعشرين عاماً عندما كان بوسا في السادسة من عمره. جاء هذا الادعاء بعد فضائح الكنيسة التي كشفت عن مئات الحالات الموثقة للكهنة المتحرشين بالأطفال، لذلك اشتعلت المشاعر بشكل مفهوم ضد الكهنة وسياسة الكنيسة في التستر على الاتهامات. ومع ذلك، فإن الدليل الوحيد في قضية شانلي كان ذكريات بوسا، والتي، كما قال بوسا، استعادها في ذكريات الماضي الحية بعد قراءة مقال بوسطن جلوب عن شانلي. لم يتم تقديم أي دليل مؤيد في المحاكمة، بل إن كثيراً من الأدلة شككت في ادعاءات بوسا. انظر

Jonathan Rauch, «Is Paul Shanley Guilty? If Paul Shanley Is a Monster, the State Didn't Prove It», National Journal, March 11, 2005, and JoAnn Wypijewski, «The Passion of Father Paul Shanley», Legal Affairs (September/October 2004).

ومن بين المراسلين المتشككين الآخرين دانيال ليونز من فوربس، وروبن واشنطن من بوسطن هيرالد، ومايكل مينر من شيكاغو ريدير. للحصول على قصة أكثر إثارة لإدانة رجل يعتمد بالكامل تقريباً على الذكريات المكبوتة والمستعادة، فكر في حالة جيري ساندوسكي:

Mark Pendergrast, The Most Hated Man in America: Jerry Sandusky and the Rush to Judgment (Mechanicsburg, PA: Sunbury Press, 2017).

للحصول على ملخص للقضية، انظر:

Frederick Crews, «Trial by Therapy: The Jerry Sandusky Case

Revisited,” Skeptic, https://www.skeptic.com/reading_room/trial-by-therapy-jerry-sandusky-case-revisited/

7. Debbie Nathan, *Sybil Exposed: The Extraordinary Story Behind the Famous Multiple Personality Case* (New York: Free Press, 2011).

٨. وجدت بعض الدراسات أن الأساليب المختلطة -الأدوية بالإضافة إلى العلاج السلوكي المعرفي- هي الأكثر فعالية، ووجدت دراسات أرى أن العلاج السلوكي المعرفي وحده فعال أيضاً، ولمراجعة قضايا وثبت مراجع الدراسات البحثية، راجع:

American Psychological Association Presidential Task Force on Evidence-Based Practice, «Evidence-Based Practice in Psychology” American Psychologist 61 (2006): 271-83. See also Dianne Chambless et al., «Update on Empirically Validated Therapies” Clinical Psychologist 51 (1998): 3-16, and Steven D. Hollon, Michael E. Thase, and John C. Markowitz, «Treatment and Prevention of Depression” Psychological Science in the Public Interest 3 (2002): 39-77.

تحتوي هذه المقالات على مراجع ممتازة فيما يتعلق بأشكال العلاج النفسي التي تم التحقق من صحتها تجريبياً لمشكلات مختلفة.

9. Tanya M. Luhrmann, *Of Two Minds: The Growing Disorder in American Psychiatry* (New York: Knopf, 1000).

تعكس النتائج التي توصلت إليها بالضبط ما وصفه جونا س روتشر عن مهنته قبل عشرين عاماً في كتاب:

The Powers of Psychiatry (Boston: Houghton Mifflin, 1980).

١٠. للحصول على مراجعة ممتازة للقضايا وصعود الأساليب والممارسات العلمية الزائفة في العلاج النفسي -بما في ذلك اختبارات التقييم غير المثبتة، وعلاجات التوحيد واضطراب فرط الحركة ونقص الانتباه، والعلاجات الشائعة- انظر:

Scott O. Lilienfeld, Steven Jay Lynn, and Jeffrey M. Lohr, eds., *Science and Pseudoscience in Clinical Psychology*, 2nd ed. (New York: Guilford, 2015).

وللجانب الآخر من القصة، مقالات حول أهم مساهمات العلوم السريرية، انظر:

Scott O. Lilienfeld and William T. O'Donohue, eds., *The Great Ideas of Clinical Science* (New York: Roudedge, 2007).

١١. حول الأدلة على أن التنويم المغناطيسي فعال لعدد كبير من حالات الألم الحادة والمزمنة، انظر:

David R. Patterson and Mark P. Jensen, «Hypnosis and Clinical Pain», *Psychological Bulletin* 29 (2003): 495- 521.

يمكن أن يضيف التنويم المغناطيسي أيضاً إلى فعالية التقنيات السلوكية المعرفية لفقدان الوزن والإقلاع عن التدخين ومشكلات سلوكية أخرى. انظر:

Irving Kirsch, Guy Montgomery, and Guy Sapirstein, «Hypnosis as an Adjunct to Cognitive-Behavioral Psychotherapy: A Meta-Analysis», *Journal of Consulting and Clinical Psychology* 2 (1993): 214-20.

لكن الأدلة دامغة على أن التنويم المغناطيسي لا يمكن الاعتماد عليه كوسيلة لاسترجاع الذكريات، وهذا هو السبب في أن جمعية علم النفس الأمريكية والجمعية الطبية الأمريكية تعارضان استخدام شهادة «منشطة بالتنويم المغناطيسي» في المحاكم. انظر:

Steven Jay Lynn et al., «Constructing the Past: Problematic Memory Recovery Techniques in Psychotherapy», in Lilienfeld, Lynn, and Lohr, *Science and Pseudoscience in Clinical Psychology*; and John F. Kihlstrom, «Hypnosis, Delayed Recall, and the Principles of Memory», *International Journal of Experimental Hypnosis* 42 (1994): 337-45.

12. Paul Meehl, «Psychology: Does Our Heterogeneous Subject Matter Have Any Unity?», *Minnesota Psychologist* (Summer 1986): 4.

١٣. أخذ المحامي وعالم النفس كريستوفر باردن شهادة بيسيل فان دير كولك في مكتب فان دير كولك في بوسطن، ماساتشوستس، ٢٧ و٢٨ ديسمبر ١٩٩٦، وقد نشر كريستوفر باردن الإفادة على الإنترنت. انظر:

“Full Text of Bessel van der Kolk, Scientific Dishonesty, and the Mysterious Disappearing Coauthor,” https://archive.org/stream/BesselVanDerKolkScientificDishonestyTheMysteriousDisappearing/VanDerKolk_djvu.txt.

14. John F. Kihlstrom, «An Unbalanced Balancing Act: Blocked, Recovered, and False Memories in the Laboratory and Clinic», *Clinical Psychology: Science and Practice* 11 (2004).

وأضاف أنه «إذا كانت الثقة معيارًا مناسبًا للصحة، لكان بنيامين ويلكوميرسكي قد حصل على جائزة بوليتزر للتاريخ».

١٥. أدلى الدكتور كورتوا بشهادته في ١٤ نوفمبر ٢٠١٤ في قضية جون دو ضد جمعية مبشري القلب المقدس، شيكاغو، ولاية إلينوي.

16. See Deena S. Weisberg et al., «The Seductive Allure of Neuroscience Explanations», *Journal of Cognitive Neuroscience* 20 (2008): 470-77.

17. Sigmund Freud, «The Dissolution of the Oedipus Complex» in *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud*, ed. J. Strachey, vol. 19 (London: Hogarth, 1924).

١٨. كتب شاول روزنزويج: «في مناسبتين منفصلتين (١٩٣٤ و ١٩٣٧) - أولًا بالخط القوطي ثم باللغة الإنجليزية - قدم فرويد ردًا سلبًا مشابهًا على أي محاولات لاستكشاف نظرية التحليل النفسي بالطرائق المختبرية، وأكدت هذه الكتابات بوضوح عدم ثقة فرويد بالمنهج التجريبية - إن لم يكن معارضتها - للتحقق من صحة مفاهيمه المشتقة سريريًا، وقد اعتقد فرويد باستمرار أن التحقق السريري لنظرياته، والتي استندت في الأصل وبشكل مستمر إلى تحليله الذاتي، ترك قليلًا مما يمكن أن يكون مرغوبًا فيه من مصادر الدعم الأخرى»، انظر:

Saul Rosenzweig, «Letters by Freud on Experimental Psychodynamics», *American Psychologist* 52 (1997): 571. See also Saul Rosenzweig, «Freud and Experimental Psychology: The Emergence of Idio-Dynamics», in *A Century of Psychology as Science*, eds. S. Koch and D. E. Leary (New York: McGraw-Hill, 1985). This book was reissued by the American Psychological Association in 1991.

19. Lynn et al., «Constructing the Past.»

20. Michael Nash offers one example in his article «Memory Distortion and Sexual Trauma: The Problem of False Negatives and False Positives» *International Journal of Clinical and Experimental Hypnosis* 41 (1994): 346—62.

21. McNally, Remembering Trauma, 275.

٢٢. دعاة الذاكرة المستعادة المعنيون هم دانيال براون، وآلان دبليو شيفلين، ودي. كوريدون هاموند، مؤلفو كتاب:

Memory, Trauma Treatment, and the Law (New York: W. W. Norton, 1998).

وعرضهم لدراسة كامب إريكا موجود في الصفحة ١٥٦، ولمراجعة هذا الكتاب وتوثيق ارتباط مؤلفيه الطويل بحركة الذاكرة المستعادة، وإيمانهم بانتشار طوائف إساءة استخدام الطقوس الشيطانية، وتأيدهم لاستخدام التنويم المغناطيسي «لاسترداد» ذكريات سوء المعاملة وتوليد شخصيات متعددة، انظر:

Frederick Crews's «The Trauma Trap» New York Review of Books 51 (March 11, 2004).

وقد أعيد طبع هذا المقال -مع كتابات أخرى تكشف مغالطات حركة الذاكرة المستعادة- في:

Frederick Crews, Follies of the Wise (Emeryville, CA: Shoemaker and Hoard, 2006).

23. Rosemary Basson et al., «Efficacy and Safety of Sildenafil Citrate in Women with Sexual Dysfunction Associated with Female Sexual Arousal Disorder», Journal of Womens Health and Gender-Based Medicine 11 (May 2002): 367-77.

24. Joan Kaufman and Edward Zigler, «Do Abused Children Become Abusive Parents?» American Journal of Orthopsychiatry 57 (1987): 186-92.

منذ فرويد، كان هناك افتراض ثقافي واسع الانتشار بأن صدمة الطفولة تنتج دائماً وحتمًا أمراضًا نفسية للبالغين، إلا أن الأبحاث قد حطمت هذا الافتراض أيضًا، ولاحظت عالمة النفس آن ماستن أن معظم الناس يفترضون أن هناك شيئًا مميزًا ونادرًا حول الأطفال الذين يتعافون من الشدائد، ولكن «المفاجأة الكبرى» للبحث -كما خلصت- هي مدى مرونتهم العادية، حيث يتمتع معظم الأطفال بمرونة ملحوظة، ويتغلبون في النهاية حتى على آثار الحرب، أو أمراض الطفولة، أو وجود آباء مسيئين أو مدمنين على الكحول، أو الحرمان المبكر، أو التعرض للتحرش الجنسي. انظر:

Ann Masten, «Ordinary Magic: Resilience Processes in Development», American Psychologist 56 (2001): 227-38.

25. William Friedrich et al., «Normative Sexual Behavior in Children: A Contemporary Sample», Pediatrics 101 (1988): 1-8. See also www.pediatrics.org/cgi/content/full/101/4/e9.

للحصول على مراجعة ممتازة لأبحاث علم الوراثة السلوكية حول استقرار المزاج
بصرف النظر عن تجارب الطفل، انظر:

Judith Rich Harris, The Nurture Assumption (New York: Free Press, 1998).

وأن الأطفال غير المعتدى عليهم غالبًا ما يعانون من كوابيس وأعراض أخرى
للقلق، انظر:

McNally, Remembering Trauma.

26. Kathleen A. Kendall-Tackett, Linda M. Williams, and David Finkelhor, «Impact of Sexual Abuse on Children: A Review and Synthesis of Recent Empirical Studies», Psychological Bulletin 113 (1992): 164-80.

وجد الباحثون أيضًا -ولا عجب- أن أعراض الأطفال كانت مرتبطة بشدة ومدة
وتواتر الإساءة، وما إذا كانت القوة قد استخدمت، وعلاقة الجاني بالطفل، ودرجة
الدعم من الأم، وعلى عكس تنبؤات معالجي الذاكرة المستعادة، تعافى نحو ثلثي
الأطفال الضحايا خلال الأشهر الاثني عشر إلى الثمانية عشر الأولى.

٢٧. بمراجعة البحث، خلص جلين وولفнер وديفيد فاوست وروبين دوز إلى أنه «ببساطة
لا يوجد دليل علمي متاح يبرر التشخيص السريري أو الشرعي للإساءة على أساس
اللعب بالدمى»، انظر:

Glenn Wolfner, David Faust, and Robyn Dawes «The Use of Anatomically Detailed Dolls in Sexual Abuse Evaluations: The State of the Science», Applied and Preventive Psychology 2 (1993): 1-11.

٢٨. عندما سُئلت الفتاة الصغيرة عما إذا كان هذا قد حدث بالفعل، قالت: «نعم، لقد
حدث»، وعندما حاول والدها والمجرب طمأنتها بقولهما: «طبييك لا يفعل هذه
الأشياء للفتيات الصغيرات، أنتِ تمزحين فقط، ونحن نعلم أنه لم يفعل هذه الأشياء»،
لكن الطفلة تشبث بادعاءاتها بعناد، وحذر الباحثون من أن «التعرض المتكرر للدمية

-مع الحد الأدنى من الاقتراحات- أدى إلى لعب جنسي للغاية لهذه الطفلة».

Maggie Bruck et al., «Anatomically Detailed Dolls Do Not Facilitate Preschoolers' Reports of a Pediatric Examination Involving Genital Touching», *Journal of Experimental Psychology: Applied* 1 (1995): 95-109.

29. Thomas M. Horner, Melvin J. Guyer, and Neil M. Kalter, «Clinical Expertise and the Assessment of Child Sexual Abuse», *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry* 32 (1993): 925-31; Thomas M. Horner, Melvin J. Guyer, and Neil M. Kalter, «The Biases of Child Sexual Abuse Experts: Believing Is Seeing», *Bulletin of the American Academy of Psychiatry and the Law* 21 (1993): 281-92.

٣٠. منذ عدة عقود، أظهر بول ميل أن الصيغ الرياضية البسيطة نسبياً تفوقت على الأحكام البديهية للأطباء في التنبؤ بنتائج المرضى. انظر:

Paul E. Meehl, *Clinical versus Statistical Prediction: A Theoretical Analysis and a Review of the Evidence* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1954); and Robyn Dawes, David Faust, and Paul E. Meehl, «Clinical versus Actuarial Judgment», *Science* 243 (1989): 1668-74. Meehl's findings have been repeatedly reconfirmed. See Howard Grob, *Studying the Clinician: Judgment Research and Psychological Assessment* (Washington, DC: American Psychological Association, 1998).

31. Our account of the Kelly Michaels case is based largely on Ceci and Bruck, *Jeopardy in the Courtroom*, and Pendergrast, *Victims of Memory*. See also Maggie Bruck and Stephen Ceci, «Amicus Brief for the Case of State of New Jersey v. Margaret Kelly Michaels, Presented by Committee of Concerned Social Scientists», *Psychology, Public Policy, and Law* 1 (1995).

32. Pendergrast, *Victims of Memory*, 423.

33. Jason J. Dickinson, Debra A. Poole, and R. L. Laimon, «Children's

- Recall and Testimony” in *Psychology and Law: An Empirical Perspective*, eds. N. Brewer and K. Williams (New York: Guilford, 2005). See also Debra A. Poole and D. Stephen Lindsay, «Interviewing Preschoolers: Effects of Nonsuggestive Techniques, Parental Coaching, and Leading Questions on Reports of Nonexperienced Events” *Journal of Experimental Child Psychology* 60 (1995): 129-54.
34. Sena Garven et al., «More Than Suggestion: The Effect of Interviewing Techniques from the McMartin Preschool Case.” *Journal of Applied Psychology* 83 (1998): 347-59; and Sena Garven, James M. Wood, and Roy S. Malpass, «Allegations of Wrongdoing: The Effects of Reinforcement on Children’s Mundane and Fantastic Claims,» *Journal of Applied Psychology* 85 (2000): 38-49.
35. Gabrielle F. Principe et al., «Believing Is Seeing: How Rumors Can Engender False Memories in Preschoolers,” *Psychological Science* 17 (2006): 243-48.
36. Debbie Nathan, «I’m Sorry,” *Los Angeles Times Magazine*, October 30, 2005.
37. Debra A. Poole and Michael E. Lamb, *Investigative Interviews of Children* (Washington, DC: American Psychological Association 1998), وأصبح عملهم أساساً لبروتوكولات جديدة صاغتها فرقة العمل التابعة لحاكم ولاية ميتشيجان، والمعنية بوكالة قضاء الأطفال واستقلال الأسرة والمعهد الوطني لصحة الطفل والتنمية البشرية –(NICHD)– التي أعدت بروتوكولاً للمقابلات الاستقصائية يُستخدم على نطاق واسع في البحث والتقييم:
<https://youth.gov/content/nichd-investigative-interview-protocol>. See Michael E. Lamb, Yael Orbach, Irit Hershkowitz, Phillip W. Esplin, and Dvora Horowitz, «Structured Forensic Interview Protocols Improve the Quality and Informativeness of Investigative Interviews with Children: A Review of Research Using the NICHD Investigative Interview Protocol,” *Child Abuse and Neglect* 31 (2007): 1201-31.
38. Ellen Bass and Laura Davis, *The Courage to Heal: A Guide for Women*

Survivors of Child Sexual Abuse (New York: Harper and Row, 1998), 18.

٣٩. في دراسة أُجريت في منتصف تسعينيات القرن العشرين، سحب الباحثون عينات عشوائية من علماء النفس الإكلينكيين الأمريكيين الحاصلين على الدكتوراه من الأسماء المدرجة في السجل الوطني لمقدمي الخدمات الصحية في علم النفس، وسألوا المستجيبين عن عدد المرات التي استخدموا فيها بانتظام تقنيات معينة «لمساعدة العملاء على استعادة ذكريات الاعتداء الجنسي»، وعلى وجه التحديد: التنويم المغناطيسي، والنكوص العمري، وتفسير الأحلام، والصور الموجهة المتعلقة بحالات الإساءة، وتفسير الأعراض الجسدية كدليل على سوء المعاملة، فقال أكثر من ٤٠٪ بقليل إنهم استخدموا تفسير الأحلام، وقال نحو ٣٠٪ إنهم استخدموا التنويم المغناطيسي، وأقل عدد - وإن كان لا يزال نحو ٢٠٪ - استخدم النكوص العمري، ونفس النسب المئوية تقريباً رفضت استخدام هذه التقنيات. ويبدو أن أولئك الذين في الوسط لم يكن لديهم رأي. انظر:

Debra A. Poole et al., «Psychotherapy and the Recovery of Memories of Childhood Sexual Abuse: U.S. and British Practitioners' Opinions, Practices, and Experiences», Journal of Consulting and Clinical Psychology 63 (1995): 426-37.

إلا أن الفجوة بين العلماء والممارسين لا تزال مستمرة. انظر:

Lawrence Patihis et al., «Are the 'Memory Wars' Over? A Scientist-Practitioner Gap in Beliefs About Repressed Memory», Psychological Science 25 (2014): 519-30.

٤٠. وفقاً للتحليل التلوي للدراسات الرائدة، فإن الفكرة القائلة بأن الاعتداء الجنسي على الأطفال هو السبب الرئيسي لاضطرابات الأكل لم تدعمها أدلة تجريبية. انظر:

Eric Stice, «Risk and Maintenance Factors for Eating Pathology: A Meta-Analytic Review», Psychological Bulletin 128 (2002): 825-48.

41. Patihis et al., «Are the 'Memory Wars' Over?»

42. Henry Otgaar, Mark L. Howe, Lawrence Patihis, Harald Merckelbach, Steven Jay Lynn, Scott O. Lilienfeld, and Elizabeth F. Loftus, «The Return of the Repressed: The Persistent and Problematic Claims of Long-Forgotten Trauma» Perspectives on Psychological Science 14,

no. 6 (2019): 1072-95.

٤٣. حوّل البعض التركيز ببساطة، فقد خسر بيسيل فان دير كولك وظيفته في كلية الطب بجامعة هارفارد، وأُغلق مختبره في مستشفى ماساتشوستس العام، إلا أنه لا يزال يعتقد أن الذكريات المكبوتة هي سمة شائعة لاضطرابات الإجهاد المؤلمة، واستمر في تجاوز الآليات العقلية كتفسيرات ويجادل بأن الذكريات المؤلمة «تعلق في الآلة» ويتم التعبير عنها في الجسم الذي «خان» المصاب خلال الأحداث المؤلمة، انظر:

Jeneen Interlandi, «How Do You Heal a Traumatized Mind?», New York Times Magazine, May 25, 2014.

44. Richard J. McNally, «Troubles in Traumatology» Canadian Journal of Psychiatry 50 (2005): 815.

٤٥. أدلى جون بريري بهذا البيان في المؤتمر الدولي الثاني عشر في عام ١٩٩٨، المعني بإساءة معاملة الأطفال وإهمالهم، في أوكแลนด์، نيوزيلندا، وقد أبلغت عن هذه الملاحظات صحيفة نيوزيلند هيرالد في ٩ سبتمبر ١٩٩٨، ونقلت الصحيفة عن بريري قوله إن «الذكريات المفقودة عن سوء المعاملة شائعة بشكل معقول، ولكن الأدلة تشير إلى أن الذكريات الزائفة عن سوء المعاملة غير شائعة تمامًا». انظر:

<http://www.menz.org.nz/Casualties/i998%20newsletters/Oct%2098.htm>.

46. Pendergrast, Victims of Memory, 567.

٤٧. أدلى هاموند بهذه الملاحظات في عرضه التقديمي «التحقيق في الذاكرة الزائفة لما لا يُنسى: نقد التنويم المغناطيسي التجريبي وأبحاث الذاكرة»، في المؤتمر الدولي الرابع عشر للتنويم المغناطيسي والطب النفسي الجسدي، سان دييغو، يونيو ١٩٩٧.

٤٨. طلبت مجموعة من الأطباء النفسيين وغيرهم من الخبراء السريريين من وزارة العدل الأمريكية إصدار قانون يجعل من غير القانوني نشر مقتطفات من شهادات الأطفال في حالات الرعاية النهارية الفعلية. رفضت وزارة العدل. هُددت دار نشر باسيك بوكس بأمر قضائي إذا نشرت كتاب ديبى ناثن ومايكل سنديكر صمت

الشیطان، وهو كتاب يفصح هستيريا الرعاية النهارية، ولم تمثل باسيك بوكس لمطالب المههدين، وهُدِّدت جمعية علم النفس الأمريكية برفع دعوى قضائية إذا نشرت كتاب ستيفن سيسي وماجي بروك خطر في قاعة المحكمة، وأخرت الجمعية النشر لعدة أشهر. (مصدرنا هو اتصالات شخصية من المحققين المعنيين).

٤٩. ولكن كيف تقتل الرسول عندما يكون هناك مئات من الرسل؟ تتمثل إحدى طرائق حل التنافر بين «أنا متأكد من أنني على حق» و«أنا أقلية صغيرة» في الادعاء بأن الإجماع العلمي يعكس «مؤامرة» لقمع حقيقة الاعتداء الجنسي على الأطفال، فعلى سبيل المثال، يدعي العالم السياسي روس شيت أن مؤامرة من الصحفيين ومحامي الدفاع وعلماء الاجتماع ومنتقدي نظام العدالة الجنائية اخترعت «رواية مطاردة الساحرات»، ويؤكد أنه لم تكن هناك مطاردة ساحرات ضد هؤلاء المئات من العاملين في مجال الرعاية النهارية، ويؤكد أن معظم الذين أُدينوا وأُفرج عنهم لاحقاً كانوا مدَّين، لكن روس شيت اختار الأدلة، وبحث عن الحجج التي تدعم ادعاءاته وشوّه أو حذف الأدلة التي لم تعجبه. انظر:

Ross E. Cheit, *The Witch-Hunt Narrative* (New York: Oxford University Press, 2014).

وللقراء المهتمين بالتفنيد التفصيلي لهذا الكتاب، انظر:

«The Witch Hunt Narrative: Rebuttal», <http://www.ncrj.org/resources-2/response-to-ross-cheit/the-witch-hunt-narrative-rebuttal/> ; and Cathy Young, «The Return of Moral Panic,» Reason, October 25, 2014, <http://reason.com/archives/2014/10/25/the-return-of-moral-panic>.

٥٠. على حد علمنا، لم تعترف أي من باس أو ديفيس بأنهما كانتا مخطئتين في أي من الادعاءات الأساسية حول الذاكرة والصدمة، ولم تعترفا قط بأن جهلهما بالعلوم النفسية ربما تسبب لهما في التجاوز، ففي تقديم الطبعة الثالثة من كتاب شجاعة الشفاء، ردت باس وديفيس على النقد العلمي الموجه إلى كتابهما وحاولتا تبرير ادعاءاتهما بالخبرة على الرغم من افتقارهما إلى التدريب المهني: «كمؤلفين تعرضنا لانتقادات بسبب افتقارنا إلى أوراق الاعتماد الأكاديمية، ولكنك لا تحتاج إلى أن تكون حاصلاً على درجة الدكتوراه لتستمع بعناية وتعاطف إلى إنسان آخر»، وهذا صحيح ولكن التدريب في العلوم قد يمنع كل هؤلاء المستمعين المتعاطفين من القفز إلى استنتاجات غير مبررة وغير قابلة للتصديق وربما ضارة، وفي طبعة

الذكرى العشرين للكتاب - التي نُشرت في عام ٢٠٠٨ - أُزيل قسم «احترام الحقيقة»، ليس لأنه كان خطأ - سارعت المؤلفتان إلى الشرح - ولكن «لإفساح المجال لقصص ومعلومات جديدة حول الشفاء»، بما في ذلك ميزة جديدة مبروزة في مربعات تسمى «الحقيقة الأساسية للذاكرة».

51. National Public Radio, This American Life, episode 215, June 16, 2002.

٥ - القانون والفوضى

1. Timothy Sullivan, *Unequal Verdicts: The Central Park Jogger Trials* (New York: Simon and Schuster, 1992). See also Sarah Burns's *The Central Park Five: A Chronicle of a City Wilding* (New York: Knopf, 2012). A film based on her book, directed by Ken Burns, Sarah Burns, and David McMahon was released in 2012, and Ava DuVernay's dramatized film *When They See Us* came out in 2019.

٢. اعترف رئيس بأنه التقى خاري وايز - أحد المتهمين المدانين - عن طريق الصدفة تمامًا في السجن، ويبدو أنه شعر بالذنب بشأن وايز غير المشروع، ومن ثم قال في وقت لاحق لمسؤولي السجن إنه ارتكب جريمة أُدين بها آخرون خطأ، وبدأت إعادة التحقيق، انظر:

Steven A. Drizin and Richard A. Leo, «The Problem of False Confessions in the Post-DNA World», *North Carolina Law Review* 82 (2004): 891-1008.

3. Stuart Jeffries, «The Rapist Hunter» *Guardian*, February 26, 2004.

4. Linda Fairstein, «Netflix's False Story of the Central Park Five», *Wall Street Journal*, June 10, 2019.

5. See www.innocenceproject.org for latest updates and the classic book by Barry S check, Peter Neufeld, and Jim Dwyer, *Actual Innocence* (New York: Doubleday, 2000).

6. Samuel R. Gross, «How Many False Convictions Are There? How Many Exonerations Are There?», *University of Michigan Public Law Research Paper No. 316*, February 26, 2013, available at <https://papers.ssrn.com/>

sol3/papers.cfm?abstract_id=2225420 See C. R. Huff and M. Killias, eds., *Wrongful Convictions and Miscarriages of Justice: Causes and Remedies in North American and European Criminal Justice Systems* (New York: Routledge, 2013).

٧. انظر:

<http://www.law.umich.edu/special/exoneration/Pages/about.aspx>.

نظرًا لأن الحمض النووي أصبح يُستخدم على نطاق واسع في تحقيقات الطب الشرعي قبل المحاكمة، فقد توقع بعض علماء القانون أن يتلاشى عدد الإبراءات القائمة بوضوح على الحمض النووي، وسيتحول التركيز إلى أسس أخرى لإلغاء الإدانات الخاطئة، وللحصول على تقييم مدروس للفرق بين «البراءة الواقعية» و«الإبراء» وكيف يمكن أن ينطبق ذلك على حركة البراءة، انظر:

Richard A. Leo, «Has the Innocence Movement Become an Exoneration Movement? The Risks and Rewards of Redefining Innocence,” in Daniel Medwed, ed., *Wrongful Convictions and the DNA Revolution: Twenty-Five Years of Freeing the Innocent* (Cambridge, MA: Cambridge University Press, 2017), 57-83.

8. Quoted in Richard Jerome, «Suspect Confessions,” *New York Times Magazine*, August 13, 1995.

9. Daniel S. Medwed, «The Zeal Deal: Prosecutorial Resistance to Post-Conviction Claims of Innocence” *Boston University Law Review* 84 (2004):125.

يحلل دانيال ميدويد الثقافة المؤسسية للعديد من مكاتب المدعين العامين التي تجعل من الصعب على المدعين العامين الاعتراف بالأخطاء وتصحيحها.

10. Joshua Marquis, «The Innocent and the Shammed,” *New York Times*, January 26, 2006.

اعتبارًا من عام ٢٠١٤، لم يتأثر بالأدلة على الإدانات الخاطئة، وإذا كانت تقديرات صموئيل جروس بأن ١, ٤٪ من جميع المتهمين المحكوم عليهم بالإعدام قد أُدينوا زورًا، فقد قال ماركيز لأحد المحاورين: «سأترك وظيفتي وأصبح راهبًا بوذيًا إذا كانت هذه النسبة خمس دقيقة»، ولكن وفقًا لجروس، فإن «الخمس الدقيق» متفق عليه كأدنى تقدير. انظر:

<https://www.nytimes.com/2014/05/02/science/convictions-of-41-percent-facing-death-said-to-be-false.html>.

11. Registry of Prosecutorial Misconduct, www.prosecutorintegrity.org/registry/. See Kathleen M. Ridolfi and Maurice Possley, «Preventable Error: A Report on Prosecutorial Misconduct in California 1997-2009,» a VERITAS Initiative Report by the Northern California Innocence Project, 2010.

12. Harmful Error: Investigating America's Local Prosecutors, published by the Center for Public Integrity, Summer 2003,

هذا التقرير الذي نشره مركز النزاهة العامة يستعرض تحليل المركز لـ ١١٤٥٢ قضية في جميع أنحاء البلاد حيث استعرض قضاة محكمة الاستئناف اتهامات سوء سلوك الادعاء.

13. Quoted in Mike Miner, «Why Can't They Admit They Were Wrong?» Chicago Reader, August 1, 2003.

١٤. المشكلة الرئيسية في محلل الإجهاد الصوتي هي أن التحيز التأكيد يعوق الطريق، فإذا كنت تعتقد أن المشتبه به مذنب، فسوف تفسر الاختلاجات الدقيقة على أنها علامات على الكذب، وإذا كنت تعتقد أن المشتبه به بريء، فلن تعبرها أي اهتمام، وقد وجدت دراسة «صحة تحليل الإجهاد الصوتي ودقته المقارنة» (على عكس العنوان) أن «فاحصي تحليل الإجهاد الصوتي لم يكونوا قادرين على التمييز بين رواية الحقيقة والمخادعين إلا بالصدفة». انظر:

<https://www.polygraph.org/assets/docs/VoiceStressStudies/palmatier%20study.pdf>.

15. Paul E. Tracy, Who Killed Stephanie Crowe? (Dallas, TX: Brown Books, 2003), 334.

١٦. حكاية تورط فيك كالوكا في القضية -بما في ذلك اقتباساته- تأتي من قصة كتبها الصحفيان الاستقصائيان جون ويلكنز ومارك سوير.

John Wilkens and Mark Sauer, «A Badge of Courage: In the Crowe Case, This Cop Ignored the Politics While Pursuing Justice,» San Diego Union-Tribune, July 11, 2004. Druliner's quote is in Mark Sauer and John Wilkens, «Tuite Found Guilty of Manslaughter,» San Diego

Union- Tribune, May 27, 2004.

17. Deanna Kuhn, Michael Weinstock, and Robin Flaton, «How Well Do Jurors Reason? Competence Dimensions of Individual Variation in a Juror Reasoning Task,” Psychological Science 5 (1994): 289-96.

18. Don DeNeve and John H. Campbell, Into the Minds of Madmen: How the FBI’s Behavioral Science Unit Revolutionized Crime Investigation (Amherst, NY: Prometheus Books, 2004), 33.

يعرض هذا الكتاب -من دون قصد- دراسة حالة للتدريب غير العلمي لوحدة العلوم السلوكية التابعة لمكتب التحقيقات الفيدرالي.

19. Tracy, Who Killed Stephanie Crowe?, 184.

20. Ralph M. Lacer, interview by Connie Chung, Eye to Eye with Connie Chung, CBS, broadcast January 13, 1994.

21. Introductory comments by Steven Drizin, «Prosecutors Won’t Oppose Tankleff’s Hearing”, New York Times, May 13, 2004.

22. Edward Humes, Mean Justice (New York: Pocket Books, 1999), 181.

23. Andrew J. McClurg, «Good Cop, Bad Cop: Using Cognitive Dissonance Theory to Reduce Police Lying” U.C. Davis Law Review 32 (1999): 395, 429.

٢٤. هذا العذر شائع جدًا لدرجة أنه قد وُلِدَ -أيضًا- مصطلحًا جديدًا: «شهادة الاستسقاء»، وقد كتب ديفيد هيلبرونر، مساعد المدعي العام السابق في نيويورك: «في حالات الاستسقاء، يبرر الضباط التفتيش بأقدم الوسائل، وهم يكذبون بشأن الحقائق: «بينما كنت أقترّب من ناصية الشارع، رأيت المدعى عليه يُسقط المخدرات على الرصيف ولذلك اعتقلته»، وقد كان هذا خطأ قديمًا معروفًا للجميع في نظام العدالة، واشتكى قاضي فيدرالي مشهور منذ عدة سنوات من أنه قرأ نفس الشهادة في عديد من القضايا بحيث أصبح لا يصدقها بعد الآن كمسألة قانونية». انظر:

David Heilbroner, Rough Justice: Days and Nights of a Young D.A. (New York: Pantheon, 1990), 29.

25. McClurg, «Good Cop, Bad Cop,” 391.

26. Norm Stamper, *Breaking Rank: A Top Cop's Expose of the Dark Side of American Policing* (New York: Nation Books, 2005), and Norm Stamper, «Let Those Dopers Be,” *Los Angeles Times*, October 16, 2005.

27. McClurg, «Good Cop, Bad Cop,” 413, 415.

٢٨. استُدعي المحقق الجنائي ك. جيمس ماكريدي إلى منزل في مقاطعة سوفولك بنيويورك في سبتمبر ١٩٨٨، حيث وجد جثة أرلين تانكليف -التي طُغت وضُربت حتى الموت- وزوجها المفقود للوعي -سيمور- الذي تعرض أيضًا لهجوم وحشي، (توفي بعد بضعة أسابيع)، وفي غضون ساعات أعلن ماكريدي أنه حل القضية: كان القاتل ابن الزوجين -مارتن- البالغ من العمر سبعة عشر عامًا، وفي أثناء الاستجواب أخبر ماكريدي مارتن مرارًا وتكرارًا أنه يعلم أنه قتل والديه لأن والده استعاد وعيه لفترة وجيزة وأخبر الشرطة أن مارتن كان من هاجمه، وكانت هذه كذبة، فكما قال ماكريدي: «لقد استخدمت الحيلة والخداع»، فقال مارتن: «لا أعتقد أنه قال ذلك»، ولكن أخيرًا اعترف المراهق بأنه يجب أن يكون قد قتل والديه في أثناء انقطاع التيار الكهربائي، ولكن عندما وصل محامي الأسرة إلى مركز الشرطة، تنصل مارتن تانكليف على الفور من الاعتراف ولم يوقعه قط، إلا أنه كان كافيًا لإدانته، وحُكم على مارتن بالسجن لمدة خمسين عامًا مدى الحياة، ولكن بروس لامبرت «أدين بقتل والديه، إلا أن مارتن وصف المحقق بأنه الشرير الحقيقي»، طبقًا لصحيفة نيويورك تايمز، ٤ أبريل ٢٠٠٤، وأُطلق سراح تانكليف من السجن في عام ٢٠٠٧ بعد إلغاء إدانته، وفي عام ٢٠١٤ حصل على ٤, ٣ مليون دولار من الدولة بموجب تسوية لدعوى الإدانة الخاطئة، وما زالت دعوى الحقوق المدنية التي رفعها ضد ماكريدي ضد مقاطعة سوفولك معلقة.

29. Tracy, *Who Killed Stephanie Crowe?*, 175.

30. Fred E. Inbau et al., *Criminal Interrogation and Confessions*, 5th ed. (Burlington, MA: Jones and Bardett Learning, 2011), xi.

31. *Ibid.*, 352.

32. *Ibid.*, 5.

33. One of the most thorough dissections of the Reid Technique and the

Inbau et al. manual is Deborah Davis and William T. O'Donohue, «The Road to Perdition: 'Extreme Influence' Tactics in the Interrogation Room,» in Handbook of Forensic Psychology, eds. W. T. O'Donohue and E. Levensky (New York: Elsevier Academic Press, 2004), 897—996. See also Timothy E. Moore and C. Lindsay Fitzsimmons, «Justice Imperiled: False Confessions and the Reid Technique» Criminal Law Quarterly 57 (2011): 509-42; Lesley King and Brent Snook, «Peering Inside a Canadian Interrogation Room: An Examination of the Reid Model of Interrogation, Influence Tactics, and Coercive Strategies», Criminal Justice and Behavior 36 (2009): 674-94.

34. Louis C. Senese, Anatomy of Interrogation Themes: The Reid Technique of Interviewing (Chicago: John E. Reid and Associates, 2005), 32.

35. Saul Kassin, «On the Psychology of Confessions: Does Innocence Put Innocents at Risk?», American Psychologist 60 (2005): 215-28.

36. Saul M. Kassin and Christina T. Fong, «I'm Innocent! Effects of Training on Judgments of Truth and Deception in the Interrogation Room,» Law and Human Behavior 23 (1999): 499-516.

وفي دراسة أخرى، جند كاسين وزملاؤه نزلاء السجن الذين تلقوا تعليمات بالإدلاء باعتراف كامل بجريمتهم وأن يخلقوا اعترافاً بجريمة ارتكبتها سجين آخر، وحكم طلاب جامعات ومحققو شرطة على الاعترافات المسجلة بالفيديو، ولم يتجاوز معدل الدقة الإجمالي ذلك الناجم عن الصدفة، ولكن الشرطة كانت أكثر ثقة بأحكامها. انظر:

Saul M. Kassin, Christian A. Meissner, and Rebecca J. Norwick, «I'd Know a False Confession If I Saw One': A Comparative Study of College Students and Police Investigators» Law and Human Behavior 29 (2005): 211-27.

٣٧. هذا هو السبب في أن الأبرياء أكثر عرضة من المذنبين لتنازلهم عن حقوق

ميراندا^{(١)*} في الصمت والحصول على محام، وفي إحدى تجارب شاول كاسين، استُجوب اثنان وسبعون مشاركاً مذبذبين أو أبرياء بسرقة وهمية لمائة دولار من قبل محقق ذكر كان سلوكه محايداً أو متعاطفاً أو عدائياً، وحاول حملهم على التخلي عن حقوقهم في ميراندا، وأولئك الذين كانوا أبرياء كانوا أكثر عرضة للتوقيع على تنازل من أولئك الذين كانوا مذبذبين، وبهامش كبير - ٨١٪ - ٣٦٪ - حتى إن ثلثي المشتبه بهم الأبرياء وقَّعوا على التنازل عندما تبني المحقق وضعاً عدائياً، وصرخ فيهم: «أعلم أنك فعلت هذا ولا أريد سماع أي أكاذيب»، وقالوا في وقت لاحق إن سبب توقيعهم هو أنهم اعتقدوا أن المذبذبين فقط هم الذين يحتاجون إلى محام، في حين أنهم لم يرتكبوا أي خطأ وليس لديهم ما يخفونه، وقد خلص المجرمون بحزن إلى أنه «يبدو أن الناس لديهم إيمان ساذج بأن قوة براءتهم كافية لتحريرهم»، انظر:

Saul M. Kassin and Rebecca J. Norwick, «Why People Waive Their Miranda Rights: The Power of Innocence», *Law and Human Behavior* 18 (2004): 211-21.

38. Drizin and Leo, «The Problem of False Confessions in the Post-DNA World», 948.

٣٩. على سبيل المثال، قيل لأحد المراهقين -خاري وايز- إن العداة أُصيبت بـ«جسم ثقيل جداً» ثم سُئل: «هل ضُربت بحجر أم بطوبة؟»، فقال وايز أولاً إنها ضُربت بحجر، وبعد لحظات قال إنها كانت طوبة، ثم قال إن أحد الآخرين أخرج سكيناً وقطع قميص العداة، وهذا غير صحيح، إذ لم تكن هناك جروح سكين. انظر:

Saul Kassin, «False Confessions and the Jogger Case», *New York Times*, November 1, 2002.

٤٠. نيويورك ضد خاري وايز وكيفن ريتشاردسون وأنترون ماكراي ويوسف سلام وريموند سانتانا. () تأكيد كاستجابة لطلب إلغاء حكم الإدانة -لائحة الاتهام رقم ٤٧٦٢ / ٨٩- المقدم من مساعدة المدعي العام للمقاطعة نانسي ريان في ٥ ديسمبر ٢٠٠٢، ٤٦.

(١) * حقوق ميراندا أو قواعد ميراندا، هي التحذيرات التي توجهها الشرطة في الولايات المتحدة الأمريكية إلى المشتبه فيهم جنائياً عند إلقاء القبض عليهم وقبل أن يتم استجوابهم، للحفاظ على مقبولة أقوالهم قبل استخدامها ضدهم في الإجراءات الجنائية. (المترجم).

41. Gary L. Wells, «Eyewitness Identification: Probative Value, Criterion Shifts, and Policy Regarding the Sequential Lineup,” Current Directions in Psychological Science 23 (2013): 11-16.
42. Adam Liptak, «Prosecutors Fight DNA Use for Exoneration,” New York Times, August 29, 2003. See also Medwed, «The Zeal Deal,” for a review of the evidence of prosecutorial resistance to reopening DNA cases. For the story of Wilton Dedge, see <http://www.innocenceproject.org/cases-false-imprisonment/wilton-dedge>.
43. Sara Rimer, «Convict’s DNA Sways Labs, Not a Determined Prosecutor,” New York Times, February 6, 2002.
44. «The Case for Innocence», a Frontline special for PBS by Ofra Bikel, first aired October 31, 2000. Transcripts and information available at <http://www.pbs.org/wgbh/pages/frondline/shows/case/etc/tapes.html>
45. Drizin and Leo, «The Problem of False Confessions in the Post-DNA World,” 928, footnote 200.
46. Adam Liptak, «In Appeal, Scrutiny on Not One but 3 Confessions,” New York Times, May 20, 2014. See also: www.thedailybeast.com/articles/2014/06/19/the-supreme-court-must-right-the-wrong-done-to-billy-wayn-e-cope.html.

٤٧. في قضية شهيرة في ولاية كارولينا الشمالية حددت فيها الضحية الرجل الخطأ على أنه الرجل الذي اغتصبها، ولكن تم تتبع الحمض النووي حتى وصل في النهاية إلى الجاني الحقيقي. انظر:

James M. Doyle, True Witness: Cops, Courts, Science, and the Battle Against Misidentification (New York: Palgrave Macmillan, 2005).

ولكن أحياناً تُحل قضية باردة أيضاً بأدلة الحمض النووي، ففي لوس أنجلوس في عام ٢٠٠٤، حصل المحققون العاملون في وحدة القضايا الباردة المشكلة حديثاً على عينات من السائل المنوي من جثة امرأة تعرضت للاغتصاب والقتل قبل

سنوات وفحصوها بالمقارنة مع قاعدة بيانات الولاية للحمض النووي الخاص بمجرمين عنيفين مدانين. حصلوا على تطابق مع تشيستر تيرنر، الذي كان بالفعل في السجن بتهمة الاغتصاب، واستمر المحققون في تقديم عينات الحمض النووي من جرائم القتل الأخرى التي لم تُحل إلى المختبر، وكل شهر حصلوا على تطابق آخر مع تيرنر، ولم يمضِ وقت طويل حتى ربطوه باثنتي عشرة عملية قتل لعاهرات سوداوات فقيرات، ووسط البهجة العامة للقبض على قاتل متسلسل، أطلق المدعي العام للمقاطعة ستيف كولي كيدي سراح ديفيد جونز وهو بواب يعاني من تخلف عقلي شديد، وأمضى تسع سنوات في السجن لثلاث من جرائم القتل، وإذا كان تيرنر قد قتل هؤلاء النساء الثلاث فقط لظل طليقاً وظل جونز في السجن، ولكن لأن تيرنر قتل تسع نساء أخريات لم تحل قضاياهن، كان جونز المستفيد المحظوظ من جهود وحدة الحالات الباردة، وكانت العدالة بالنسبة إليه نتيجة ثانوية لتحقيق آخر، فلم يكن لدى أحد -ولا حتى محققي القضية الباردة- أي دافع لفحص الحمض النووي لجونز مقابل عينات من الضحايا خلال تلك السنوات التسع الطويلة، ولكن فريق المحققين الجديد كان لديه كل الدوافع لحل الجرائم القديمة التي لم تُحل، وكان هذا هو السبب الوحيد لتحقيق العدالة وإطلاق سراح جونز.

48. Deborah Davis and Richard Leo, «Strategies for Preventing False Confessions and Their Consequences,” in Practical Psychology for Forensic Investigations and Prosecutions, eds. M. R. Kebbell and G. M. Davies (Chichester, England: Wiley, 2006), 121-49. See also the essays in Sandra D. Westervelt and John A. Humphrey, eds., Wrongly Convicted: Perspectives on Failed Justice (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2001); and Saul M. Kassin, «Why Confessions Trump Innocence,” American Psychologist 67 (2012): 431-45.

49. “The Case for Innocence,” Frontline.

50. D. Michael Risinger and Jeffrey L. Loop, «Three Card Monte, Monty Hall, Modus Operandi and ‘Offender Profiling’: Some Lessons of Modern Cognitive Science for the Law of Evidence,” Cardozo Law Review 24 (November 2002): 193.

51. Mark Godsey, *BlindJustice: A Former Prosecutor Exposes the Psychology and Politics of Wrongful Convictions* (Oakland: University of California Press, 2017), 27-28.

52. Davis and Leo, «Strategies for Preventing False Confessions,” 145.

53. McClurg, «Good Cop, Bad Cop.”

مقترحات ماكلورج الخاصة لاستخدام التنافر المعرفي لتقليل خطر كذب الشرطة موجودة في هذا المقال.

٥٤. الإحصاءات المحدثة عن الولايات التي تتطلب التسجيل الإلكتروني مقدمة من ريبكا براون، مديرة السياسات بمشروع البراءة، ٤٠ شارع وورث، جناح ٧٠١، نيويورك، نيويورك ١٠٠١٣. انظر أيضًا:

the section on «Videotaping Interrogations: A Policy Whose Time Has Come,” in Saul M. Kassin and Gisli H. Gudjonsson, «The Psychology of Confession Evidence: A Review of the Literature and Issues,” *Psychological Science in the Public Interest* 5 (2004): 33-67. See also Drizin and Leo, «The Problem of False Confessions in the Post-DNA World”; Davis and O’Donohue, «The Road to Perdition”.

55. Quoted in Jerome, «Suspect Confession.”

56. Thomas P. Sullivan, «Police Experiences with Recording Custodial Interrogations,” 2004. This study, with extensive references on the benefits of recordings, is posted at <http://www.law.northwestern.edu/wrongfulconvictions/Causes/custodialInterrogations.htm>. Sullivan keeps a running tally of how many states are using electronic recordings; see www.nacdl.org/electronicrecordingproject. However, further research has shown that the camera angle can bias observers’ judgments, especially if the camera is focused exclusively on the suspect and does not include the interviewer. G. Daniel Lassiter et al., «Videotaped Interrogations and Confessions: A Simple Change in Camera Perspective Alters Verdicts in Simulated Trials I *Journal of Applied Psychology* 87 (2002): 867-74.

57. Thomas P. Sullivan, «Police Experiences with Recording Custodial Interrogations,” 2004.

نُشرت هذه الدراسة -مع مراجع مستفيضة حول فوائد التسجيلات- في:

<http://www.law.northwestern.edu/wrongfulconvictions/Causes/custodialInterrogations.html>

يحتفظ سوليفان بإحصاء يُحدَّث باستمرار لعدد الولايات التي تستخدم التسجيلات الإلكترونية. انظر:

www.nacdl.org/electronicrecordingproject.

ومع ذلك، فقد أظهرت الأبحاث الإضافية أن زاوية الكاميرا يمكن أن تنحاز إلى أحكام المراقبين، خاصة إذا كانت الكاميرا تركز حصرياً على المشتبه به ولا تشمل المُحاور.

G. Daniel Lassiter et al., «Videotaped Interrogations and Confessions: A Simple Change in Camera Perspective Alters Verdicts in Simulated Trials», *Journal of Applied Psychology* 87 (2002): 867-74.

58. Gisli H. Gudjonsson and John Pearse, «Suspect Interviews and False Confessions,” *Current Directions in Psychological Science* 20 (2011): 33-37.

59. Davis and Leo, «Strategies for Preventing False Confessions,” 145.

60. Moore and Fitzsimmons, «Justice Imperiled,” 542.

61. Douglas Starr, «The Interview», *New Yorker*, December 9, 2013, 42-49.

الاعتباس في صفحة ٤٩. يُنهي ستار مقالته بقصة داريل باركر، الذي أدلى باعتراف كاذب لجون ريد في عام ١٩٥٥ اتفقت المحاكم لاحقاً على أنه قد أكره عليه، وفي عام ٢٠١٢، اعتذر المدعي العام لولاية نبراسكا علناً لباركر -الذي كان يبلغ من العمر ثمانين عاماً- وعرض عليه ٥٠٠ ألف دولار كتعويض، وقال: «نحن اليوم نصحح الخطأ الذي ارتكَب في حق داريل باركر منذ أكثر من خمسين عاماً، الذي اعترف -في ظل ظروف قسرية- بجريمة لم يرتكبها»، وعلى حد علمنا لم يناقش جون ريد قط -ناهيك الاعتذار عن- دوره في اعتراف باركر الكاذب.

62. Thomas Vanes, «Let DNA Close Door on Doubt in Murder Cases,” *Los*

٦- قاتل الحب: تبرير الذات في الزواج

1. John Butler Yeats to his son William, November 5, 1917, in Letters to W. B. Yeats, eds. Richard J. Finneran, George M. Harper, and William M. Murphy, vol. 1 (New York: Columbia University Press, 1977), 338.
2. Andrew Christensen and Neil S. Jacobson, Reconcilable Differences (New York: Guilford, 1000).

أخذنا مقتطفات من قصة ديرا وفرانك في بداية الفصل ١ ، ولا تزال هذه القصة موجودة في الطبعة الثانية المحدثّة للكتاب، بقلم أندرو كريستنسن وبريان دي دوس ونيل إس جاكوبسون، التي نُشرت في عام ٢٠١٤.

3. See Neil S. Jacobson and Andrew Christensen, Acceptance and Change in Couple Therapy: A Therapist's Guide to Transforming Relationships (New York: W. W. Norton, 1998).
4. Christensen and Jacobson, Reconcilable Difference:, 9.

٥. هناك مجموعة كبيرة جدًا من الأبحاث حول الطريقة التي تؤثر بها نغوت أحد الزوجين للآخر على مشاعرهما تجاه بعضهما ومسار زواجهما. انظر:

Adam Davey et al., «Attributions in Marriage: Examining the Entailment Model in Dyadic Context», Journal of Family Psychology 15 (2001) 721-34; Thomas N. Bradbury and Frank D. Fincham, «Attributions and Behavior in Marital Interaction», Journal of Personality and Social Psychology 63 (1992): 613-28; and Benjamin R. Karney and Thomas N. Bradbury, «Attributions in Marriage: State or Trait? A Growth Curve Analysis», Journal of Personality and Social Psychology 78 (2000): 295-309.

6. June P. Tangney, «Relation of Shame and Guilt to Constructive versus Destructive Responses to Anger Across the Lifespan», Journal of Personality and Social Psychology 70 (1996): 797-809.
7. John Gottman, Why Marriages Succeed or Fail (New York: Simon and Schuster, 1994). Fred and Ingrid are on page 69.

8. Benjamin R. Karney and Thomas N. Bradbury, «The Longitudinal Course of Marital Quality and Stability: A Review of Theory, Method, and Research», *Psychological Bulletin* 118 (1995): 3-34; and Frank D. Fincham, Gordon T. Harold, and Susan Gano-Phillips, «The Longitudinal Relation between Attributions and Marital Satisfaction: Direction of Effects and Role of Efficacy «Expectations'», *Journal of Family Psychology* 14 (2000): 267-85.
9. Gottman, *Why Marriages Succeed or Fail*, 57.
10. Quoted in Ayala M. Pines, «Marriage,» in *Every-Womans Emotional Well-Being*, ed. C. Tavis (New York: Doubleday, 1986), 190-91.
11. Julie Schwartz Gottman, ed., *The Marriage Clinic Casebook* (New York: W. W. Norton, 2004), 50.
12. Gottman, *Why Marriages Succeed or Fail*, 127, 128.
13. Donald T. Saposnek and Chip Rose, «The Psychology of Divorce,» in *Handbook of Financial Planning for Divorce and Separation*, eds. D. L. Crumley and N. G. Apostolou (New York: John Wiley, 1990).

مقالتهم متاحة على الإنترنت في:

<http://www.mediate.com/articles/saporo.cfm>.

للحصول على دراسة كلاسيكية للطرائق التي يعيد بها الأزواج بناء ذكرياتهم عن

زواجهم وعن بعضهم، انظر:

Janet R. Johnston and Linda E. Campbell, *Impasses of Divorce: The Dynamics and Resolution of Family Conflict* (New York: Free Press, 1988).

14. Jacobson and Christensen, *Acceptance and Change in Couple Therapy*,

يناقش أساليب جديدة لمساعدة الشركاء على قبول بعضهم لبعض بدلاً من محاولة

كل منهم تغيير الآخر دائماً.

15. Vivian Gornick, «What Independence Has Come to Mean to Me: The Pain of Solitude, the Pleasure of Self-Knowledge» in *The Bitch in the House*, ed. Cathi Hanauer (New York: William Morrow, 2002), 259.

٧- الجروح والصدوع والحروب

١. يعتمد تصويرنا لهذين الزوجين على قصة جو وماري لويز في كتاب:
Andrew Christensen and Neil S. Jacobson, *Reconcilable Differences*
(New York: Guilford, 2000), 290.
٢. قصة معركة عائلة شيافو مستمدة من التقارير الإخبارية والتقارير المتعمقة الواردة في تحقيق:
Abby Goodnough, «Behind Life-and-Death Fight, a Rift that Began Years Ago» *New York Times*, March 26, 2005.
3. Sukhwinder S. Shergill et al., «Two Eyes for an Eye: The Neuroscience of Force Escalation», *Science* 301 (July 11, 2003): 187.
4. Roy R Baumeister, Arlene Stillwell, and Sara R. Wotman, «Victim and Perpetrator Accounts of Interpersonal Conflict: Autobiographical Narratives about Anger», *Journal of Personality and Social Psychology* 59 (1990): 994-1005.
- الأمثلة النوعية للملاحظات تعود إلينا وليس إلى الباحثين.
5. Timothy Carton Ash, «Europe's Bloody Hands», *Los Angeles Times*, July 27, 2006.
6. Luc Sante, «Tourists and Torturers», *New York Times*, May 11, 2004.
7. Amos Oz, «The Devil in the Details», *Los Angeles Times*, October 10, 2005.
8. Riccardo Orizio, *Talk of the Devil: Encounters with Seven Dictators* (New York: Walker and Company, 2003).
9. Louis Menand, «The Devil's Disciples: Can You force People to Love freedom?», *New Yorker*, July 28, 2003.
10. Keith Davis and Edward E. Jones, «Changes in Interpersonal Perception as a Means of Reducing Cognitive Dissonance,» *Journal of Abnormal and Social Psychology* 61 (1960): 402-10; see also Frederick X. Gibbons and Sue B. McCoy, «Self-Esteem, Similarity, and Reactions to Active versus Passive Downward Comparison» *Journal of Personality*

and Social Psychology 60 (1961): 414-24.

١١. نعم، لقد قالها بالفعل، انظر:

Derrick Z. Jackson, «The Westmoreland Mind-Set» Boston Globe, July 20, 2005.

أدلى ويستمورلاند بهذه الملاحظات في الفيلم الوثائقي «قلوب وعقول» عن فيتنام الصادر عام ١٩٧٤، ووفقاً لجاكسون «أذهل الاقتباس المخرج بيتر ديفيس لدرجة أنه أعطى ويستمورلاند فرصة لتنقيحه»، إلا أنه لم يفعل.

12. Ellen Berscheid, David Boye, and Elaine Walster, «Retaliation as a Means of Restoring Equity» Journal of Personality and Social Psychology 10 (1968): 370-76.

13. Stanley Milgram, Obedience to Authority (New York: Harper and Row, 1974), 10.

14. On demonizing the perpetrator as a way of restoring consonance and maintaining a belief that the world is just, see John H. Ellard et al., «Just World Processes in Demonizing» in The Justice Motive in Everyday Life, eds. M. Ross and D. T. Miller (New York: Cambridge University Press, 2002).

15. John Conroy, Unspeakable Acts, Ordinary People (New York: Knopf, 1000), 112.

١٦. في ٩ ديسمبر ٢٠١٤، أصدرت لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ لائحة اتهام شاملة لبرنامج وكالة الاستخبارات المركزية لاحتجاز واستجواب وتعذيب المشتبهين بالإرهاب.

17. Cheney appeared on Meet the Press on December 14, 2014, <http://www.nbcnews.com/meet-the-press/meet-press-transcript-december-14-2014-0268181> See also Paul Waldman, «Why It Matters That Dick Cheney Still Can't Define Torture,» Washington Post, December 15, 2014.

١٨. أدلى بوش بتصريحه في ٧ نوفمبر ٢٠٠٥، بعد أن تم الكشف عن أنباء عن احتجاز المعتقلين في «سجون سرية للإرهاب» والانتهاكات في سجن أبي غريب، وقد أدلى إنهوف بتصريحاته في ١١ مايو ٢٠٠٤، خلال جلسات استماع لجنة القوات

المسلحة بمجلس الشيوخ بشأن انتهاكات السجناء العراقيين في سجن أبي غريب، وفي فبراير ٢٠٠٤، أصدرت اللجنة الدولية للصليب الأحمر نتائج «تقرير اللجنة الدولية للصليب الأحمر بشأن معاملة قوات التحالف لأسرى الحرب وغيرهم من الأشخاص المحميين بموجب اتفاقيات جنيف في العراق في أثناء الاعتقال والاحتجاز والاستجواب»، وهذه الوثيقة متاحة على موقع:

http://www.globalsecurity.org/military/library/report/2004/icrc_report_iraq_feb2004.htm.

وتحت #١ - «العلاج في أثناء الاعتقال» - انظر النقطة ٧: «قال بعض ضباط المخابرات العسكرية في قوات التحالف للجنة الدولية للصليب الأحمر إن ما بين ٧٠٪ و ٩٠٪ من الأشخاص المحرومين من حريتهم في العراق قد اعتُقلوا عن طريق الخطأ».

19. Charles Krauthammer made the case for the limited use of torture in «The Truth about Torture: It's Time to Be Honest About Doing Terrible Things,” Weekly Standard, December 5, 2005.

٢٠. افتتاحية صحيفة نيويورك تايمز، ١٠ ديسمبر ٢٠٠٥، تعليقاً على قضية ابن الشيخ الليبي، القيادي السابق في تنظيم القاعدة الذي اعتقلته القوات الأمريكية في باكستان وأرسلته إلى مصر «للاستجواب»، وأعادته المصريون إلى السلطات الأمريكية بعد أن اعترف أخيراً بأن أعضاء القاعدة تلقوا تدريباً على الأسلحة الكيميائية في العراق، وهي معلومات أراد الأمريكيون سماعها، ولكن في وقت لاحق قال الليبي إنه اختلق القصة لاسترضاء المصريين الذين كانوا يعذبونه بموافقة أمريكية.

٢١. تصريحات كوندوليزا رايس في قاعدة أندروز الجوية، ٥ ديسمبر ٢٠٠٥، في أثناء مغادرتها في زيارة رسمية إلى أوروبا.

22. William Schulz, «An Israeli Interrogator, and a Tale of Torture” letter to the New York Times, December 27, 2004.

٢٣. رقيب مجهول بصف التعامل مع المحتجزين في العراق في تقرير لمنظمة هيومن رايتس ووتش، سبتمبر ٢٠٠٥. أعيد طبعه مع تعليقات أخرى في:

“Under Control”, Harper’s, December 2005, 23-24.

24. For poll numbers, see the Pew Research center website,

<http://www.people-press.org/1014/11/15/about-half-see-cia-interrogation-methods-as-justified/>

For a Pew Center review of the polls, see

<http://www.pewresearch.org/fact-tank/1014/11/09/americans-views-on-use-of-torture-in-fighting-terrorism-have-been-mixed/>

25. Quoted in Jane Mayer, «Torture and the Truth», New Yorker, December 22 and 29, 2014, 43-44. See also Antonio M. Taguba, «Stop the CIA Spin on Torture», New York Times, August 6, 2014.

في عام ٢٠٠٤، أُرسِل اللواء تاجوبا للتحقيق في انتهاكات سجن أبي غريب، وقد أُبلغ عن مشكلات منهجية للأعمال الإجرامية، قائلاً: «وثقت نتائج تقرير ي-الذي أدى إلى عقد جلسة استماع للجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ- مشكلة منهجية، وهي: ارتكاب أفراد الجيش «عديداً من الحوادث السادية والصارخة والوحشية للانتهاكات الإجرامية»، وأدى التقرير إلى ملاحظات قضائية، وإصلاح ضوابط الاستجواب والاحتجاز، وتحسين التدريب، إلا أن «طريق الجيش إلى المحاسبة كان طويلاً، ورحب قاده بالكاد بالرقابة»، وفي عام ٢٠٠٧ طُلب منه الاستقالة.

٢٦. بيان السناتور ماكين متاح على موقعه على الإنترنت:

<http://www.mccain.senate.gov/public/index.cfm/1014/11/floor-statement-by-sen-mccain-on-senate-intelligence-committee-report-oncia-interrogation-methods>.

27. Christensen and Jacobson, Reconcilable Differences, 191.

٢٨. للحصول على تحليل تأملي للتكاليف الاجتماعية والشخصية للمغفرة غير المحمصة والمبكرة، والسماح للجنة بالإفلات من ورطة المسؤولية والمساءلة عن الضرر الذي تسببوا فيه، انظر:

Sharon Lamb, The Trouble with Blame: Victims, Perpetrators, and Responsibility (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1996).

29. Solomon Schimmel, Wounds Not Healed by Time: The Power of Repentance and Forgiveness (Oxford, England: Oxford University Press, 2002), 226.

كان عالم النفس إرفين ستوب -وهو نفسه أحد الناجين من المحرقة- يدرُس أصول وديناميات الإبادة الجماعية لسنوات عديدة وكرس نفسه لمشروع المصالحة بين

التوتسي والهوتو في رواندا، انظر:

Ervin Staub and Laurie A. Pearlman, «Advancing Healing and Reconciliation in Rwanda and Other Postconflict Settings» in Psychological Interventions in Times of Crisis, eds. L. Barbanel and R. Sternberg (New York: Springer-Verlag, 2006); and Daniel Goleman, Social Intelligence (New York: Bantam Books, 2006).

٣٠. روى برويلز هذه القصة في فيلم وثائقي صدر في ٢٧ مايو ١٩٨٧ على محطة خدمة الإذاعة العامة باسم خطوات العدو، استناداً إلى كتاب بنفس العنوان من تأليف سام كين.

٨- إطلاق العنان والاعتراف بارتكاب أخطاء

1. Wyne Klug et al., «The Burden of Combat: Cognitive Dissonance in Iraq War Veterans,” in Treating Young Veterans, eds. Diann C. Kelly et al. (New York: Springer, 2011), 33-80.
2. Dexter Filkins, «Atonement: A Troubled Iraq Veteran Seeks Out the Family He Harmed,” New Yorker, October 29 and November 5, 2012, 92-103.
3. Nell Greenfieldboyce, «Wayne Hale’s Insider’s Guide to NASA,” NPR Morning Edition, June 30, 2006.
4. Jennifer K. Robbennolt, «Apologies and Settlement Levers,” Journal of Empirical Legal Studies 3 (2008): 333-73.
5. Cass Sunstein, «In Politics, Apologies Are for Losers,” New York Times, July 27, 2019,
<https://www.nytimes.com/2019/07/27/opinion/sunday/when-should-a-politician-apologize.html>.

٦. أتنن رونالد ريجان لغة الاعتذار دون جوهرها في رده على فضيحة إيران كونترا في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، حيث رتب مسؤولو الإدارة سرّاً بيعاً غير قانوني للأسلحة إلى إيران واستخدموا الأموال لتمويل الكونترا في نيكاراغوا، وقد بدأ دفاع ريجان بشكل جيد، «أولاً، اسمحوا لي أن أقول إنني أتحمّل المسؤولية

الكاملة عن أفعالي وعن أفعال إدارتي»، ولكنه أضاف بعد ذلك سلسلة من «لكنهم فعلوا ذلك»: «بقدر ما قد أكون غاضبًا من الأنشطة التي قمت بها من دون علمي، ما زلت مسؤولًا عن تلك الأنشطة. بقدر ما قد أشعر بخيبة أمل في بعض الذين خدموني، إلا أنني ما زلت الشخص الذي يجب أن يحاسبه الشعب الأمريكي على هذا السلوك، وقد وُجدت حسابات مصرفية سرية وأموال محولة -وكما تقول البحرية- حدث هذا في أثناء وجودي في السلطة»، وكانت هذه هي الطريقة التي تحمل بها «المسؤولية الكاملة» عن خرق القانون: «قبل بضعة أشهر أخبرت الشعب الأمريكي أنني لا أقايض الرهائن بالأسلحة، ولا يزال قلبي وأفضل نبأتي يخبراني أن هذا صحيح، ولكن الحقائق والأدلة تخبرني أنه ليس كذلك».

7. Lisa Leopold, The Conversation, February 8, 2019,

<https://theconversation.com/how-to-say-im-sorry-whether-youve-appeared-in-a-racist-photo-harassed-women-or-just-plain-screwed-up-107678>.

8. Daniel Yankelovich and Isabella Furth, «The Role of Colleges in an Era of Mistrust,” Chronicle of Higher Education (September 16, 2005): B8-B11.

٩. نُشر على الموقع الإلكتروني لمجموعة مناصرة تسمى «كلمة آسف تساعد»، وهي ائتلاف من الأطباء ومديري المستشفيات وشركات التأمين والمرضى وغيرهم من المعنيين بأزمة سوء الممارسة الطبية. انظر أيضًا:

Katherine Mangan, «Acting Sick,” Chronicle of Higher Education (September 15, 2006), and Robbennolt, «Apologies and Settlement Levers”.

10. Atul Gawande, Being Mortal (New York: Henry Holt, 2014). See also «The Problem of Hubris,” the third of his fourth 2014 Reith lectures recorded on BBC4:

<http://www.bbc.co.uk/programmes/articles/6F2X8TpsxrJpnsq8zhggH/dr-atul-gawande-2014-reith-lectures>.

11. Richard A. Friedman, «Learning Words They Rarely Teach in Medical School: ‘I’m Sorry”,” New York Times, July 26, 2005.

12. Warren G. Bennis and Burt Nanus, Leaders: Strategies for Taking

- Charge, rev. ed. (New York: HarperCollins, 1995), 70.
13. Atul Gawande, *The Checklist Manifesto: How to Get Things Right* (New York: Henry Holt, 2009).
 14. Harmful Error: Investigating America's Local Prosecutors, Center for Public Integrity (Summer 2003), <http://www.publicintegrity.org>.
 15. Meytal Nasie et al., «Overcoming the Barrier of Narrative Adherence in Conflicts Through Awareness of the Psychological Bias of Naive Realism» *Personality and Social Psychology Bulletin* 40 (2014): 1543-56.
 16. Quoted in Dennis Prager's *Ultimate Issues* (Summer 1985): 11.
 17. Joe Coscarelli, «Michael Jackson Fans Are Tenacious. 'Leaving Neverland' Has Them Poised for Batde,» *New York Times*, March 4, 2019,
<https://www.nytimes.com/2019/03/04/arts/music/michael-jackson-leaving-neverland-fans.html?searchResultPosition=2>.
 18. Amanda Petrusich, «A Day of Reckoning for Michael Jackson with 'Leaving Neverland'», *New Yorker*, March 1, 2019.
 19. Margo Jefferson, introduction to new edition of *On Michael Jackson* (New York: Penguin, 2019).
 20. Anthony Pratkanis and Doug Shadel, *Weapons of Fraud: A Source Book for Fraud Fighters* (Seatle, WA: AARP, 2005).
 21. Stigler recalled this story in an obituary for Harold Stevenson, the *Los Angeles Times*, July 22, 2005. For their research, see Harold W. Stevenson and James W. Stigler, *The Learning Gap* (New York: Summit, 1992); and Harold W. Stevenson, Chuansheng Chen, and Shin-ying Lee, «Mathematics Achievement of Chinese, Japanese, and American Schoolchildren: Ten Years Later,» *Science* 259 (January 1, 1993): 53-58-
 22. Carol S. Dweck, «The Study of Goals in Psychology,» *Psychological Science* 3 (1992): 165-67; Claudia M. Mueller and Carol S. Dweck, «Praise for Intelligence Can Undermine Children's Motivation and Performance», *Journal of Personality and Social Psychology* 75 (1998): 33-52-

٢٣. أوضح هامبتون ستيفنز هذه النقطة أيضًا. وكتب: «الاعتقاد بأن فيتزجيرالد -من بين جميع الناس- لم يعتقد أن الأمريكيين يمكنهم إعادة اختراع أنفسهم، هي مثل الاعتقاد أن تولستوي لم يؤمن بالثلج». انظر:

“Why Tiger Woods Isn’t Getting a ‘Second Act’”, Atlantic, April 2010.

24. Laura A. King and Joshua A. Hicks, «Whatever Happened to ‘What Might Have Been’ ? Regrets, Happiness, and Maturity,” American Psychologist 62 (2007): 625-36.

25. Matt Richtel, «A Texting Driver’s Education,” New York Times, September 13, 2014. Richtel is also the author of A Deadly Wandering: A Tale of Tragedy and Redemption in the Age of Attention (New York: William Morrow, 2014). As of 2019, Reggie Shaw’s website still lists his lectures, volunteering, and other work to promote driving safety.

26. Eric Fair, «I Can’t Be Forgiven for Abu Ghraib,” New York Times, December 10, 2014.

27. Tina Nguyen, «Fox’s Andrea Tantaros Dismisses Torture Report Because Because ‘America Is Awesome’”, December 9, 2014,

<http://www.mediaite.com/tv/foxs-andrea-tantaros-dismisses-torture-report-because-america-isawesome/>

28. Quoted in Charles Baxter, «Dysfunctional Narratives, or: ‘Mistakes Were Made,’” in Burning Down the House: Essays on Fiction (Saint Paul, MN: Graywolf Press, 1997), 5.

هناك بعض الخلاف حول الجملة الثانية من تصريحات لي، ولكن ليس حول تحمله المسؤولية عن النتائج الكارثية لقراراته العسكرية.

29. Daniel Bolger, «Why We Lost in Iraq and Afghanistan”, Harper’s, September 2014, 63-65.

٣٠. وثيقة أيزنهاور المكتوبة بخط اليد متاحة على:

<http://www.archives.gov/education/lessons/d-day>.

انظر أيضًا:

Michael Korda, Ike: An American Hero (New York: Harper Collins, 2007).

في برنامج تشارلي إيكاف في ١٦ نوفمبر ٢٠٠٧، قال كوردا عن أيزنهاور: «عندما

سارت الأمور على ما يرام، أشاد بمرؤوسيه وتأكد من حصولهم على الثناء، وعندما ساءت الأمور تحمل اللوم، ولم يفعل ذلك كثير من الرؤساء، وعدد قليل جداً من الجنرالات».

٩ - التنافر والديمقراطية والديماغوجي

1. David I. Kertzer, The Pope and Mussolini: The Secret History of Pius XI and the Rise of Fascism in Europe (New York: Random House, 2014).
2. Ibid., 29.
3. Ibid., 56.
4. Peter Eisner, The Pope's Last Crusade: How an American Jesuit Helped Pope Pius XI's Campaign to Stop Hitler (New York: William Morrow, 2013), 51.
5. <https://www.nbcnews.com/think/opinion/trump-s-presidency-was-made-possible-historical-demagogues-joe-mccarthy-ncna8i7981>.
6. Peter Baker and Michael D. Shear, «El Paso Shooting Suspect's Manifesto Echoes Trump's Language» New York Times, August 4, 2019. Other reporters and organizations have been keeping track of the «Trump supporters, fans, and sympathizers [who] have beaten, shot, stabbed, run over, and bombed their fellow Americans... while aping the president's violent rhetoric»; see <https://theintercept.com/2018/10/27/here-is-a-list-of-far-right-attackers-trump-inspired-cesar-sayoc-wasnt-the-first-and-wont-be-the-last/>
7. <https://qz.com/1307928/fire-and-fury-author-michael-wolff-breaks-down-donald-trumps-sales-tactics/>
8. Emily Ekins, «The Five Types of Trump Voters: Who They Are and What They Believe,» Research Report from the Democracy Fund Voter Study Group, Pew Research Center, June 19, 2017.
9. <https://www.washingtonpost.com/opinions/ari-fleischer-heres-how-i-figured-out-whom-to-vote-for/2016/11/04/7bcee1ec-a1fd-11e6-8d63->

3e0a660f1f04story.html?utmterm=.1a26e9d00616.

See also Isaac Chotiner, «Ari Fleischer on Why Former Republican Critics of Trump Now Embrace Him,” New Yorker, July 9, 2019.

10. See <https://www.businessinsider.com/trump-cruz-feud-history-worst-attacks-2016-9#trump-the-state-of-iowa-should-disqualify-ted-cruz-from-the-most-recent-election-on-the-basis-that-he-cheated-atotal-fraud-11> Cruz’s quote about holding Mussolini’s jacket is from Tim Alberta, *American Carnage: On the Front Lines of the Republican Civil War and the Rise of President Trump* (New York: Harper, 2019). See also

https://ishingtonpost.com/pohtics/new-book-details-how-republican-leaders-learned-to-stop-worrying-and-love-trump/2019/07/10/be75eff8-a27d-ne9-b7b4-95e30869bd15_story.html.

11. Lindsey Graham, CNN interview, December 8, 2015, <https://www.mcclatchydc.com/news/politics-government/election/article62680527Jitml#storylink=cpy>.
12. Jonathan Freedland, «Anti-Vaxxers, the Momo Challenge... Why Lies Spread Faster Than Facts,” Guardian, March 8, 2019, https://www.theguardian.com/books/20i9/mar/o8/anti-vaxxers-the-momo-challenge-why-lies-spread-faster-than-facts?CMP=share_btn_link.
13. Zachary Jonathan Jacobson, «Many Are Worried About the Return of the ‘Big Lie.’ They’re Worried About the Wrong Thing”, Washington Post, May 21, 2018.
14. Aaron Rupa, «Trump’s Bizarre ‘Tim/Apple’ Tweet Is a Reminder the President Refuses to Own Tiny Mistakes,” Vox, March 11, 2019.
15. Glenn Kessler, Salvador Rizzo, and Meg Kelly, «President Trump Has Made 15,413 False or Misleading Claims Over 1,055 Days,” Washington Post, December 16, 2019, <https://www.washingtonpost.com/politics/2019/12/16/president-trump-has-made-false-or-misleading-claims-over-days/?smid=nytcore-ios-share>.

١٦. في تجمع سيئ السمعة في ١٨ يوليو ٢٠١٩ - حيث شن هجوماً على عمر - بدأ مؤيدوه في الهتاف: «أعيدوها!»، فوقف ترامب على منصته، مستوعباً هتافهم بشكل سلمي لمدة ثلاث عشرة ثانية كاملة، قبل أن يمضي قدماً، ومع ذلك عندما تعرض لانتقادات في وقت لاحق لعدم إيقافه استنكاف الغوغاء المسيء، قال إنه «لا يتفق مع ذلك»، ولكن لم يكن هناك شيء يمكنه أن يفعله، لذلك «بدأت أتحديث بسرعة كبيرة»، ولكن شريط الفيديو يُظهر أنه لم يفعل ذلك.

17. Justin Baragona, «Fox Business Host Stuart Varney Tells Joe 'Walsh: Trump Has Never Lied», Daily Beast, August 30, 2019.

18. The list of people who had resigned or been fired as of June 1019 can be found at <https://www.businessinsider.com/who-has-trump-fired-so-far-jaines-coincy-scan-spicer-inichael-lynn-2017-7>.

19. See <https://qz.com/1267508/all-the-people-close-to-donald-trump-who-called-him-an-idiot/>; Annalisa Merelli and Max de Haldevang, «All the Ways Trump's Closest Confidants Insult His Intelligence», Quartz, May 2, 2018.

٢٠. منذ بداية رئاسة ترامب تم التشكيك في استقراره العقلي، وتحديدًا نرجسيته وجنون عظمته وانفصاله عن الواقع وسلوكه غير المنتظم وغضبه. انظر: George T. Conway III, «Unfit for Office», Atlantic, October 3, 2019.

21. Anonymous, «I Am Part of the Resistance Inside the Trump Administration», New York Times, September 5, 2018.

22. Eric Levitz, «Mueller Report Confirms Trump Runs the White House Like It's the Mafia», New York, April 18, 2019. See also Jonathan Chait, «Trump Wants to Ban Flipping Because He Is Almost Literally a Mob Boss» New York, August 23, 2018.

23. Kevin Liptak, «Trump Says Longstanding Legal Practice of Flipping 'Almost Ought to Be Illegal,'» CNN, August 23, 2018, <https://www.cnn.com/2018/08/23/politics/trump-flipping-outlawed/indexhtml>.

24. Isaac Chotiner, «Ari Fleischer on Why Former Republican Critics of Trump Now Embrace Him», New Yorker, July 9, 2019.

25. Lisa Lerer and Elizabeth Dias, «Israel's Alliance with Trump Creates New derisions Among American Jews,” New York Times, August 17, 2019, <https://www.nytimes.com/2019/08/17/us/politics/trump-israel-jews.html>.
 26. Peter Wehner, «What I've Gained by Leaving the Republican Party” Atlantic, February 6, 2019, <https://www.theatlantic.com/ideas/archive/2019/02/i-left-gop-because-trump/581965/>
 27. Stephanie Denning, «Why Won't the Trump Administration Admit a Mistake?”, Forbes, March 17, 2018.
 28. Greg Weiner, «The Trump Fallacy,” New York Times, July 1, 2019.
 29. James Comey, «How Trump Co-Opts Leaders Like Barr,” New York Times, May 1, 2019. Comey tells of his disgust at Barr's «Congratulations, Mr. President” remark.
 30. Jamelle Bouie, «The Joy of Hatred,” New York Times, July 19, 2019, <https://www.nytimes.com/2019/07/19/opinion/trump-rally.html>.
 31. Adam Gopnik, «Europe and America Seventy-Five years after D-Day,” New Yorker, June 6, 2019.
- كما كتب جوبنيك، فإن الشيء الوحيد الأكثر إثارة للقلق من هجوم ترامب على مبادئ وممارسات الديمقراطية الليبرالية هو «السهولة التي تم بها تطبيع أفعاله والتعامل معها على أنها غريبة الأطوار بدلاً من اعتبارها إهانة للقيم الديمقراطية الليبرالية التي، على الرغم من كل تفاهتها الظاهرة، فالمبادئ مبنية من عديد من الطوب، وفقدان حتى واحد يضعف الكل».
32. Peter Nicholas, «It Makes Us Want to Support Him More,” Atlantic, July 18, 2019.
 33. Julie Hirschfeld Davis and Katie Rogers, «At Trump Rallies, Women See a Hero Protecting Their Way of Life,” New York Times, November 3, 2018.
 34. Ashley Jardina, interview by Chauncey DeVega, Salon, July 17, 2019, <https://www.salon.com/2019/07/17/author-of-white-identity-politics-we-really-need-to-start-worrying-as-a-country/>.

See also Ashley Jardina, *White Identity Politics* (Cambridge: Cambridge University Press, 2019).

35. See https://www.theatlantic.com/politics/archive/2019/10/trump-white-evangelical-impeachment/600376/?utm_source=ad&utm_medium=email&utm_campaign=share.

36. See <https://www.minnpost.com/eric-black-ink/2016/06/donald-trump-s-breathhtaking-self-admiration/>

37. Hemant Mehta, «Contradicting Herself, Christian Says Morality Is Now Optional for a President», *Friendly Atheist*, July 27, 2019;

https://friendlyatheist.patheos.com/2019/07/27/contradicting-herself-christian-says-morality-is-now-optional-for-a-president/?utm_source=dlvr.it&utm_medium=facebook.

38. Susan B. Glasser, «Mike Pompeo, the Secretary of Trump», *New Yorker*, August 26, 2019.

في ٢١ مارس ٢٠١٩، أُجريت مقابلة بومبيو على شبكة البث المسيحية، حيث دُكر بدور إستير في إقناع الملك الفارسي بعدم اتباع خطة هامان الشريرة للقضاء على اليهود، «هل يمكن أن يكون الرئيس ترامب قد ظهر الآن لمثل ذلك الوقت -تماماً مثل الملكة إستير- للمساعدة في إنقاذ الشعب اليهودي من التهديد الإيراني؟»، فأجاب بومبيو: «كمسيحي أعتقد بالتأكيد أن هذا ممكن»، انظر:

https://www.washingtonpost.com/opinions/this-is-trumps-year-of-living-biblically/2019/03/27/e3d00802-50C9-ne9-8d28-f5i49e5a2fda_story.html.

39. https://beta.washingtonpost.com/politics/trump-uttered-what-many-supporters-consider-blasphemy-heres-why-most-will-probably-forgive-him/2019/09/i3/685Cobce-d64f-ne9-9343-4odb57cf6abd_story.html.

40. Allen and Reed both quoted in Tom McCarthy, «Faith and Freedoms: Why Evangelicals Profess Unwavering Love for Trump», *Guardian*, July 7, 2019;

https://www.theguardian.com/us-news/2019/jul/07/donald-trump-evangelical-supporters?CMP=share_btn_link

41. Max Boot, *The Corrosion of Conservatism: Why I Left the Right* (New

York: Norton, 2018), xxi, 58.

٤٢. وينر، «ما اكتسبته بترك الحزب الجمهوري»، وماذا استفاد هو؟ «أنا أكثر استعدادًا للاستماع إلى أولئك الذين اعتقدت ذات مرة أنه ليس لديهم كثير ليعلموني»، هذا درس في التنافر لنا جميعًا.

43. Ben Howe, *The Immoral Majority: Why Evangelicals Chose Political Power Over Christian Values* (New York: Broadside, 2019), 170.

44. Laurie Goodstein, “‘This Is Not of God’: When Anti-Trump Evangelicals Confront Their Brethren,” *New York Times*, May 23, 2018.

45. Maria Caffrey, «I’m a Scientist. Under Trump I Lost My Job for Refusing to Hide Climate Crisis Facts,” *Guardian*, July 25, 2019.

٤٦. كتب تشاك بارك مقالاً في صحيفة واشنطن بوست بتاريخ ٨ أغسطس ٢٠١٩ جاء فيه: «لم يعد بإمكانني تبرير كوني جزءاً من «دولة ترامب الراضية عن نفسها»، ولذلك قدمت استقالتي»؛ وكتبت بيثاني ميلتون مقالاً مشابهاً -في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٦ أغسطس ٢٠١٩- تشرح فيه أسباب استقالتها من وزارة الخارجية.

47. Sharon La Franiere, Nicholas Fandos, and Andrew E. Kramer, «Ukraine Envoy Says She Was Told Trump Wanted Her Out Over Lack of Trust,” *New York Times*, October 11, 2019.

48. David Remnick, «Trump Clarification Syndrome,” *New Yorker*, August 23, 2019.

49. Jim Mattis and Bing West, *Call Sign Chaos: Learning to Lead* (New York: Random House, 2019).

